

قاریلیق

لاتقند عصفور اساجرا

روایت

ترجمہ: توفیق الاسدی



0117994



Bibliotheca Alexandrina

صممت الخلاف : ماري كلود صفر
الإشراف الفني : زهير الحموي

لا تقتل عصفوراً سائراً

هاربرجيه

لاتقنك عصفوا ساخرًا
روايق

ترجمة: توفيق الأسدي

منشورات وزارة الثقافة
١٩٨٤
في الجمهورية العربية السورية

المنوان الأصلي للكتاب :

TO KILL
A MOCKING BIRD

BY

HARPER LEE

الاهداء :

إلى السيد « بي » وإلى « آليس »

حُباً وعاطفة

« المحامون ، على ما أعتقد ، كانوا مرة أطفالاً » .

« تشارلز لولام »

ولدت المؤلفة « هاربر لي » في بلدة « مونروفيل » من ولاية ألاباما عام ١٩٢٦ ، ودرست في المدارس العامة المحلية وجامعة ألاباما . وقبل أن تبدأ بالكتابة عملت في قسم الحجز في شركة طيران عالمية . أما اهتماماتها إلى جانب الكتابة فهي لعبة الغولف والموسيقى ، وعلم الاجرام وتجميع مذكرات رجال الدين من القرن التاسع عشر . وهي تعيش في نيويورك الآن .

القسم الأول

الفصل الأول

حين كان أخي « جم » في الثالثة عشرة من عمره ، كسرت ذراعه كسراً خطيراً عند المرفق . وحين شفي وما عاد يخشى من فقدانه المطلق للقدرة على لعب كرة القدم بعد تلك الحادثة ، صار نادراً ما يخرج من أصابته . أصبحت ذراعه اليسرى أقصر نوعاً مامن اليمنى . ولدى الوقوف أو المشي ، أصبح ظاهر يده يشكل زاوية قائمة مع جسده ، واهامه موازياً لفخذيه . ولكنه ما كان ليهم كثيراً طالما أنه يستطيع أن يمرر الكرة ويضربها قبل أن تصل الأرض .

وحين مرّ من السنين ما كان كافياً بلعلنا نعود بأفكارنا إلى تلك الأوقات ، كنا نناقش أحياناً الحوادث التي أدت إلى تلك الواقعة . ففي رأيي أن عائلة « يوويل » هي التي سببت كل ذلك ، ولكن جم الذي يكبرني بأربعة أعوام ، قال ان الأمر بدأ قبل ذلك بزمان طويل . قال ان المسألة بدأت في ذلك الصيف حين زارنا « ديل » ، وحين طرح علينا « ديل » للمرة الأولى فكرة جعل « بورادلي » يخرج من بيته .

قلت أنه لو أراد أن ينظر إلى الموضوع نظرة شاملة ، فإن المسألة

بدأت فعلاً مع « اندرو جاكسون » (١) . فلو أن الجنرال جاكسون لم يطرد « الكريك » (٢) ويجعلهم يهربون باتجاه أعلى النهر ، لما كان « سايمون فينتش » سيجد شاقاً طريقه في نهر ألاباما ، وأين كنا ياترى لولاه ؟ وبما أننا كنا عندها أكبر سنناً من أن نحل خلافنا بقبضة اليد ، فقد استشرنا « أتيكوس » . فقال أبونا إننا كلانا على صواب .

وحيث أننا من سكان الولايات الجنوبية . فقد كان بعض أفراد عائلتنا يشعر بالخجل إذ لم يكن لنا أجداد مسجلة أسماءهم بين المشاركين في أحد طرفي « معركة هاستينغز » (٣) . كل ما كان بحوزتنا هو « سايمون فينتش » الصيدلي الذي عمل في نصب الأفخاخ لحيوانات القراء ، القادم من « دوقية » « كورنول » ، ذو الورع الشديد والبخل الأشد . حين كان في انكلترا ، تضايق سايمون من الاضطهاد الذي تعرض له من كانوا يسمون أنفسهم بـ « الميثوديين » (٤) على يد اخوتهم الأشد ليبرالية منهم ، ولما كان سايمون يسمي نفسه « ميثوديا » ، فقد شق طريقه

-
- (١) (١٧٦٧ - ١٨٤٥) رئيس الولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧) (المترجم)
 (٢) اتحاد (٥٠) قبيلة هندية حمراء من سكان ألاباما الأصليين ، وقد هزمهم « أندرو جاكسون » في « حرب الكريك » (١٨١٣ - ١٨١٤) (المترجم) .
 (٣) معركة هاستينغز Battle of Hastings: المعركة التي حدثت عام ١٠٦٦ بين قوات ويليام الفاتح والسكسونيين في مقاطعة ساسكس في انكلترا (المترجم) .
 (٤) Methodists . أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التي قادها في أكسفورد عام (١٧٢٩) تشارلز وجون ويلزي . محاربين فيها أحياء كنيسة انكلترا . (المترجم) .

عبر الأطلس إلى فيلادلفيا ، ومنها إلى جامايكا ، ومن هناك إلى « موبيل » حتى وصل إلى « سانت ستيفنز » . ولما كان حريصاً على التعاليم المشددة التي نادى بها « جون ويلزي » فيما يخص عدم استعمال كلمات كثيرة لدى البيع والشراء ، فقد جمع ثروة من ممارسة الطب ، ولكنه لم يكن سعيداً في هذه المهنة ، فقد كان يخشى الاغواء الذي يؤدي إلى ارتكاب مالا يرمي إلى تمجيد الله ، كارتداء الحللي الذهبية والملابس الفاخرة . وهكذا قام سايمون ، الذي نسي رأي معلمه فيما يخص امتلاك العبيد من البشر ، بشراء ثلاثة من العبيد ، وأسس بمساعدتهم منزل الأسرة على ضفاف نهر الألاباما على بعد حوالي أربعين ميلاً من « سانت ستيفنز » . ولم يعد إلى « سانت ستيفنز » سوى مرة واحدة ، وذلك بحثاً عن زوجة ، وقد أسس معها ذرية كانت معظمها من البنات : وقد عاش سايمون حتى بلغ من العمر عتياً ومات غنياً .

وكان من عادة رجال الأسرة أن يبقوا في منزل الأسرة ، المسمى « فينتشر لاندبنغ » ، ويعيشوا على زراعة القطن . كان المكان ذا اكتفاء ذاتي ، أي متواضعاً بالمقارنة مع الامبراطوريات المحيطة به ، ولكنه كان ينتج على أية حال كل ما هو مطلوب للحياة عدا الثلج ، ودقيق القمح ، والملابس ، التي كانت تزوده بها الزوارق النهرية القادمة من « موبيل » .

ولو أن سايمون عاش حتى يشهد الحرب بين الشمال والجنوب ، لكان سينظر إليها بعين الغضب العاجز ، حيث أنها عرّت ذريته من كل شيء عدا أرضهم ، ومع ذلك فإن تقليد العيش على تلك الأرض استمر

دون انقطاع حتى القرن العشرين وبعد مرور سنوات عديدة منه ،
أي حتى ذهب أبي واسمه « أتيكوس فينتش » إلى « مونتغمري »
لدراسة القانون ، وذهب أخوه الأصغر إلى « بوسطن » لدراسة الطب .
أما أختهما « ألكسندرا » فكانت هي سليله عائلة « فينتش » التي بقيت
في منزل العائلة « فينتشز لاندنغ » . كانت متزوجة من رجل صموت
ينفق معظم وقته متمسداً في أرجوحة شبكية قرب النهر متسائلاً إن
كانت صنانير صيده قد امتلأت .

وحين امتحن أبي المحاماة ، عاد إلى « مايكوم » وبدأ يمارس هذه
المهنة . وكانت بلدة « مايكوم » هذه التي تبعد حوالي عشرين ميلاً
إلى الشرق من « فينتشز لاندنغ » ، هي حاضرة المقاطعة المسماة باسمها .
وكان مكتب أتيكوس في دار المحكمة لايحوي سوى حامل (شماعة)
للقبعات ، ومبصقة ، ورقعة الداما ، ونسخة غير متسخة من « قانون
ألاباما » . وقد كان أول زبونين له هما آخر شخصين شنقا في سجن
مديرية ألاباما . كان أتيكوس قد حثهما على قبول كرم « الولاية »
التي تسمح لهما بأن يعترفا بارتكاب جريمة من الدرجة الثانية وينجوا
بحياتهما ، ولكنهما كانا من عائلة « هافر فورد » ، وهو اسم مرادف
في مقاطعة مايكوم لكلمة « حمار » . وكان هذان قد قتلا كبير حدادي
مايكوم بسبب سوء تفاهم ناجم عن احتجازه المزعوم وغير الشرعي
لفرس ، وقد كانا طائشين إلى حد أنهما قتلاه في حضور ثلاثة شهود
عيان ، وأصرّا على أن ابن القحبة ذاك كان يستحق أن يموت وأن ذاك

كان دفاعاً كافياً عن أي شخص . وقد أصرا على أنهما « غير مذنبين »
 بارتكاب جريمة من الدرجة الأولى ، ولذا لم يكن ممكناً لأتيكوس أن
 يفعل أي شيء لزبونه إلا أن يكون حاضراً في مناسبة رحيلهما ، وهي
 المناسبة التي كانت على الأرجح ، بداية لكره أبي العميق لمهنة المحاماة
 الجناثية ۞

وخلال سنواته الخمس الأولى في مايكوم ، مارس أتيكوس الاقتصاد
 والتوفير أكثر من أي شيء آخر . وقد استثمر ماكان يكسبه من ذلك
 الحين فصاعداً في تعليم أخيه . كان « جون هابل فينتش » يصغر أبي
 بعشر سنوات ، وقد اختار دراسة الطب في وقت كان فيه القطن لايساوي
 تكاليف زراعته ، ولكن بعد أن بدأ « العم جالك » بالدراسة ، كان
 أتيكوس قد بدأ يحصل على دخل معقول من المحاماة . وقد أحب أبي
 بلدة مايكوم ، فقد ولد فيها وتربى فيها ، وكان يعرف أهلها ، وكانوا
 هم يعرفونه ، وبسبب مهنة سايمون فينتش ، فقد كانت تربط أتيكوس
 بكل عائلة في البلدة تقريباً صلة الدم .

* * *

كانت مايكوم بلدة قديمة ، ولكنها صغيرة . وحين عرفتها أول
 ماعرفتها كانت بلدة عتيقة متعبة . ففي الطقس الماطر تستحيل شوارعها
 إلى وحل أحمر ، وينمو العشب على أرصفة المشاة ، كما يغور مبنى
 المحكمة في الساحة . الطقس في تلك الأيام كان أشد حرارة نوعاً ما ،

وكنت ترى كلباً أسود يعاني من قيظ يوم صيفي ، وبغلاً بارزة العظام مشدودة إلى عربات « هوفر » تهش بأذيالها الذباب في الظل القائط لأشجار السنديان النابضة بالحياة في الساحة . كانت ياقات الرجال المنشاة تتهدل منذ الساعة التاسعة صباحاً ، كما اعتادت السيدات على الاستحمام قبل الظهر ، وبعد قبولة الساعة الثالثة بعد الظهر . ومع حلول الظلام كن يتحولن إلى شيء أشبه بكمكات الشاي الطرية المزركشة بجبات العرق والبودرة المسكرة .

في تلك الأيام اعتاد الناس على السير ببطء . كانوا يسرون الهويى عبر الساحة ، ويدلفون داخلين وخارجين من المخازن التي حولها . متمهلين في كل مايفعلونه . اليوم كان أربعاً وعشرين ساعة أيضاً ، ولكنه كان يبدو أطول . لم تكن هناك حاجة إلى العجلة ، فلا مكان يذهب الناس إليه ، ولا شيء يتناعون ولا مال يبتاعون به ، ولا شيء يُرى خارج حدود مديرية مايكوم . ولكن ذلك العهد كان عهد تفاؤل غامض بالنسبة لبعض الناس : فقد قيل لمديرية مايكوم مؤخراً إنه ليس على سكانها أن يخافوا أي شيء عدا الخوف نفسه .

كنا نعيش في الشارع السكني الرئيسي من البلدة : أتيكوس وجم وأنا ، بالإضافة إلى كالبورنيا طباحتنا . كنا ، أخني وأنا ، نستلطف أبانا : فقد اعتاد أن يلعب معنا ، ويقرأ لنا . ويعاملنا بتجرد دمث .

أما كالبورنيا فكانت شيئاً آخر . كانت نخيلة بارزة العظام ، ضعيفة البصر ، ذات نظرة شرراء ويد كبيرة أشبه بخشبة السرير وأقصى منها

بمرتين . كانت تأمرني دوماً بالخروج من المطبخ ، وتسألني لماذا لا أستطيع أن أكون مؤدبة شأن جم وهي العارفة أنه أكبر سنًا ، وتستدعيني للعودة إلى البيت حين لا أكون جاهزة للعودة . كانت معاركننا ملحمية أحادية الجانب . فقد كانت كالبورنيا هي الراجحة دائماً ، وذلك لأن أتيكوس كان ينحاز إليها دائماً . كانت تعيش معنا منذ أن ولد جم ، وقد أحسست بوجودها الاستبدادي منذ أن وعيت .

ماتت أمنا حين كنت في الثانية ، ولذا لم أفقدها أبداً . كانت من عائلة « غراهام » من بلدة مونتهومري ، وقد عرفها أتيكوس حين انتخب لأول مرة عضواً في برلمان الولاية . كان في منتصف العمر حينها ، وكانت هي تصغره بخمس عشرة سنة . ثم جاء جم كثمررة لأول عام من زواجهما ، وبعد ذلك بأربع سنوات ولدت أنا ، وماتت أمي بعدها بستين من نوبة قلبية مفاجئة . قالوا ان ذلك متوارث في عائلتها . لم أفقدها ، ولكنني اعتقدت أن جم كان يفتقدها ، فقد كان يتذكرها بوضوح . وفي بعض الأحيان ، كان يتنهد فجأة في غمار لعبة تمارسها ، ثم يبتعد ويلعب وحده خلف مرآب السيارة . وحين يكون في مثل هذا المزاج ، كنت أتركه لشأنه .

حين كنت في السادسة تقريباً وكان جم في العاشرة ، كانت حدودنا في العطللة الصيفية (وهي لا تتعدى المسافة التي يصلها صوت كالبورنيا) منزل « السيدة هنري لافاييت دوبوز » الذي يبتعد عن منزلنا قدر مئتين فقط باتجاه الشمال ، أما منزل « آل رادلي » فكان على بعد ثلاثة مبان

إلى الجنوب . ولم نجرب أبداً أن نتخطى هذه الحدود . في منزل آل رادلي سكنت كينونة مجهولة كان مجرد سماع وصف لها كافياً لجعلنا نتصرف بأدب خلال أيام مجالها ، أما السيدة دوبيوز فكانت جحيماً صرفاً . وكان ذلك هو الصيف الذي جاءنا فيه « ديل » .

في أحد الصباحات الباكرة ، وما أن بدأنا لعبنا النهاري في الفناء الخارجي ، سمعنا جم وأنا صوتاً ما في البيت المجاور في الرقعة الصغيرة المزروعة بالملفوف من فناء الآنسة « راشيل هارفورد » . مضينا نحو حاجز الأسلاك الشائكة لنرى ان كان هناك جروماً : كانت كلبة الآنسة راشيل على وشك الوضع ، ولكننا وجدنا بدلاً عن ذلك شخصاً ما يجلس هناك وينظر إلينا . كان لا يبدو وهو جالس أطول كثيراً من نباتات الملفوف . حدقنا فيه حتى تكلم أخيراً فقال :

— مرحباً .

قال له جم بلهجة لطيفة :

— مرحباً بك .

— اسمي تشارلز بيكر هاريس . وأستطيع أن أقرأ .

قلت له :

— وماذا في ذلك ؟

— ظننت أنكم تودون ربما معرفة أنني أقرأ . وإذا كان لديكم

ماحتاجون إلى قراءته ، أستطيع أن أفعل ذلك . . .

سأله جم :

— كم عمرك ؟ أربعة ونصف ؟

— أقرب من الساعة .

قال جم و ، ويشير إلى بابهاة :

— لاعجب إذن ، فأختي « سكاوت » تقرأ منذ أن ولدت ، وهي

حتى لم تذهب إلى المدرسة بعد . تبدو ضئيلاً جداً بالنسبة لعمرك .

قال :

— أنا ضئيل ولكني كبير السن .

رفع جم شعره بيده عن جبينه ليراه على نحو أفضل . ثم قال له :

— لم لآتني إلينا يا تشارلز بيكر هاريس ؟ يالرب ماهذا الاسم ؟

— إنه لا يدعو للضحك أكثر من اسمك . فالحالة راشيل تقول

أن اسمك هو « جيريمي أتيكوس فينتش » .

قطب جم ثم قال :

— حجمي يناسب اسمي . أما اسمك فأطول منك . وأراهن على

أنه أطول منك بمقدار قدم .

قال « ديل » وهو يناضل تحت الحاجز :

— الناس يدعونني « ديل » .

قلت له :

— الأفضل لك أن تقفز من فوقه بدلاً عن أن تزحف من تحته ،
من أين أتيت ؟

كان ديل من بلدة « ميريديان » من الميسيسيبي ، وكان يقضي الصيف مع خالته ، الآنسة راشيل ، وسيقضي كل صيف من الآن فصاعداً في مايكوم . كانت عائلته في الأصل من إقليم مايكوم ، أما أمه فكانت تعمل كمصورة في ميريديان ، كما أنها اشتركت بصورته في مسابقة « أجمل طفل » وكسبت خمسة دولارات . ثم منحت النقود إلى ديل الذي ذهب إلى السينما عشرين مرة بذلك المبلغ .

قال جم :

— ليست لدينا عروض للسينما هنا ، إلا تلك التي تدور حول حياة المسيح والتي تعرض في قاعة المحكمة أحياناً . هل سبق لك ورأيت فيلماً جيداً ؟

كان ديل قد رأى فيلم « دراكيولا » ، وكان ذلك مدعاة لأن ينظر إليه جم ببدايات احترام .

قال له :

— احكه لنا .

كان « ديل » طفلاً غريب الأطوار ، يرتدي بنطالاً قصيراً من الكتان مربوطاً بأزرار إلى قميصه ، وله شعر أبيض بلون الثلج يلتصق برأسه كالزغب الدبق . كان يكبرني بعام واحد ، ولكنني كنت أطول

منه بكثير . وحين راح يحكي لنا الحكاية القديمة كانت عيناه الزرقاوان
تومضان وتظلمان . كانت ضحكته فجائية مرحة ، كما اعتاد أن يشد
خصلة شعر في منتصف جبينه .

وبعد أن حكى ديل كيف مات دراكيولا وقال جم أن الفيلم
يبدو أفضل من الكتاب . سألت ديل عن والده ، قلت له :

— لم تذكره أبداً .

— ليس لي أب .

— هل هو ميت ؟

— لا

— إذن ، إن لم يكن ميتاً ، فلا شك أن لك أباً ، أليس كذلك ؟
احمّر وجه ديل وطلب مني جم أن أسكت ، وهذه علامة على أنه
قد جرت دراسة ديل وأنه تبينّ لحجم أن ديل شخص مقبول . ثم ومنذ
ذلك الحين فصاعداً مرّ الصيف باطمئنان روتيني . وكان ذلك اطمئناناً
روتينياً بالفعل : فقد أدخلنا بعض التحسينات على كوخنا الصغير
الذي كان معلقاً بين شجرتين توأمين عملاقتين من أشجار الأزاررخت
في الفناء الخلفي ، وكنا نتجادل ونمثل لائحة التمثيليات التي كنا نؤلفها
من حكايات « أوليفر أوبتيك » (*) و « فيكتور أبلتون » و « ادغار

(*) اسمه الحقيقي « ويليام تايلور ادامز » (١٨٢٢ - ١٨٩٧) وهو مؤلف حكايات
للأطفال له (١١٦) كتاباً في هذا المضمار (المترجم) .

رايس بوروز » . وقد اعتبرنا نفسينا محظوظين في أن يكون معنا ديل في هذا المضمار ، فقد رضي أن يلعب أدواراً كان جم يدفعني سابقاً بالقوة إلى تمثيلها : كالقردة في « طرزان » و « السيد كرابترى » في « أولاد روفر » ، و « السيد دامون » في « توم سويقت » . وهكذا أصبحنا نعرف ديل على أنه « مرلين » (١) بحجم الجيب ، حيث كان رأسه يعج بخطط عجيبة ، وتشوّفات غريبة وخيالات طريفة .

ولكن مع حلول نهاية آب (أغسطس) أصبحت ذخيرتنا من الدراما مملّة من كثرة ما أعدناها وكررناها ، وحينذاك طرح علينا ديل فكرة جعل « بورادلي » يخرج من بيته .

كان منزل آل رادلي قد ألهم خيال ديل . ورغم تحذيرائنا وتفسيرائنا إلا أن المنزل كان يجذبه إليه كما يجذب القمر مياه البحر ، ولكنه ما كان يتجرأ على الاقتراب إلى أكثر من عمود النور على الزاوية ، وهو يقع على مسافة آمنة من باب منزل آل رادلي . وكان يقف هناك ، وذراعاه حول العمود الثخين ، يحديق ويتساءل .

يقع منزل آل رادلي في نتوء يشكل منعطفاً حاداً إلى ما وراء منزلنا . فإذا ما اتجه المرء جنوباً كان يواجهه رواق ذلك المنزل ، وكان رصيف الشارع يستدير ثم يجاور الرقعة من الأرض التي تتجاوز المنزل . كان

(١) « مرلين » شخصية الساحر الرهيب في أسطورة الملك ارثر . (المترجم) .

المنزل واطناً ، ويبدو أنه كان قد طلي مرة باللون الأبيض ، بينما طلي رواقه الأمامي بلون داكن ومصابيح نوافذه باللون الأخضر ، ولكن ألوانه تحولت منذ زمن بعيد وبفعل مرور السنين إلى لون رمادي بلون ألواح الكتابة وبلون الفناء المحيط به . كانت ألواح خشبية صغيرة تعفنت بفعل المطر تتدلى فوق أفاريز الشرفة ، أما أشجار السنديان فكانت تحجب عنه الشمس ، كما كانت بقايا سياج من الأوتاد لاتزال تحمي الفناء الأمامي على نحو مضمور : وهو فناء مرتد إلى الوراء لم يعرف التنظيف أبداً ، وقد نمت فيه بغزارة أعشاب الجونسون وتبع الأرنب .

وفي داخل المنزل كان يعيش شيخ حاقق يقول عنه الناس إنه موجود ، ولكننا لم نره أبداً لأجم ولا أنا . وكان الناس يقولون إنه يخرج ليلاً حين يكون القمر في وسط السماء ويتلصص على نوافذ الناس . وحين كانت نباتات الأزاليا تتجمد في هجمات البرد المفاجئة ، فقد كان السبب هو أنه تنفس عليها . كما كانت أية جرائم صغيرة ترتكب نخلسة في مايكوم من فعله هو . وقد روت البلدة مرة بسبب سلسلة من الحوادث الليلية المفزعة : كانت دجاجات الناس وحيواناتها المدللة تتعرض للقتل والتشويه ، ورغم أنه عرف مرتكب هذه الحوادث على أنه « آدي المجنون » ، الذي أغرق نفسه فيما بعد في « دوامة باركر » في النهر ، إلا أن الناس كانوا لا يزالون يوجهون أنظارهم إلى منزل آل رادي ، غير راغبين في نبذ شكوكهم الأولى . ماكان أي زنجي يمرؤ على المرور بالقرب من منزل آل رادي في الليل ، بل كان يقطع الطريق نحو الرصيف

المقابل ويصفر بفمه وهو يسير . كانت مدرسة مايكوم تحاذي القسم الخلفي من أرض منزل آل رادلي ، ومن ساحة تربية الدواجن الخاصة بآل رادلي كانت أشجار الجوز الأمريكي تسقط ثمارها إلى فناء المدرسة ، ولكن الأطفال ما كانوا يجرؤون على لمس الجوزات : ان الجوز القادم من أشجار آل رادلي سيقنلك إذا أكلته . كما كانت كرة البيسبول التي تسقط في فناء آل رادلي تعتبر مفقودة ولا مجال لاستردادها .

كان بؤس ذلك المنزل قد بدأ قبل أن ترى عينا جم وعينا النور بسنوات عديدة . كان آل رادلي ، المرحب بهم في أي مكان في البلدة ، من النوع المنعزل من الناس ، وهي نزعة لا يغفرها أهل مايكوم أبداً . فما كان آل رادلي يذهبون إلى الكنيسة ، وهو الاستجمام الرئيسي في مايكوم ، بل كانوا يصلون في البيت ، أما السيدة رادلي فنادراً ما عبرت الشارع لتتناول قهوة استراحة منتصف النهار مع جيرانها ، ولم تشارك - وهذا أكيد - في أية حلقة تبشيرية أبداً . وكان من عادة السيد رادلي أن يسير نحو البلدة في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح كل يوم ويعود من غير إبطاء في الثانية عشرة ، حاملاً في بعض الأحيان كيساً من الورق بني اللون يفترض الجيران أنه يحوي حاجات الأسرة من البقالة . لم أعرف أبداً مصدر دخل السيد رادلي العجوز . قال جم انه « يشتري القطن » وهو مصطلح مهذب يعني أنه لا عمل له ، ولكن السيد رادلي وزوجته كان يعيشان هناك مع ابنيهما منذ فترة طويلة جداً .

في أيام الآحاد كانت تغلق مصاريع نوافذ وأبواب منزل آل رادلي ، وهي عادة غريبة على بلدة مايكوم : فالأبواب المغلقة تعني المرض أو الطقس البارد فقط . ومن يزن كل أيام الأسبوع كان يوم الأحد هو يوم الزيارات الشكلية التي تتم بعد الظهر . إذ كانت النساء ترتدي المشدّات ، ويرتدي الرجال ستراتهم كما يرتدي الأطفال أحذيتهم . ولكن لم يحدث أبداً أن صعد أحد الجيران درجات منزل آل رادلي الأمامية في عصر يوم من أيام الآحاد وقال : « مرحباً » . كان منزل آل رادلي دون أبواب خارجية ذات شريط منخلي ، وقد سألت أتيكوس مرة إن كان لذلك المنزل مثل تلك الأبواب من قبل فأجابني أن نعم ، ولكن قبل أن أولد .

ووفقاً للأسطورة السائدة في الحوار ، فإنه يقال ان الابن الأصغر لآل رادلي تعرّف وهو بعد مراهق على بعض الشبان من آل كانيغهام من بلدة « أولدساروم » ، وهي قبيلة هائلة العدد والفوضى ، تسكن في القسم الشمالي من الاقليم ، وقد شكلت أقرب مايكون إلى العصاة وهو الشيء الذي لم تعرفه مقاطعة مايكوم أبداً . كان مايفعلونه تافهاً ، وان يكن كافياً ليتحول إلى موضوع لأحاديث البلدة وليحدّر منه من على ثلاثة منابر : كان أولئك يتسكعون حول دكان الحلّاق ويركبون الباص إلى « أبوتسفيل » أيام الآحاد ويذهبون إلى دور العرض ، كما كانوا يحضرون حفلات الرقص في نادي القمار الخاص بالمديرية والواقع على شاطئ النهر واسمه : « نزل قطرة النّابى ومعسكر السمك » ،

كما كانوا يحتسون الويسكي المصنوع منزلياً والمحترّم بيعه . لم يجروا
أحد في مايكوم على أن يقول للسيد رادلي إن ابنه كان متورطاً مع
عصابة ضالة .

وفي أحد الليالي ، وفي نوبة من الاهتياج والمرح الشديدين ، قاد
الشبان سيارة صغيرة رخيصة وعتيقة وداروا بها ساحة البلدة ، كما
قاوموا السيد كونر ، وهو مساعد المأمور ، حين أراد القاء القبض
عليهم ، وحبسوه في المرحاض الخارجي لدار المحكمة . وقد قررت
البلدة أنه لا بد من اتخاذ اجراء ما ، وقال السيد كونر إنه كان يعرف
كل واحد منهم وإنه مضطر ومصمم على أن ينالوا العقاب المناسب ،
وهكذا حوكم الشبان من قبل قاضي اشهاد بتهمة التصرف غير اللائق
واقلاق الراحة ، والاعتداء والضرب ، واستعمال ألفاظ نابية بذيئة
في حضور وسماع أنثى . وقد سأل القاضي السيد كونر عن سبب ادراجه
للتهمة الأخيرة ، فقال هذا انهم قد شتموه بصوت عال جداً وإلى حد
أنه متأكد من أن كل سيدة في مايكوم قد سمعتهم . وقد قرر القاضي
ارسال الشبان إلى معهد الولاية المهني ، حيث كان الأولاد يرسلون
إلى هناك أحياناً لا لشيء عدا أن يقدم لهم الطعام والمأوى الجيد : لم يكن
ذلك سجنًا ، كما لم يكن شيئاً معيباً . ولكن السيد رادلي كان يعتقد
ذلك ، فقال إنه لو أطلق القاضي سراح ابنه « آرثر » ، فانه — أي السيد
رادلي — سيكفل ألا يثير ابنه أية مشاكل بعد اليوم . وبما أن القاضي
كان يعرف أن السيد رادلي ينقذ ما يعده ، فقد كان سعيداً بأن يعمل بنصيبه ،

وقد ذهب الشبان الآخرون إلى المدرسة المهنية وتلقوا أفضل تعليم ثانوي في الولاية ، كما أن أحدهم تابع دراسته ودخل معهد الهندسة في « أوبون » . ولكن أغلقت أبواب منزل آل رادلي في أيام الأسبوع كما في يوم الأحد ، ولم ير أحد ابن السيد رادلي مرة أخرى مدة خمسة عشر عاماً .

ثم جاء يوم ، يتذكره جم بصعوبة ، سمع فيه الناس عن « بورادلي » بل وشاهده كثيرون منهم ، ولكن جم لم تتح له هذه الفرصة . قال إن أتيكوس لم يتحدث أبداً بأسهاب حول آل رادلي . وحين كان جم يسأل أتيكوس عن الموضوع ، كان الجواب الوحيد الذي يثقله هو أن يهتم بأموره ويترك آل رادلي وشأنهم ، فذاك حقهم . ولكن حين حدث ماحدث ، قال جم أن أتيكوس هز رأسه وقال : « هم ، هم ، هم » .

وهكذا كان جم يتلقى معظم معلوماته من « الآنسة ستيفاني كروفورد » وهي امرأة من الجيران سليطة اللسان كانت تقول أنها على معرفة بالأمر كله . ووفقاً لرواية الآنسة ستيفاني ، فإن « بو » كان جالساً في غرفة جلوس يقص بعض القصصات من صحيفة « مايكوم تريبيون » ليبلصقها على ألجوم القصصات الخاص به حين دخل أبوه إلى الغرفة . وبينما كان السيد رادلي يمر إلى القرب من ابنه ، قام هذا بطعن أبيه في ساقه بالمقص ثم أخرجه ومسحه ببطالة وعاد إلى عمله .

خرجت السيدة رادلي زاعقة إلى الشارع قائلة ان « آرثر » سيقتلهم

جميعاً ، ولكن حين وصل المأمور وجد أن « بو » كان لا يزال جالساً في غرفة الجلوس يقص من الصحيفة . وكان وقتها في الثالثة والثلاثين من العمر .

قالت الآنسة ستيفاني ان السيد رادلي صرح بأنه لن يسمح لأي فرد من آل رادلي بالذهاب إلى أي ملجأ كان ، وذلك حين قيل له إن قضاء « بو » فترة ما في « توسكالوزا » قد تكون مفيدة له . لم يكن « بو » مجنوناً ، بل كان شديد العصبية أحياناً . كان حبسه في المنزل أمراً مناسباً كما اعترف السيد رادلي ، ولكنه أصر على ألا يتهم « بو » بأي شيء : فهو لم يكن مجرمًا . ولم يكن المأمور ليرضى أن يضعه في السجن جنباً إلى جنب مع الزنوج ، وهكذا حبس « بو » في قبو دار المحكمة .

كانت عملية نقل « بو » من القبو إلى بيته شيئاً ضبابياً في ذاكرة جم . قالت الآنسة ستيفاني كروفورد أن بعض أعضاء مجلس البلدة قالوا للسيد رادلي إنه ان لم يعد « بو » إلى الدار ، فانه سيموت متعفنًا من الرطوبة . وفوق ذلك ، فان « بو » لا يمكنه أن يعيش إلى الأبد على سخاء المقاطعة .

لأحد يعرف أي نوع من التهديد استخدمه السيد رادلي حتى يبقى « بو » بعيداً عن الأنظار ، ولكن جم يعتقد أنه يبقيه مقيداً بسلسلة حديدية إلى السرير معظم الوقت . قال أتيكوس ان ذلك غير صحيح ، فلم يكن الأمر كذلك ، بل كانت هناك وسائل أخرى لتحويل الناس إلى أشباح .

وقد تذكّرت كيف كنت أرى السيدة رادلي تفتح أحياناً الباب
الأمامي ، وتمشي حتى نهاية الرواق ، وتصب الماء على نباتات الكنا * .
ولكننا جم وأنا كنا نرى السيد رادلي يسير نحو البلدة ثم عائداً منها .
كان رجلاً نحيلاً لوحث الشمس بشرته ودبغتها ، ذا عينين لالون
لهما ، إلى حد أنهما لم تكونا تعكسان النور ، أما عظام خده فحاددة
وفمه واسعاً جداً ، وله شفة عليا رقيقة وسفلى ممتلئة . وقالت الآنسة
ستيفاني كروفورد أنه كان مستقيماً إلى حد أنه كان لا يعترف بأي قانون
سوى كلمة الرب ، وقد صدقناها ، لأن هيئة السيد رادلي كانت
مستقيمة صارمة .

لم يسبق أن تحدث إلينا . وحين كان يمر كنا ننظر إلى الأرض ونقول
« صباح الخير ياسيدي » ، وكان جوابه هو السعال . كان ابنه الأكبر
يعيش في « بنساكولا » ، ويأتي إلى البيت في عيد الميلاد ، وهو واحد
من الأشخاص القليلين الذين شاهدناهم يدخلون أو يخرجون من ذلك
المكان . ومنذ ذلك اليوم الذي أخذ فيه السيد رادلي ابنه آرثر إلى البيت ،
يقول الناس ان المنزل قد مات .

ولكن حدث في أحد الأيام أن قال لنا أتيكوس إنه سيضربنا إذا
مأخذنا ضجيجاً في الفناء ، وفوض كالبورنيا أن تقوم مقامه خلال
غيابه إذا ماسمعت ضجة تصدر عنا . كان السيد رادلي يختصر .

(*) Canna عشب استوائي مزهر عريض الأوراق (المترجم) .

ولكنه استغرق في احتضاره زمناً طويلاً ، فوضعت الحواجز الخشبية لتسد الطريق عند نهايتي المرج المحيط بالمنزل ، وثر القش مع الرصيف ، وحول السير إلى الشارع الخلفي . كان الدكتور رينولدز يوقف سيارته أمام منزلنا ويمشي نحو منزل آل رادلي في كل مرة كان يعود فيها . وقد رحنا أنا وجم زحفاً في الفناء أياماً بحالها . وأخيراً رفعت الحواجز الخشبية ، ووقفنا نراقب من الرواق الأمامي بينما قام السيد رادلي برحلته الأخيرة ماراً بمنزلنا .

همهمت كالبورنيا : « هاهو أخسّ رجل خلقه الله إطلاقاً » ، ثم بصقت - وهي في حالة تأمل - على أرض الفناء . نظرنا إليها بدهشة ، فقد كانت كالبورنيا لاتعلّق الا نادراً على أساليب الناس البيض البشرية .

ظن الجيران أنه مع دفن السيد رادلي سيخرج « بو » من المنزل ، ولكن شيئاً آخر حدث : عاد أخو « بو » الأكبر من « بنساكولا » واحتل مكان السيد رادلي . وكان الخلاف الوحيد بينه وبين أبيه هو الفرق في السن . قال جم أن السيد ناثن رادلي كان « يشترى القطن » أيضاً . ولكن السيد ناثن كان يرد علينا على أية حال حين كنا نقول له صباح الخير ، وكنا نراه أحياناً عائداً من البلدة وفي يده مجلة .

وكلما كنا نحكي لدليل عن آل رادلي ، كان هذا يؤد معرفة المزيد ، وكانت وقفاتة وهو يعانق عمود النور عند الزاوية تطول ، وكانت تساؤلاته تزيد .

« كان بهمهم قائلاً : » ما الذي يفعله هناك ياترى ؟ يبدو وكأنه
لا يخرج سوى رأسه من الباب . »

قال جم : « انه يخرج على أية حال ، ولكن حين يكون الظلام
خميماً . قالت الآنسة ستيفاني كروفورد انها استيقظت مرة في منتصف
الليل فرأته يحرق فيها مباشرة عبر النافذة . . . قالت ان رأسه كان يشبه
جمجمة تحرق فيها . هل حدث أن استيقظت في الليل وسمعت ياديل ؟
انه يمشي هكذا . » ترحلق جم بقدميه فوق الحصى . « ولماذا تظن أن
الآنسة راشيل تقفل الأبواب بهذا الاحكام ليلاً ؟ لقد شاهدت أنا آثاره
في فئائنا الخلفي مرات كثيرة في الصباح ، كما سمعته في احدى الليالي
يخرش بأظافره الباب المنخلي الخلفي ، ولكنه كان قد اختفى عند وصول
أتيكوس . »

قال ديل : « ياترى كيف شكله ؟ »

قدم جم وصفاً معقولاً لبو : كان طول بو حوالي المترين وذلك
إذا ما أخذنا آثاره بعين الاعتبار . وكان يتعشى على السناجب النيئة وأية
قطط يستطيع الامساك بها ، ولذا كانت يدها ملطختين بالدماء : إذا
أكلت حيواناً نيئاً ، لا يمكنك أبداً أن تغسل الدم عن يديك . كما كانت
هناك ندبة طويلة متعرجة على امتداد وجهه ، أما ما تبقى له من أسنان
فهي صفراء ومسوسة . كما كانت عيناه جاحظتين وكان يرتل معظم
الوقت .

قال ديل : « لنحاول أن نجعله يخرج من البيت . أود أن أرى شكله . »

قال جم لدليل أنه إذا أراد أن يُقتل فليس عليه سوى أن يذهب ويطلق ذلك الباب الأمامي .

وقد حدثت غارتنا الأولى لأن ديل راهن جم على « الشبح الرمادي » مقابل نسختين من « توم سويت » متحدثاً لياه أن يجرؤ على الذهاب إلى أبعد من البوابة الخارجية لمنزل آل رادلي . في حياته كلها لم يرفض جم أي تحدٍ لشجاعته .

فكر جم في الموضوع مدة ثلاثة أيام وأعتقد أنه كان يحب الشرف أكثر من حياته ، فقد استطاع ديل أن ينهكه بسهولة . قال له ديل : « أنت خائف . » وكان ذلك في اليوم الأول . قال جم : « لست خائفاً ، ولكنها سطوة الاحترام . » وفي اليوم التالي قال ديل : « أنت خائف جداً وإلى حد أنك لا تجرؤ على وضع إبهام قدمك في الفناء الأمامي . » قال جم إنه يعتقد أن الأمر ليس كذلك وأنه قد مرّ عبر منزل آل رادلي في كل يوم من أيام حياته قضاه في المدرسة .

قلت : « ولكنك تفعل ذلك دائماً وأنت تجري . »

إلا أن ديل حاصره تماماً في اليوم الثالث حين قال له أن الناس في « ميريديان » ليسوا بكل تأكيد جزعين كسكان مايكوم ، وأنه لم يسبق له أن رأى أناساً جزعين كأولئك الذين رأهم في مايكوم .

كان هذا كافياً لجعل جم يمشي حتى الزاوية ، حيث توقف مستنداً إلى عمود النور ، مراقباً البوابة المعلقة بجنوب على المفصلة المصنوعة منزلياً . قال جم حين لحقنا به : « آمل أن تكون قد استوعبت أنه سيقبلنا جميعاً وفرداً فرداً ياديل هاريس ، ولا تلمني حين يقتلع عينيك ، فأنت الذي بدأ هذا الأمر كله . تذكر » .
همهم ديل بصبر : « لازلت خائفاً » .

أراد جم من ديل أن يتحقق نهائياً من أنه لم يكن خائفاً من أي شيء : « المشكلة هي أنني لستطيع أن أجِد الطريقة بحيث أجعله يخرج دون أن نعطيهِ الفرصة للايقاع بنا . » وفوق ذلك كان مع جم أخته الصغيرة التي يجب أن يأخذها في الحسبان .

وحين قال ذلك ، عرفت أنه كان خائفاً . لقد قال جم هذا الكلام نفسه مرة حين تحديته أن يقفز من أعلى المنزل ، إذ قال : (لو أنني قتلت ، فماذا سيحل بك ؟) ثم قفز وتهبط سالماً ، وقد غادره حسه بالمسؤولية حتى جوبه الآن بتحدي منزل آل رادلي .

سأله ديل : « أترأى ؟ أن كنت تجرؤ على المراهنة ، إذن . . . » قال جم : « ياديل ، عليك أن تفكر أولاً في مثل هذه الأمور ، دعني أفكر دقيقة واحدة . . . ان هذا أشبه بجعل السلحفاة تخرج رأسها . . . »

سأله ديل : « وكيف ذلك ؟ »

أُجاب جم :

« تشعل عود كبريت تحتها . »

قلت لجم إنه إذا أشعل حريقاً في منزل آل رادلي فسأشي عليه عند أتيكوس .

قال ديل إن إشعال عود ثقاب تحت سلحفاة أمر كريه .
زجر جم قائلاً : « ليس كريهاً ، هذا مجرد اقناع لها . هذا لا يشبه رميها في النار . »

— وكيف لك أن تعرف أن عود الثقاب لا يؤذيها ؟

— السلاحف لا احساس لها ياغبى .

— هل سبق وكنت سلحفاة ؟

— يا للسماء يا ديل . دعني أفكر . . . أعتقد أننا نستطيع أن نهزه ...

ظل جم يفكر فترة طويلة إلى حد أن ديل تنازل أخيراً بلطف ،
قال : « لن أقول انك جبنت فلم تجرؤ على الرهان ، وأقبل مبادلتك
بـ « الشيخ الرمادي » إذا ذهبت ولمست المنزل فحسب » .

لمعت عينا جم : « ألسه فحسب ؟ ذاك كل مافي الأمر ؟ »

أطرق ديل برأسه .

— هل أنت واثق من أن هذا هو كل مافي الأمر ؟ لا أريد منك

أن تصبح بشيء آخر بمجرد أن أعود . »

قال ديل : « حسناً ، لن أطلبك بأكثر من ذلك . ربما سيخرج
ليطاردك في الفناء ، ثم سنهجم عليه أنا و « سكاوت » ونمسك به
حتى نستطيع أن نقول له إننا لا نريد إيذاءه . »

غادرنا الزاوية وعبرنا الشارع الجانبي الذي يوازي واجهة منزل
آل رادلي وتوقفنا عند الباب .

قال ديل : « هيا ، سكاوت وأنا خلفك تماماً . »

قال جم : « سأذهب ، لاتعجلني . »

مشى حتى زاوية المرج المحيط بالمنزل ثم عاد ثانية ، وهو يدرس
الأرض المنبسطة وكأنه يحاول أن يقرر أفضل طريقة للدخول . كان قد
قطب جبينه وراح يحك رأسه .

عندها عبرت عن سخريتي منه .

فتح جم الباب وأسرع نحو جانب المنزل ، صفعه بكفه وعاد
يجري متجاوزاً أيانا ، ودون أن ينتظر ليرى ان كانت غزوته ناجحة .
ولحقنا به ديل وأنا فوراً . ولما أصبحنا آمنين عند رواقنا ، نظرنا إلى
الخلف لاهئين .

كان المنزل العتيق لا يزال كما هو ، متهدلاً ومريضاً ، ولكن
حين حلقنا عبر الشارع ظنننا أننا شاهدنا مصراعاً داخلياً يتحرك ، نقرة
خفيفة . حركة صغيرة غير مرئية تقريباً ، ثم هاهو المنزل وقد عاد ساكناً .

* * *

الفصل الثاني

غادرنا ديل في بداية أيلول (سبتمبر) للعودة إلى ميريديان . وقد ودعناه حتى محطة باص الساعة الخامسة ، وشعرت بالبؤس بدونه حين تذكرت أنني سأذهب إلى المدرسة للمرة الأولى خلال أسبوع . ولم أكن قد تطلعت في حياتي كلها إلى أي شيء آخر بمثل هذه اللهفة . فخلال أوقات الشتاء كنت أجلس جالسة في الكوخ الصغير فوق الشجرتين أطلع إلى باحة المدرسة ، أجلس على حشود الأطفال من خلال تلسكوب (يكبر مرتين) كان جم قد أعطانيه ، فأتعلم ألعابهم ، وأتابع سيرة جم الحمراء عبر حلقات لعبة « الغميضة » (الاستغماية) المتممجة ، وأشارك سراً أولئك الأطفال هزائمهم وانتصاراتهم الصغيرة . وكنت أتوق إلى الانضمام إليهم .

وقد تنازل جم ووافق على اصطحابي إلى المدرسة في اليوم الأول ، وهو عمل يقوم به عادة والدا التلميذ ، ولكن أتيكوس قال انه سيسرّ جم أن يريني غرفة صفّي . وأعتقد أن بعض النقود قد تم تبادلها في هذه الصفقة ، فبينما كنا نهول من حول الزاوية عبر منزل آل رادلي ، سمعت رنيناً غير مألوف آت من جيوب جم . وحين أبطأنا لنمشي

على حافة باحة المدرسة لم ينس جم أن يشرح لي أن علي ألا أزعجه خلال ساعات المدرسة ، وألا أقرب منه طالبة منه أن تمثل فصلاً عن « طرزان ورجال النمل » ، أو أن أخرج به بتلميحات إلى حياته الخاصة ، أو أن أتبعه كظله في الفرصة وعند الظهر . كان علي أن ألزم حدود الصف الأول وهو سيلزم حدود الصف الخامس . أي باختصار ، كان علي أن أتركه وشأنه .

سألته : « أتعني أننا لن نستطيع أن نلعب بعد الآن ؟ »

قال : « في البيت سيكون الأمر على ماهو عليه ، ولكنك ستري أن المدرسة شيء مختلف » .

وكانت فعلاً كذلك . فقبل أن ينتهي أول صباح لي هناك ، كانت معلمتنا « الآتسة كارولان فيشر » قد جذبتني إلى مقدمة الصف وربت على كفي بمسطرة ، ثم جعلتني أقف في زاوية الصف حتى الظهر .

لم يكن عمر الآتسة كارولان يزيد عن الحادية والعشرين . كان لها شعر كستنائي لامع ، وخدان ورديان ، وتضع طلاء قرمياً على أظافر يدها . كما كانت ترتدي حذاء ذا كعب عال وثوباً مقلماً باللونين الأحمر والأبيض . كان شكلها ورائحتها أشبه شيء بقرص النعناع . وكانت قد استأجرت الغرفة الأمامية من الطابق العلوي من منزل « الآتسة مودي اتكينسون » الذي يقع عبر الشارع من منزلنا ولا يبعد عنه سوى بمبنى واحد ، وحين قدمنا إليها الآتسة مودي مرة من المرات ، ظل جم أياماً بحالها في حالة ضبابية .

كتبت الآنسة كارولان اسمها على اللوح الأسود ، وقالت :
 « هذه الكتابه تقول ان اسمي هو الآنسة كارولان فيشر . أنا من ألا باما
 الشماليه ، من مديريه ونستون » . همهم الصف بقلق من يتوجس شراً ،
 فلعل هذه الآنسة تتمتع بتلك الطبايع الشاذة التي عرف بها أهل تلك
 المقاطعة . (حين انسحبت ألا باما من « الاتحاد » في ١١ كانون الثاني
 (يناير) من عام (١٨٦١) ، انسحبت مقاطعة ونستون من ولاية ألا باما
 وكان كل طفل في مقاطعة مايكوم يعرف ذلك .) كانت ألا باما الشماليه
 مشهوره بمصانع الكحول والبغال الكبيره الحجم وشركات الفولاذ
 وبالمجهوريين والأساتذة والأشخاص الآخرين الذين لاخلفيه اجتماعيه لهم .
 بدأت الآنسة كارولان اليوم الدراسي بقراءة حكاية عن القطط .
 وكانت هذه القطط تتحاور طويلاً فيما بينها ، وترتدي ملابس صغيره
 جميله وتعيش في منزل دافئ تحت مدفأة المطبخ . وحين ذهبت « السيدة
 قطه » إلى الدكان لتطلب « فتراناً مذوبه بالشوكولاته » كان الصف
 قد بدأ يتلوى من الملل كدلو مليء بديدان « الكاتاوبا » . لم يبد أن الآنسة
 كارولان كانت مدرسه أن تلاميذ الصف الأول المهلهلي الثياب ،
 المرتدين قمصاناً من القطن وتنانير مصنوعة من أكياس الدقيق ، والذين
 كان معظمهم قد مارس قطع القطن واطعام الخنازير منذ أن عرفت
 أقدامهم السير ، أن هؤلاء محصنون ضد الأدب الخيالي . وصلت الآنسة
 كارولان إلى نهاية الحكاية ثم قالت : « أوه ، ألم تكن تلك حكاية
 جميله ؟ » .

ثم مضت نحو اللوح وكتبت عليه الأحرف الهجائية بأحرف استهلاكية ضخمة وذات زوايا قائمة ، ثم استدارت نحو الصف وسألت :
« هل يعرف أحدكم ماهذه ؟ »

كان الجميع يعرفون ، فقد كان معظم تلاميذ الصف الأول من راسبي السنة الماضية .

أعتقد أنها اختارتني لأنها كانت تعرف اسمي ، وبينما كنت أقرأ الأبنجدية برز خط خفيف بين حاجبيها ، وبعد أن جعلتني أقرأ معظم كتاب « قراءتي الأولى » وأسعار البورصة في صحيفة « ذا موبيل ريجستر » بصوت عال ، اكتشفت أنني كنت متعلمة ونظرت إلي بأكثر من مجرد كره خفيف . قالت لي الآنسة كارولان أن أقول لأبي ألا يعلمني بعد اليوم أي شيء ، فهذا سيؤثر على مآثلقاه في المدرسة .

سألتها مندهشة : « يعلمني ؟ » ثم أضفت : « انه لم يعلمني شيئاً ياآنسة كارولان . ليس لدى أتيكوس وقت كاف لتعليمي أي شيء » ، فابتسمت الآنسة كارولان وهزت رأسها . ولكني تابعت قائلة : « انه يكون متعباً في الليل إلى حد أنه لايفعل شيئاً عدا القعود في غرفة الجلوس والقراءة » .

سألني الآنسة كارولان بود : « إذا لم يعلمك هو ، فمن علمك إذن ؟ لابد أن أحداً قد علمك . فأنت لم تولدي وأنت تقرأين « ذا موبيل ريجستر » . »

قلت : « يقول جم إني ولدت كذلك وقد قرأ في أحد الكتب أن كنيّتي هي « بولفينتش » وليس « فينتش » . ويقول جم أن اسمي الحقيقي هو « جان لويز بولفينتش » ، وأنه تمت مقايضتي حين ولدت وأني بالفعل . . . »

كان واضحاً أن الآتسة كارولان كانت تظنني أكذب . قالت : « لا يجب أن نترك خيالنا يسرح بنا ياعزيزتي . والآن قولي لأبيك ألا يعلمك شيئاً بعد اليوم . من الأفضل أن يبدأ المرء بتعلّم القراءة وذهنه صاف . ستقولين له إني سأتولى أمرك من الآن فصاعداً وسأحاول أن أزيل الضرر . . . »

— سيدتي ؟

— أبوك لا يعرف كيف يعلم . يمكنك أن تجلسي الآن .

تمتعت بأني آسفة وجلست إلى مكاني وأنا أفكر في جريمتي . أنا لم أتعلم القراءة عمداً ، ولكني نوعاً ما كنت أتحبّط متعثرة وعلى نحو محظور في الجرائد اليومية . هل تعلمت ياترى في الساعات الطويلة في الكنيسة ؟ لم أستطع أن أتذكر أنني كنت يوماً غير قادرة على قراءة التراتيل . والآن بما أنني كنت مضطرة إلى التفكير بالموضوع ، فاني أعتقد أن القراءة أمر أثنائي هكذا ، تعلمتها كما تعلمت أن أزرّر قاعدة سروالي الداخلي الشتوي الطويل دون أن أنظر إلى الخلف ، أو أن أربط سير حلزاني صانعة منه عقدة ذات قوسين . لأستطيع أن أتذكر

مضى بدأت الأسطر التي كانت فوق أصبح أتيكوس المتحرك تنفصل إلى كلمات ، ولكنني كنت أصدق فيها كل الأسميات التي في ذاكرتي ، وأصغني إلى الأخبار اليومية : مشاريع القوانين التي ستتحول إلى قوانين ، ويومييات « لورنزو داو » ، وأي شيء آخر يحدث أن يكون أتيكوس يطلعه حين أتسلل إلى حضنه كل ليلة . وحتى الآن ؛ أي حين أحسست أنني قد أخسر القراءة ، لم أشعر أنني أحببتها في يوم من الأيام ، فالمرء لا يحب التنفس مثلاً .

كنت أعرف أنني أزعجت الآتسة كارولان ، ولذلك ظلت وحيدة ورحت أصدق عبر النافذة إلى الخارج حتى حان موعد الفرصة ، حين أدخلني جم من بين سرب الصف الأول في باحة المدرسة . سألني كيف هي الأمور فقلت له :

— إذا لم أكن مضطرة للبقاء هنا ، فاني أرغب في الرحيل . يا جم ، ان تلك السيدة الملعونة تقول ان أتيكوس كان يعلمني القراءة وإن عليه أن يتوقف عن ذلك . . .

— لا عليك باسكاوت . تقول معلمتنا ان الآتسة كارولان تطرح اسلوباً جديداً في التعليم . وقد تعلمته في الكلية . وسرعان ما سيطبق هذا الأسلوب على كل الصفوف . وهذا الأسلوب لا يضطرك إلى تعلم الكثير من خلال الكتب . لو أردت مثلاً أن تعرفي شيئاً ما عن البقر فعليك أن تذهبي وتحلبي بقرة ، أترين ماعني ؟

— أجل يا جم ، ولكني لأريد دراسة البقر ، أنا . . .
 — طبعاً يجب ذلك . عليك أن تعرفي شيئاً عن البقر ، أما جزء كبير من حياة مقاطعة مايكوم .

وقد حاولت ارضاء نفسي بأن سألت جم ان كان قد فقد عقله .
 — اني أحاول فقط أن أحكي لك عن الأسلوب الجديد في تعليم الصف الأول يا عنيده . انه يسمى « نظام ديوي العشري » .

وبما أنه لم يسبق لي أن شككت بأقوال جم ، فلم أر سبباً يدعوني للبدء بالشك الآن . كان « نظام ديوي العشري » يعتمد جزئياً على قيام الآنسة كارولان بتلويع بطاقات أماننا مطبوع عليها كلمات مثل : « ال » ، « قطة » ، « فأر » ، « رجل » و « أنت » . ولم يكن متوقعاً منا أن نبيدي أي تعليق ، وقد كان على الصف أن يتلقى تلك الرؤى الانطباعية صامتاً . شعرت بالملل ، فبدأت بكتابة رسالة إلى ديل . وقد أمسكت بي الآنسة كارولان وأنا أكتب وطلبت مني أن أطلب من أبي التوقف عن تعليمي . ثم قالت : « وفوق ذلك ، فنحن لانمارس الكتابة في الصف الأول ، بل نتعلم كتابة الحروف الاستهلاكية (الكبيرة) . لن نتعلمي الكتابة حتى تصلي إلى الصف الثالث . »

كانت كالبورنيا هي الملوثة في ذلك . فقد كان ذلك يجعلني أمتنع عن جعلها تصاب بالجنون في الأيام المطيرة ، كما أعتقد . كانت توكل إلي مهمة الكتابة عن طريق خربشة الأحرف الأبجدية على أعلى اللوح ،

ثم تقوم بنسخ فصل من الكتاب المقدس تحتها . وإذا ماقت بدج
ماخطته يدها على نحو مرض ، كانت تكافئي بشطيرة مفتوحة من
الخبز والزبدة والسكر . لم يكن هناك أي مجال لروح العاطفة : فقد
كنت نادراً ماأرضيها وكانت نادراً ماتكافئي .

قالت الآتسة كارولان وهي تقاطع تفكيري في ضغيني الجديدة
على كالبورنيا : « كل من يذهب إلى بيته لطعام الغداء فليرفع يده . »

رفع أطفال البلدة أيديهم ، فتفحصتنا .

— كل من جلب معه غداءه فليضعه على منضدته .

برزت دلاء دبس السكر من أماكن خفية ، ورقص السقف بنور
معدني . مشت الآتسة كارولان بين صفوف المناضد تحديق في أوعية
الغداء وتلحسها باصبعها بفضول لترى ما فيها . كانت توميء برأسها
إذا ما أعجبتها المحتويات ، أو تقطب جبينها قليلاً إذا لم تعجبها . ثم
توقفت عند « وولتر كانيغهام » . سألته : « أين طعامك ؟ »

كان وجه وولتر كانيغهام يقول لكل شخص في الصف الأول
انه يعاني من ديدان الانكليستوما . كما كان عدم احتدائه ينبئنا كيف
أصيب بها . كان الناس يصابون بهذه الديدان إذا مشوا حفاة في فناء
محاذ لمخزن حبوب أو مراغة للخنازير . ولو كان وولتر يملك حذاء
لكان سيحتلديه في أول يوم من أيام المدرسة ثم يرميه حتى منتصف
الشتاء . كان يرتدي بالفعل قميصاً نظيفاً و « أفرولاً » مرتباً بعناية .

سألته الآنسة كارولان :

— هل نسيت أن تجلب معك غداءك هذا الصباح ؟ .

نظر وولتر أمامه مباشرة . ورأيت عضلة تقفز في فكه النحيل .

سألته الآنسة كارولان مرة أخرى :

— هل نسيته هذا الصباح ؟

فاختلج فك وولتر مرة أخرى .

وأخيراً همهم قائلاً :

— أجل .

عادت الآنسة كارولان إلى مكتبها وفتحت حافظة نقودها . ثم

قالت له : « إليك هذا الربع ، اذهب وكل في البلدة اليوم . وغداً

ستعيده إلي . »

هز وولتر رأسه ثم قال متشداً بلطف :

— لا . شكراً سيدتي .

تسلل نفاد الصبر إلى صوت الآنسة كارولان :

— هيا يا وولتر ، تعال ونحذه .

هز وولتر رأسه مرة أخرى .

وحين هز وولتر رأسه للمرة الثالثة همس أحدهم :

— اذهبي ياسكاوت وقولي لها .

استدردت فرأيت معظم التلاميذ من سكان المدينة وجميع ركاب
الباص ينظرون إلي . كان قد سبق لي أن تحاورت مرتين مع الآنسة
كارولان اليوم ، وكانوا ينظرون إلي على أساس الثقة البريئة بأن
الالفة تخلق التفاهم .

وقفت على نحو مهذب نيابة عن وولتر وقلت :

— آ . . . آنسة كارولان ؟

— مالمقصدة يا جان لويز ؟

— آنسة كارولان ، انه من عائلة كانينغهام .

ظننت أنني أوضحت الأمر بما فيه الكفاية . فقد كان جليلاً بالنسبة
للبقية منا : كان وولتر كانينغهام جالساً هناك ورأسه مدلى على كتفه .
فهو لم ينس غداءه ، فلم يكن هناك غداء يجلبه معه ، لا اليوم ولا غداً
على الأرجح . كما أنه لم يسبق له طول حياته أن رأى ثلاثة أرباع دولار
مرة واحدة .

حاولت مرة أخرى :

— وولتر من عائلة كانينغهام ياآنسة كارولان .

— عفواً يا جان لويز ؟

— حسناً ياسيديتي ، ستتعرفين على سكان المديرية كلهم فيما بعد .

ان أفراد عائلة كانينغهام لا يقبلون أن يأخذوا شيئاً لا يستطيعون رده :
 لاسلّات الكنيسة ولا العملة . انهم لا يأخذون أبداً أي شيء من أي
 شخص ، بل يعيشون على مالديهم . ليس لديهم الكثير ولكنهم يعيشون عليه .
 كانت معرفتي الخاصة بقبيلة كانينغهام — وكانت مقتصرة
 على تلك العشيرة منهم فحسب — قد اكتسبتها من أحداث العام الماضي .
 كان والد وولتر أحد زبائن أتيكوس . وبعد حوار كتيب جرى في
 غرفة جلوسنا في إحدى الليالي ودار حول « الملك الموقوف » ، وقبل
 أن يغادر السيد كانينغهام قال : « سيد فينتش ، لا أعرف متى سأستطيع
 أن أدفع لك . »

قال أتيكوس : « فليكن ذلك آخر ما يلقى باللك . »

وحين سألت جم ماتعني كلمة « ملك موقوف » ، شرحها لي جم
 على أنها الحالة التي يكون فيها ذيل المرء منحشراً في شق . سألت أتيكوس
 ان كان السيد كانينغهام سيدفع لنا على الاطلاق .

أجاب أتيكوس : « ليس نقوداً ، ولكن قبل نهاية العام سيكون
 قد دفع لي . ولكن انتبهي وراقبي . »

وقد راقبتنا . وفي صباح أحد الأيام وجدنا جم وأنا حملاً من
 حطب المدفأة في الفناء الخلفي . وفيما بعد ظهر كيس من الجوز على
 درجتنا الخلفي . ومع عيد الميلاد وصلنا قفص من نبات السمبلاكس
 والبهشية . وفي الربيع حين وجدنا كيساً من الخيش مليئاً بالأجزاء

الخصراء من ثبات الكربن ، قال أتيكوس ان السيد كانينغهام قد دفع لنا ماعليه وزيادة .

سألته :

— لماذا يدفع لك بهذه الطريقة ؟

— لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها أن يدفع لي . ليس لديه نقود .

— هل نحن فقراء يا أتيكوس ؟

أوماً أتيكوس برأسه وقال :

— نحن كذلك بالفعل .

تغضن أنف جم وسأل :

— هل نحن فقراء شأن آل كانينغهام ؟

— ليس بالضبط . قال كانينغهام أشخاص ريفيون ، مزارعون ، وقد كانت الأزمة الاقتصادية أشد مائكون عليهم .

قال أتيكوس ان المهنيين فقراء لأن المزارعين كانوا فقراء . وبما أن مقاطعة مايكروم منطقة زراعية فإن القطع النقدية من فئة الخمسة سنتات والعشرة سنتات أصبحت صعبة الوصول إلى أطباء الصحة والأسنان والمحامين . كان « المثلث الموقوف » جزءاً فقط من متاعب

السيد كانينغهام . أما الآكرات (١) التي لم تكن موقوفة فقد ارثهنت كلها ، والنقود القليلة التي قبضت ذهبت كفايدة . كان بإمكان السيد كانينغهام الحصول على وظيفة من « الوكالة العمومية للعمال » WPA لو أبقى فمه مغلقاً ، ولكنه لو أهمل أرضه من ناحية أخرى فستعرض للهلاك ، وكان يفضل أن يجوع على أن يخسر أرضه وأن يفقد حريته في انتخاب من يشاء . قال أتيكوس ان السيد كانينغهام ينتمي إلى نوع عنيد من الرجال .

ولما لم يكن بحوزة آل كانينغهام نقود يدفعونها إلى المحامي ، فقد كانوا يدفعون له بكل بساطة مما يملكونه . قال أتيكوس . : « هل تعرفان ان الدكتور رينولدز يعمل بالطريقة نفسها ؟ انه يتقاضى مثلاً بوشلا (٢) من البطاطا لقاء أتعاب التوليد . يآآنسة سكاوت إذا أعرتني اهتمامك أستطيع أن أشرح لك ماتعنيه كلمة « الملك الموقوف » . ان تعريفات جم دقيقة جداً أحياناً . »

لو قدرت أن أشرح هذه الأمور للآنسة كارولان ، لكنك استطعت أن أوفر على نفسي بعض الحرج ، وعلى الآنسة كارولان العار اللاحق ، ولكني ماكنت قادرة على شرح الأمور بالمهارة التي

(١) الآكر يمادل ٤٠٠٠ م تقريباً . (المترجم) .

(٢) بوشل : ميكال مقداره ٨ غالونات . (المترجم) .

يتمتع بها أثيكوس ، ولذا قلت : « أنت تُكرهينه على مالايحب ياآنسة كارولان . ليس بحوزة وولتر ربع دولار في البيت ليدفعه لك غداً ، كما أنك لست في حاجة إلى حطب للمدفأة » .

وقفت الآنسة كارولان ساكنة لا تتحرك ثم أمسكت بي من يافتي ودفعني نحو مكتبها . قالت : « ياجان لويز ، لقد نلت منك اليوم ما فيه الكفاية . أنت لاثمسين التصرف في كل ماتفعليه ياعزيزتي . ابسطي كفك . »

ظننت أنها ستبصق فيه ، وكان ذلك هو السبب الوحيد الذي يدفع أي امرئ في مايكوم ليبسط كفه : كانت تلك طريقة قديمة للتصديق على العقود الشفوية . ولما كنت أتساءل في نفسي عن الصفقة التي كنت قد عقدتها مع المعلمة ، فقد استدلت نحو الصف عسافي أحصل على جواب ، ونظر إليّ الصف بحيرة . أمسكت الآنسة كارولان بمسطرها وضربتني بها نصف دزينة من الضربات الخفيفة السريعة ثم طلبت مني أن أقف عند الزاوية . وأخيراً هدر الصف بعاصفة من الضحك حين أدرك التلاميذ أخيراً أن الآنسة كارولان قد ضربتني .

وحين هدأت كارولان الصف بمصير مشابه ، انفجر الصف الأول مرة أخرى ، ولكنه جمد كله فجأة حين سقط عليهم ظل « الآنسة بلاونت » . لقد ظهرت الآنسة بلاونت ، وهي من سكان

مايكوم ولم تضطلع بعد على « نظام ديوي العشري » عند الباب ويدها
على وركيها وقالت : « إذا سمعت صوتاً آخر من هذه الغرفة فسأحرق
كل من فيها . ياآنسة كارولان ، ان الصف السادس غير قادر على
التركيز على موضوع الاهرامات بسبب هذا الصخب كله . »

لكن اقامتي في الزاوية كانت قصيرة ، أنقذ الجرس الآتية
كارولان ، فراحت تراقب التلاميذ وهم يخرجون كل بدوره من
أجل الغداء . وبما أنني كنت آخر الخارجين ، فقد رأيتها تجلس منهكة
في كرسيها وتدفن رأسها بين ذراعيها . لو كان سلوكها أكثر ودّاً
تجاهي ، لكنت قد شعرت بالأسف عليها . فقد كانت شخصاً صغيراً
وجميلاً .

* * *

الفصل الثالث

حين أمسكت بولتر كائينغهام في باحة المدرسة شعرت ببعض السعادة ، ولكن وبينما كنت أمرغ أنفه في التراب ، جاء جم وطلب مني أن أتوقف عما كنت أفعله .

قال :

— أنت أضخم حجماً منه .

— انه في مثل سنك ، تقريباً ، وقد دفعني إلى أن أخطيء في تصرفي .

— دعيه وحاله ياسكاوت . قولي لي لماذا تفعلين به ماتفعليته ؟

— لم يكن معه طعام للغداء .

ثم شرحت لجم تورطي في مشاكل وولتر الغذائية .

كان وولتر قد نهض الآن ووقف بهدوء يصغي إلى جم وإليّ . كانت قبضتاه نصف مضمومتين وكأنه يتوقع منا أن نقتصّر كلامنا عليه . ضربت الأرض بقدمي حتى يهرب ، ولكن جم مديده وأوقفني .

ثم فحص وولتر بنوع من التأمل . سألته : « هل أبوك هو السيد وولتر كاتينغهام من « أولد ساروم » ؟ » فأوماً وولتر برأسه .

كانت هيئة وولتر توحى بأنه قد تربى على علف السمك : فقد كانت عيناه — ولهما زرقة عيني ديل هاريس — مؤطرتين بلون أحمر ودامعتين . وكان وجهه شاحباً لالون فيه عدا أرنية أنفه التي كانت ذات لون زهري مخضل . كان يعبث بأصابعه بحمالات « أوفروله » وينقر على الخطافات المعدنية الصغيرة بعصبية .

ابتسم له جم فجأة وقال : « تعال معنا لتشاركنا طعام الغداء في البيت يا وولتر . سيمرنا ذلك . »

أشرق وجه وولتر ثم أظلم فجأة .

قال جم : « أبونا صديق لأبيك . وسكاوت هذه مجنونة ، وهي لن تتشاجر معك بعد الآن . »

قلت : « لست واثقة من هذا تماماً » . فقد أغضبني جم إذ منح وولتر عهداً باسمي دون استشارتي ، ولكن دقائق استراحة الغداء الثمينة كانت تضيق تدريجياً ، فقلت : « حسناً يا وولتر ، لن أهاجمك بعد اليوم . ألا تحب الفاصولياء ؟ ان « كال » طبخة ماهرة » .

وقف وولتر في مكانه وهو يعرض على شفته . فكان أن تخلّينا عن عرضنا ، ومضينا في طريقنا ، وكنا على وشك الوصول إلى منزل آل رادلي حين صاح وولتر : « هاي ، أنا قادم » .

حين لحق بنا وولتر ، تحدث إليه جم بلطف . قال بودّ وهو يشير
إلى منزل آل رادلي : « يعيش هنا شبح . هل سبق لك أن سمعت عنه
يا وولتر ؟ »

قال وولتر : « أعتقد أي سمعت عنه . لقد كدت أموت في
أول عام جثت فيه إلى المدرسة حين أكلت من تلك الجوزات ، ويقول
الناس إنه قد سمّمها ووضعها على الطرف الآخر من الحاجز في
فناء المدرسة » .

بدأ جم أقل خوفاً الآن من بوردالي حيث كنا نسير — وولتر
وأنا — إلى جانبه . هل ان جم راح يتفاخر بالفعل قائلاً لولتر : « لقد
مضيت مرة حتى وصلت إلى المنزل » .

فقلت للغيوم التي في الأعلى : « ان من مضى مرة حتى وصل
إلى المنزل لا يجب أن يجري في كل مرة يمر فيه من جانبه » .

— ومن هو ذلك الذي يجري يا آنسة يابائسة ؟

— أنت الذي يجري ، حين لا يكون معك أحد .

وحين وصلنا إلى الدرج الأمامي كان وولتر قد نسي أنه من عائلة
كانينغهام . جرى جم إلى المطبخ وطلب من كالبورنيا أن تضع طبقاً
إضافياً فقد كان معنا ضيف . وجه أتيكوس تحية إلى وولتر وبدأ معه
نقاشاً حول المحاصيل لم أستطع لأنا ولا جم أن نتابعه .

قال وولتر : « ان السبب في أني لأستطيع النجاح من الصف الأول
ياسيد فيتس هو أني مضطر في كل ربيع للبقاء مع أبي لأساعده في
الحقل ، ولكن هناك في البيت شخصاً آخر أصبح في حجم مناسب للعمل
في الحقل . »

سألته : « هل دفعتم له بوشلاً من البطاطا لقاء ذلك ؟ » ولكن
أتيكوس حذرني بإيماءة من رأسه .

وبينما كان وولتر يكوم الطعام في طبقه ، راح يتحدث مع أتيكوس
حديث الند للند ، مما أثار استغرابنا جَمَ وأنا . كان أتيكوس يبسط بعض
المشاكل الزراعية حين قاطعه وولتر ليسأله ان كان لدينا في البيت بعض
من دبس السكر . استدعى أتيكوس كالبورنيا التي عادت تحمل وعاء
الشراب ثم وقفت تنتظر وولتر حتى يأخذ منه كما يشاء . صب وولتر
الشراب على الخضار واللحم بسخاء . وكان سيصبه ربما في كأس اللبن
لولا أني سألته عما كان يفعله باستغراب شديد .

حين أعاد وولتر الوعاء إلى مكانه رنّ الطبق الفضي ، ثم رأيت
يضع يديه في حجره بسرعة . ثم أطرق برأسه .

أوماً أتيكوس برأسه تجاهي مجدراً مرة أخرى . فاحتججت قائلة :
« ولكنه أغرق غداءه في الشراب ، لقد صبّه كله فوق . . . »

عند ذلك طلبت مني كالبورنيا أن آتي إلى المطبخ .
كان غضبها شديداً ، وحين كانت كالبورنيا تغضب ، كانت

تخطيء في النحو . حين تكون هادئة ، يكون نحو كالبورنيا جيداً بمستوى جودة نحو أي شخص آخر في مايكوم . قال أتيكوس مرة ان كالبورنيا قد تلقت من التعليم أكثر مما تلقاه معظم بني جنسها من الملونين .

حين كانت تنظر إلي نظرتها الشرزاء ، كانت التجاعيد المائقة حول عينيها تزداد عمقاً . قالت لي هامسة بعنف : « هناك أشخاص لا يأكلون كما نأكل ، ولكن ليس عليك أن تعارضهم على المائدة إذا فعلوا ذلك . هذا الصبي رفيقكم ، ولو أراد أن يأكل غطاء المائدة فعليك أن تسمح له بذلك ، أسمعين ؟ » .

— هذا ليس رفيقاً ياكل ، انه مجرد شخص من آل كانينغهام...

— اغلقي فمك . لا يهم من يكون ، كل من يدوس بقدمه أرض هذا المنزل رفيق لكم ، ولا أريد منك أن تبدي الملاحظات حول أسلوبه كما فعلت الآن بكل ذلك الصوت المرتفع القوي . قد تكونون أفضل من آل كانينغهام ولكن الطريقة التي تحجلينه بها شيء سيء جداً . إذا كنت لا تحسنين التصرف على المائدة ، فالأفضل لك أن تجلسي هنا وتتناولي طعامك في المطبخ .

أرسلتني كالبورنيا عبر الباب المتأرجح إلى غرفة الطعام بضربة موجعة . استعدت طبقي وعدت إلى المطبخ لأهني غدائي فيه ، ممتنة على أية حال لأني أنقذت من مواجهتهم مرة أخرى . قلت لكالبورنيا ان عليها أن تنتظر فحسب ، وأني سأنتقم منها : في يوم ما حين تغفل

عينها عني سأذهب وأغرق نفسي في « دوامة باركر » وعندها مشعر
بالأسف . وفوق ذلك ، فقد كان قد سبق لها وأوقعني في مشكلة اليوم :
فقد علمتني الكتابة ، وكانت تلك غلطة منها . قالت : « كفى احتجاجاً » .

عاد جم ومعه وولتر إلى المدرسة قبلي : كان التخلف عنهما لإخبار
أتيكوس بأعمال الظلم التي ارتكبتها كالبورنيا بجتي يستحق عدواً
سريعاً مروراً بمنزل آل رادي . أنهيت كلامي الموجه إلى أتيكوس قائلة :
« انها تحب جم أكثر مني ، على أية حال » ، ثم اقترحت عليه أن يطلب
منها الرحيل فوراً .

كان صوت أتيكوس قاسياً حين رد عليّ قائلاً : « هل سبق ولاحظت
أن جم لايزعجها بقدر نصف ازعجك لها ؟ ليست لديّ أية نية في
التخلص منها ، الآن أو أبداً . لا يمكننا أن نستمر يوماً واحداً دون « كال » .
هل سبق وفكرت في ذلك ؟ عليك أن تفكري بما تفعله كال من أجلك ،
وهو كثير ، ثم عليك أن تطيعيها ، هل تسمعين ما أقول ؟

عدت إلى المدرسة حاقدة على كالبورنيا على نحو متواصل وغير
قادرة على التفكير في أي شيء آخر ، إلى أن سمعت صرخة فجائية .
بددت غيظي . نظرت لأرى الأنسة كارولان تقف في منتصف الغرفة ،
والفرع الكامل يطفح من وجهها . من الواضح أنها كانت قد استعادت
رباطة جأشها إلى حد استئناف ممارسة التعليم بعد الظهور .

صرخت قائلة : « انه حي » .

هب التلاميذ الذكور دفعة واحدة لمساعدتها . يا الهي ، كنت أظنها خائفة من فأر . قال « ليتل تشاك ليتل » ، الذي كان صبره على جميع المخلوقات الحية شيئاً أشبه بالظاهرة : « أين ذهب يا آنسة كارولان ؟ قولي لي أين ذهب بسرعة . يا « دي . سي . » وهنا استدار نحو صبي كان خلفه واستأنف قائلاً : « يا « دي . سي » أغلق الباب وسنمسك به أسرع يا سيدتي وقولي أين ذهب ؟ » .

أشارت الآنسة كارولان باصبع راجفة ليس إلى الأرض ، لا إلى إحدى المناضد ، بل إلى تلميذ ضخم مجهول . قطب « ليتل تشاك ليتل » وقال بلطف : « أتعنيه هو يا سيدتي ؟ أجل يا سيدتي ، هو حي . هل أخافك بعض الشيء ؟ » .

قالت الآنسة كارولان بيأس : « كنت أمر بالقرب منه حين زحف خارجاً من شعره . . . أجل ، زحف خارجاً من شعره . . . » .

ابتسم « ليتل تشاك » ابتسامة عريضة ، ثم قال : « ليس هناك داع للخوف من قملة يا سيدتي . ألم يسبق لك أن رأيت قملة ؟ هيا لا تخافي ، بل عودي إلى مكتبك وعلميها المزيد » .

كان « ليتل تشاك » عضواً آخر من السكان الذين لا يعرفون من أين ستأتي وجبتهم القادمة ، ولكنه كان « جنتلمان » بالفطرة . وضع يده تحت مرفقيها وقاد الآنسة كارولان إلى مقدمة الغرفة وقال : « هيا ،

لاتخزني ياسيدي ، لاداعي للخوف من قملة . سأذهب وأجلب لك بعض الماء البارد » .

لم يبد مضيف القملة أي اهتمام على الإطلاق في الهرج الذي أحدثته ، بل مدّ يده باحثاً في فروة رأسه فوق جبينه ، ثم عين موقع ضيفه وسحقه بين إبهامه وسبابته .

راحت الآنسة كارولان تراقب العملية بافتنان مروع . جلب « ليتل تشاك » الماء في كأس ورقية ، وشربته هي بامتنان . وأخيراً وجدت صوتها فقالت بهدوء : « ما اسمك يا بني ؟ »

رمش الصبي بعينه وقال : « من ؟ أنا ؟ » فأومأت الآنسة كارولان برأسها .

قال : « بوريس يوويل » .

دققت الآنسة كارولان في دفتر الدوام ، ثم قالت : « لدي هنا « يوويل » ، ولكن ليس لدي الاسم الأول . . . هل لك أن تهجئ اسمك الأول ؟ »

قال : « لأعرف . انهم يسموني « بوريس » في البيت » .

قالت الآنسة كارولان : « حسناً يا بوريس . أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعلنرك بقية هذا اليوم . أريد منك أن تذهب إلى البيت وتغسل شعرك » .

ثم أخرجت من مكتبها كتاباً سميكاً ، وقلب بعض صفحاته

وقرأت فيه للحظة ، ثم قالت : « هناك علاج منزلي جيد لذلك . . . »
يا « يوريس » ، أريد منك أن تذهب إلى البيت وتغسل شعرك بصابون
القميل . وبعد أن تفعل ذلك ذلك فروة رأسك بالكيروسين » .

— لماذا يا آنستي ؟

— لتتخلص من . . . القمل . أتري معي يا يوريس أن الأطفال
الآخرين قد يصابون بالعدوى ، وأنت لا تريد ذلك ، هه ، مارأيك ؟

نهض الصبي . وكان أوسخ مخلوق بشري سبق لي أن رأيته في
حياتي . كان عنقه ذا لون رمادي غامق ، وظاهر يديه بلون الصدف ،
أما أظافر يديه فكانت سوداء وكان ما يحيط بها أسود أيضاً وحتى عمق
كبير . حلق الصبي في الآنسة كارولان من بقعة نظيفة بحجم الكف
كانت على وجهه . لم يكن قد لاحظ أحد وجوده على الأرجح ، لأن
الآنسة كارولان وأنا قد ألهينا الصف طوال فترة الصباح تقريباً .

قالت الآنسة كارولان : « يا يوريس ، أرجو أن تستحم قبل
عودتك صباح الغد » .

ضحك الصبي بوقاحة ثم قال : « لا يمكنك طردي يا آنستي . فأنا
كنت على وشك الزحيل ، فقد داومت الفترة المتوجبة علي لهذا العام » .
بدأت الآنسة كارولان محتارة ، ثم قالت : « مالذي تعنيه ؟ »
لم يجيبها الصبي ، بل شخر باحتقار .

أجابها أحد أعضاء الصف من الأكبر سنّاً : « انه واحد من عائلة
يوويل ياسيدتي » ، وتساءلت في نفسي ان كان هذا التفسير سيلاقي
الفشل نفسه الذي لاقته محاولتي . استأنف الصبي قائلاً : « المدرسة كلها
مليئة بهم . انهم يأتون في اليوم الأول من كل عام ثم يرحلون . ان
السيدة المسؤولة عن ضبط التغيب تجبرهم على الحضور إلى هنا لأنها
تهددّهم بالمأمور ، ولكنها قد تخلّت عن محاولة ابقائهم . وهي تعتقد
أنّها قد طبقت القانون طالما أنّها تضع أسماءهم على السجل وتحضرهم
إلى هنا في اليوم الأول . ومن المفترض أن تضعي اشارة التغيب عند
أسمائهم بقية العام . . . »

سألت الآنسة كارولان :

— وماذا عن أبويهم ؟

— ليس لديهم أم ، وأبويهم من النوع المشاكس .

شعر « بورييس يوويل » بالغرور لهذا الوصف . فقال بصراحة :
« أنا أحضر إلى المدرسة أول يوم من كل عام في الصف الأول منذ
ثلاثة سنوات . وأعتقد أنّي لو كنت ذكياً هذا العام فسوف يرفعوني
إلى الصف الثاني . . . »

قالت الآنسة كارولان : « عد إلى مكانك يا بورييس من فضلك » ،
وفي اللحظة التي قالت فيها هذه الجملة أدركت أنّها ارتكبت خطأ

جسيماً . تحول تنازل الصبي إلى غضب فجأة فقال : « هيا وحاولي
يا أنسي » .

نهض « ليتل تشاك ليتل » واقفاً وقال : « دعيه يرحل ياسيدي
انه شخص خسيس ، خسيس جداً . ومن المحتمل أن يحاول شيئاً ما ،
وهناك بعض الأطفال الصغار هنا » .

كان ضئيل الحجم جداً ، ولكن حين استدار « بوريس يوييل »
نحوه ، امتدت يد « ليتل تشاك » إلى جيبه . قال : « انتبه ، قد أقتلك
بلمح البصر . والآن اذهب إلى بيتك » .

بدأ بوريس خائفاً من طفل له نصف طوله ، وقد استغلت الآنسة
كارولان تردده فقالت : « يا بوريس اذهب إلى البيت . وإذا لم تفعل
فسأستدعي مدير المدرسة ، وسوف أعلمه بما حدث على أية حال » .
شعر الصبي ثم مثنى بترهل وببطء حتى الباب .

ولما أصبح خارج الغرفة وعلى مسافة مأمونة ، استدار وصاح :
« قولي للمدير عليك اللعنة . لن تقدر معلمة مومس ذات أنف سيّالة
أن تجعلني أفعل أي شيء . لا تستطيعين جعلي أذهب إلى أي مكان يا آنسة .
تذكرني ذلك . لا تستطيعين جعلي أن أذهب إلى أي مكان » .

ثم انتظر حتى تأكد من أنها قد أجهشت بالبكاء ، وأسرع خارجاً
من المبنى .

وسرعان ما كنّا قد تملقنا حول مكتبها ، محاولين كل بطريقته أن نخفف عنها : لقد كان شخصاً خصباً بالفعل . . . تحت الحزام . . . أنت غير مطلوب منك أن تعلّمي أشخاصاً كهؤلاء . . . انهم لا يتصرفون كما يتصرف أهالي مايكوم ، يآنسة كارولان ، وهذا أمر أكيد . والآن هيا لاتغضبي ياسيدي . يآنسة كارولان لماذا لاتقرئين لنا حكاية ؟ ان قصة تلك الهرة في الصباح كانت جميلة فعلاً . .

ابتسمت الآنسة كارولان ، ثم تمخضت بمنديل وقالت : « شكرأ ياأحبابي » . وبعدها طلبت منا العودة إلى مناضدنا ، وفتحت كتاباً وحيرت الصف الأول بحكاية طويلة عن ضفدعة كانت تعيش في قصر فخم .

حين مررت بالقرب من منزل آل رادلي للمرة الرابعة في ذلك اليوم - منها مرتان بأقصى سرعتي في الجري - زادت كآبتي حتى ساوت كآبة ذلك المنزل . فاذا كانت بقية أيام العام الدراسي مشحونة بالدراما كما هو اليوم الأول ، فستكون مسلية إلى حد ما ، ولكن امكانية اتفاق تسعة أشهر ممسكة عن القراءة والكتابة جعلتني أفكر في الهرب .

في فترة العصر كانت معظم خططتي للسفر قد أصبحت كاملة : وحين جاء موعد سنائي مع جم على طول الرصيف للقاء أتيكوس العائد من العمل لم أسابق جم هذه المرة . كنّا قد اعتدنا على الجري للقاء

أتيكوس لحظة أن نراه من بعيد يمر عند زاوية مكتب البريد . ويدو
أن أتيكوس كان قد نسي سقطتي في استراحة الغداء ، وكان لديه
الكثير من الأسئلة حول المدرسة . ولكن اجاباتي كانت موجزة جداً
ولم يحاول هو أن يضغط علي للحصول على أجوبة شافية .

ربما أحست كالبورنيا أن يومي كان كثيباً : فقد تركتني أراقبها
وهي تحضر العشاء . قالت : « أغلقي عينيك وافتحي فمك فعندي
مفاجأة لك » .

لم تكن كالبورنيا تصنع الخبز الهشّ المحمص إلا نادراً ، فهي
تقول انها لاوقت لديها لذلك ، ولكن مع وجودنا كلينا في المدرسة
اليوم ، فقد كان من السهل عليها ذلك . كانت تعرف أنني أحب الخبز
الهشّ المحمص .

قالت : « لقد افتقدتك اليوم . وشعرت بالوحدة حوالي الساعة
الثانية إلى درجة أنني اضطررت إلى فتح الراديو » .

— لماذا ؟ جم وأنا لانكون في البيت أبداً إلا إذا هطل المطر .
— أعرف ذلك ، ولكن هناك أحدكما باستمرار على مسافة قريبة
بحيث يسمعي إذا ناديت . ولا أعرف كم من النهار قد مرّ وأنا أناديكم .

ثم نهضت من على كرسي المطبخ واستأنفت قائلة :

— حسناً ، لدي الآن كما أعتقد وقت كاف لتحميم مايملاً

مقلاة من الخبز الهش المحمص . هيا انصرفي الآن ودعيني أحضر
مائدة العشاء .

انحنيت كالبورنيا وقبلتني . انصرفت وأنا أتساءل في نفسي عما
يكون قد حصل لها . لقد أرادت أن تصالحني ، هذا كل ما في الأمر .
لقد كانت قاسية عليّ دائماً ، كما أنها لاحظت أخيراً عاقبة أساليبها
النكدة ، وهي آسفة ولكنها أعند من أن تقرر بذلك . كنت منهكة من
حماقات اليوم .

بعد العشاء ، جلس أتيكوس مع الصحيفة وصاح قائلاً : « ياسكاوت
هل أنت جاهزة للقراءة » . لقد حملني الله هذا اليوم أكثر مما أستطيع
احتماله ، ولذا ذهبت إلى الرواق الأمامي ، فتبعني أتيكوس :
— ما الأمر ياسكاوت ؟

قلت لأتيكوس إنني لست على مايرام ، واني لأفكر بالذهاب إلى
المدرسة إذا كان يوافق على ذلك .

جلس أتيكوس في الأرجوحة وصالب ساقيه . تجوّلت أصابعه
حتى ساعة جيبه ، وقال ان تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكنه من
التفكير . كان ينتظر في صمت ودود ، ورغبت في أن أدمع موقفي ،
فقلت :

— أنت لم تذهب إلى المدرسة أبداً ومع ذلك فهذا لم يضربك ،

ولذا سأبقى في البيت أنا أيضاً . بإمكانك أن تعلمني كما علمك جدّي
أنت والعم جاك .

— لا ، لأستطيع ، علي أن أعمل لأعيش . وفوق ذلك ، سيفزعوني
في السجن إذا أبقيتك في البيت . ستأخذين جرعة من المغنيسيا هذه الليلة
وغداً إلى المدرسة .

— أشعر أنني بخير ، فعلاً .

— ظننت ذلك . والآن قل لي ما الأمر ؟

وشيئاً فشيئاً حكيت له عن المحن التي عانيت منها ذلك اليوم ،
ثم قلت :

— كما قالت لي إن ما علمتني إياه خطأ في خطأ كله ، ولذا لن
نستطيع أن نقرأ بعد اليوم ، أبداً . أرجوك لا تجبرني على العودة إلى
المدرسة ، أرجوك ياسيدي .

نهض أتيكوس ثم مشى حتى نهاية الرواق . وحين أنهى فحصه
لنبات « الحلوة » المتسلق عاد إلي وقال :

— أولاً ، إذا كنت تستطيعين تعلّم حيلة صغيرة ياسكاوت ،
فسيمكنك أن تتعايشي على أفضل نحو مع أنواع البشر كافة . لا يمكنك
أن تفهمي شخصاً ما بالفعل حتى تنظري إلى الأمور بمنظاره هو . . .
— ياسيدي ؟

— وحتى تلبسي جلده وتنجولي به .

ثم قال أتيكوس اني تعلمت أشياء كثيرة اليوم ، كما أن الآنسة كارولان قد تعلمت أموراً عديدة هي أيضاً . لقد تعلمت ألاّ تسلم شيئاً لفرد من عائلة كانينغهام ، هذه واحدة ، ولكن لو أننا ، وولتر وأنا ، نظرنا إلى الأمور من وجهة نظرها هي ، لكننا لاحظنا أن ما ارتكبته هي كان خطأ بريئاً من جانبها . لم يكن علينا أن نتوقع منها أن تلم بميزات مايكوم كلها في يوم واحد ، ولا يمكننا تحميلها المسؤولية حين تكون هي جاهلة بيوطن الأمور .

قلت :

— لم أستطع أن أفعل سوى ما فعلته ، ومع ذلك فقد حملتني المسؤولية . اسمع يا أتيكوس ، ليس علي أن أذهب إلى المدرسة .

ثم جاءني فكرة مفاجئة فانفجرت قائلة :

— بريس يوويل ، هل تذكره ؟ انه يذهب إلى المدرسة في اليوم الأول فحسب . والسيدة المسؤولة عن ضبط التغيب تعتقد أنها نفذت القانون طالما أنها تسجل اسمه في دفتر الدوام . . .

— لا يمكنك فعل ذلك ياسكاوت . من الأفضل أحياناً أن يلوي المرء القانون بعض الشيء في حالات خاصة . وفي حالتك أنت يبقى القانون صارماً غير قابل للتوي . إذن عليك أن تذهبي إلى المدرسة .

— لا أفهم لماذا علي أنا أن أذهب بينما لا يذهب هو .

— إذن استمعي إلي .

قال أتيكوس ان عائلة يوويل كانت عاراً على مديرية مايكوم منذ ثلاثة أجيال . فلم يقيم أي منهم بعمل يوم واحد شريف ، على ما يذكر . ثم قال انه في أحد أعياد الميلاد القادمة ، وحين سيذهب ليرمي بشجرة الميلاد بعيداً ، سيأخذني معه ويريني أين وكيف يعيشون . قال انهم أشخاص ولكنهم يعيشون كحيوانات . ثم قال :

— يمكنهم أن يذهبوا إلى المدرسة متى أرادوا ، وذلك حين يكون لديهم الرغبة في التعلم . هناك أساليب لاجبارهم على الدوام في المدرسة بالقوة ، ولكنه من الحمق ارغام أشخاص كمعائلة يوويل على العيش في بيئة جديدة . . .

— إذا لم أذهب إلى المدرسة غداً ، فهل سترغمني على ذلك ؟

قال أتيكوس بلهجة جافة :

— لنترك الأمر عند هذا الحد . أنت ياكسة سكاوت فينتش من عامة الناس . عليك أن تطيعي القانون .

ثم قال ان أفراد عائلة يوويل أعضاء مجتمع استثنائي مؤلف من هؤلاء اليوويل أنفسهم . وضمن ظروف بعينها ، فان عامة الناس قد منحوهم عن حكمة بعض المزايا عن طريق غض النظر عن ممارسات بعينها . فهم غير مضطرين للذهاب إلى المدرسة ، هذه واحدة ، كما

سمح لبوب يوويل ، وهو والد بوريس ، بالصيد ونصب الأفخاخ خارج الموسم وهذه واحدة أخرى .

قلت له : « هذا ليس بالأمر الجيد يا أتيكوس » . كان الصيد خارج الموسم في مديرية مايكوم ، جنحة في عرف القانون ، وجناية في عرف السكان .

قال أبي :

— هذا ضد القانون ، حسناً ، وهو بالتأكيد أمر سيء ، ولكن حين ينشق رجل شيكاته التي يتلقاها كمعونة تمنح للفقراء على الويسكي الرديء ، فإن أطفاله سيكون بسبب آلام الجوع . ولا أعرف أي ماله أراض في هذه الناحية يضمن على أولئك الأطفال بأية طريقة قد يصطادها أبوهم » .

— ولكن ليس على السيد يوويل أن يفعل ذلك . . .

— طبعاً . ولكنه لن يغير أساليبه . هل ستتخلين الآن عن استهجانك لأطفاله ؟

همست قائلة أن لا ياسيدي ولكنني حاولت أن أقف وقفة أخيرة :

— ولكنني لو تابعت الذهاب إلى المدرسة ، فلن نستطيع ممارسة القراءة بعد الآن . . .

— وهل هذا يزعجك فعلاً ؟

— نعم ياسيدي .

حين نظر إليّ أتيكوس من فوق ، رأيت ذلك التعبير على وجهه الذي يجعلني دائماً أتوقع شيئاً ما . ثم سألتني :

— هل تعرفين ماهي التسوية ؟

— أن نلوي القانون ؟

— كلا ، هي عبارة عن اتفاقية يتم الوصول إليها بالتنازل المشترك من الجانبين . والطريقة التي تعمل بها كما يلي : إذا تنازلت أمام ضرورة الذهاب إلى المدرسة ، فسوف نستمر في كل ليلة بالقراءة كما كنا نفعل دائماً . هل توافقين على هذه الصفقة ؟

— نعم ياسيدي .

— سنعتبر الصفقة قد أبرمت دون الشكليات المعتادة .

هذا ما قاله لي أتيكوس حين رأيته أحضر نفسي لأبصق على يدي .

حين فتحت الباب المنخلي الأمامي قال أتيكوس :

— ياسكاوت ، من الأفضل ألا تذكرني لأحد في المدرسة شيئاً

عن صفقتنا .

— ولم لا ؟

— أخشى أن تُلَاقِي نشاطاتنا عدم الموافقة من قبل السلطات الأكثر ثقافة .

كنا جم وأنا ، معتادين على مفردات والدنا القانونية من النوع الذي يقال في الوصايا الأخيرة ، وكانت لنا حرية مقاطعة أتيكوس طلباً للترجمة حين يكون الكلام أصعب من أن نفهمه .

— ماذا ياسيدي ؟

— أنا لم أذهب إلى المدرسة أبداً ، ولكن لديّ شعور بأنك لو قلت للآنسة كارولان اننا نقرأ كل ليلة ، فسوف تلاحقني قضائياً ، وأنا لأريدها أن تفعل ذلك .

في ذلك المساء جعلنا أتيكوس في حالة استثارة مستمرة حين راح يقرأ بجديّة مقالة حول رجل جلس فوق سارية علم دون سبب معروف ، ولكنه كان سبباً كافياً بلحم كمي يقضي يوم السبت التالي في الكوخ الذي فوق الشجرة . جلس جم هناك بعد أن تناول افطاره وظل هناك حتى غروب الشمس ، وكان سيبقى طوال الليل لو لم يقطع أتيكوس خطوط تمويته . وقد أنفقت معظم نهاره وأنا أصعد وأهبط متسلقة الشجرة ، وأنا أوصل له رسائله ، وأجلب له الكتب والطعام والماء ، وكنت أحمل له البطانيات لأجل الليل حين قال أتيكوس اني ألو أهملت جم فسوف يهبط بنفسه . كان أتيكوس على حق .

الفصل الرابع

لم تكن بقية أيام المدرسة أكثر يمناً من الأيام الأولى . فقد كانت بالفعل « مشروعاً » لانهاية له تطور ببطء متحولاً إلى « وحدة » أنفق فيها آميال من أوراق البناء وأقلام الشمع من قبل ولاية ألاباما التي كانت تبذل جهوداً حسنة النية وانما عقيمة لتعليمي « ديناميكية الجماعة » . كان ماسماه جم ؛ « نظام ديوي العشري » قد عمم على المدرسة كلها في نهاية سنتي الأولى فيها ، لذا لم أستطع مقارنته بتقنيات التعلم الأخرى . كان كل ما أستطيعه هو النظر إلى ماحولي : وكنت أرى أتيكوس وعمي اللذين درسا في البيت ، يعرفان كل شيء : على الأقل كان الذي لايعرفه أحدهما يعرفه الآخر . وفوق ذلك ، ولم أستطع سوى أن ألحظ أن والذي كان قد خدم لسنوات في برلمان الولاية وانتخب في كل مرة دون معارضة ، وهو البريء من التعديلات التي ظن أساتذتي أنها جوهرية لتنمية « المواطنة الجيدة » . كان جم الذي تعلم وفق منهج « ديوي » ومنهج « دانس » ، النصف بالنصف ، يبدو لي ممتاز الأداء أكان وحده أم ضمن مجموعة ، ولكن جم كان مثلاً سيئاً : فلم يكن هناك نظام

تعليمي صمم للانسان يمكن أن يمنعه من الولوج في الكتب . أما بالنسبة لي ، فلم أكن أعرف إلا ما كنت أُللمه من مجلة « تايم » وقراءة كل مايقع بين يديّ في البيت ، ولكن وبينما كنت أتقدم ببطء وفق طاحونة تعذيب النظام المدرسي لمديرية مايكوم ، لم أكن أستطيع مغالبة تلقّي الانطباع بأنّي كنت أخدع نوعاً ما . لم أكن أعرف نوع الخداع ، ولكنّي لم أصدق أن ماترمي إليه الولاية هو اثنتا عشرة سنة من الملل المستمر .

ومع مرور السنة الأولى ، وبما أنّي كنت أنصرف في المدرسة قبل جم بنصف ساعة ، حيث كان عليه البقاء حتى الساعة الثالثة ، كنت أجري مارة بمنزل آل رادلي ، ودون أن أتوقف حتى أصل إلى أمان رواقنا الأمامي . وفي عصر أحد الأيام ، وبينما كنت أجري لفت نظري شيء ما وبطريقة جعلتني آخذ نفساً عميقاً ، ونظرة طويلة ، ثم أعود أدراجي .

كان هناك سنديانثان حيتان على طرف المرج المحيط بمنزل آل رادلي ، وكانت جذورهما تصل حتى جانب الطريق فتجعله كثير المطبات . وقد لفت نظري شيء ما في إحدى الشجرتين .

كان هناك ورق مفضّض محشور في ثقب عقدة فوق مستوى عينيّ مباشرة ، وكان يغمرني في شمس ذلك العصر . وقفت على رؤوس أصابع قدميّ ، ونظرت حولي بسرعة مرة أخرى ، ثم مددت يدي إلى الثقب وسحبت قطعتين من العلكة ناقصتين غلافهما الخارجي .

كان الدافع الأول هو أن أدس أحدهما في فمي بأسرع ما يمكن ،
ولكنني تذكرت أين كانتا . جريت إلى البيت ولما صرت فوق رواقنا
الأمامي تفحصت غنيمي . بدت العلكة طازجة . شممتها وكانت
رائحتها طيبة . لعقتها وانتظرت برهة . ولما لم أمت دسستها في فمي :
إنها علكة « ريغلي » ذات النعناع المضاعف .

حين جاء جم إلى البيت سألتني عن مصدر ما كان يحشو فمي .
فقلت له إنني وجدتها .

— لاثأكلي الأشياء التي تجدنيها .

— لم تكن على الأرض ، كانت على شجرة .

زجر جم ، فقلت له :

— حسناً كانت هناك محشورة في تلك الشجرة ، التي نمر بها لدى
عودتنا من المدرسة .

— ابصقيها فوراً .

بصقتها . كانت نكهتها قد بدأت تذهب ، على أية حال .

— هاأنذا أعلكها طوال فترة العصور لم أمت بعد ، ولست مريضة حتى ..

ضرب جم الأرض بقدمه :

— ألا تعرفين أنه ليس من المفروض حتى أن تلمسي الشجرات

التي هناك ؟ ستقتلين لو فعلت ذلك .

- أنت لمست المنزل مرة .
- كان ذلك أمراً مختلفاً . اذهبي وتمضمضي فوراً ، ألا تسمعيني ؟
- إن أفعل ذلك فانه سيزيل النكهة من فمي .
- إذا لم تصغي إلى ما أقول فسأذهب وأشي بك إلى كالبورنيا .
- فعلت ما طلبه مني جم مفضلة ذلك على شجار مع كالبورنيا . ولسبب ما ، فإن سنتي الأولى في المدرسة قد جعلت تغييراً كبيراً يطرأ على علاقتنا : فقد تحول استبدادها وظلمها وتدخلها في شؤني إلى همهمات مستنكرة . ومن ناحيتي ، فقد كنت شديدة الحرص على ألا أثير غضبها .
- كان الصيف في طريقه إلينا ، وكنا ، جم وأنا ، ننتظره بفارغ الصبر ، فقد كان الصيف أفضل الفصول عندنا : كان يعني النوم على الرواق الخلفي المغطى بشريط منخلي ضمن أسرة صغيرة ، أو محاولة النوم في كوخ الشجرة . كان الصيف يعني المأكولات الطيبة ، وكان ألماً من الألوان في الطبيعة المسفوعة ، ولكن الصيف كان أولاً وقبل كل شيء : « ديل » .
- صرفتنا الإدارة باكرراً في آخر يوم في المدرسة ، ومشينا جم وأنا إلى البيت معاً .
- قلت له :
- أعتقد أن صاحبنا القديم ديل سيعود غداً .

— ربما بعد غد ، ففي الميسيسيبي تعطل المدارس بعدنا يوم .

ولدى وصولنا إلى السنديانتين الحيتين قرب منزل آل رادلي ، رفعت أصبعي لأشير للمرة المئة إلى ثقب العقدة حيث وجدت مرة العلكة ، وأنا أحاول أن أقنع جم أنني وجدتُها هناك ، ولكنني وجدت نفسي أشير إلى قطعة أخرى من الورق المفضّض .

— اني أراها ياسكاوت ، اني أراها . . .

نظر جم فيما حوله ثم مد يده ودس في جيبه بجلر شديد اللفافة الصغيرة اللامعة . جرينا إلى البيت ، وعند الرواق الأمامي فتحنا علبة صغيرة مرقعة بورق مفضّض تم تجميعه من الورق الذي تلف به العلكة . كان ذلك النوع من اللعب الذي توضع فيه خواتم الزواج ، إذ كانت مخملية ذات لون أرجواني ولها ماسكة دقيقة . فتح جم الماسكة الدقيقة ، فوجدنا في العلبة قطعتين نقديتين مصقولتين من فئة الست الواحدة فوق الأخرى . فحصهما جم ، ثم قال :

— انهما من النوع المنحوت عليه رأس هندي ، التاريخ ١٩٠٦ والأخرى ١٩٠٠ ياسكاوت هذان قديمان فعلاً .

— ١٩٠٠ ، إذن . . .

— اصمّي للحظة . أنا أفكر .

— ألا تعتقد يا جم أن هذا نجباً شخص ما ؟

— لا ، لا يمر أحد من هذا المكان ، ما لم يكن شخصاً كبيراً
في السن . . .

— الأشخاص الكبار ليست لهم مخابىء . أتعتقد أنه بإمكاننا
الاحتفاظ بهما ؟

— لأعرف ما الذي سنفعله ياسكاوت . لمن سنعيدهما ؟ أعرف
أنه لا يمر أحد من هناك وهذه حقيقة . . . فسيسيل يذهب من الشارع
الخليفي ويدور حول البلدة كلها حتى يصل إلى البيت .

كان « سيسيل جاكوبس » ، الذي كان يعيش في نهاية شارعنا
إلى القرب من مكتب البريد ، يمشي مسافة تعادل ميلاً كاملاً في كل
يوم مدرسي حتى يتجنب منزل آل رادلي ، ومنزل السيدة عجوز زوجة
هنري لافاييت دوبوز . السيدة دوبوز كانت تسكن في منزل يبعد
عنا ببنايين فقط : وكان الحيّ مجمعاً على أنها أخصّ امرأة عجوز
عاشت على هذه الأرض . وما كان جم ليرضى أن يمرّ إلى القرب من
منزلها دون أن يكون أتيكوس إلى جانبه .

— ما الذي سنفعله يا جم ؟

ان الذي يجد شيئاً يحتفظ به ما لم يعرف مالكة . كان قطف زهرة
كاميليا أحياناً ، أو رضاعة بعض الحليب من ثدي بقرة الآنسة مودي
أتكينسون في يوم صيفي ، أو قطف بعض العنب من كرمة أحد الإخيران ،

كان ذلك كله جزءاً من ثقافتنا الأخلاقية ، أما النقود فكانت أمراً مختلفاً .

قال جم :

— سأقول لك ماذا سنفعل . سنحتفظ بالنقود حتى تبدأ المدرسة ، ثم ندور ونسأل كل شخص ان كان البنيان له . ربما كانا لطفل من ركاب الباص ، وربما كان قد انهك في الانصراف من المدرسة اليوم ونسيهما . أعرف أنهما لشخص ما . ألا ترين كيف تم صقلهما ؟ لقد ادخرهما شخص ما .

— نعم ، ولكن لماذا سيضع شخص ما علكة هناك ؟ أنت تعرف أن العلكة لاتدوم طويلاً .

— لأعرف ياسكاوت . ولكن هذين البنسين مهمان لشخص ما ...

— وكيف يكون ذلك يا جم ؟

— حسناً . انهما من النوع المنحوت عليه رأس هندي . . . هذا يعني أنهما جاءا من الهنود . وهذان سحريان ، ويععلان حفلك سعيداً . طبعاً لايجلبان لك دجاجاً مقلباً حين ترغبين به ولا تجدينه ، ولكنهما يجلبان طول العمر والصحة الجيدة ، والنجاح في امتحانات الأسابيع الستة . . . لهذين البنسين قيمة كبيرة لدى شخص ما . سأضعهما في صندوقي . وقبل أن يذهب جم إلى غرفته ، نظر لفترة طويلة إلى منزل آل رادلي . وبدا وكأنه يفكر من جديد .

بعد يومين وصل « ديل » متألفاً بالمجد : كان قد ركب القطار

وحده من ميرديان إلى « مفترق مايكوم » (كان ذلك لقباً للمجاملة ، فقد كان مفترق مايكوم الحقيقي في مديرية « أبوت ») حيث استقبلته الآنسة راشيل في تاكسي مايكوم الوحيدة . وكان قد تناول غداءه في مقصورة الطعام ورأى توأمين ملتصقين ينزلان من القطار في « باي سانت لويس » وتمسك بقصته رغم التهديدات . كان قد نبذ عنه بنطاله الشورت الأزرق الكريه المزّر إلى قميصه وارتدى الآن بنطال شورت حقيقياً ذا حزام . بدا الآن أسمن قليلاً ، ولكن ليس أطول ، وقال انه رأى أباه . كان أبو « ديل » ذاك أطول من أبينا ، وكانت له لحية سوداء (مدبّبة) ، وكان رئيس شركة خط حديد « ال أند ان » .

قال ديل متثائباً . :

— ساعدت المهندس لفترة خلال الرحلة .

— فعلت ذلك في أذن خنزير ياديل . هيا اسكت . والآن ماذا سنلعب ؟

— تمثيلية « توم وسام وديك » . هيا نذهب إلى الفناء الأمامي .

كان ديل يريد أداء تمثيلية أولاد « عائلة روفر » لأنه كانت هناك ثلاثة أدوار محترمة في التمثيلية .

قلت :

— لقد مللت من أولئك .

كنت فعلاً متعبة من لعب دور « توم روفر » الذي يفقد ذاكرته فجأة في منتصف التمثيلية ثم يخرج منها حتى النهاية ، حيث يعود وهو في الألاسكا .

قلت له :

— اخترع لنا واحدة يا جيم .

— تعبت من الاختراع .

كانت تلك أول أيام حريتنا ، وكنا متعبين . وكنت أتساءل في نفسي عما سيجلبه لنا الصيف .

سرنا إلى الفناء الأمامي ، حيث وقف ديل وراح ينظر إلى الشارع نحو واجهة منزل آل رادلي الكثيفة . قال : « أشم . . . رائحة الموت . وأنا أعني ذلك . » قال ذلك حين طلبت منه أن يخرس .

— هل تعني أنك تستطيع أن تشم رائحة الموت حين يكون شخص ما قيد الاحتضار ؟ .

— لا ، أعني أنني أستطيع أن أشم شخصاً ما وأعرف ان كان سيموت . لقد علمتني إحدى السيدات العجائز الطريقة .

مال ديل ثم شممني وقال :

— يا جان — لويز — فينتش ، ستموتين خلال ثلاثة أيام .

— يا ديل إذا لم تسكت فسوف أضربك حتى تلتوي ساقاك . وأعني ذلك . والآن : . .

زبحر جم قائلاً :

— هيا اسكنوا ، تنصرفون وكأنكم تؤمنون : « الأبخرة الحارة » .

— أنت تنصرف وكأنك لاتؤمن بها .

سأل ديل :

— ماهو « البخار الحار » ؟

سأل جم ديل :

— ألم يسبق لك أن سرت في طريق منعزل في الليل ومررت بمكان حار ؟ ان « البخار الحار » هو روح لاتستطيع الصعود إلى السماء ، فتتخبط في الطرقات المنعزلة ، وإذا ما اصطدمت بها ، فانك ستصبح مثلها يوم تموت ، وسوف تتجول في الليل وتمتص أنفاس الناس . . .

— وكيف يمكنك تجنب الاصطدام بها ؟

— لا يمكنك ذلك . فأحياناً تمتد عبر الطريق كلها ، ولكن لو حدث واصطدمت بأحدها فقل : « أيها الملاك اللامع ، يا حياة في الموت ، ابتعد عن طريقي . لاتمتص أنفاسي . » وهذا لا يجعلها تلتف عليك .

قلست :

— لاتصدق كلمة مما يقوله ياديل ، وكالبورنيا تقول ان ذلك مجرد لغو زنجي فارغ .

نظر إلي جم عابساً ولكنه عاد فقال :

— حسناً ، ألن نلعب أم ماذا ؟

قلت :

— هيا نتدحرج جالسين ضمن العجلة .

تنهد جم وقال :

— تعرفان أنني أكبر من ذلك .

— بامكانك أن تدفعنا .

هرعت نحو الفناء الخلفي وأخذت عجلة سيارة عتيقة من تحت المنزل . رميت بها في الفناء الأمامي وقلت :

— أنا الأولى .

قال ديل انه يجب أن يكون الأول ، فهو قد وصل للتو .

تدخل جم وفرض رأيه . سأكون أنا الأولى ولكنه سيمنح ديل وقتاً اضافياً ، وهكذا حشرت نفسي داخل العجلة .

وحتى حدث ماحداث ، لم أكن قد أدركت أن جم انزعج من تكليبي لصحة ماقاله حول « الأبنزة الحارة » وأنه كان ينتظر بفارغ

الصبر فرصة مكافأني على ذلك . وقد فعل ذلك بأن دفع بالعجلة على طول الرصيف بكل مافي جسمه من قوة . وما أن فعل حتى انصهرت الأرض والسماء والبيوت متحولة إلى باليت (١) مجنون ، وخفقت أذناي وشعرت بالاختناق . لم أستطع أن أمد يدي لأوقف العجلة فقد كانتا محشورتين بين صدري وركبتي . ولم أكن آمل في أن يستطيع جم أن يسبق العجلة فيوقفها وأنا فيها ، أو أن أتوقف بسبب نتوء ما في الرصيف . وسمعته ورائي بطارد يصرخ .

توقفت العجلة على حصوة ، ثم سارت عبر الطريق واصطدمت بحاجز ورمني كفليئة على الرصيف . تمددت فوق الاسمنت دائمة أشعر بالغثيان وهزرت رأسي حتى سكن وشفعت أذني حتى صمتا ، وعندها سمعت صوت جم :

— سكاوت ، هيا ، تعالي من هنا .

رفعت رأسي وحدثت في درجات منزل آل رادلي التي كانت أمامي مباشرة . تجمدت في مكاني .

كان جم يصرخ :

— هيا ياسكاوت ، لاتبقي هناك . انهضي ، ألا تستطيعين ؟

نهضت على قدمي مرتجفة بينما شعرت بالدفع من جديد .

(١) خشبة الرسام التي يمزج عليها ألوانه (المترجم) .

صرخ جم :

— اجلي العجلة ، اجليها معك . أليس فيك عقل ؟
وحين استطعت قيادة سفيتي ، جريت عائدة إليهم بأسرع
ما استطاعت ساقاي المرتجتان حملي .

صرخ جم :

— لماذا لم تجليها ؟

فصرخت فيه :

— لماذا لا تجليها أنت ؟

صمت جم فقلت :

— هيا ، انها ليست بعيدة جداً من البوابة . ألا تذكر أنك لمست
المنزل مرة ؟

نظر إلي جم بجنون ، ولم يستطع التراجع فجري على امتداد الرصيف
وداس في بركة من الماء عند البوابة ، ثم اندفع وأحضر العجلة .

عبس جم منتصراً :

— هل ترين . لاشيء في ذلك . أقسم ياسكاوت أنك تتصرفين
كفتاة إلى حد كبير أحياناً ، وهذا ميت .

كان ماحدث أكثر مما عرفه ، ولكني قررت ألا أخبره .

ظهرت كالبورنيا في الباب الأمامي وصاحت :

— جان وقت الليمونادة . هيا ادخلوا واحتموا جميعاً من تلك الشمس الحارة قبل أن تُقَلَّوا أحياء . كانت الليمونادة في منتصف الصباح من طقوس الصيف . وضعت كالبورنيا ابريقاً وثلاث كؤوس على الرواق ، ثم عادت إلى عملها . لم أكن أنزعج كثيراً أن كان جم غاصباً مني ، إذ كانت الليمونادة تعيد ماتعكر من مزاجه إلى صفائه .

عب جم كأسه المترعة الثانية ثم ضرب على صدره وقال :

— أعرف ماذا سنلعب . سنلعب شيئاً جديداً ، شيئاً مختلفاً .

سأله ديل :

— وماذا هو ؟

— بورادلي .

كان رأس جم شفافاً في بعض الأحيان : لقد اخترع هذه الفكرة حتى يجعلني أفهم أنه ليس خائفاً من آل رادلي بأي شكل من الأشكال ، وحتى يبين ما بين بطولته الجريئة وجنبي .

سأل ديل :

— بورادلي ، كيف ؟

— ياسكاوت ، ستكوئين السيدة رادلي . . .

— أرفض ذلك . لأعتقد . . .

قال ديل :

— ما القصة ؟ هل لازلت خائفة ؟

قلت :

— يمكنه الخروج ليلاً حين نكون كلنا نأمن . . .

قال جم بصوت أشبه بالفحيح :

— ياسكاوت ، كيف يمكنه أن يعرف ما الذي نفعله ؟ وفوق ذلك ،

لاأظن أنه لا يزال هناك . لقد مات منذ سنوات وقد حنطوه ووضعوه
في المدخنة .

قال ديل :

— يا جم ، يمكننا أن نلعب أنت وأنا ، وسكاوت سراقب إذا

كانت خائفة .

كنت واثقة تماماً من أن بورادلي كان في داخل المنزل ، ولكني
لم أكن أستطيع اثبات ذلك ، وشعرت أنه من الأفضل لي أن أبقى
فهي مغلقاً ، أو أي سأتهم بالاممان بـ « الأبنجرة الحارة » ، وهي ظاهرة
كنت محصنة ضدها في النهار .

حدد جم أدوارنا : أنا سألعب السيدة رادلي ، وكل ماعلي فعله

هو أن أكنس الرواق . ديل هو السيد رادلي المعجوز : كان سيمشي

على طول الرصيف ذهاباً وإياباً ويسعل حين يتحدث جم إليه . وجم

كان سيلعب دور « بو » بالطبع : كان سيذهب إلى أسفل الدرج الأمامي
وبصرخ ويعوي من وقت إلى آخر .

ومع تقدم فصل الصيف تطورت لعبتنا . فقد صقلناها وأكملناها ،
وأضفنا إليها حواراً وعقدة حتى تحولت إلى تمثيلية صغيرة كنا نغير
فيها كل يوم .

دبل كان وغداً حقيقياً : فقد كان باستطاعته أداء أي دور ، وأن
يبدو طويلاً إذا كان الدور يتطلب ذلك . وكان خصباً إلى حد كبير :
أما أسوأ أداء له فكانت الأدوار القوطية . وكنت ألعب بتردد أدوار
السيدات المتنوعات اللواتي يدخلن نصوص التمثيليات . ولا أعتقد
أنها كانت أكثر متعة من دور طرزان . وكنت أؤدي أدوار في ذلك
الصيف وشيء أكثر من مجرد قلق غامض يحز في نفسي ، رغم تأكيدات
جم بأن بورادلي كان قد مات ، وأنه لاشيء سيصيني ، مع وجوده
ووجود كالبورنيا هناك في النهار ووجود أتيكوس في الليل .

كان جم قد ولد بطلاً .

كانت تلك التمثيلية دراما صغيرة وكثيرة ، محبوبة من قطع
وننف من الاشاعات وأساطير الحي : السيدة رادلي كانت جميلة
حتى تزوجت السيد رادلي وخسرت كل أموالها . كما فقدت معظم
أسنانها وشعرها وسبابتها اليمنى (هذه مساهمة من دبل . فقد أكل « بو »
اصبعها في إحدى الليالي حين لم يستطع أن يجد أي قطة أو سناجب

يأكلها) . وكانت تجلس في غرفة الجلوس وتبكي معظم الوقت ، بينما يقوم « بو » بتمزيق كل أثاث المنزل ببطء .

كان ثلاثتنا هم الأولاد الذين تورطوا في المشاكل . وكنت أحياناً « قاضي الإشهاد » كنوع من التغيير . أخذ جم ديل وحشره تحت الدرج ، وراح يلكزه بعصا المكنسة . وكان جم يعود للظهور وفق الحاجة بأشكال مختلفة : المأمور أو سكان البلدة المختلفون ، أو الأنسة ستيفاني كروفورد ، التي كان لديها ماقوله عن آل رادلي أكثر مما لدى البلدة كلها .

وحيث جاء وقت مشهد « بو » العظيم ، كان جم يتسلل إلى داخل المنزل ويسرق المقص من درج آلة الخياطة حين تكون كالبورنيا قد أدارت ظهرها ، ثم يجلس في الأرجوحة ويأخذ بقص الجرائد . أما ديل فيتمشى ويسعل باتجاه جم ، ويمثل جم أنه يطعن ديل في فخذيه . ومن حيث كنت أقف بدا الأمر وكأنه حقيقي .

وحيث كان السيد ناثن رادلي يمر بنا في مشواره اليومي إلى البلدة ، كنا نقف ثابتين صامتين حتى يغيب عن أنظارنا ، ثم نتساءل مالم الذي كان سيفعله بنا لو كان يشك فيما كنا نفعله . وكانت نشاطاتنا تتوقف كلما ظهر أحد الجيران ، وقد رأيت مرة الأنسة مودي أتكينسون تحديق فينا عبر الشارع ، وملاقط شعرها تشكل سياجاً ينتصب في الهواء .

في إحدى المرات كنا منهمكين جداً في تمثيل الفصل الخامس والعشرين ، الكتاب الثاني من تمثيلية « عائلة من رجل واحد » ، فلم

نر أنيكوس الذي كان يقف على الرصيف ينظر إلينا ، وقد راح يضرب على ركبته بمجلة ملفوفة كانت في يده . بدت الشمس وكأنها تقول ان الساعة هي الثانية .

سألنا :

— ماالذي تلعبونه جميعاً ؟

قال جم :

— لاشيء .

وفهمت من محاولة جم التملص أن لعبتنا كانت سرّاً ، ولذا بقيت صامتة .

— ماالذي تفعله بذلك المقص إذن ؟ لماذا تعمل تمزيقاً بتلك الجريدة ؟
إذا كانت جريدة اليوم فسادبغ جلدك .

— لاشيء .

قال أنيكوس :

— لاشيء ماذا ؟

— لاشيء سيدي .

— أعطني ذلك المقص . هذا ليس للعب . هل لهذا أية علاقة ياترى
بآل رادلي ؟

قال جم وقد احمر وجهه :

— لا ياسيدي .

قال أتيكوس بفظاظة :

— آمل ذلك .

ثم دخل البيت .

— يا جم . . . م . . .

— اخرسي . لقد ذهب إلى غرفة الجلوس ويستطيع أن يسمعنا

من هناك .

وبعد أن ذهبا إلى الفناء وأحسنا بالأمان ، سأل ديل جم ان كان

بإمكاننا أن نمثّل بعد الآن .

— لأعرف . أتيكوس لم يقل اننا لانستطيع . . .

قلت :

— يا جم ، أعتقد أن أتيكوس يعرف على أية حال .

— كلا ، لا يعرف . ولو كان يعرف لقال لنا ذلك .

لم أكن واثقة إلى هذا الحد ، ولكن جم قال لي اني فتاة ، وان

الفتيات يتخيّلن الأمور دائماً ، ولهذا فان الناس يكرهونهن إلى هذا الحد ،

ولو أني بدأت أتصرف كفتاة ، فعليّ أن أذهب وأجد شخصاً آخر

ألعب معه .

قلت :

— حسناً ، استمرا في اللعب وستعرفان .

كان وصول أتيكوس هو السبب الثاني في رغبتني التخلي عن اللعب .
وكان السبب الأول يعود إلى ذلك اليوم الذي تدرجت فيه ضمن
العجلة إلى داخل الفناء الأمامي لمنزل آل رادي . فخلال هزتي لرأسي
حتى يهدأ ومحاويتي تخفيف الغثبان الذي أصابني وصراخ جم ، سمعت
صوتاً آخر ، وكان صوتاً خفيضاً إلى درجة أنني ماكنت لأقدر على سماعه
من الرصيف . كان شخص ما يضحك في المنزل .

* * *

الفصل الخامس

استطاع نفسي أن يفهم جم أخيراً ، كما كنت أعرف مسبقاً ،
وقد أبطأنا اللعب لفترة ، مما جعلني أشعر بالراحة . ولكنه كان لا يزال
يصر على أية حال على أن أتيكوس لم يقل انه ممنوع علينا الاستمرار ،
ولذا كنا نستطيع الاستمرار ، ولو أن أتيكوس حدث وقال اننا لانستطيع،
فانه قد فكر في التحايل على الأمر : سيغير أسماء الشخصيات بحيث
لا يمكن أن نتهم بتمثيل أي شيء .

كان ديل قلباً وقالباً مع خطة العمل هذه ، وهاهو قد تحول إلى
عنة حقيقية ، فهو يتبع جم في كل شيء . كان قد سبق له وطلب
مني أن أتزوج في بداية الصيف ، ثم نسي الموضوع بسرعة . فهو
قد سيّجني ووضع علامته عليّ على أني من أملاكه ، وقال اني الفتاة
الوحيدة التي سيحبها مهما عاش ، ثم أهملني . وقد ضربته مرتين
ولكن ذلك لم يجد معه ، بل أصبح أكثر تعلقاً بجم . كانا يمضيان أياماً
بحالهما وحدهما في كوخ الشجرة يتأمران ويخططان ، ولا يستدعيانني
إلا إذا كانا في حاجة إلى طرف ثالث . ولكني بقيت بعيدة عن خططهما

الأكثر طيشاً لفترة ، وقضيت معظم فترات غروب أيام الصيف المتبقية — تحت طائلة عقوبة منادائي بالفتاة — مع الآنسة مودي أتكنسون على رواقها الأمامي .

كنّا جم وأنا نتمتع دائماً بجرية اللعب في فناء الآنسة مودي إذا ابتعدنا اللهم عن شجرات الأزاليا ، ولكن صلّتنا بها لم تكن محددة على نحو واضح . وبالنسبة لي كانت مجرد سيدة أخرى في الحي — وذلك حتى طردني جم ودبل من خططهما — ولكنها كانت على أية حال ذات حضور عذب نسبياً .

كانت معاهدتنا الضمنية مع الآنسة مودي تنصّ على أننا نستطيع اللعب في مرجها ، ونأكل من عنبها ، هذا إذا لم نقفز على التعريشة ، وأن نستكشف المرج الخلقي الواسع ، وهي شروط كريمة إلى حد كبير بحيث لم نكن نتحدث إليها إلا نادراً ، حريصين على الاحتفاظ بالتوازن الدقيق لعلاقتنا ، ولكن جم ودبل جعلاني أتقرب منها على نحو أوثق بسبب سلوكهما معي .

كانت الآنسة مودي تكره منزلها : كان الوقت الذي تمضيه داخل البيت يعتبر وقتاً ضائعاً . كانت أرملة ، سيدة متقلبة المزاج تعمل في أحواض زهورها مرتدية قبعة عتيقة من القش و « أوفرولا » رجالياً ، ولكنها كانت تخرج إلى رواقها الأمامي بعد حمام الساعة الخامسة ، وتهيمن على الشارع بجمال متمسك بالأبهة .

كانت تحب كل ما ينمو في أرض الرب ، وحتى الأعشاب الضارة ،
ولكن هناك استثناء وحيد . فلو وجدت عشبة واحدة من أعشاب الجوز
في فناءها ، لكان الأمر أشبه بـ « معركة المارن الثانية (١) » : فقد كانت
تنقض عليها بوعاء من القصدابير وترميها بنفحات من مادة سامة كانت
تقول أنها قوية إلى حد أنها ستقتلنا إذا لم نبتعد عنها .

سألته مرة بعد أن راقبتها وهي تقوم بحملة مطولة ضد عشبة لم
يبلغ ارتفاعها ثلاث بوصات :

— لماذا لا تقلعينها ؟

— أقلعها يا طفلي ، أقلعها ؟

ثم التقطت النبتة الرخوة وضغطت على سويقتها ، فخرجت منها
بذور دقيقة مجهرية .

قالت :

— يا إلهي ، ان سويقة واحدة من عشبة الجوز تستطيع تخريب فناء
بأكمله . انظري هنا . حين تكتمل هذه فانها تجف وتذرو الرياح هذه
البلور عبر مديرية مايكوم كلها . وكان وجهها حين ذاك يجعل الأمر
يبدو وكأنه أشبه بوباء من « العهد القديم » .

(١) جرت هذه المعركة في تموز / يوليو من عام ١٩١٨ (خلال الحرب العالمية الأولى)
حين قام الألمان بشن آخر هجوم ضخم على الحلفاء ، ولكنهم صدوا من قبلهم (المترجم) .

كانت لغتها بيّنة إذا ما أخذنا في الاعتبار كونها من سكان مديرية مايكوم . وكانت تنادينا كلنا بأسمائنا الكاملة ، وحين كانت تبسم كانت تكشف عن شعبين دقيقين ذهبيين مثبتين بناي فكه العلوي . وحين أبدت إعجابي بهما وتمنيت أن يكون لي مثلهما في يوم من الأيام قالت : « انظري إليّ » . ثم وبجركة من لسانها دفعت الجسر إلى الأمام ، وهي علامة من علامات الود التي دعمت صداقتنا .

كان كرم الآتسة مودي يمتد ليشمل جم وديل كلما توقفنا عن ألعابها : وقد حصدنا خيرات موهبة كانت الآتسة مودي تبقيها مخفية عنا حتى ذلك الحين . فقد كانت تصنع أفضل كعك في الحي . وحين أدخلناها في عالم أسرارنا ، فقد أضحت تصنع كعكة كبيرة وثلاث كعكات صغيرات في كل مرة تحبز فيها ، ثم تنادي عبر الشارع صائحة : « جم فينتش ، سكاوت فينتش ، تشارلز بيكر هاريس ، تعالوا إلى هنا . » وقد كان اسراعنا في الردّ يلاقي دائماً جزاء طيباً .

في الصيف ، يكون شفق الغروب طويلاً وهادئاً . وكنا نجلس غالباً ، الآتسة مودي وأنا ، بهدوء على رواقها ، ونراقب السماء ولونها يتدرج من الأصفر إلى الوردي خلال انحدار الشمس إلى مبيتها ، وتحلق طيور الخطاف وهي تبحث الجوار ثم تحتفي وراء سقف المدرسة .

قلت في إحدى الأمسيات :

« آتسة مودي ، هل تعتقدين أن بورادلي لازال حياً ؟ »

قالت :

— اسمه آرثر وهو لا يزال حياً .

كانت تتأرجح في كرسىها الكبير المصنوع من خشب السنديان
واستأنفت قائلة :

— هل تشمين رائحة نبات الميموزا الذي في حديقتي ؟ انها أشبه
بأنفاس الملائكة هذا المساء .

— نعم ياسيدتي . وكيف تعرفين ؟

— أعرف ماذا يطفلي ؟

— أن . . . السيد آرثر لا زال حياً ؟

— ياله من سؤال كثيب . وأعتقد أنه موضوع كثيب . أعرف
أنه حي يا جان لويز لأنني لم أر جثمانه يحمل خارج المنزل بعد .
— ربما مات وحشروه في المدخنة .

— من أين خطرت لك هذه الفكرة ؟

— هذا مقالته جم .

— صه . انه يصبح أكثر شبهاً بنجك فينتش كل يوم .

كانت الآنسة مودي على معرفة بالعم جاك فينتش ، شقيق أتيكوس ،
منذ الطفولة . كانا في العمر نفسه تقريباً ، وقد نشأ معاً في « فينتشز

لاندنبنغ . فالآنسة مودي هي ابنة أحد الملاك المجاورين ، الدكتور فرانك بوفورد . وكانت مهنة الدكتور بوفورد هي الطب ولكنه كان مولعاً بكل ماينبت في الأرض ، ولذا ظل فقيراً . وقد قصر العم جاك في فينتش ولعه في النيش على أصص الزهور التي توضع على النوافذ في بلدة « ناشفيل » وبقي غنياً . كنا نرى العم جاك كل عيد ميلاد ، وفي كل عيد ميلاد كان يصرخ عبر الشارع منادياً الآنسة مودي طالباً منها الزواج . وكانت الآنسة مودي ترد عليه صارخة : « ارفع صوتك أكثر ، حتى يسمعونك في مكتب البريد ، فأنا لم أسمعك بعد » . وكنا ، جم وأنا ، نظن أن هذه طريقة غريبة في طلب يد سيدة للزواج ، ولكن العم جاك كان غريب الأطوار على أية حال . قال انه يحاول ازعاج الآنسة مودي ، وان محاولاته باءت بالفشل منذ أربعين عاماً وحتى الآن ، وانه آخر شخص في العالم قد تفكر الآنسة مودي بالزواج منه ، ولكنه أول شخص تفكر فيه عندما تريد اغاظة شخص ما ، وكان أفضل دفاع لها هي التهكم المليء بالحيوية ، وكنا نفهمه كله بوضوح .

قالت الآنسة مودي :

— آرثر رادلي لا يغادر المنزل ، هذا كل مافي الأمر . أما كنت تبقي في البيت إذا كنت لاترغبين في الخروج ؟

— نعم ياسيديتي ، ولكنني أريد الخروج ، فلماذا لايرغب هو بذلك ؟

- ضأقت عينا الآنسة مودي وقألت :
- أنت تعرفين تلك القصة بقدر مأعرفها .
- لم أسمع بعد عن السبب على أية حال . لم يخبرني أحد بالسبب .
- أعادت الآنسة مودي جسرها بلسأها وقألت :
- كنت تعرفين أن السيد رادلي من أتباع الكنيسة البروتستانية المعمدانية ومن مذهب غسل الأقدام . . .
- وأنت كذلك ، هه ؟
- لست مؤمنة إلى ذلك الحد ، أنا مجرد معمدانية .
- ألا تؤمنين بغسل الأقدام ؟
- نؤمن بذلك . ولكن في البيت وفي مغطس الحمام .
- ولكننا لانستطيع ممارسة « المناولة » معكم أتم يا . . .
- من الواضح أن الآنسة مودي وقد قررت أنه من الأسهل عليها تعريف المعمدانية الأصلية من تعريف المناولة السرية ، فقألت :
- يؤمن غاسلو الأقدام بأن أي شيء يجلب المتعة هو خطيئة .
- هل تعرفين أن بعضهم خرج من الغابات في أحد أيام السبت ومرّ بهذا المكان وقال لي إني سأذهب وزهوري إلى الجحيم ؟
- وزهورك أيضاً ؟

— نعم يا أنسي . هذه ستحرق داخلي . انهم يعتقدون أنني أنفق من الوقت أكثر مما هو لازم خارج البيت ولا أنفق وقتاً كافياً داخل البيت لأقرأ في الكتاب المقدس .

تزعزعت ثقتي في التعاليم الوعظية وأنا أتخيل الآنسة مودي تشو. إلى الأبد في عدد مختلف من الحميمات البروتستانتية . حقاً كان لها لسان قارص في فمها ، ولم تكن تتجول في الجوار تفعل الخير ، كما كانت تفعل الآنسة ستيفاني كروفورد ، ولكن بينما لم يكن هناك شخص له ذرة من عقل يثق بالآنسة ستيفاني ، فقد كنا جم وأنا نثق إلى حد كبير بالآنسة مودي . فهي لم يسبق لها أن وشت بنا ، كما كانت تلعب معنا لعبة القط والفأر ، هذا إلى جانب أنها لم تكن مهتمة أبداً بحياتنا الخاصة . كانت صديقة لنا . كيف يمكن لهذا المخلوق العاقل إلى هذا الحد أن يعيش مهدداً بخطر التعذيب الأبدي ؟ هذا أمر لا يمكن فهمه .

— ليس هذا عادلاً ياآنسة مودي . فأنت أفضل سيده أعرفها .

ابتسمت الآنسة مودي وقالت :

— شكراً يا أنسي . المشكلة هي أن « غاسلي الأقدام » يعتقدون أن النساء خطيئة تعريفاً . انهم يفسرون الكتاب المقدس على نحو حرفي كما تعرفين .

— ألهذا يبقى السيد آرثر في البيت ؟ ألكي يبتعد عن النساء ؟

— لأعرف .

— لأفهم ذلك . يبدو لي أنه لو كان السيد آرثر تواقاً إلى السماء ،
لكان سيخرج إلى الرواق على الأقل . يقول أتيكوس إن الأشخاص
المحبين لله من أمثالك . . .

توقفت الآنسة مودي عن التراجع في كرسيها ، وأصبح صوتها
قاسياً حين قالت :

— أنت أصغر من أن تفهمي المسألة ، ولكن الكتاب المقدس يكون
أحياناً في يد شخص ما أسوأ من زجاجة ويسكي في يد . . . أليك مثلاً .

صدمت . قلت :

— أتيكوس لا يشرب الويسكي . لم يسبق له أن شرب نقطة واحدة
في حياته . . . كلا ، بل شرب مرة . قال لي أنه شرب منه مرة ولم
يعجبه .

ضحكت الآنسة مودي وقالت :

— لم أكن أعني والدك ، ماعنيته هو لو أن والدك شرب حتى
الشمالة فلن يكون قاسياً قساوة بعض الأشخاص وهم في أحسن أحوالهم .
هناك نوع من الأشخاص يهتمون كثيراً بالعالم الآخر إلى حد أنهم لم
يتعلموا كيف يعيشون في هذا العالم ، وبإمكانك أن تنظري عبر الشارع
وترى النتيجة .

— هل تعتقدن أن كل مايقال حول « ب » . . . السيد آرثر صحيح ؟

— وماذا يقال ؟

وحكيث لها ماسمعته .

قالت الآنسة مودي بتجهيم :

— ثلاثة أرباع هذا من اختراع الملونين ورבעه الرابع من اختراع ستيفاني كروفورد . لقد حكيت لي ستيفاني كروفورد أنها استيقظت مرة في منتصف الليل ووجدته ينظر من النافذة إليها . وسألته عما فعلته ، هل ابتعدت لتوسع له مكاناً إلى القرب منها ؟ وقد أخرسها سؤاله .

وكننت واثقة أن السؤال قد أخرسها . كان صوت الآنسة مودي كافياً لآخراس أي شخص .

قالت :

— لا ياطفلي . ذاك المنزل منزل حزين . أتذكر آرثر رادلي وهو صبي بعد . كان يتحدث بلطف إليّ دائماً ، ومهما قال الناس عنه إلا أنه كان يخاطبني بلطف مايسطيع .

— هل تعتقدن أنه مجنون ؟

هزت الآنسة مودي رأسها وقالت :

— إذا لم يكن مجنوناً فقد أصبح الآن حتماً كذلك . ان ما يحدث

للناس أمر لانهرفه حقاً . ان ما يحدث في البيوت وراء الأبواب المغلقة ،
والأسرار . . .

— ان أتيكوس لا يفعل شيئاً بلحم ولي داخل المنزل ممّا قد لا يفعله
في الفناء .

قلت ذلك إذ شعرت أنه من واجبي الدفاع عن أبي .

— عجباً ياطفلي ، لم أكن أعني والدك إطلاقاً ، ولكنني طالما
ذكرته الآن فسأقول التالي : أتيكوس فينتش هو نفسه أكان في المنزل
أم في الشارع العام . مارأيك ببعض الكعك الطازج تأخذينه إلى البيت .
وقد أحبيته كثيراً .

* * *

حين استيقظت في صباح اليوم التالي وجدت جم ودليل في الفناء
الخلفي وقد انغمسا في الحديث . وحين انضيمت إليهما طلباً كالعادة
أن أنصرف عنهما .

— لن أنصرف . هذا الفناء فنائي بقدر ماهو فناؤك يا جم فينتش .
ولي الحق في اللعب ، كما لك بالضبط .

تساورا لفترة قصيرة ثم قال لي ديل محذراً :

— إذا بقيت معنا فعليك أن تفعل ما نطلبه منك .

قلت :

— حسناً ، هأنت متكبر فجأة .

استأنف ديل :

— إذا لم تقولي انك ستفعلين مانأمرك به فلن نقول لك شيئاً .

— تبدو وكأن طولك قد زاد عشر بوصات خلال الليل الفائت .

حسناً ، ما الأمر ؟

قال جم بهدوء :

— سترسل رسالة إلى بورادلي .

— ولكن كيف ؟

كنت أحاول مغالبة الرعب الفوري الذي ثار في كل بدني . كان ممكناً للآنسة مودي أن تتحدث كما تشاء — فقد كانت كهلة وتشعر بالأمان وهي جالسة على رواقها . أما بالنسبة إلينا نحن فقد كان أمراً مختلفاً .

كان جم سيقوم بوضع الرسالة في نهاية قصبه صيد ويقحمها بين مصاريع النافذة . وإذا ماجاء أحد سيقرع ديل الجرس منهاً .

رفع ديل يده اليمنى فرأيت أنه يحمل جرس أمي الفضّي المخصص لنداء الغداء .

قال جهم :

— سأذهب إلى جانب المنزل . لقد نظرنا البارحة عبر الشارع
فلاحظنا وجود مصراع غير محكم . وأعتقد أنه بإمكانني أن ألصق
الرسالة بخافة النافذة على الأقل .

— يا جهم . . .

— أنت الآن متورطة معنا ولا يمكنك الخروج ، وعليك أن تبقي
معنا يا آنسة بائسة .

.. حسناً ، حسناً ، لأريد أن أراقب . يا جهم هناك شخص ما . . .
.. بل ستقومين بالمراقبة عند نهاية المرح ، وسيراقب ديل مقدمة
المنزل وحتى نهاية الشارع ، وإذا ما جاء أي شخص فسوف يقرع
الجرس . هل هذا واضح ؟ .

— حسناً إذن ، ما الذي كتبته له ؟

قال ديل :

— اننا نطلب منه بلطف أن يخرج في بعض الأحيان وأن يحكي
لنا ما الذي يفعله داخل المنزل ، وقلنا له اننا لن نؤذيه بل سنشتري له
بعض الآيس كريم .

— لقد جننتما حتماً ، سيقتلنا .

قال ديل :

— هذه فكرتي . أعتقد أنه لو خرج وجلس معنا لفترة فقد يشعر
بتحسن .

— وكيف تعلمان أنه لا يشعر بأنه على مايرام ؟

— حسناً ، وكيف ستشعرين أنت لو أنك حبست مئة عام ولا شيء
تأكلينه سوى القوط ؟ أعتقد أن له حية تصل إلى هنا . . .

— كلحية أبيك ؟

— ليست له لحية ، انه . . .

توقف ديل عن الكلام وكأنه يحاول أن يتذكر .

قلت :

— ها ها ، لقد أمسكت بك . قلت قبل أن تنزل من القطار أن
لوالدك لحية سوداء .

— إذا كان هذا لا يهملك كثيراً فقد حلق لحيته في الصيف الماضي .
أجل ، ولدي رسالة تثبت ذلك : لقد أرسل لي دولارين أيضاً .

— هيا استمر بهذا الكلام أعتقد أنه أرسل لك بذلة شرطي
من الفرسان أيضاً . وتلك لم تصل أبداً ، أليس كذلك ؟ هيا استمر في
قص تلك الأكاذيب علي يا بني . . .

كان بإمكان ديل هاريس أن يحكي أكبر الكذبات التي سبق لي

وسمعتها . ومن بين أمور أخرى فقد ركب طائرة البريد سبع عشرة مرة ،
وكان في « نوفاسكوتيا » ورأى فيها فيلاً ، وكان جده هو « العميد
جو ويلر » وقد ترك له سيفه .

قال جم :

— اصممتا الآن .

ثم تسلل إلى تحت المنزل وأخرج قصبة طويلة من البامبو .
— هل تعتقدان أنها طويلة إلى حد يكفي لتصل إلى النافذة من
على الرصيف ؟

قلت :

— ان الشجاع الذي استطاع أن يلمس المنزل لا يجب عليه أن
يستعمل قصبة صيد . لماذا لاذهب وتدق على الباب الأمامي ؟

قال جم :

— هذا — أمر — مختلف ، كم مرة سأقول لك ذلك ؟

أخرج ديل قطعة من الورق من جيبه وأعطاهها إلى جم . ثم مشينا
ثلاثتنا بحذر نحو المنزل العتيق . بقي ديل عند عمود النور على الزاوية
الأمامية للمرج ، ومشينا جم وأنا على الرصيف موازيين لجانب المنزل .
تجاوزت جم ووقفت حيث أستطيع أن أرى المنعطف .

قلت :

— الطريق فارغ . لأرى أحداً .

نظر جم عبر الرصيف نحو ديل الذي أوماً له برأسه .
ألصق جم الرسالة في آخر قصبة الصيد ثم مد القصبة عبر الفناء
ودفعها نحو النافذة التي اختارها . كانت القصبة أقصر ببضعة بوصات
من المطلوب ، وانحنى جم بجسده أكثر مما يستطيع . راقبته وهو يقوم
بحركات الطعن لمدة طويلة بحيث تخلت عن موقعي وعدت إليه .

همهم :

— لأستطيع أن أوصلها بالقصبة ، وإذا ماوصلت القصبة لأستطيع
أن أجعل الرسالة تلتصق بالنافذة . عودي إلى الشارع ياسكاوت .

عدت وحدثت عبر المنعطف ونحو الطريق الحالي . وكنت أحياناً
أنظر إلى جم الذي كان يحاول بصبر أن يضع الرسالة على حافة النافذة .
كانت تسقط على الأرض فيقوم جم بوخزها برأس القصبة ورفعها
إلى النافذة ، حتى ظننت أنه لو أتيح لبرادلي أن يستلم الرسالة ، لما كان
سيستطيع قراءتها . كنت أنظر على امتداد الشارع حين سمعت صوت
الجرس .

رفعت كنفني في هلع ، واستدرت متوقعة مواجهة برادلي ومخالبه
الدائمة ، ولكنني رأيت بدلاً عن ذلك ديل وهو يقرع الجرس بكل
قوته في وجه أتيكوس .

بدا جم قبيحاً إلى حد أنني لم أجروء على أن أقول له : كم كان
منظره قبيحاً . مشى على نحو مجهود وهو يجترّ القصبه من خلفه على الرصيف .

قال أتيكوس :

— توقف عن قرع الجرس .

أمسك ديل بلسان الجرس . وخلال الصمت الذي تلا ، تمنيت
لو أنه يقرعه مرة أخرى . دفع أتيكوس بقبعته إلى مؤخرة رأسه ووضع
يديه على وركيه وقال :

— يا جم ، مالمالذي تفعلونه ؟

— لاشيء ، ياسيدي .

— لأريد مثل هذا الكلام . هيا صارحني .

— كنت . . . كنا نحاول اعطاء شيء ما إلى السيد رادلي .

— مالمالذي تحاولون اعطاءه إياه ؟

— مجرد رسالة .

— أرني إياها .

أبرز جم قطعة متسخة من الورق . أخذها أتيكوس وحاول قراءتها
ثم قال :

— لماذا تريدون من السيد رادلي أن يخرج ؟

قال ديل :

— اعتقدنا أنه قد يستمتع معنا . . .

ثم توقف عن الكلام حين نظر إليه أتيكوس .

قال بلجم :

— يا بني ، سأقول لك شيئاً وأقول مرة واحدة : توقف عن تعذيب ذلك الرجل . وهذا ينطبق عليكما أنتما الآخران .

ان مايفعله السيد رادلي أمر يخضه هو . ولو أراد الخروج لفعل . وإذا ماأراد البقاء داخل منزله فله الحق في البقاء هناك دون أي تدخل من الأطفال الفضوليين ، وكان هذا مصطلحاً لطيفاً لوصفنا . ماذا نقول لو أن أتيكوس دخل علينا فجأة دون أن يطرق الباب حين نكون في غرفنا ليلاً ؟ ان مانفعله بالسيد رادلي لأمر مشابه . قد يبدو مايفعله السيد رادلي غريباً بالنسبة لنا ، ولكنه لا يبدو غريباً بالنسبة له . وزيادة عليه ، ألم يتفق أن فكرنا في أن الطريقة الحضارية للاتصال بكائن آخر هي الباب الأمامي بدلاً من أن تكون نافذة جانبية ؟ وأخيراً فان علينا الابتعاد عن المنزل حتى تتم دعوتنا إليه ، وعلينا ألا نلعب لعبة بلهاء كالتي رأانا نلعبها الآن ، أو أن نسخر من أي شخص في هذا الشارع أو في هذه البلدة . . .

قال جم :

— لم تكن نسخر منه . ولا كنا نضحك عليه ، كنا نحاول أن . . .

— إذن هذا ما كنتم تفعلونه ، أليس كذلك ؟

— نضحك عليه ؟

قال أتيكوس :

— لا ، بل تعرضون سيرة حياته من أجل تثقيف الجوار .

بدا جم منفعلاً :

— لم أقل اننا كنا نفعل ذلك ، لم أقل ذلك .

ابتسم أتيكوس بطريقة جامدة وقال :

— لقد سبق وقلت ذلك . توقفوا عن هذا الهراء الآن ، كل واحد

منكم .

فغر جم فاه ناظراً إليه .

— أتريد أن تصيح محامياً ؟ أليس كذلك ؟

كان فم أينا حازماً على نحو مريب ، وبدا كأنه يحاول أن يجعله

مستقيماً في خط واحد .

قرر جم أنه لافائدة من المراوغة وصمت . وحين دخل أتيكوس

إلى المنزل ليحضر ملفاً كان قد نسي أن يأخذه معه لدى ذهابه إلى العمل

صباحاً ، أدرك جم أخيراً أنه قد خدع بواسطة أقدم حيل المحامين
المعروفة . وقد انتظر على مسافة بعيدة من الدرج الأمامي ، وراقب
أتيكوس وهو يغادر المنزل ويمشي باتجاه البلدة . وحين أصبح أتيكوس
بعيداً عن مرمى الصوت صاح جم خلفه : « كنت أظن أي سأصبح
محامياً ، ولكني لم أعد واثقاً إلى ذلك الحد الآن » .

* * *

الفضل السّادسُ

قال أبونا حين سأله جم ان كان يسمح لنا بالذهاب إلى بركة
سمك الآنسة راشيل للبقاء مع ديل حيث كانت تلك آخر ليلة له في مايكوم:
— أجل يمكنكما الذهاب ، ودّعوه عني وقولوا له اننا سنلتقي
في الصيف القادم .

قفزنا عبر الجدار الواطء الذي كان يفصل ما بين فناء الآنسة راشيل
والمر المؤدي إلى بيتنا . صفّر جم مطلقاً صوتاً شبيهاً بصوت الحجل
وأجابه ديل من الظلام .

قال جم :

— انظري هناك .

— ولا نسمة واحدة .

أشار إلى الشرق . كان قمر هائل يشرق من خلف شجرات جوز
الآنسة مودي .

قال :

— هذا يجعل الطقس يبدو أكثر حرارة .

سأل ديل وهو لا ينظر إلى الأعلى :

— هل هناك صليب فيه الليلة ؟

كان يصنع لفافة تبغ من جريدة وخيط .

قال جم :

— لا ، السيدة فحسب ، لا تشعل تلك ياديل وإلا فانك ستشتر
الرائحة الكريهة في هذا الجانب كله من البلدة .

في مايكوم كانوا يرون سيدة في القمر . وكانت تجلس إلى منصدة
زينة وتسرح شعرها .

قلت :

— سذنتقدك يا ولد . وأعتقد أنه من الأفضل أن نراقب « السيد آفري » .
كان السيد آفري يسكن مقابل منزل السيدة هنري لافاييت دوبوز .
وبالإضافة إلى أنه كان يضع قطعة نقود في صحن التبرعات في الكنيسة
يوم الأحد ثم يأخذ قطعة أصغر منها ، فان السيد آفري كان يجلس على
الرواق كل ليلة حتى التاسعة ويعطس . وفي إحدى الأمسيات أتيحت
لنا فرصة مشاهدة أحد عروضه والذي بدا أنه كان آخر عروضه حتماً ،
حيث أنه لم يمارس ذلك العرض مرة أخرى طول فترة مراقبتنا له . كنا
جم وأنا نغادر درج الآنسة راشيل الأمامي في إحدى الليالي حين أوقفنا

دبل قائلاً : « بالهي ، انظروا هناك » وأشار إلى شيء ما عبر الشارع .
في البداية لم نشاهد شيئاً عدا رواق أمامي مغطى بأشجار « الكودزو » ،
ولكننا بعد تحديق أشد اكتشفنا قوساً من الماء يهبط من الأوراق ويتناثر
في الدائرة الصفراء لنور الشارع ، بطول عشرة أقدام من المنبع إلى الأرض
كما بدا لنا . قال جم ان السيد آفري قد أخطأ الحساب ولكن دبل قال
انه يشرب دون شك غالوناً كل يوم ، وكانت المسابقة التي تلت ذلك
لتحديد المسافات النسبية والقدرات الخاصة بكل فرد قد جعلتني أشعر
ثانية أي خارج اللعبة حيث لم تكن لي موهبة في هذا المجال .

تمطى دبل ثم ثنأب وقال بلا مبالاة :

— أعرف ما الذي سنفعله . هيا نذهب ونتمشى .

بدا الأمر سخيفاً بالنسبة لي . قلت :

— ليس هناك في مايكوم من يذهب ليتمشى . أين سنذهب ياديل ؟

لوى دبل رأسه باتجاه الجنوب .

وافق جم . ولكني احتججت فقال لي بعدوبة :

— ليس عليك أن ترافقنا ياملاكي .

— ليس عليك الذهاب . تذكر

لم يكن جم من النوع الذي يستسلم للهزائم السابقة : فقد بدا أن

لا تقتل مصفورا ساخرا ٨٣

الرسالة الوحيدة التي وصلته من أتيكوس هي أن لأتيكوس نفاذ بصيرة في فن التحقيق ، قال :

— ياسكاوت ، إن نفعل شيئاً ، سنذهب إلى القرب من عمود النور ونعود .

مشينا بصمت على طول الرصيف ونحن نصغي إلى الأراجيح المنصوبة على الرواقات وهي تئن تحت ثقل سكان الحي ، وإلى مهممات الليل الخافتة التي تصدر عن الناس الراشدين من سكان شارعنا . وكنا نسمع صوت الآتسة ستيفاني كروفورد وهي تصيح بين الحين والآخر .

قال ديل :

— حسناً ؟

قال جم :

— أوكي . لم لآلهيين إلى البيت ياسكاوت ؟

— مالمالذي ستفعلانه ؟

كان ديل وجم سيذهبان ببساطة ويسرقان النظر من النافذة ذات المصراع غير المحكم ليريا أن كان ممكناً لهما مشاهدة بورادلي ، وإذا لم أكن راغبة في الذهاب معهما فاني أستطيع الاتجاه نحو البيت مباشرة وأن أبقى فمي الكبير المتشقق مغلقاً ، وهذا كل ما في الأمر .

— ولكن لماذا بحق الإله انتظرتما حتى هذه الليلة ؟

لأنه لم يكن هناك من يراها في الليل ، ولأن أتيكوس سيكون منهمكاً في قراءة أحد الكتب بحيث لن يسمع « ملكوت الله » قادماً ، ولأنهما لو قتلا الآن فستفوتهما المدرسة وليس العطلة ، وأن الرؤية داخل منزل معتم خلال الليل أسهل منها خلال النهار ، أفهمت ياترى ؟

— يا جم ، من فضلك . . .

— سكاوت ، أقول لك للمرة الأخيرة ، أغلقي فمك أو اذهبي إلى البيت : أصرح أمام الرب بأنك تصبحين فتاة أكثر فأكثر كل يوم .

بعد أن سمعت هذا الكلام لم يعد أمامي من خيار آخر إلا الانضمام إليهما . وظننت أنه من الأفضل الزحف من تحت حاجز الأسلاك الشائكة في مؤخرة مرج منزل آل رادلي ، فهناك ستكون فرصة اكتشافنا أقل . كان الحاجز يحيط بحديقة كبيرة ومرحاض خارجي خشبي ضيق .

رفع جم السلك السفلي وأشار إلى ديل ليزحف من تحته وقد تبعته ورفعت السلك حتى يمر جم . ولكن الحيز كان ضيقاً بالنسبة لجم . همس : « لا تحدثا أي صوت . ولا تدخلنا ضمن صف من الكرب مهما يكن من أمر ، فذاك من شأنه إيقاظ الموتى . »

ومع هذا الخطر في ذهني ، كنت أسير بسرعة خطوة في الدقيقة . وقد تحركت على نحو أسرع حين رأيت جم وقد أصبح بعيداً وراح يقوم بإشارات في نور القمر . وصلنا إلى البوابة التي تفصل الحديقة عن الفناء الخلفي . لمس جم البوابة فصرت .

همس ديل :

— ابصق عليها .

همهمت :

— لقد أوقعنا في الشرك يا جم . لن نستطيع الخلاص بسهولة
من هنا .

— صه ! ابصقي عليها ياسكاوت .

بصقنا حتى جفت حلقنا ، ثم فتح جم البوابة ببطء . رفعها
وأراحها على الحاجز . وهكذا أصبحنا في الفناء الخلفي .

كانت مؤخرة منزل آل رادلي أكثر كآبة من مقدمته : رواق
متداع على امتداد عرض المنزل وبابان ونافذتان مظلمتان بين البابين .
وبدلاً عن وجود صف من الأعمدة كان هناك لوح من الخشب
بعرض بوصتين بأربع بوصات يدعم أحدى نهايات السقف ، كما كانت
هناك مدفاة عتيقة من طراز فرانكلين ملقاة في زاوية الرواق ، وفوقها
مرآة لها مشاجب للقبعات كان نور القمر ينعكس فيها على نحو خفيف .

قال جم بصوت خافت وهو يرفع قدمه :

— آخ .

— ماذا حدث ؟

— جبناء !

لقد ثبت لنا أننا كنا مضطرين إلى المراوغة للتملص مما هو غير مرئي ومن كل الاتجاهات ، وذلك حين تلفظ ديل الذي كان يسبقنا هامساً بكلمة « يا لله » . زحفنا نحو جانب المنزل ثم نحو النافذة ذات المصراع غير المحكم . كانت حافة النافذة أعلى من جم بعدة بوصات . — هل أساعدك على التسلق . انتظر على أية حال .

أمسك جم برسغه الأيسر ورسغي الأيمن ، وأمسك برسغي الأيسر ورسغ جم الأيمن وجثمنا وجلس ديل على السرج الذي صنعناه . ثم رفعناه حتى أمسك بحافة النافذة .

همس جم :

— أسرع ، لانستطيع أن نتحمل أكثر من ذلك .

أمسك ديل بكففي وأنزلناه إلى الأرض .

— ماذا رأيت ؟

— لا شيء . ستائر . ولكن هناك ضوءاً ضئيلاً خافتاً في مكان ما على أية حال .

همس جم :

— هيا نهرب من هنا . هيا نعود إلى الخلف مرة أخرى . صه . هكلدا حذرني حين أردت الاحتجاج .

— لنحاول من النافذة الخلفية .

قلت :

— كلا ياديل .

توقف ذيل وترك جم يسبقنا . وحين وضع قدمه على الدرجة السفلى ، صرّت الدرجة . وقف جامداً ثم حاول أن يجرب ثقله بالتدريج . كانت الدرجة صامتة . تجاوز جم درجتين ثم وضع قدمه على الرواق ورمى بنفسه عليه ثم راح يتأرجح لبرهة طويلة . استعاد وزنه وسقط على ركبتيه . زحف حتى النافذة ، رفع رأسه ونظر إلى الداخل .

ثم رأيت الخيال . كان خيال رجل يرتدي قبعة . في البداية ظننت أنه كان شجرة ، ولكن لم تكن هناك ريح تهب ، كما أن جنوع الأشجار لا تمشي . كان الرواق الخلفي يستحم في نور القمر ، ثم تحرك الخيال الهش كالخيز المحمص ، عبر الرواق نحو جم .

كان ديل الثاني الذي رأى الخيال ، فوضع يديه على وجهه .

وحين مرّ الخيال بجم رآه جم ، فوضع ذراعيه حول رأسه وتجمّد في مكانه .

توقف الخيال على مسافة قدم خلف جم . تحرك ذراعه خارجاً من جنبه ثم سقط وهداً . ثم استدار وعاد غابراً بجم ومشى على امتداد الرواق وبعداً نحو جانب المنزل عائداً من حيث جاء .

قفز جم من الرواق وأسرع نحونا . فتح البوابة ومررتي أنا وجم
عبرها ثم دفعنا بين صفيين من الكربن المَهْسَسْهَس . وفي منتصف
الطريق بين الكربن تعثرت وحين تعثرت سمعنا صوت بندقية يحطم
صمت الجوار .

غاص ديل وجم إلى جانبي . جاءني صوت جم كالنشيح : « اهربي
باتجاه باحة المدرسة . أسرع ياسكاوت » .

أمسك جم بالسلك السفلي ، وتدرجنا ديل وأنا عبره وكنا قد
وصلنا إلى منتصف الطريق أمام شجرة السنديان الوحيدة في باحة المدرسة
حين شعرنا أن جم لم يكن معنا . عدنا بسرعة إلى الخلف فوجدناه
يتصارع مع السلك وهو يرفس بنطاله محاولاً للتخلص منه حتى ينجو
بجلده . ثم ركض نحو السديانة في سرواله الداخلي .

وبعد أن اختبأنا خلفها وأحسنا بالأمان ، شعرنا بالخدر ، ولكن
ذهن جم كان يسابق الريح . قال :

— علينا الذهاب إلى البيت . سيفتقدونا .

عدونا عبر باحة المدرسة ، وزحفنا من تحت الحاجز إلى « مرعى
الغزال » خلف منزلنا ، وتسلفنا حاجزنا الخلفي وكنا قد وصلنا إلى
الدرج الخلفي قبل أن يسمح لنا جم بالتوقف للراحة .

وبما أننا لم نكون قد عرقنا كثيراً ، فقد مشينا ثلاثتنا بقدر مانستطيع
من اللامبالاة نحو الفناء الأمامي . نظرنا باتجاه الشارع فشاهدنا حلقة
من الجيران متجمعة عند البوابة الأمامية لمنزل آل رادلي .

قال جم :

— من الأفضل أن نذهب إلى هناك . سيعتقدون أنه من الغريب
عدم ظهورنا في المكان .

كان السيد ناثن رادلي يقف داخل بوابته وقد حمل عبر ذراعه
بندقية صيد بعد أن كسرها كمن يبيتها للتعيشة مرة أخرى . كان
أتيكوس واقفاً إلى القرب من الآنسة مودي والآنسة ستيغاني كروفورد .
أما الآنسة راشيل والسيد آفري فكانا على مقربة . ولم يلحظنا أي منهم
ونحن نقرب .

توقفنا بالقرب من الآنسة مودي التي نظرت فيما حولها وقالت :

— أين كنتم جميعكم ؟ ألم تسمعوا الجلبة ؟

سأل جم :

— ماذا حدث ؟

— أطلق السيد رادلي النار على زنجي ضمن بستان الملفوف في فناءه .

— وهل أصابه ؟

قالت الآنسة ستيغاني :

— لا ، بل أطلق النار في الهواء . وقد أخافه حتى شحب لونه
على أية حال . وهو يقول أنه لو رأى أي منكم زنجياً أبيض اللون
فذلك هو الشخص نفسه . وهو يقول أيضاً ان السبطانة الأخرى تنتظر

الصوت التالي الذي سيسمعه في فناء داره ، وأنه في المرة التالية لن يهدف نحو الأعلى ، أكان الهدف كلباً أو زنجياً أو حتى جم فينتش ؟
سأل جم :

— ماذا تعنين ياسيدي ؟

تحدث أتيكوس فقال :

— أين بنطالك ؟

— بنطالي ياسيدي ؟

— أجل بنطالك .

لم يكن هناك من مفر . فقد كان جم واقفاً في سرواله الداخلي أمام الله والجميع . تنهّدت .

— ياسيد فينتش ؟

وفي الوهج القادم من عمود النور استطعت أن أرى ديل يبيض إحدى كذباته : كانت عيناه قد اتسعتا ، وكان وجهه الملائكي الممتلئ قد أصبح أكثر استدارة .

سأل أتيكوس :

— ماخبر ياديل ؟

قال ديل بلهجة غامضة :

— لقد كسبته منه .

— كسبته ؟ كيف ؟

حك ديل مؤخرة رأسه . ثم تقدمت يده إلى الأمام وعبرت جبينه .

— كنا نلعب « بوكرا التشليح » عند بركة السمك هناك .
شعرنا جم وأنا بالارتياح . كما بدا الجيران مقتنعين : إلا أنهم
تيسسوا جميعاً . ولكن ماهو « بوكرا التشليح » ؟

لم يكن هناك مجال لمعرفة ذلك : فالآنسة راشيل اندلعت كصفارة
سيارة الاطفاء قائلة : « يا للمسيح . ديل هاريس . أتمارس لعب القمار
عند بركة سمكي ؟ سأشككك » « بوكرياً » ياسيدي .
أنقذ أتيكوس ديل من خسارة عضو من أعضائه في الحال . قال :
— دقيقة واحدة ياآنسة راشيل . لم أسمع من قبل أنهم يمارسون
ذلك . هل كنتم تاعبون الورق جميعكم ؟

دعم جهم أكلوبة ديل فقال بعينين مغمضتين :

— لا ياسيدي . كنا نلعب بأعواد الكبريت .

أعجبت بأخي . كانت الأعواد خطيرة أما الأوراق فهي مينة .

قال أتيكوس :

— يا جم وياسكاوت : لأريد أن أسمع عن البوكر بأي شكل
من أشكاله من الآن فصاعداً . اذهب إلى بيت ديل وأحضر بنطالك يا جم .
حلوا القضية بينكما .

قال جم ونحن نسير فوق الرصيف .

— لا تعلق ياديل . لن نملك بسوء . سيتحدث إليها ويقنعها بذلك .
كانت تلك سرعة بديهة منك يابني . اصغ . . . ألا تسمع ؟
توقفنا ، وسمعنا صوت أتيكوس يقول : « . . . ليس أمراً خطيراً . .
كلهم يمرون بهذه المرحلة يآنسة راشيل . . . » .
أحس ديل بالراحة ولكننا جم وأنا لم نشعر بها . كانت هناك مشكلة
اظهار البنتال في الصباح .

قال ديل ونحن نقرب من درج منزل الآنسة راشيل :
— سأعطيك بنتالاً من بناطيلي .

قال جم انها صغيرة عليه ، ولكنه يشكره على أية حال . ودعنا
ديل ، ودخل المنزل . وقد تذكر على ما يبدو أنه كان خطيبي ، فقد
عاد فجأة وهو يجري وقبلني بسرعة أمام جم . ثم صاح قائلاً :

— ستكتبان لي ، هل تسمعان ؟

* * *

حتى لو كانت بنتال جم معه ، لما كنا سننام كثيراً على أية حال .
فقد كان كل صوت من أصوات الليل أسمعته وأنا في سريري آتياً من
الرواق الخلفي يتضحخم ثلاثة أضعاف ، كما كان كل وقع قدم خفيف
عسى الحصى يوحى بأن بورادلي قد جاء لينتقم . كان كل زنجي يمر
وهو يضحك في الليل هو نفسه بورادلي الذي هرب من منزله وجاء
بعاقبنا . كانت الحشرات التي تصطدم بمنخل الشباك هي أصابع بورادلي

المجنونة وهي تحاول تحطيم الشريط المنخلي . وكانت أشجار الأزد رخت
شريرة متأرجحة حية . وقد ترددت بين النوم واليقظة حتى سمعت
صوت جم يهمهم :

— نامي يا صغيرة يا ذات العيون الثلاث ؟

— هل أنت مجنون ؟

— صه . ان نورغرة أتيكوس لازال مضاء .

وفي ضوء القمر الشاحب رأيت جم يهبط من سريره إلى الأرض .

قال :

— سأذهب لأجلب بنطالي .

جلست في سريري وقلت :

— لا يمكنك ذلك . ولن أدعك تفعل ذلك .

كان يكافح ليضع عليه قميصه . قال :

— عليّ أن أفعل ذلك .

— افعل وسأوقف أتيكوس .

— افعلي ذلك وسأقتلك .

جذبتة إلى القرب مني على السرير وحاولت اقناعه بالمنطق . قلت :

— سيجد السيد ناثن البتطال في الصباح يا جم . وهو يعرف أنك

فقدت بنطالك . وحين يريه لأتيكوس ستكون النتيجة سيئة جداً ، وهذا كل ما في الأمر . عد إلى سريرك .

— هذا ما أعرفه ، ولهذا السبب سأذهب لاحتضاره .

بدأت أشعر بالغثيان . كنت خائفة من فكرة عودته إلى هناك وحيداً ، وتذكرت الآنسة ستيفاني : كان السيد ناثن قد جهز السطانة الأخرى للصوت التالي الذي سيسمعه ، أكان مصدره زنجياً أو كلباً ... وكان جم يعرف ذلك أكثر مني .

شعرت باليأس :

— يا جم ، لا يستحق الأمر كل هذه المخاطرة . ان الضرب يؤدي ولكنه لا يدوم . أما البندقية فإنها ستطير رأسك . أرجوك . . .
تنهد بصبر .

— اني . . . حسناً ياسكاوت ، الأمر وما فيه هو أن أتيكوس لم يضربني أبداً . وأريد أن يبقى الأمر كذلك .

كانت تلك مجرد فكرة . يبدو أن أتيكوس كان يهددنا كل يوم .

— تعني أنه لم يقبض عليك مرة واحدة بالجرم المشهود ؟

— ربما كان الأمر كذلك ، ولكنني أريد أن يستمر الأمر على هذا المنوال ياسكاوت ، ما كان يجب أن نفعل ما فعلناه الليلة .

أفترض أنه في تلك اللحظة بدأنا جم وأنا في الافتراق كرفيفين .
أحياناً لم أكن أفهمه ، ولكن فترات حيرتي كانت قصيرة الأمد . أما
هذا فكان أكثر مما أستطيع احتماله . رجوته قائلة :

— أرجوك ، ألا تستطيع التفكير بالموضوع دقيقة واحدة . . .
تصور نفسك وحيداً في ذلك المكان . . .

— انخوسي .

— الأمر هنا لا يشبه مسألة مخاصمة والذي لك أو شيئاً من هذا
القبيل . . . سأوقفه يا جم ، أقسم أني . . .
أمسك جم بقبة بيجامتي وشدها بقوة .
قلت بصوت مختنق :

— اذن ، سأذهب معك .

— لن تذهبي معي ، فأنت ستسبين في احداث ضجيج .

لم يكن هناك من فائدة . فتحت الباب الخارجي وأمسكت به بينما
زحف هو نازلاً الدرجات . كانت الساعة تقارب الثانية على ما اعتقد .
كان القمر يغرب والظلال الشبكية تخبو متحولة إلى عدم ضبابي . كان
ذيل قميص جم الأبيض يتأرجح ويتذبذب كشبح صغير يرقص مبتعداً
لينجو من الصباح المقرب . وكان هناك نسيم عذب يحرك ويردّ العرق
المتحدّر على جانبي جسدي .

ذهب من الطريق الخلفي ، عبر « مرعى الغزال » ، ثم خلال باحة
المدرسة وحول الحاجز . لقد ظننت أن ذلك هو الطريق الذي سار فيه .

كان هذا الطريق يستغرق فترة أطول ، ولذا لم يكن قد حان موعد القلق بعد . انتظرت حتى حان وقت الشعور بالقلق ورحت أنتظر سماع صوت بندقية السيد رادلي . ثم ظننت أنني سمعت صوت الحاجز الخلفي يصرّ . وكان ذلك مجرد تحقيق رغبة (١) .

ثم سمعت صوت سعال أتيكوس . أمسكت بأنفامي . أحياناً حين كنا نقوم برحلتنا في منتصف الليل إلى الحمام ، كنا نجاهد يقرأ . وكان يقول انه غالباً ما يستيقظ خلال الليل ويأتي ليطمئن علينا ، ثم يطالع ثانية حتى ينام . انتظرت لأرى نوره يضاء وقد أجهدت عيني بانتظار رؤية النور يغمر البهو . ولكن النور بقي دون اضاءة فتنفست ممة أخرى .

كانت زواحف الليل قد عادت إلى أوكارها ، ولكن ثمار الأزدخنت الناضجة كانت تسقط على السقف كلما تحركت الريح ، وكانت الظلمة كثيفة مع نباح الكلاب البعيدة .

وهاهو الآن يعود إلي . كان قميصه الأبيض يتأرجح عند الحاجز الخلفي ثم يصبح أكبر فأكبر وببطء . صعد الدرجات الخلفية ، أوصل الباب من خلفه ثم جلس على سريره . وبدون أية كلمة ، أراني بنطاله بين يديه . ثم تمدد على سريره ، وسمعت سريره يهتز لفترة قصيرة . سرعان ما هلأ سريره ، ولم أعد أسمع يهتز .

(١) اعتقاد المرء بصحة شيء ما لمجرد رغبته في أن يكون الشيء صحيحاً (المترجم) .

الفصل السابع

بقي جم مزاجياً وصامتاً لفترة أسبوع . وقد عملت بنصيحة أتيكوس حين قال لي مرة ان علي أن أدخل في جلد جم وأن أبحول به : وفكرت في أني لو كنت ذهبت وحيدة إلى منزل آل رادي في الساعة الثانية صباحاً ، لكانت جنازتي تقام في عصر اليوم التالي . ولذا تركت جم لشأنه وحاولت ألا أزعجه .

بدأت المدرسة . وكان الصف الثاني سيئاً كالأول ، بل وأسوأ : كانوا لايزالون يرفعون البطاقات أمامنا ولا يدعوننا نقرأ أو نكتب . وكان تقدم الآنسة كارولان في الصف المجاور أمراً يمكن تقييمه من خلال الضحكات التي نسمعها . وعلى كل حال ، فان الطاقم المعتاد قد رسب في الصف مرة أخرى ، وهم يساعدون الآن في حفظ النظام . والشيء الوحيد الجيد في الصف الثاني هو أنني كنت سأبقى في المدرسة حتى يخرج جم ، وكنا نمشي عادة معاً إلى البيت في الساعة الثالثة .

وفي أحد الأيام وبينما كنا نعبر باحة المدرسة باتجاه البيت ، قال جم فجأة :

— هناك شيء لم أقله لك .

وبما أن هذه كانت أول جملة كاملة له منذ أيام عديدة فقد شجعتة
قائلة :

— بشأن ماذا ؟

— بشأن تلك الليلة .

— لم تحك لي أي شيء عن تلك الليلة .

طرد جم كلماتي بيده وكأنه يهش الذباب عن وجهه . صمت
لبرهة ثم قال :

— حين عدت لأحضر بنطالي — وكان بنطالي كتاة متشابكة حين
حاولت الخروج منه بحيث لم أستطع الفكالك منه بسهولة — حين عدت
لأحضره . . .

وهنا تنفس جم بعمق .

— حين عدت كان بنطالي مطوياً وموضوعاً فوق الحاجز : : :
وكانه ينتظرنني .

— فوق . . .

— وشيء ما آخر .

هنا أصبح صوت جم خفيضاً .

— هناك شيء سأريه لك عندما نصل إلى البيت . لقد تمت خياطة
ماتمزق من البطال . لم تكن تلك خياطة جيدة كخياطة السيدات ، بل
كخياطة التي أحاولها أنا . الأمر كله غريب . يبدو وكأن . . .
— . . . كأن شخصاً ما كان يتوقع أنك ستعود لاستعادته .

ارتجف جم ثم قال :

— كأن شخصاً ما كان يقرأ أفكارى . . . كأن شخصاً ما استطاع
أن يعرف ما كنت سأفعله . لا يمكن لأي شخص أن يعرف ما سأفعله
إلا إذا كان يعرفني ، أليس كذلك ياسكاوت ؟

كان سؤال جم أشبه باستغاثة . ولكني طمأنته قائلة :

— لا يمكن لأحد أن يعرف ما ستفعله إلا إذا كان يعيش في المنزل
ذاته معك ، وحتى أنا لا أستطيع أحياناً أن أعرف ما ستفعله .
كنا نمرّ بشجرتنا . وقد شاهدنا في ثقب العقدة كرة من خيوط
رمادية .

قلت :

— لاتأخذها يا جم . هذا مخبأ شخص ما .

— لأظن ذلك ياسكاوت .

— أجل انه كذلك . ان شخصاً ككولتر كاينينغهام يأتي إلى هنا

كل يوم في خلال فترة استراحة الغداء ويخبيء أشياءه هنا . . . وهانحن
نأتي ونأخذها . اسمع ، فلنتركها وننتظر يومين ، وإذا بقيت في مكانها ،
عندها سنأخذها ، مارأيك ؟

— حسناً ، قد تكونين على حق . لا بد أنه خبأ طفل ما . انه يخبيء
هذه الأشياء خوفاً عليها ممن هم أكبر منه . أنت تعرفين أننا لانجد
هذه الأشياء إلا حين نكون في المدرسة .

— ولكننا لانمرّ من هنا في الصيف .

ذهبنا إلى البيت . وفي صباح اليوم التالي كانت الكرة في مكانها .
وحين وجدناها لاتزال هناك في اليوم الثالث ، دسها جم في جيبه .
ومثل ذلك الحين أخذنا نعتبر كل ما نجده في ثقب العقدة ملكاً لنا .

* * *

كان الصف الثاني كثيراً ، ولكن جم أكّد لي أن المدرسة تتحسن
كلما كبر التلميذ ، وأنه كان يشعر مثل ماأشعر الآن في البداية ، وأن
المرء لايتعلم شيئاً ذا قيمة قبل الوصول إلى الصف السادس . لقد بدا
أن الصف السادس كان يعجبه منذ البداية : فقد شاهدته يمر بـ « فترة
مصرية » موجزة حيرتني : إذ حاول كثيراً أن يمشي وقد مد ذراعاً
إلى الأمام وآخر إلى الخلف ، واضعاً إحدى قدميه وراء الأخرى . وقد
صرح لي أن المصريين القدماء كانوا يمشون بتلك الطريقة . وقلت له
انهم لو كانوا يمشون كذلك فعلاً ، فلا أعرف كيف أمكنهم أن

ينجزوا أي شيء ، ولكن جم قال انهم أنجزوا أكثر مما أنجز الأمريكان ،
وانهم اخترعوا ورق التواليت والتحنيط. وتساءل : أين كنا نحن الآن
لولاهم ؟ قال لي أتيكوس ان علي إلغاء النعوت وعندها سأحصل على
الحقائق .

الفصول في ألاباما الجنوبية غير محددة تماماً ، فالصيف ينجرف
نحو الخريف والخريف لا يتبعه الشتاء أحياناً على الإطلاق ، بل يتحول
إلى ربيع يدوم أياماً وينصهر لاحقاً متحولاً إلى الصيف من جديد . كان
آخر خريف طويلاً ، ولم يكن بارداً إلى حد ارتداء الجاكيت . كنا
جم وأنا نسير في طريقنا المعتاد في عصر أحد أيام تشرين الأول (أكتوبر)
للطيفة حين أوقفنا ثقب العقدة مرة أخرى . كان فيه هذه المرة شيء أبيض ،
ترك لي جم شرف الحصول عليها : جذبتها فوجدت تمثالين
صغيرين منحوتين من قطعتي صابون . كان أحدهما يمثل صبياً والآخر
قد ألبس فستاناً غير متقن .

وقبل أن أتذكر أنه ليس هناك ما يسمى « جالب النحس » فقد
زعقت وألقيتهما أرضاً .

التقطتهما جم ثم صاح : « ما حكايتك » . ثم مسح التمثالين ونظفهما
من التراب الأحمر ، وقال : « انهما جيدان . لم يسبق لي أن رأيت
تمثالين بهذه الجودة . »

ثم أراني اياهما . كانا تمثالين صغيرين كاملين لطفلين . كان الصبي

يرتدي بنطالاً قصيراً ، وكانت هناك كتلة من الشعر الصابوني قد سقطت فوق جبينه . نظرت إلى جم . كانت هناك خصاصة من الشعر الكستنائي مدلاة تهبط من مفرق شعره ولم أكن قد لاحظتها سابقاً .
حول جم نظره من الدمية التي تمثل بنتاً صغيرة إليّ أنا . كان شعر الاسمية مقصوصاً باستقامة فوق الجبين وكذلك كان شعري .
قال :

— هذان نحن .

— ومن تظن أنه صنعهما ؟

— من من الجيران يمارس الحفر بالسكين ؟

— السيد آفري :

— ليس السيد آفري . أعني من ينحت تماثيل بالسكين ؟

كان السيد آفري يمارس النحت بالسكين فينحت مرة في كل أسبوع قطعة من الحطب ، وهو يشعل الحطبة حتى تتحول إلى نكاشة أسنان ثم يلوكها .

قلت :

— هناك حبيب الآتسة ستيفاني كروفورد العجوز .

— انه نحّات ، ولكنه يعيش في الريف . ومتى كان سيهتم بنا على أية حال ؟

- ربما يجلس على الرواق وينظر إلينا بدلاً عن النظر إلى الأنسة ستيفاني . ولو كنت مكانه لفعلت ذلك .

حدثني فيّ جم طويلاً إلى حد أني سألتها ما الحكاية ؟ ولكنه لم يجبني سوى : « لاشيء ياسكاوت » . وحين مضينا إلى البيت وضع جم الدميتين في صندوقه .

بعد أقل من أسبوعين وجدنا رزمة كاملة من العلكة ، وقد تمنعنا بها ، فقد كانت حقيقة أن كل شيء في منزل آل رادلي كان سماً قد غابت عن ذاكرة جم .

في الأسبوع التالي وجدنا في ثقب العقدة ميدالية بهت بريقها . وقد أراها جم لأتيكوس الذي قال إنها ميدالية كانت تمنح قديماً في مسابقات التهجئة ، وأنه قبل أن نولد كانت مدارس مقاطعة مايكوم تقم مسابقات في التهجئة وتمنح ميداليات للراجلين . قال أتيكوس ان شخصاً ما لا بد أن يكون قد أضعافها . هل سألنا الجيران ياترى ؟ رفسي جم رفسة قوية أشبه برفسة الحجل حين حاولت أن أذكر المكان الذي وجدناها فيه . سأل جم أتيكوس ان كان يتذكر شخصاً ممن سبق لهم وفازوا بمثلها ، وقال أتيكوس لا .

وقد ظهرت أكبر جوائزنا بعد أربعة أيام . وكانت تلك عبارة عن ساعة جيب عاطلة عن العمل، ولها سلسلة وموسى من الألمنيوم .
- هل تعتقد أنها من الذهب الأبيض يا جم ؟

— لأعرف . سأريها لأتيكوس .

قال أتيكوس أنها قد تساوي عشرة دولارات ربما ، بما فيها السلسلة والموسى لو كانت جديدة . ثم سأل :

— هل أجريت مقايضة مع أحد التلاميذ في المدرسة ؟
— لا ياسيدي .

وأخرج جم ساعة جده التي كان يسمح له أتيكوس بحملها مرة في الأسبوع إذا أظهر حرصاً كافياً عليها . وفي الأيام التي كان يحمل فيها الساعة ، كان جم « يمشي على البيض » .

قال جم :

— أتيكوس ، إذا وافقت فاني أفضل أن أحمل هذه الساعة . ربما سأستطيع أن أصلحها .

حين لم يعد هناك شعور بالحدة يرافق جم حين يحمل ساعة جده ، وأصبح حملها مهمة ثقيلة طوال النهار ، لم يعد جم يشعر بضرورة التأكد من الوقت كل خمس دقائق .

وهاهو قد بذل جهده ، ولم يتبق لديه سوى نابض واحد وقطعتان دقيقتان ، ولكن الساعة لم تدر . تنهد قائلاً :

— لن تدور أبداً . سكاوت ؟

— نعم ؟

— ألا تعتقدن أن علينا أن نكتب رسالة إلى ذاك الذي يترك لنا كل
هذه الأشياء ؟

— سيكون ذلك جميلاً فعلاً يا جيم ، ويمكننا أن نشكره . . .
ما القصة يا جيم ؟

كان جيم يمسك بأذنيه ويمز برأسه من جانب آخر . قال :

— لا أفهم ، لا أستطيع أن أفهم ، لأعرف لماذا يأسكاوت . . .
ثم نظر باتجاه غرفة الجلوس وقال :

— أعتقد أنه من الأفضل أن أقول لآتيكوس . . . لا ، أعتقد أن
علي ألا أفعل ذلك .

— سأقول له بالنيابة عنك .

— لا ، لا تفعل يا سكاوت . سكاوت ؟

— نعم . . . م ؟

كان على وشك أن يقول لي شيئاً طوال ذلك المساء . كان وجهه
يشرق وينحني هو باتجاهي ثم يغير رأيه . وقد غيره الآن مرة أخرى .

— حسناً ، لا شيء .

— هيا نكتب رسالة .

ودفعت بدفتر وقلم رصاص باتجاهه وتحت أنفه .

— حسناً . « سيدي العزيز » . . .

— وكيف تعرف أنه رجل ؟ أراهن أنها الآنسة مودي ، بل اني
أراهن على ذلك منذ زمن بعيد .

— حسناً ، ولكن الآنسة مودي لا تستطيع أن تمنع العلكة .
ثم ابتسم جم واستأنف قائلاً :

— أنت تعرفين أنها تستطيع أن تتحدث على نحو لطيف أحياناً .
وقد عرضت عليها مرة بعض العلكة ورفضت شاكرة قائلة: ان العلكة
تلتصق بسننبل حلقها وتجعلها لا تستطيع الكلام . ألا يبدو هذا لطيفاً ؟
— أجل ، يمكنها أن تقول أشياء لطيفة أحياناً . وعلى كل حال
فإنها لا يمكن أن تمتلك ساعة ذات سلسلة .

قال جم :

— سيدي العزيز . نقدر كثيراً . . . كلا . . . نقدر كثيراً كل
ما وضعته في الشجرة من أجلك . المخلص جداً : جيريمي أتيكوس فينتش .

— لن يعرف من أنت إذا وقعت بهذه الطريقة يا جم .
مضى جم اسمه وكتب « جم فينتش » . ثم وقعت أنا « جان لويز
فينتش (سكاوت) » تحت اسمه . وضع جم الرسالة في ظرف .
في صباح اليوم التالي وفي طريقنا إلى المدرسة سيقني جم راكضاً
وتوقف عند الشجرة . كان جم يواجهني حين نظر فرأيت وجهه
يشحب بشدة .

— ياسكاوت .

عدوت نحوه .

كان أحدهم قد سد ثقب العقدة بالاسمنت .

— لا تبكي ياسكاوت ، هيا ، سكاوت . . . لا تبكي . . . هيا ،
لا تخزني .

هكذا كان جم يهمهم طوال الطريق إلى المدرسة .

حين عدنا إلى البيت لتناول الغداء التهم جم طعامه بسرعة ، ثم
ركض نحو الرواق وانتظر عند الدرج . تبعته . قال :

— لم يمرّ بعد .

في اليوم التالي كرر جم مراقبته فعرفت مرماه .

قال جم :

— نهارك سعيد ياسيد نااثان .

— صباح الخير يا جم وسكاوت .

هكذا قال لنا السيد رادلي لدى مروره بالقرب من منزلنا .

قال جم :

— ياسيد رادلي .

استدار إليه السيد رادلي .

— ياسيد رادلي ، هل أنت الذي ملأ ذلك الثقب في تلك الشجرة
هناك بالاسمنت ؟

— أجل . لقد ملأته .

— ولماذا ياسيدي ؟

— الشجرة تحتضر . والعادة تقضي أن تملأ ثقبها بالاسمنت ان
كانت مريضة . كان عليك أن تكون ملماً بذلك يا جم .

لم يقل جم شيئاً آخر حتى عصر اليوم التالي . وحين مررنا بشجرتنا
ربت وهو مستغرق في التفكير على الاسمنت ، وتوقف وغرق في
تفكير عميق . كان يبدو عليه وكأنه يحاول أن يكون سيء المزاج ،
ولذا آثرت الابتعاد عنه قليلاً .

وكالعادة ذهبنا للقاء أتيكوس وهو عائد من عمله ذلك المساء .
وحين وصلنا إلى درج منزلنا ، قال جم :

— أتيكوس ، انظر إلى تلك الشجرة هناك ياسيدي من فضلك .

— أية شجرة يا بني ؟

— تلك التي على زاوية محيط منزل آل رادلي والتي هي في طريق
عودتنا من المدرسة .

— أجل ؟

— هل تعتقد أنها تحتضر ؟

— كلا يابني ، لأظن ذلك ، أنظر إلى الأوراق ، أنها خضراء كلها ومكتملة ، ولا ترى فيها أية بقع بنية اللون في أي مكان . . .

— انها ليست مريضة حتى ؟

— تلك الشجرة في صحة جيدة بقدر ماأنت في صحة جيدة يا جم .
ولكن لماذا ؟

— قال السيد ناثن رادلي انها تحتضر .

— ربما يكون الأمر كذلك . أنا على ثقة من أن السيد رادلي يعرف أشجاره أكثر مما نعرفها نحن .

تركنا أتيكوس عند الرواق . استند جم إلى أحد الأعمدة وراح يحك كتفيه عليه .

— هل أنت مصاب بحكة يا جم ؟

لم يجب على سؤالي رغم أنني طرحته بالطفف بطريقة ممكنة .

— إذن هيا يا جم ندخل .

— فيما بعد .

ولكنه ظل واقفاً هناك حتى حل الظلام ، وقد انتظرتة . وحين دخل إلى البيت لاحظت أنه كان يبكي قبل دخوله فقد كان وجهه متسخاً كما يحدث بعد البكاء ، ولكني فكرت في أنه من الغريب ألا أكون قد سمعته وهو يبكي .

* * *

المفصل الثامن

لأسباب خفت على أحنك أنبياء مقاطعة مايكوم ، تحول تحريف ذلك العالم إلى شتاء . فقد مرّ علينا أسبوعان لم يعرف الاقليم أبرد منهما منذ عام ١٨٨٥ كما قال أتيكوس . قال السيد آفري أنه قد كتب على « حجر رشيد » أنه حين يعصي الأولاد آباءهم ويلدخنون اللقافات ويشاجرون فيما بينهم ، فان الفصول تتغير : ورزحنا ، جم وأنا ، تحت وزر المساهمة في تقلبات الطبيعة ، وفي جلب التعاسة إلى جيراننا والقلق لأنفسنا .

ماتت السيدة رادلي العجوز في ذلك الشتاء ، ولكن موتها مرّ دون ضجة تذكر ، فقد كان الجيران نادراً ما يرونها ، إلا حين كانت تخرج لتسقي شجيراتهم من نوع الكنا . وقد قررنا جم وأنا أن « بو » قد نال منها أخيراً ، ولكن حين عاد أتيكوس من منزل آل رادلي قال أنها ماتت ميتة طبيعية وهذا مما خيب آمالنا .

همس جم :

— أسأليه .

— اسأله أنت ، فأنت الأكبر .

— ولذا يجب عليك أنت أن تسأليه .

قلت :

— يا أتيكوس ، هل رأيت السيد آرثر ؟

نظر إليّ أتيكوس بصرامة من وراء صحيفته وقال :

— لم أراه .

منعني جم من الاسترسال في طرح الأسئلة . قال ان أتيكوس لا يزال حساساً بالنسبة لموضوع علاقتنا مع آل رادلي ولن يكون الالحاح عليه مثمراً . كان جم يعتقد بأن أتيكوس قد أحس بأن نشاطاتنا في تلك الليلة من الصيف الماضي لم تكن مقتصرة على « بوكر التشليح » فحسب . لم يكن لدى جم أي أساس صلب لهذه الفكرة ، ولكنه قال انها مجرد تخاطرة .

في صباح اليوم التالي استيقظت ونظرت من النافذة فكدت أموت من الرعب . وقد جلبت صرخاتي أتيكوس من الحمام وقد حلق نصف وجهه فقط .

— انها نهاية العالم يا أتيكوس . افعّل شيئاً ما . أرجوك .

ثم جرّته نحو النافذة وأشارت إلى ما كنت أراه .

قال :

— لا ، ليست هذه نهاية العالم . ان الثلج يهطل .
سأله جم ان كان الثلج سيستمر فترة طويلة في المطول . لم يكن
قد سبق لجم أن رأى الثلج أيضاً ، ولكنه كان يعرف ماهو الثلج .
قال أتيكوس انه لم يكن يعرف عن الثلج أكثر مما يعرف جم . واستأنف
قائلاً :

— إذا كان مائياً بهذا الشكل فسيتحول إلى مطر .
قرع جرس الهاتف وغادر أتيكوس مائدة الافطار ليحيط عليه .
ثم قال لدى عودته :

— كانت تلك « يولا ماي » وقد قالت : « بما أن الثلج لم يهطل
في مقاطعة مايكوم منذ عام ١٨٨٥ ، فلن تفتح المدرسة أبوابها اليوم » .
كانت « يولا ماي » هي عاملة المقسم الهاتفي الرئيسية في مايكوم .
وقد كان يوكل إليها اصدار الاعلانات العامة ودعوات الزفاف واطلاق
صفارة انذار الحريق واعطاء تعليمات الاسعاف الأولى حين يكون
الدكتور رينولدز بعيداً عن المثال .

وحين طلب منا أتيكوس أخيراً أن نتخلى عن القوضى وأمرنا أن
ننظر إلى أطباقنا بدلاً من النوافذ ، سأله جم :
— كيف تصنع تمثال « رجل الثلج » ؟

— لأعرف اطلاقاً . ولا أريد كما أن تشعرنا بخيبة الأمل ، ولكني أشك في أنه لن يكون هناك ثلج كاف لصنع حتى كرة من الثلج .

دخلت كالبورنيا وقالت أن الثلج قد بدأ يلتصق بالأرض . ونحن عدونا إلى الفناء الخلفي وجدناه مغطى بطبقة هشة من الثلج الطريّ .

قال جم :

— يجب ألا نمشي فوقه . انظري ، كل خطوة تمشيها تضيّع جزءاً منه .

نظرت إلى الوراء حيث آثار خطواتي الطرية . قال جم اننا لو انتظرنا حتى يهطل المزيد من الثلج فسوف نستطيع أن نكشطه بـكله لنصنع رجل ثلج . مددت لساني فالتقطت رقاقة كبيرة منه . وقد أحرقت لساني .

— انها حارة يا جم .

— لا ، ليست حارة ، وإنما هي باردة جداً إلى حد أنها تحرق . هيا لآكلها ياسكاوت . أنت تضيّعها دون جدوى . اتركها تنزل .

— ولكني أريد أن أمشي فيه .

— أعرف الحل ، سنذهب لنمشي في فناء الآنسة مودي .

قفز جم على قدم واحدة عبر الفناء الأمامي . وقد تبعث آثاره .

وحين وصلنا إلى الممر الجانبي أمام منزل الآنسة مودي ، بادرنا السيد آفري بالكلام . كان له وجه زهري اللون وكرش كبيرة تتلى من تحت حزامه .

قال :

— هل ترون ما فعلتم ؟ لم يسبق أن أثلجت في مايكوم منذ « معركة أبو ماتوكس (١) » . ان الأطفال الشريرين من أمثالكما هم السبب في تغيير الفصول .

وقد تساءلت في نفسي ان كان السيد آفري يعرف كم كنا ننتظر بعين الأمل أن يعيد استعراضه ولكن دون جدوى ، وفكرت في أنه لو كانت هذه هي مكافأتنا على كل ذلك الانتظار فلا شك أننا ارتكبنا خطيئة ما . ولم أتساءل عن المصدر الذي كان السيد آفري يحصل منه على احصائياته المتعلقة بالمناخ : فقد كانت مصادره هي « حجر رشيد » بالذات .

— يا جم فينتش ، أنت يا جم فينتش .

— الآنسة مودي تناديك يا جم .

— ابقوا جميعاً في وسط الفناء . هناك نبتة ذات أزهار مدفونة تحت الثلج بالقرب من الرواق . لا تدوسوا عليها .

(١) آخر معركة في الحرب الأهلية الأمريكية وقد جلبت النصر الشماليين على الجنوبيين (المترجم) .

صاح جم :

— سمعاً وطاعة ياسيدي . جميل أليس كذلك ياآنسة يامودي ؟

— وما الجمال فيه ؟ لو حلّ الجليد الليلة فسيتقل كل أشجاري
من الأناليا .

كانت قبعة الآنسة مودي الشمسية القديمة تلمع بجبات الثلج البلورية .
كانت تنحني فوق بعض الشجيرات الصغيرة وتلفها بأكياس من الخيش .
وسألها جم عن سبب قيامها بذلك .

قالت :

— حتى تبقى دافئة .

— كيف يمكن للأزهار أن تبقى دافئة ؟ ليس لها دورة دموية .

— لأستطيع الاجابة على هذا السؤال ياجم فينتش . كل ماأعرفه
هو أنه إذا حل الجليد الليلة فستتجمد هذه النباتات ، ولذا علي أن أعطيها .
هل هذا واضح ؟

— نعم ياسيدي . ياآنسة مودي ؟

— ماذا ياسيدي ؟

— هل يمكننا سكاوت وأنا أن نقترض بعضاً من ثلجك ؟

— يا لاسماء ، خذاه كله ، هناك سلة دراق عتيقة تحت المنزل ،
ضعها الثلج فيها .

وفجأة ضاقت عيننا الآنسة مودي فقالت :

— يا جم فينتش ، مالذي سنفعله بثلجي ؟

قال جم :

— سترين .

ثم نقلنا أكبر مقدار من الثلج استطعنا نقله من فناء الآنسة مودي
إلى فئتنا ، وكانت تلك عملية موحلة .

سألت :

— مالذي سنفعله يا جم ؟

قال :

— سترين . والآن اجلسي السلة واحملي كل الثلج الذي تستطيعين
حمله من الفناء الخلفي إلى الأمامي . وعليك أن تمشي فوق آثار خطواتك
على أية حال .

— هل سيكون لنا طفل ثلج ؟

— لا ، بل رجل ثلج حقيقي . وعلينا أن نعمل بجد .

ركض جم نحو الفناء الخلفي وعاد بمعزقة الحديقة وشرع يخر
بسرعة خلف كومة الحطب ، ويضع الديدان التي يجدها جانباً . ثم دخل
البيت وعاد يحمل سلة الغسيل وملأها بالتراب وحملها إلى الفناء الأمامي .
وحين أصبح لدينا خمس سلال من التراب وسلتان من الثلج .
قال جم اننا جاهزان للبدء بالعمل .

سألته :

— ألا تعتقد أن هذا نوع من « الحبيصة » ؟
— أنها تبدو مثل « الحبيصة » الآن ، ولكن الأمر لن يكون كذلك
بعد حين .

غرف جم ملء ذراعيه من التراب وراح يكس فوقها أكداً
أخرى ويرتبها حتى أتم بناء جذع التمثال .
قلت له :

— يا جم ، لم يسبق لي أن سمعت برجل ثلج زنجي .
— لن يكون أسود بعد قليل .

جلب جم بعض قضبان من شجرة الدراق من الفناء الخلفي ثم
صفرها ولواها على شكل عظام وليغطيها بالتراب .
قلت :

— يبدو وكأنه الآنسة ستيفاني كروفورد ويدها على ردفها :
بدينة في المنتصف وذراعاها صغيران .
— سأجعلهما أكبر .

رش جم الماء على الرجل الطيني وأضاف المزيد من التراب . حدّق
باستغراق في التمثال لبرهة ثم جعل له كرشاً كبيرة متدلّية تحت خصره .
نظر إلى جم وعيناه تومضان وقال :

— ان للسيد آفري شكلاً أشبه برجل الثلج ، أليس كذلك ؟
غرف جم بعض الثلج وبدأ يلصقه فوق التمثال . وقد سمح لي
بتغطية الظهر فحسب ، تاركاً الأجزاء البارزة لنفسه . وتدرجياً تحول
السيد آفري إلى اللون الأبيض .

وقد نجح جم في جعل السيد آفري يبدو غاضباً عن طريق استعمال
قطع من الحطب للعيون والأنف والفم والأزرار . كما أن قضيباً من
حطب المدفأة أكمل الصورة . عاد جم خطوة نحو الخلف وراح ينظر
إلى مخلوقه .

قلت :

— انه جميل يا جم ، ويبدو وكأنه يود التحدث إليك .

قال بنجل :

— أجل جميل ، أليس كذلك ؟

لم نستطع الانتظار حتى يعود أتيكوس إلى البيت ليتناول طعام الغداء ، بل هتفنا له وقلنا ان لدينا مفاجأة كبيرة له . وقد بدا مندهشاً حين رأى معظم الفناء الخلفي وقد أصبح في الفناء الأمامي ، ولكنه قال اننا قمنا بعمل جيد جداً . قال لحجم :

— لم أكن أعرف كيف ستتصرفون ، ولكن من الآن فصاعداً لن أقلق عليك ، يا بني ، فسوف نخطر لك دائماً فكرة ما جديدة .

احمرت أذنا جم من مديح أتيكوس ، ولكنه نظر بحدة حين رأى أتيكوس يخطو نحو الخلف . حدق أتيكوس في رجل الثلج قليلاً . ثم ابتسم وضحك .

— يا بني لأستطيع أن أعرف ماستكونه : مهندساً ، محامياً أو رسام بورتريهات(١) . لقد اقترفت عن عمد تشهيراً علنياً في الفناء الأمامي . علينا أن نموه هذا الشخص .

اقترح أتيكوس أن يخفف جم من كرش تمثاله قليلاً ، ووضع مكينة بدلاً من الخطبة ، والباسه مريلة .

قال جم انه لو فعل ذلك ، فان رجل الثلج سيصبح موحلاً ولن يعود رجل ثلج .

— لا يهمني ما تفعله ولكن عليك أن تفعل شيئاً ما لثمويه . لا يمكنك أن تستمر في صنع صور كاريكاتورية لجيراننا .

(١) صورة ترسم للشخص تظهر وجهه عادة .

قال جم :

— ليس كارىكانوراً ، بل يبدو مثله تماماً .

— قد لا يكون للسيد آفري الرأي نفسه .

قال جم :

— أعرف ماذا سأفعل .

ركض عبر الشارع واختفى في فناء الآنسة مودي الخلفي وعاد مزهواً بالانتصار . وضع قبعتها الشمسية على رأس رجل الثلج كما دس مقص نباتاتها في ذراعه . فقال أتيكوس إن الأمر أصبح معقولا الآن .

فتحت الآنسة مودي بابها الأمامي وخرجت إلى الزواق . نظرت عبر الشارع نحونا . وفعجأة ابتسمت ثم صاحت :

— يا جم فينتش . أيها الشيطان أعد إلى قبعتي . ياسيدي .

نظر جم إلى أتيكوس الذي هز رأسه وقال :

— انها مهتاجة فحسب ، ولكنها معجبة بـ . . . الجازاتاك .

سار أتيكوس نحو الممر الجانبي لمنزل الآنسة مودي ، وهناك انهمكا في حديث تخللته تلويعات الأذرع ، ولم التقط منه سوى عبارة واحدة كانت : « . . . لقد نصب تمثالا مخفيا تماماً في ذلك الفناء ، يا أتيكوس ، لن تكون قادراً أبداً على تربيتهم . »

توقف هطول الثلج بعد الظهر ، ثم هبطت درجة الحرارة ، ومع حلول الليل صدقت أسوأ تنبؤات السيد آفري : فقد جعلت كالبورنيا كل مدفأة في البيت تئنّ بالنار ، ولكننا رغم ذلك لم ندفأ . وحين عاد أتيكوس إلى البيت في ذلك المساء قال اننا يجب أن نتوقع الأسوأ . وسأل كالبورنيا ان كانت ترغب في البقاء معنا تلك الليلة . رفعت كالبورنيا نظرها نحو السقف العالي والنوافذ الكبيرة وقالت انها تظن انها ستكون أدفأ في بيتها . وقد أوصلها أتيكوس بالسيارة إلى هناك .

وقبل أن أذهب للنوم وضع أتيكوس المزيد من الفحم في مدفأة غرفتي . قال ان درجة الحرارة سجلت (١٦) درجة (فهرنهايت) ، وأنها أبرد ليلة يتذكرها ، وأن رجل ثلجنا لابد أن يكون قد تجمد وأصبح صلباً .

بعد دقائق ، كما بدا لي ، أيقظني شخص ما راح يهزني . كان معطف أتيكوس قد مدّ فوقني .

— هل آن للصباح أن يعود ؟

— انهضي باطفائي .

كان أتيكوس يحمل لي روب الحمام ومعطفي . قال :

— البسي الروب أولاً .

كان جم واقفاً إلى القرب من أتيكوس ، مترنحاً من النعاس ،

أشعث الشعر . كان مرتدياً معطفه مغلقاً عند العنق وكانت يده الأخرى
محشورة في جيبه . كان يبدو وقد اكتسب وزناً إضافياً على نحو غريب .

قال أتيكوس :

— أسرع يا حبيبي . هاهو حذاؤك وجاربك :

وقد ارتديت حذائي وجاربي بكل غباء .

— هل هو الصباح ؟

— لا ، ان الساعة تجاوزت الواحدة بقليل . أسرع الآن .

أخيراً توصلت إلى أن شيئاً ما على غير مايرام .

— مالمسألة ؟

الآن لم يعد ضرورياً أن يحكي لي . فكما تعرف الطيور أين تذهب
حين يهطل المطر ، كنت أدرك دائماً أن شيئاً ما قد حدث في شارعنا
حين يكون قد حدث . كانت هناك أصوات ناعمة حريرية وأصوات
عدوٍ مكتومة مألوفة برعب يشوبه العجز .

— منزل من ؟

قال أتيكوس بلطف :

— منزل الآنسة مودي يا حبيبي .

عند الباب الأمامي رأينا النار تخرج من نوافذ غرفة المائدة في منزل

الآنسة مودي . وحتى يتأكد مارأيناها ، فقد سمعنا صوت صفارة سيارة الاطفاء وهي تعول إلى أقصى حد وتتوقف هناك وهي لا تزال تزعق .

أنّ جم قائلاً :

— لقد احترق المنزل ، أليس كذلك ؟

قال أتيكوس :

— أتوقع ذلك . والآن اصغيا إلي كلاكما . اهبطا وقفا أمام منزل آل رادلي . لاتقفا في طريق الناس ، هل سمعتما ؟ أتريان في أي اتجاه تهب الريح ؟

قال جم :

— يا أتيكوس ، ألا تعتقد أن علينا أن نبدأ بنقل الأثاث إلى الخارج .

— ليس بعد يا بني . افعلا الآن ما أقوله لكما . اركضا الآن . اعتن بسكاوت ، هل تسمع يا جم ؟ لاتدعها تبتعد عن ناظريك ..

وبدفعة منه جعلنا أتيكوس نتوجه نحو البوابة الأمامية لمنزل آل رادلي . ووقفنا نراقب الشارع يمتلئ بالرجال والسيارات بينما راحت النار تلتهم بصمت منزل الآنسة مودي .

همهم جم :

— لماذا لا يترعون ؟ لماذا لا يسرعون . . . ؟

وقد رأينا السبب في ذلك . كانت سيارة الاطفاء العجوز ، التي
قتلها البرد . تدفع من قبل جمهرة من الرجال . وحين أوصل الرجال
خرطومها إلى أحد الصنابير انفجر الخرطوم واندفع الماء يرّن على الرصيف .

— يا المرب يا جم . . .

نفسي جم بذراعه وقال :

— صه ياسكاوت . لم يحن وقت القلق بعد . سأقول لك متى يحين .

كان رجال مايكوم بكل درجات اللباس والعري . يخرجون أثاث
الآنسة مودي نحو فناء يقع على الرصيف المواجه . ورأيت أتيكوس
يحمل كرسي الآنسة مودي الهزاز الثقيل المصنوع من خشب السندبان .
ورأيت أنه تصرف معقول منه أن يقوم بانقاذ ما كانت تعتبره أئمن
مالديها . كان يدفع بفراش من النافذة إلى الشارع ثم يرمي بالأثاث حتى
يصبح الرجال : « اهبط من هناك يا « ديك » . السلام تحترق . اخرج
من هناك ياسيد آفري . »

بدأ السيد آفري بالهبوط من النافذة .

قال جم لاهتاً :

— سكاوت . لقد علق . . . يا إلهي . . .

كان السيد آفري منحشراً بشدة في النافذة .

دفنت وجهي تحت ذراع جم ولم أنظر مرة أخرى حتى صاح جم :
... لقد نجأ ياسكاوت . انه بخير .

نظرت لأرى السيد آفري يعبر رواق الطابق العلوي . كان قد لف
ساقيه حول الدرابزون وراح ينزلق عبر عمود حين زلّ فجأة . سقط
ثم صرّح ووقع على شجيرات الآنسة مودي .

وفجأة لاحظت أن الرجال أخذوا يراجعون عن منزل الآنسة
مودي ويتجهون على طول الشارع نحونا . لم يعودوا يعملون الآن
الأثاث . كانت النار قد أتت على الطابق الثاني ووصلت إلى السقف :
وكانت اطرار النوافذ سوداء على خلفية برتقالية متقدة .

— يا جم انه يبدو كيقطينة .

— انظري ياسكاوت .

كان الدخان يتصاعد ملتفاً بمنزلنا ومنزل الآنسة راشيل كالضباب
المتصاعد من ضفة نهر ، وكان الرجال يجرون الحراطين باتجاههما .
وخلفنا كانت عربة اطفاء بلدة « أبوتسفيل » تزحف وهي تلتف حول
المنعطف وتتوقف عند منزلنا .

قلت :

— ذاك الكتاب . . .

قال جم :

— ماذا ؟

— كتاب « توم سويغت » ليس لي ، انه يخص « ذيل » . . .

— لانتقلتي ياسكاوت . لم يحن وقت القلق بعد .

ثم أشار بيده قائلاً :

— انظري هناك .

بين مجموعة من الجيران وقف أتيكوس ويداه في جيبه معطفه .
كان يبدو كمن يراقب مباراة كرة قدم وإلى القرب منه وقفت الآتسة
مودي .

قال جم :

— ألا ترين ، انه ليس قلقاً بعد .

— لماذا لا يقف على سطح أحد المنازل ؟

— انه عاجز على ذلك ، ربما يخشى أن يدق عنقه .

— هل تظن أن علينا أن نجعله يخرج حاجياتنا من المنزل ؟

— علينا ألا نزعجه ، سيعرف كيف يتصرف حين يحين الوقت

المناسب :

بدأت عربة مطافئ « أبوتسفيل » بضخ الماء على منزلنا ، وكان

هناك رجل يقف على السطح راح يشير إلى الأماكن التي كانت تحتاج إلى الماء أكثر من غيرها . راقبت تمثالنا الثلجي المخنث تماماً وهو يسود ثم يتداعى ، كما استقرت قبعة الآنسة مؤدي الشمسية فوق الكومة . لم أستطع أن أرى مقص النباتات . في حرارة النار مابين منزلنا ومنزل الآنسة راشيل ومنزل الآنسة مودي ، كان الرجال قد رموا بمعطفهم وأرواب الحمام . كانوا يعملون الآن مرتدين بيجاماتهم وقمصان نومهم قد حشرت في سراويلهم ، ولكني أدركت أنني كنت أكاد أجمد ببطء حيث كنت أفف . حاول جم أن يدفني ، ولكن ذراعه لم تكن كافية . تحررت منها وأمسكت بكتفي ، ثم رحت أرقص قليلاً فشرعت بوجود قديمي .

ظهرت عربة اطفاء أخرى وتوقفت أمام منزل الآنسة ستيفاني كروفورد . لم يكن هناك صنبور لتشغيل خرطوم اضافي ، وحاول الرجال أن يبللوا منزلها بالمطافئ اليدوية .

خفف سقف منزل الآنسة مودي المصنوع من الصفيح من حدة اللهب . ثم تهاوى المنزل وهو يزجر وتدفقت النار من كل مكان وراح الرجال يهاجمونها بالبطانيات من على أسطح المنازل المجاورة ، ويدوسون على الشرارات وقطع الخشب المحترقة .

كان الفجر قد حل حين بدأ الرجال بالمغادرة ، فرداً فرداً في البداية ثم في مجموعات ، ثم دفعوا عربة مطافئ مايكوم عائدين بها

إلى البلدة ، كما رحلت عربة مطافئء أبوتسفيل ، وبقيت العربة الثالثة . وقد عرفنا في اليوم التالي أنها وصلت من بلدة « كلارك فيري » التي تبعد ستين ميلاً عن بلدتنا .

مشينا جم وأنا عبر الشارع ببطء كمن يزحف زحفاً . كانت الآنسة مودي تحلق في الحفرة السوداء المدخنة في فئناها ، وهزّ أتيكوس رأسه ليقول لنا أنها لا تريد أن تتكلم . قادنا إلى المنزل ، وهو يمسك بأكتافنا لنعبر الشارع الثلج . قال ان الآنسة مودي ستمكث مع الآنسة ستيفاني في الوقت الحاضر .

سألنا قائلاً :

— هل يريد أحد منكم بعض الشوكولاته الساخنة ؟
وحين أشعل أتيكوس النار في موقد المطبخ ارتجفت من البرد .
وبينما كنا نحتسي الشراب الدافئ لاحظت أن أتيكوس كان ينظر إليّ . أولاً بفضول ثم بتعجبهم .

قسال :

— أعتقد أنني قلت لك ولجم أن بقايا في مكانكما لا تبرحانه .
— لقد بقينا في مكاننا . . .
— بطانية من هذه إذن ؟
— بطانية ؟

— نعم يا أنستي ، بطانية ، وهي ليست لنا .

نظرت فوجدت نفسي ممسكة ببطانية صوفية بنية اللون كنت أضعها حول كتفي كما تفعل نساء الهنود الحمر .

— أتيكوس ، لا أعرف ياسيدي . . . اني . . .

استدرت نحو جم أبحث عن سؤال ، ولكن جم كان أكثر حيرة مني . قال انه لم يكن يعرف كيف جاءت البطانية ، فقد فعلنا ماطلبه منا أتيكوس ، ووقفنا عند بوابة منزل آل رادلي بعيداً عن الجميع ، ولم نتحرك بوصة واحدة من مكاننا . ثم توقف جم عن الحديث ليستأنف قائلاً وهو يهدي :

— السيد ناثن كان عند النار ، لقد رأيته ، لقد رأيته ، كان يجرّ تلك الفرشة . . . أتيكوس ، أقسم لك . . .

— حسناً يا بني . يبدو وكأن مايكوم كلها كانت هناك هذه الليلة بطريقة ما أو بأخرى . يا جم ، هناك بعض ورق اللّف في حجرة المؤونة كما أعتقد . اذهب وأحضره وسوف . . .

— أتيكوس ، لا ياسيدي .

بدا جم وكأنه فقد عقله . ثم بدأ يصب أسرارنا ذات اليمين وذات الشمال دون أن يأخذ بعين الاعتبار سلامتي أو حتى سلامته ، ودون أن يحلف أي شيء ، لاثقب العقدة في الشجرة ولا البنطال ولا أي شيء آخر .

— لقد وضع السيد فاثان الاسمنت في تلك الشجرة حتى لا نعود
نجد شيئاً فيها ، وأقسم بالله أنه لم يؤذنا أبداً ، كما أنه لم يقربنا بسوء
أبداً ، كان يستطيع أن يذبحني من الوريد إلى الوريد في تلك الليلة لو
شاء ، ولكنه حاول أن يصلح بنطالي بدلاً عن ذلك . . . لم يؤذنا
أبداً يا أتيكوس . . .

قال أتيكوس :

— لاعليك يا بني .

ولكنه قالها بلطف شديد وإلى حد أنني شعرت بالراحة إلى حد كبير .
كان من الواضح أنه لم يتابع أية كلمة مما قاله جم ، فقد كان كل
مأقاله :

— أنت على حق . الأفضل أن نحفظ بذلك وبالبطانية لأنفسنا .
ربما ستستطيع سكاوت أن تشكره في يوم من الأيام على تغطيته لهاها
من البرد .

سألت :

— أشكر من ؟

— بورادلي . كنت مشغولة جداً بالتفرج على النار بحيث لم تلاحظه
حين وضع البطانية فوق كتفك .

شعرت باضطراب شديد في أحشائي وكدت أفتقياً حين أمسك
جم بالبطانية واقترب مني ببطء .

— لقد تسلل خارجاً من منزله — ثم استدار — وتسلل وفعل هكذا .
قال أتيكوس بلهجة جافة :

— لاتجعل هذا يلهمك بالمزيد من المجد يا جبريمي .
قطب جم جبينه وقال :

— لن أفعل له شيئاً بعد الآن .

ولكني لاحظت شرارة المغامرة الجديدة تغادر عينيه . ثم استأنف
قائلاً :

— فكري ياسكاوت لو أنك استدرت في تلك اللحظة لكنت شاهدته .
أيقظتنا كالبورنيا عند الظهر . كان أتيكوس قد قال أنه لاضرورة
لذهابنا إلى المدرسة في ذلك اليوم فلن يدخل رؤوسنا شيء بعد ليلة
دون نوم . قالت لنا كالبورنيا ان علينا أن نحاول تنظيف الفناء الأمامي .
كانت القبعة الشمسية للآنسة مودي معلقة في طبقة رقيقة من الجليد
وكأنها فراشة في كهрман ، وكان علينا أن نحفر التراب بحثاً عن مقص
نباتاتها . وقد وجدنا الآنسة مودي في فناء منزلها الخلفي ، تحلق في
شجرات الأزاليا المجمدة المتفتحة :

قال جم :

— نود أن نعيد لك أغراضك ياآنسة مودي . نحن آسفان جداً .
نظرت الآنسة مودي فيما حولها ورأينا ظل ابتسامتها العجوز
فوق وجهها .

— كنت دائماً أودّ لو كان لي منزل أصغر يا جم ، فذاك يتيح
لي فناء أوسع . سيكون هناك مجال أكبر لشجرات الأزاليا الآن .
سألتها مندهشة :

— أأنت حزينة ياآنسة مودي ؟
كان أتيكوس قد قال لنا أن منزلها هو كل ماتملكه تقريباً .
— حزينة يا طفلي ؟ عجباً . لقد كنت أكره حظيرة البقر تلك .
لقد فكرت أنا نفسي في احراقه مئات المرات ، لولا خوفاً من أن
يحبسوني .

— ولكن . . .

— لا تقلقي عليّ يا جان لويز فينتش . هناك وسائل يمكن للمرء أن
ينجز بواسطتها أموراً ما كان يعرف سابقاً كيف يتصرف حيالها .
حسناً ، سأبني لنفسني منزلاً صغيراً وأؤجر غرفة أو غرفتين منه ، ثم
سيكون لدي أجمل فناء في ألاباما . ان نباتات البيلينغراث هذه ستبدو
سقيمة بالمقارنة مع ما سأفعله حين أبدأ من جديد .

نظرننا ، جم وأنا ، كل إلى الآخر . ثم سألها هو :

— وكيف بدأ الحريق ياآنسة مودي ؟

— لأعرف يا جم . ربما من أنبوب مدخنة المطبخ . لقد تركت النار مشتعلة هناك في الليلة الماضية حتى لا تتجمد نباتاتي الموضوعة ضمن الأصوص . لقد سمعت أنه كانت لديك صحبة غير متوقعة في الليلة الماضية ياآنسة جان لويز .

— ومن سمعت ذلك ؟

— أتيكوس حكى لي وهو في طريقه إلى البلدة هذا الصباح . هل أقول لك الحقيقة ، كنت أتمنى لو كنت معك . ولو كنت معك لكنت قد انتبهت والتفت إلى الخلف .

لقد حيرتني الآنسة مودي . فرغم أن معظم ممتلكاتها كانت قد احترقت وهاهو فناؤها المحبوب وقد تحول إلى خراب ، إلا أنها لا تزال تبدو حيوية وتبدي اهتماماً ودياً بشؤوننا جم وأنا .

لاشك أنها لاحظت حيرتي ، فقالت :

— ان الشيء الوحيد الذي أقلقني الليلة الماضية كان الخطر والفوضى اللذان سببهما الحريق . كان يمكن لهذا الحلي أن يحترق بكامله . أما السيد آفري فسيتقى في الفراش مدة أسبوع كامل : لقد تحول إلى حطام .

ان سنّه لاتسمح له بالقيام بتلك الأفعال وقد حذرته . وحالما أفرغ
وتكون ستيفاني كروفورد مشغلة عني ، فسوف أخبز له كعكة خاصة .
ان ستيفاني تلك لازالت تحاول منذ ثلاثين عاماً الحصول على الوصفة
التي استعملها ، وإذا كانت تظن أنني سأعطيها تلك الوصفة لمجرد أنني
سأسكن في منزلها فلا شك أنها مخطئة .

وقد فكرت في أن الآنسة مودي لو تراجعت وأعطتها الوصفة ،
فان الآنسة ستيفاني لن تستطيع تطبيقها على أية حال . لقد أتاحت لي الآنسة
مودي المجال لمشاهدتها وهي تحضرها مرة : وكان من بين ماتتطلبه
فنجاناً كبيراً واحداً من السكر .

كان النهار ساكناً . وكان الطقس بارداً وصافياً إلى حد أننا كنا
نسمع صوت ساعة دار المحكمة وهي تدق وتقعقع وتوتر قبل أن تدق
معلنة تمام الساعة . كان لأنف الآنسة مودي لون لم يسبق لي أن رأيته
من قبل ، وقد سألتها فقالت :

— أنا في الخارج هنا منذ الساعة السادسة . لابد أنني قد نجمدت .
ثم رفعت يديها . كانت هناك شبكة من الخطوط الصغيرة تتقاطع
وتتشابك في راحتها ، وكانت ذات لون بني من التراب والدم المترجين ،

قال جم :

— لقد أتلقت يديك . لماذا لاتستخدمين رجلاً ملوناً ؟ أو ربما
سكاوت وأنا ؟ يمكننا مساعدتك .

ولم تكن في صوته أية رنة تدل على التضحية حين قال العبارة الأخيرة.

قالت الآنسة مودي :

— شكراً ياسيدي ، ولكن لديك عملاً هناك .

ثم أشارت إلى فنائنا .

سألت :

— هل تعين التمثال المخنث ؟ يمكننا تسويته في لحظة .

حدثت في الآنسة مودي وشفتها تتحركان بصمت . وفجأة رفعت يديها إلى رأسها وشهقت . وحين غادرناها كانت لا تزال تضحك ضحكات خافتة .

قال جم انه لا يعرف ماحلّها . إلا أن الآنسة مودي هي الآنسة مودي .

* * *

الفضل التاسع

— عليك أن تسحب كلامك الآن يا ولد .

هذا الأمر الذي أصدرته إلى « سيسيل جاكوبس » كان بداية لفترة حساسة عشناها جميعاً وأنا . كانت قبضتاي مطبقتين وكنت على استعداد للكم . وكان أتيكوس قد هدّد بأنه سيبيجلي جلدني إذا سمع بأني تشاجرت مع أي شخص بعد الآن : قال اني أصبحت أكبر سنّاً وجسماً من أن أتورط في مثل تلك الأمور الطفولية ، وانني ما أن أتعلم الاحجام عن الشجار حتى يكون كل من حولي في حالة أفضل . ولكنني كنت قد نسيت ذلك كله .

لقد جعلني سيسيل جاكوبس أنسى ذلك ، فقد كان قد أعلن في باحة المدرسة في اليوم السابق أن والد سكاوت فينتش يدافع عن الزنوج . ولقد أنكرت ذلك ولكني حكيت لحلم وسألته :

— ماذا يعني بذلك ؟

— لا شيء . أسألي أتيكوس فيخبرك بالجواب .

وقد سألت أتيكوس ذلك المساء بالذات :

— هل تدافع عن الزنوج يا أتيكوس ؟

— طبعاً . ولا تقولي « زنجي » ياسكاوت ، هذه لفظة غير مهذبة .

— ولكن الجميع في المدرسة يستعملونها .

— من الآن فصاعداً سيكون هؤلاء الجميع قد نقصوا واحداً

— حسناً . إذا أردتني ألا أكبر وأنا أعلم مثل هذه الألفاظ فلماذا

ترسلني إلى المدرسة ؟ .

نظر إلي أبي برقة والضحكة في عينيه . ورغم الحل الوسط الذي توصلنا إليه ، إلا أن حملتي للشهرة من المدرسة استمرت على نحو أو آخر منذ أول جرعة مدرسية تلقيتها في اليوم الأول من الدراسة : كانت بداية شهر أيلول (سبتمبر) الماضي قد شهدت مني اغماءات ودوخة وشكاوى هضمية خفيفة . ثم تماديت إلى درجة أنني دفعت خمسة سنتات حتى أحك رأسي برأس ابن طباحة الآتسة راشيل الذي كان مصاباً بالقوباء الحلقية ولكن العدوى لم تصبني .

ولكني كنت أفكر بمسألة أخرى .

— هل يدافع المحامون كافة عن ال . . . السرود يا أتيكوس ؟

— طبعاً ياسكاوت .

— إذن لماذا قال سيسيل انك تدافع عن الزنوج ؟ لقد جعل الأمر يبدو وكأنك ترتكب شيئاً سيئاً وانما جيد التنظيم .

تنهد أتيكوس ثم قال :

— أنا وبكل بساطة أَدافع الآن عن رجل أسود اسمه توم روبنسون . وهذا يعيش في تلك المستوطنة الصغيرة الواقعة وراء مقلب نفايات البلدة . كما أنه عضو في الكنيسة التي تنتمي إليها كالبورنيا ، وكان تعرف عائلته جيداً . وهي تقول انها عائلة ذات سمعة نظيفة . ياسكاوت ، لست في السن الذي يؤهلك لفهم بعض الأمور ، ولكن كان هناك بعض الحديث في البلدة مفاده أنه ليس علي أن أبذل جهداً كبيراً في الدفاع عن هذا الرجل . هذه قضية غريبة ، وهي لن تعرض على المحكمة قبل الدورة الصيفية ، فقد كان جون تايلور (يعني القاضي) كريماً إلى حد أنه منحنا تأجيلاً . . .

— إذا كان عليك ألا تدافع عنه فلماذا تفعل ذلك ؟

— لأسباب عدة . والسبب الرئيسي هو أنني إذا لم أستطع الدفاع عنه فلن أستطيع أن أمشي مرفوع الرأس في البلدة ، ولن أكون قادراً على تمثيل بلدي في برلمان الولاية ، كما أنني لن أستطيع حتى أن أمرك أو أمر جم بالقيام بأي شيء بعد الآن .

— هل تعني أنك إذا لم تدافع عن ذلك الرجل فانه لن يكون علينا جم وأنا أن نطيعك بعد الآن ؟

— هذا صحيح تقريباً .

— لماذا ؟

— لأنني لن أستطيع أن أطلب الطاعة منكما بعد ذلك . ياسكاوت ، بسبب طبيعة عمل المحامي فإنه سيصادف خلال حياته قضية واحدة على الأقل تؤثر عليه شخصياً . وهذه قضيتي على ماأظن . قد تسمعين بعض الكلام القبيح حول هذا في المدرسة ، ولكن بإمكانك أن تفعلي شيئاً واحداً من أجلي إذا أردت : ماعليك سوى أن ترفعي رأسك عالياً وألا ترفعي قبضتك . مهما قال لك الناس عليك ألا تجعلهم يخرجونك عن طورك . حاولي القتال برأسك كنوع من التغيير . . . ورأسك رأس جيد وإن كان يرفض التعلم .

— أتيكوس ، هل سنكسبها ؟

— كلا ياعزيزتي .

— إذن لماذا . . .

— ان خبايرتنا المعلنة منذ مئة عام قبل شروعنا في القضية ليست سبباً في عدم محاولتنا الكسب .

قلت له :

— تبدوا الآن وكأنك ابن العم «آيك فينتش» .

كان ابن العم آيك فينتش هو الوحيد ممن تبقى على قيد الحياة

من المحاربين القدماء من الجيش الكونغنغري (١) . كانت له حية من طراز « الجنرال هود (٢) » وكان فخوراً بها على نحو مغال فيه . كنا نزوره مرة على الأقل كل عام ، أتيكوس وجم وأنا . وكنت مضطرة إلى تقبيله . وكان ذلك أمراً رهيباً بالنسبة لي . وكنا جم وأنا نصغي باحترام إلى أتيكوس وابن العم آيك وهما يستعيدان أحداث الحرب . كان ابن العم آيك يقول :

— أقول لك يا أتيكوس ان « تسوية ميسوري (٣) » هي التي وجّهت إلينا الضربة القاضية ، ولكن لو اضطرت إلى خوض التجربة مرة أخرى لسرت في إثر كل خطوة خطوها في السابق وزيادة عليه كنا سنمحوهم هذه المرة . . . في عام (١٨٦٤) حين بعث « ستونول جاكسون (٤) » من جديد . . . اعادوني أبها الشباب . في تلك الأيام

(١) تعني هنا الجيش الجنوبي الذي حارب ضد الجيش الشمالي في الحرب الأهلية الأمريكية (المترجم) .

(٢) الجنرال جون بل هود (١٨٣١ - ١٨٧٣) وهو من قادة الجيش الجنوبي الكونغنغري (المترجم) .

(٣) تسوية ميسوري : (١٨٢٠ - ١٨٢١) وهي الاجراءات التي أقرها الكونغرس الأمريكي لوضع حد لسلسلة من الأزمات المتعلقة بالتوسع في الرق إلى مناطق جديدة (المترجم) .

(٤) جاكسون (١٨٢٤ - ١٨٦٣) جنرال كونغنغري حقق عدة انتصارات على الشماليين وأصيب بجرح مميت في معركة « تشانسلرزفيل » (المترجم) .

كان ذلك « النور الأزرق العتيق » في السماء ، فليرحم الله جبينه المقدس....

قال أتيكوس :

— تعالي ياسكاوت .

تسللت إلى حجره ودفنت رأسي تحت ذقنه . طوقني بذراعيه وراح

يهزني بلطف . قال :

— هذه المرة الأمر مختلف ، فنحن لا نقاتل اليانكي ، بل نقاتل

أصدقاءنا . ولكن ضيعي في ذهنك أنه مهما أصبحت الأمور مريرة

فإن هؤلاء لازالوا أصدقاءنا وأن هذا لا يزال وطننا .

وقد واجهت سيسيل جاكوبس وهذه الفكرة في رأسي في باحة

المدرسة في اليوم التالي ، قلت :

— عليك أن تسحب كلامك يا ولد وإلا ؟

صاح قائلاً :

— عليك أن تجربيني على ذلك . إن أهلي يقولون إن أباك عار على

بلدتنا وإن ذلك الزنجي يجب أن يشنق معلقاً من خزان الماء .

سددت قبضتي تجاهه ثم تذكرت ماقاله لي أتيكوس فأرخيت قبضتي

وابتعدت وأنا أسمع « سكاوت جبانة » ترن في أذني . كانت تلك أول

مرة تراجعت فيها عن « خنافة » .

لو كنت تصارعت مع سيسيل كان ذلك سيغني أنني خلدت أتيكوس.

نادراً ما كان أتيكوس يطلب من جم ومني أن نفعل شيئاً من أجله ،
ولذا كنت مستعدة لقبول أن أسمع كلمة « جبانة » لأجل خاطره .
وقد شعرت بنهل عظيم لأنني تذكرت ذلك في الوقت المناسب وبقيت
نبيلة لمدة ثلاثة أسابيع .

ثم جاءت أعياد الميلاد وحلت الكارثة .

كنا جم وأنا ننظر إلى أعياد الميلاد بمشاعر مختلطة . فقد كان الجانب
الطيب منها هو شجرة الميلاد وقدم العم جاك فينتش . في عشية الميلاد
كنا نذهب عادة للقاء العم جاك عند مفترق مايكوم ، وكان يقضي
أسبوعاً كاملاً معنا .

أما الجانب الآخر من العملة فكان يكشف الأساير العنيدة لكل
من العمة ألكسندرا وفرانيس .

أعتقد أنه كان علي أن أضيف إلى القائمة العم جيمي وهو زوج
العمة ألكسندرا ، ولكن بما أنه لم يسبق له أن خاطبني مرة طوال حياتي
إلا ليقول لي مرة « انزلي عن السور » ، فاني لأرى سبباً يدعوني إلى
الانتباه إلى وجوده . وكذلك كان الحال مع العمة ألكسندرا بالنسبة
لزوجها . فمئذ فترة طويلة من الزمن ، وفي موجة ود فجائية ، خلقت
العمة ألكسندرا والعم جيمي ابناً أسمياه هنري ، وقد هجر البيت أول
ما بلغ السن المناسب لذلك ، وتزوج وخلف فرانيس . وكان هنري

وزوجته يتركان هُري عند جديه في كل عيد ميلاد حتى يتفرغا
لمسراتهما الخاصة .

ما كان يمكن لأية كمية من الآهات أن تفنّع أتيكوس بأن يتركنا
نقضي يوم عيد الميلاد في البيت . لقد ذهبنا إلى « فينتشزلاندینگ » في
كل عيد ميلاد أتذكره . على كل حال كانت مهارة عمي في الطبخ
تعوض نوعاً ما عن إجباري على قضاء عطلة دينية مع فرانسيس هانكوك .
كان يكبرني بعام واحد ، وكنت أتجنبه لسبب مبدي : فقد كان يحب
كل ما أكرهه ويكره كل الألعاب البريئة التي أحب .

كانت العمّة ألكسندرا هي أخت أتيكوس ، ولكن حين حكى
لي جم عن الأطفال الذين يستبدلون سرّاً بغيرهم فقد تأكدت من أنهما
لا بد أن تكون قد استبدلت عند ولادتها ، وأن جديّ قد حصل ربما
على طفلة من عائلة كروفورد بدلاً عن طفلتهما الحقيقية . لو كنت
أؤمن بتلك الأفكار السرية المتعلقة بالحبال والتي يبدو وكأنها تستحوذ
على المحامين والقضاة ، لكنت شبهت العمّة ألكسندرا بجبل أفرست :
فغير طفولتي كلها كانت باردة وبعيدة .

حين قفز العم جاك من القطار يوم عيد الميلاد ، كان علينا انتظار
الحمال ليسلمه رزمتين طويلتين . كنا جم وأنا نجد تقبيل جاك لحد
أتيكوس أمراً مضحكاً ، فقد كانا الشخصين الوحيدين اللذين حدث أن
رأيناها يقبل واحدهما الآخر . كان العم جاك يصفح جم ويؤرجحني

عاليًا ، ولكن ليس عاليًا بما فيه الكفاية : فقد كان أقصر من أتيكوس ولا يصل طوله إلى أكثر من كتفي أبينا هذا . وكان أصغر الأبناء سنًا وأصغر من العمة ألكسندرا . كان يشبهها كثيرًا ولكنه ما كان مقلدًا على الدوام ، وما كنا نحترس من أنفه وذقنه الحادتين .

كان واحدًا من قلة من رجال العلم ممن لم يرهبوني أبدًا ، وربما كان ذلك لأنه لم يكن يتصرف كطبيب . فكلما كان يقدم لنا جم وأنا ، خدمة طبية صغيرة ما ، كإزالة شظية صغيرة من القدم ، فانه يحكي لنا بالضببط ماسيغعله ، ويعطينا تقديرًا عن مدى الألم الذي سنعانيه ، ويشرح استعمال أية أداة سيستعملها . في أحد أعياد الميلاد رحلت أنوارى في الزوايا أمرض شظية صغيرة ملتوية دخلت في قدمي ، وما سمحت لأحد أن يقترب مني . وحين أمسك بي العم جاك أخيرًا راح يضحكني بحكاية واعظ كان يكره الذهاب إلى الكنيسة كثيرًا وإلى حد أنه كان يقف عند باب بيته في « الروب دوشامبر » ، يدخن فارجلته ويلقي مواعظ طولها خمس دقائق إلى أي عابر سبيل كان يرغب في الراحة الروحية . وقد قاطعت العم جاك لأطلب منه أن يخبرني عندما يريد سحب الشظية من قدمي ، ولكنه رفع أمامي شظية دامية ممسوكة بملقط وقال انه انتزعها بينما كنت أضحك ، كان ذلك هو ما يعرف بالنسيية .

سألته وأنا أشير إلى الرزمتين النحيلتين الطويلتين اللتين أعطاهما
إياه الحمال :

— ماالذي في تلك الرزمتين ؟

— لاشيء يهلك .

قال جم :

— كيف هي « روز آلماير » ؟

كانت « روز آلماير » هي قطعة العم جاك . وكانت انثى جميلة
صفراء اللون يقول العم جاك انها واحدة من قلة من النساء اللواتي
استطاع احتماهن على نحو دائم . أدخل يده في جيب معطفه وأخرج
بعض الصور الفوتوغرافية . وقد أعجبنا بها .

قلت :

— لقد أصبحت سمينة .

— أعتقد ذاك ، فهي تأكل بقايا كل الأصابع والآذان في المستشفى .

قلت :

— هذه قطعة « ملعونة » .

— ماذا ؟

قال أتيكوس :

— لا تهتم بها يا جاك . انها تحاول اختبارك . تقول « كال » انها
أصبحت تسبّ بطلاقة منذ أسبوع .

رفع العم جاك حاجبيه ولم يقل شيئاً . كنت أتلمس طريقي لمحاولة تطبيق هذه النظرية غير الواضحة بعد تماماً — دون أخذ بالاعتبار للجاذبية الكامنة في مثل تلك الكلمات والنظرية تقول انه لو اكتشف أتيكوس أنني قد تعلمت هذه الكلمات في المدرسة فهو سيمنعني من الذهاب إلى هناك .

ولكن حدث عند العشاء وحين طلبت منه قائلة : « مرّر لي طبق لحم الخنزير المقدد » الملعون « ياعم جاك » أن أشار إلي وقال : « سأراك فيما بعد أيتها السيدة الصغيرة » .

وحين انتهى العشاء ، ذهب العم جاك إلى غرفة الجلوس وجلس هناك . ثم ضرب على فخذه كأنه يشير لي أن أذهب وأجلس على حضنه . كنت أحب رائحته : كانت أشبه بزجاجة كحول وبشيء حلو على نحو لطيف . دفع بخصلة جبيني بعيداً عن عيني ونظر إلي . قال :

— أنت تشبهين أتيكوس أكثر من أمك . كما أن بنطالك أصبح ضيقاً عليك .

— أعتقد أنه مناسب تماماً ؟

— تخمين الآن الكلمات من نوع « ملعون » و « ياللاجيم » .

أليس كذلك ؟

قلت اني أظن ذلك .

قال العم جاك :

— حسناً أنا لأحب ذلك ، مالم يكن هناك استفزاز شديد للمرء حتى يقولها . سأبقى هنا أسبوعاً ، وأنا لأأريد أن أسمع أية كلمات من هذا النوع بينما أنا هنا . ياسكاوت ، ستتعرضين للمشاكل إذا تابعت قول مثل هذه الكلمات . تريدان أن تكبري وتصبحي سيدة محترمة ، أليس كذلك ؟

قلت له أنني لأرغب في ذلك على نحو خاص جداً .

— طبعاً ترغبين بذلك . والآن هيا نذهب إلى الشجرة .

وقد عملنا على تزيين شجرة الميلاد حتى حان وقت النوم ، وفي تلك الليلة حلمت بالرمزتين الطويلتين اللتين جلبهما العم جاك لحلم ولي ، وفي صباح اليوم التالي اندفعنا نحوهما لنكتشف أنهما من أتيكوس الذي كتب للعم جاك ليحضرهما معه من أجلنا وكانتا ماطلبناه بالذات . قال أتيكوس حين صوب أتيكوس ببندقيته إلى صورة معلقة على الجدار :

— لا تصوباها في البيت .

قال العم جاك :

— عليك أن تعلميهما التصويب .

قال أتيكوس :

— هذا من شأنك . ماحدث هو أنني انخبت أمام المحترم .

ولم يفلح أتيكوس في جعلنا نترك الشجرة الا حين استعمل صوته الذي يرفع به في المحكمة . وقد وافق على أن نأخذ بنادقنا التي تعمل على ضغط الهواء إلى فينتشزلاندينغ . (كان قد سبق لي وبدأت أفكر في تصويب بندقيتي على فرانسيس) وقال اننا إذا ارتكبنا خطأ واحداً فسوف يأخذ منا البندقيتين ولن يعيدهما لنا بعد ذلك أبداً .

كانت فينتشزلاندينغ تتألف من ثلاثمائة وست وستين درجة تهبط نازلة من جرف عال وتنتهي إلى محطة للسفن على النهر . وإلى مسافة أبعد باتجاه النهر . كانت محطة قديمة لتحميل القطن حيث كان الزنبرج من عبيد آل فينتش يحملون البالات والتناج ويفرغون قوالب الثلج والدقيق والسكر ومعدات الزراعة والملابس النسائية . كانت هناك طريق ذات مجريين تنطلق من حافة النهر ثم تختفي بين الأشجار الكثيفة . في نهاية الطريق كان منزل أبيض من طابقين له رواق يلف بالطابق العلوي والسفلي . في الأيام القديمة ، كان جدنا سايمون فينتش قد بناه ليرضي زوجته النقا ، ولكن مع تلك الروايات فان كل شبه مع المنازل العادية لذلك العصر قد تلاشى . أما التفاصيل الداخلية لمنزل آل فينتش فتدل على سداجة سايمون والثقة المطلقة التي وضعها في نسله .

في الطابق العلوي كان هناك ست غرف للنوم ، أربعة لبناته الثماني — الخامسة لأبنة الوحيد ويلكوم فينتش ، والسادسة للزائرين من الأقرباء .

هذا بسيط ، ولكن غرف نوم البنات لا يمكن الوصول إليها إلا عبر سلم واحد بعينه ، بينما غرفة نوم الابن والغرفة الأخرى ما كان ممكناً الصعود إليهما إلا عن طريق سلم آخر . وكان سلم غرف نوم البنات يبدأ من غرفة نوم الأبوين التي كانت في الطابق السفلي ، ولذا كان سايمون يعرف التحركات الليلية لبناته ومواعيدها أيضاً .

هناك مطبخ منفصل عن بقية المنزل ويتصل به عن طريق ممر ضيق خشبي . وفي الفناء الخلفي جرس صدء معلق على عمود كان يستعمل لاستدعاء العمال من الحقل أو كإشارة في حالة الخطر . وكان هناك « ممشى أرملة (١) » . ولكن لم تكن هناك أية أرامل تتمشى فيه . ولكن سايمون كان يراقب منه ناظر المزرعة والزوارق النهرية ويحرق في كيفية معيشة الملاك المجاورين .

وكانت تدور حول المنزل الأسطورة المعتادة المتعلقة باليانكي (٢) : حيث يقال ان إحدى نساء آل فينتش ، وكانت مخطوبة حديثاً ، قد ارتدت كامل جهاز عرسها لانقاده من لصوص الغزاة المتواجدين في الجوار ، وقد علق في الباب لكثرة (ما ارتدته من ملابس) ولكنها نصحت بالماء حتى أمكن انقاذاها . حين وصلنا إلى فينتشز لاندنغ ، قبلت العمدة ألكسندرا العم جاك وقبلت فرانسيس العم جاك ، كما صافح

(١) مرقب تستخدمه زوجات البحارة محاط بدرابزون فوق سطح بيت ساحلي (المترجم)

(٢) تعني خلال الحرب الأهلية الأمريكية (المترجم) .

العم جيمي بصمت العم جاك وجم وأعطيت أنا إلى فرانسيس هداياه
فأعطانا هدية بدوره . أحس جم بعمره فأنجذب نحو الراشدين تاركاً
أياي لألسلي ابن عمي . كان فرانسيس في الثامنة ولكنه كان يسرّح
شعره إلى الخلف .

سألت فرانسيس بأدب :

— ما الهدية التي حصلت عليها في عيد الميلاد ؟

— ما طلبته بالضبط .

كان فرانسيس قد طلب بنظراً من النوع الذي يصل إلى الركبة ،
وحقيقية كتب من الجلد الأحمر ، وخمسة قمصان وربطة عنق فراشة
ليست مربوطة .

كذبت قائلة :

— هذا جميل .

ثم استأنفت :

— لقد حصلنا جم وأنا على بنادق تعمل بضغط الهواء كما حصل جم
على مجموعة أدوات كيميائية . . .

— تعنين أنها على شكل لعبة للأطفال .

— لا ، انها مجموعة حتميقية . وقال انه سيصنع لي حبراً غير مرئي
وسأكتب رسالة إلى « ديل » به .

وسأل فرانسيس عن الجدوى من ذلك .

قبلت :

— ألا تستطيع أن تتصور وجهه حين يستلم رسالة مني ولا شيء مكتوب فيها ؟ هذا سيجعله يحنّ .

كان التحدث إلى فرانسيس بمنحني الاحساس بالغرق ببطء إلى أسفل المحيط . كان أكثر الأطفال الذين سبق وقابلتهم إثارة للملل في نفسي . وبما أنه كان يعيش في مدينة « موبيل » فإنه لم يكن يستطيع أن يثني بي إلى إدارة المدرسة ، ولكنه كان يستطيع أن ينقل كل شيء يعرفه إلى العمة ألكسندرا وقد فعل ذلك ، وهذه قامت بالتالي بإخبار أتيكوس بكل شيء سمعته ، وكان أتيكوس بدوره إما أن ينسى ذلك أو يعاقبني ، أي حسب مزاجه . ولكن المرة الوحيدة التي سمعت بها أتيكوس يتكلم بجدّة مع أي شخص كان ، كانت حين سمعته يقول للعمة ألكسندرا :

— بأخوتي ، اني أبلد ما بوسعي لثريتهما .

وكانت هذه الملاحظة تتعلق بارتدائي الأوفرول .

كانت العمة ألكسندرا متعصبة فيما يتعلق بموضوع الملابس التي ارتديها . فما كان هناك أمل لي بالتحول إلى سيّدة محترمة إذا ارتديت بنظالا : وحين قلت ان الثوب لا يترك لي حرية القيام بأي شيء ،

قالت ان لم يكن من المفترض أن أفعل أشياء تتطلب ارتداء بنطال . كانت رؤيا العمة ألكسندرا بالنسبة لسلوكي تتضمن اللعب بمدافئ صغيرة وأطعم الشاي الصغيرة وارتداء قلادة من اللؤلؤ كانت قد أهدتني إياها حين ولدت . وزيادة عليه ، كان علي أن أكون الشمس المنيرة في حياة والدي المترعة بظلمة الوحدة . وقد اقترحت عليها بأنه بإمكانني أن أكون شمساً مضيئة في بنطال أيضاً ، ولكن عمتي قالت ان على المرء أن يتصرف بما يتناسب مع ذلك اللقب ، وأنا ولدت طيبة ولكنني أترجع نحو الأسوأ كل عام . كانت تجرح مشاعري وتجعلني أشد على أسناني غيظاً وبشكل مستمر ، ولكنني حين سألت أتيكوس عن الموضوع قال ان في العائلة شموساً كافية وانه يمكنني الاستمرار في التصرف كما كنت حيث أنه غير متضايق من شيء .

وحين أزف موعد وجبة غداء عيد الميلاد ، جلست إلى المنضدة الصغيرة في غرفة الطعام ، أما جم وفرانيس فقد جلسا مع الكبار إلى منضدة الطعام . لقد واطبت عمتي على عزلي بعد فترة طويلة من انتقال جم وفرانيس إلى المنضدة الكبيرة . وغالباً ما كنت أتساءل عما كانت تظن أنني فاعلة ؟ هل كانت تظن أنني سأقف لأرمي شيئاً ما ؟ في بعض الأحيان كنت أفكر في سؤالها بالسماح لي بالجلوس إلى منضدة الكبار مع البقية مرة واحدة وسأثبت لها كم أنا متحضرة . وعلى أية حال فاني أتناول الطعام كل يوم في البيت مع الكبار دون أية حوادث مؤسفة . وحين رجوت أتيكوس ليتوسط لي في الموضوع ، قال انه

ليست له دالة على أخته في هذا الموضوع فنحن ضيوف ، والمفروض أن نجلس حيث تريدنا أن نجلس . كما قال ان العممة ألكسندرا لاتفهم كثيراً في تربية البنات لأنها لم ترزق ببنات .

ولكن طبخها الجيد كان يعوّض عن كل شيء : ثلاثة أنواع من اللحم ، خضار صيفية من رفوف حجرة حفظ الطعام ، مخلل الدراق ، نوعان من الكعك وطعام الآلهة ، كل هذا كان يشكل غداء عيد الميلاد المتواضع . بعد ذلك ذهب الكبار إلى غرفة الجلوس وجلسوا في حالة من الدوخان . استلقى جم على الأرض وأردت الذهاب إلى القناء الخلفي ، فقال لي أتيكوس بلهجة حاملة :

— ارتدي معطفك .

ولكني لم أسمعه بسبب تلك اللهجة .

جلس فرانيس إلى القرب مني على الدرج الخلفي . فقلت له :

— كانت تلك أروع وجبة حتى الآن .

— جدتي طباخة ماهرة . ستعلمني الطبخ .

ضحكت وأنا أتصور جم في مريلة الطبخ وقلت :

— الصبيان لايطبخون .

— ولكن جدتي تقول ان على الرجال جميعاً أن يتعلموا الطبخ ،

وان على الرجال أن يكونوا حريصين على زوجاتهم ورعايتهن حين
لايكنن في حالة صحية جيدة .

قلت :

— لأريد أن يرعاني « ديل » . أفضل أن أرعاه أنا .

— « ديل » ؟

— أجل . لاتقل لأحد شيئاً عن هذا الموضوع ، ولكننا سنتزوج
حالما نبلغ السن المناسب ولقد طلب يدي في الصيف الماضي .
صفّر فرانسيس متعجباً .

قلت :

— وما عيبه ؟ لا يوجد فيه أي عيب .

— هل تعنّن ذلك القزم الصغير الذي قالت جدتي انه يقضي
الصيفية عادة مع الأنسة راشيل ؟

— هو بالضبط من أعنيه .

— أعرف عنه كل شيء .

— وماذا تعرف عنه ؟

— تقول جدتي انه لايت له يؤويه . . .

— له بيت فهو يعيش في بلدة « ميريدبان » .

— انه ينتقل من منزل أحد الأقرباء إلى منزل آخر طوال الوقت ،
والآنسة راشيل تستضيفه كل صيف .

— يافرانسيس ؛ ليست الأمور كذلك .

ابتسم فرانسيس .

— تكونين شديدة الغباء أحياناً يا جان لويز . وأظن أنك لاتعرفين
ذلك على أية حال .

— ماذا تعني ؟

— إذا سمح لك العم أتيكوس بالتجول مع الكلاب الشاردة ،
فذاك شأنه ، كما تقول جدتي ، ولذا فان الخطأ ليس خطأك . أظن
أنك لاعلاقة لك بكون العم أتيكوس « محباً للزواج » زيادة على ذلك ،
ولكني هنا لأخبرك أن ذلك ممّا يحزني بقية أفراد العائلة . . .

— فرانسيس ، مالمالذي تعنيه بحق الجحيم ؟

— مافلته بالضبط . تقول جدتي انه ليس من الحكمة في شيء
أن يترك والدك دون تربية ، ولكنه بعد أن أصبح من « محبي الزواج »
فلن نستطيع أن نسير في شوارع مايكوم بعد الآن . انه يدمر العائلة ،
هذا مايفعله .

نهض فرانسيس وعبر الممر الضيق بسرعة باتجاه المطبخ العتيق .
ومن مسافة يستطيع فيها الآن أن يكون في مأمن مني صاح :
— انه لاشيء سوى « محب للزواج » .

زمجرت :

— انه ليس كذلك . لأعرف ماالذي تتحدث عنه ، ولكن من
الأفضل لك أن تتوقف في هذه اللحظة بالذات .

قفزت الدرج وعبرت الممر الضيق بسرعة . وكان من السهل أخذ
فرانسيس من مخبئه . أمرته أن يتراجع عما قاله وبسرعة .

تملص فرانسيس من قبضتي وأسرع نحو المطبخ . ثم صاح :
— محب للزواج .

لدى تعقب الطريدة فانه من الأفضل ألا يتعجل المرة الأمور .
لا تقل شيئاً وبكل تأكيد فإن فضولها سيثار وستظهر من مخبئها . ظهر
فرانسيس عند باب المطبخ وسأل برّدد :

— هل لازلت في حالة جنون ياجان لويز ؟

— لا .

خرج فرانسيس باتجاه الممر الضيق .

— عليك أن تتراجع عما قلته يافرانسيس .

تسرّعت في الحركة ، فاندفع فرانسيس عائداً إلى المطبخ وتراجعت
أنا نحو الدرج . كان بإمكانني الانتظار بصبر . كنت قد جلست هناك
مدة خمس دقائق حين سمعت صوت العمة ألكسندرا :

— أين فرانسيس ؟

— انه هناك في المطبخ .

— انه يعرف أنه من المفروض ألا يلعب هناك .

جاء فرانسيس إلى الباب وصاح :

— يا جدتي ، انها تحاصرني هنا ولا تريد أن تخلي سبيلي .

— ماهذا كله يا جان لويز ؟

نظرت إلى العمة ألكسندرا وقلت لها :

— لست أحاصره هناك بإعني . ليس ذلك صحيحاً .

صاح فرانسيس :

— بل الأمر كذلك . انها لاتدعني أخرج .

— هل كئتما تتشاجران ؟

صاح فرانسيس :

— لقد جن جنون جان لويز عليّ يا جدتي .

— أخرج يا فرانسيس من هناك . يا جان لويز إذا سمعت كلمة

أخرى منك فسأشكوك لأبيك . هل سمعتك تقولين « يا للجمجم »
قبل قليل ؟

— كلا .

— ظننت أنني سمعتك تقولين ذلك . الأفضل ألا أسمع ذلك
مرة أخرى .

كانت العمة ألكسندرا من النوع الذي يسترق السمع من وراء
الأبواب . ولحظة أن ابتعدت خرج فرانسيس مرفوع الرأس مبتسماً وقال :
— إياك أن تغافليني .

قفز نحو الفناء وأبقى على مسافة بيني وبينه ، وراح يرفس الحشيش
ويستدير نحوي بين الحين والآخر ليبتسم لي . ظهر جم عند الرواق
ونظر إلينا ووضع يديه في جيوبه وتمشى ببطء حول الفناء . تلفظ
بكلمة تحدّ . سألته من ترى يعتقد نفسه ؟ هل كان يظن أنه العم جاك ؟
قال فرانسيس انه يعتقد أنني أمرت بأن أجلس في مكاني وأن أنركه
وشأنه .

قلت :

— لست أزعجك .

نظر إليّ فرانسيس بحدّر ، واستنتج أنني قد هدأت بما فيه الكفاية
ثم دندن : « محب الزنوج » .

في هذه المرة لكتمته على أسنانه الأمامية لكمة مزقت إسلامي حتى
العظم ، وبعد أن ضعفت يسراي بسبب ذلك رحت أضربه يميني
ولكن ليس لفترة طويلة . فقد كان العم جاك قد وصل وثبت ذراعي
إلى جانبي وقال : « كفى » .

اعتنت العمة ألكسندرا بفرانيسيس ، فراحت تمسح دموعه بمنديلها
وتربت على شعره وعلى خده . كان أتيكوس وجم والعم جيمي قد
سبق لهم ووصلوا إلى الرواق الخلفي حين بدأ فرانيسيس الصباح .

قال العم جاك :

— من بدأ الشجار ؟

أشرنا فرانيسيس وأنا كل إلى الآخر . صاح هو :

— يا جديتي ، لقد ناديتي بالعاهرة ثم هجمت عليّ .

سألني العم جاك :

— أهذا صحيح ياسكاوت ؟

— أعتقد ذلك .

حين كان العم جاك ينظر إلي باستهجان كانت ملامحه أشبه بملامح

العمة ألكسندرا . قال :

— تعلمين أنني حذرتك من أنك ستورطين نفسك في المتاعب إذا

استعملت مثل تلك الكلمات ، أليس كذلك ؟

— أجل يا سيدي ولكن . . .

— حسناً ، أنت متورطة في المتاعب الآن . ابقِي في مكانك .

كنت مترددة ما بين البقاء في مكاني أو الركض ، وقد توانيت بسبب هذا التردد عن الانطلاق فما كان من العم جاك إلا وأمسك بي عندما قررت الهروب . وجدت نفسي فجأة أنظر إلى نملة صغيرة تنصارع مع كسرة خبز في العشب .

— لن أتكلم معك مرة أخرى طالما كنت حية . أكرهك وأحتقرك وآمل أن تموت غداً .

هذه العبارات بدا أنها شجعت العم جاك بدلاً من أن يكون لها أي تأثير آخر . ركضت نحو أتيكوس ألتمس العزاء فقال اني تحطيت حدودي وان الوقت قد حان للعودة إلى البيت . صعدت إلى المقعد الخلفي للسيارة دون أن أودع أحداً ولدى الوصول إلى البيت أسرع نحو غرفتي وأغلقت الباب خلفي بعنف . حاول جم أن يقول شيئاً ملطفاً ، ولكنني لم أترك له الفرصة .

وحيث أجريت مسحاً للأضرار لاحظت وجود سبع أو ثماني علامات حمراء فقط ، وكنت أفكر في « النسيية » حين قرع أحدهم على الباب . سألت من الطارق فأجاب أنه العم جاك .

— ابتعد من هنا .

حذر العم جاك من أنه سيضربني مرة أخرى إذا تكلمت بذلك
الأسلوب . ولذا خرست . وحين دخل الغرفة تراجعت نحو إحدى
الزوايا وأدبرت له ظهري . قال :

— سكاوت ، هل لازلت تكرهيني ؟

— استأنف حديثك ياسيدي .

— ما كنت أظنك ستتحاملين علي . لقد خاب ظني فيك . . . لقد
تخطيت حدودك وأنت تعرفين ذلك .

— ليس هذا صحيحاً .

— يا حبيبي ، لا يمكنك أن تتركي لنفسك حرية مناداة الناس
بتلك الأسماء . . .

— لست عادلاً ، لست عادلاً .

ارتفع حاجبا العم جاك وقال :

— لست عادلاً . ؟ ماذا تعنين ؟

— أنت لطيف حقاً يا عم جاك ، وأظن أنني أحبك حتى بعد ما فعلته
بي ، ولكنك لاتفهم الأطفال كثيراً .

وضع العم جاك يديه فوق ردفه ونظر إلي من علي وقال :

— ولماذا لاتفهم الأطفال يا آنسة جان لويز ؟ ان سلوكاً كسلوكك

لا يتطلب سوى قليل من الفهم . لقد كان سلوكاً جموحاً فوضوياً
وبديهاً

— يجب أن تعطيني الفرصة لأشرح لك ما حدث . لأعني أن أكون
وقحة معك ، ولكني أحاول أن أشرح لك ما حدث .

جلس العم جاك على السرير . عقد حاجبيه وحدقَ بهي من تحت
حاجبيه المعقودين . قال :

— هيا .

أخذت نفساً عميقاً وقلت :

— حسناً ، أولاً أنت لم تعطيني الفرصة لأطلعك على وجهة نظري
في الموضوع ، بل هاجمتني فوراً . حين أتشاجر مع جم فان أتيكوس
لا يصغي إلى وجهة نظر جم فحسب بل يسمع وجهة نظري أيضاً .
وثانياً لقد قلت لي ألا أستعمل كلمات كنتك إلا في حالة الاستفزاز
الشديد ، وقد استفزني فرانسيس إلى حد جعلني مستعدة لقتله . . .

حكّ العم جاك رأسه وقال :

— ماهي وجهة نظرك ياسكاوت ؟

— لقد أطلق فرانسيس على أتيكوس لقباً ما ، وما كنت مستعدة
لتحسّل ذلك .

— وما هو اللقب الذي أطلقه ؟

— « محب الزنوج » . لأعرف كثيراً مايعنيه هذا اللقب ، ولكن الطريقة التي نطق بها ذلك اللقب . . آخ . ماكان ممكناً أن أجلس هناك وأدعه يقول شيئاً يتعلق بأتيكوس ولو كلفني ذلك ماكلفني .

— هل لقب أتيكوس بذلك اللقب ؟

— أجل ياسيدي ، لقد فعل بل وقال ماهو أكثر من ذلك . قال ان أتيكوس سيدمر سمعة العائلة وانه لايعطينا جم وأنا حقناً من التربية . . .

ومن النظرة التي كانت على وجه العم جاك ، ظننت أنني وقعت في ورطة مرة أخرى . وحين قال : « سرى ماسفعله في هذا الأمر » عرفت أن فرانسيس قد وقع في ورطة . واستأنف. العم جاك قائلاً :

— أفكر بالذهاب إلى هناك الليلة .

— أرجوك ياسيدي فلتنس هذا الموضوع . أرجوك .

— ليست لدي النية في نسيانه . يجب أن تعرف ألكسندرا ماحدث . والفكرة هي . . . انتظري حتى أمسك بذلك الصبي . . .

— ياعم جاك ، أرجو أن تعطيني بشيء ما ، أرجوك ياسيدي . عدني بأنك لن تقول لأتيكوس شيئاً حول هذا الموضوع . لقد طلب مني ألا أدع أي شيء — أسمعه ويتعلق به — يدفعني الى الجنون ، وأفضل أن يظن أننا كنا بالأحرى نتشاجر حول موضوع آخر . أرجوك عدني . . .

— ولكني لأريد أن يفلت فرانسيس دون عقاب بعد أن بدرت
منه مثل هذه الأقوال . . .

— لم يفلت . هل تظن أنك تستطيع أن تضمّد لي يدي ؟ إنها
لا تزال تنزف بعض الشيء .

— طبعاً ياطفلي . لأعرف يداً أخرى يسرنّي تضميدها أكثر من
يدك هذه . هيا تفضلي معي .

حملني العم جاك بشهامة الى غرفة الحمام . وبينما كان يطهر
ويضمّد أصابعي ، راح يسليني بحكاية عن رجل عجوز مضحك قصير
النظر كانت لديه قطعة اسمها « هودج » ، وكان يعدّ كل الشقوق على
الرصيف حين كان يذهب الى البادة . ثم قال :

— هاقد انتهينا الآن . سيكون على اصبعك الخاص بخاتم الزواج
ندبة لاثليق بسيدة محترمة أبداً .

— شكراً ياسيدي . ياعم جاك ؟

— سيدتي ؟

— ماهي العاهرة ؟

اندفع العم جاك ليحكّي قصة طويلة أخرى حول رئيس وزراء
عجوز كان يجلس في مقعده في « مجلس العموم » ويروح ينفخ الريشات
في الهواء ويحاول أن يبقّيها هناك بينما الرجال من حوله يفقدون

رؤوسهم . أظن أنه كان يحاول الإجابة على سؤالي ، ولكن هذا لم يكن
ذا معنى على أية حال .

فيما بعد ، وحين كان من المفترض أن أكون نائمة في فراشي ،
نزلت إلى البهو لأشرب الماء فسمعت أتيكوس والعم جاك يتحدثان
في غرفة الجلوس :

— لن أتزوج أبداً يا أتيكوس .

— لماذا ؟

— قد أرزق بأطفال .

— هناك الكثير ممّا عليك تعلّمه يا جاك .

— أعرف ذلك . لقد أعطتني ابنتك أول درس لي عصر هذا اليوم :
قالت اني لأفهم في معاملة الأطفال كثيراً وشرحت لي السبب ، وكانت
على حق تماماً . لقد قالت لي يا أتيكوس كيف كان يتوجب علي معاملتها :
يا إلهي ، أنا أسف جداً لأنني قسوت عليها .

ضحك أتيكوس .

— انها تستحق ذلك ، لذا لا تشعر بالندم .

انتظرت متوترة منتظرة أن يحكي العم جاك لأتيكوس عن وجهة
نظري في القضية . ولكنه لم يفعل . بل همهم ببساطة قائلاً : « ان
استعمالها للكلمات البذيئة لا يترك شيئاً للمخيلة . ولكنها لا تعرف معنى
نصف ماتقوله من كلمات ، وقد سألتني عن معنى كلمة عاهرة . . .

— وهل قلت لها ؟

— لا ، حكيت لها عن اللورد ملبورن (١) .

— يا جاك ، حين يسألك طفل عن شيء ما ، فأجبه ، بحق الله .
ولكن لا تحاول أن تجعل الأمر يبدو وكأنه اخراج مسرحي . الأطفال
هم الأطفال ، ولكنهم يستطيعون أن يميزوا التهرب أسرع مما يستطيع
الكبار ، والتهرب يشوشهم . كلا .

هنا راح والدي يفكر ثم استأنف قائلاً :

— لقد أعطيت الجواب الصحيح عصر اليوم ، ولكن الأسباب
كانت خاطئة . ان اللغة البذيئة مرحلة يمر بها كل الأطفال ، وهي تموت
مع الوقت ، حين يدركون أنهم لا يجذبون اهتمام الآخرين بها . أما
حدة الطباع فشيء آخر . ان على سكاوت أن تتعلم كيف تمسك أعصابها ،
وعليها أن تتعلم ذلك بسرعة ، فما ينتظرها في الشهور القادمة كثير .
وعلى أية حال فانها تسير نحو الأفضل . ان جم أصبح يتصرف على نحو
أشبه بالكبار ، وهي تقلده قليلاً الآن . وكل ما تحتاجه هو بعض
المساعدة أحياناً .

— أتيكوس ، أنت لم تضربها مرة واحدة .

(١) (١٧٧٩ - ١٨٤٨) سياسي إنكليزي ورئيس للوزراء (١٨٣٥ - ١٨٤١)

وقد علم الملكة فيكتوريا الشابة فن السياسة . (المترجم)

— أقر بذلك . حتى الآن استطعت أن أدبر أموري بالتهديدات .
ياجاك أنها تهانني بقدر ماتستطيع . أنها لم تصل بعد إلى المثال الذي أريدها
أن تكون عليه ولكنها تحاول على أية حال .

قال العم جاك :

— ليس هذا هو الجواب .

— لا ، الجواب هو أنها تعرف أنني أعرف أنها تحاول . هذا هو
الفرق . أما مايقلني فهو أنها وجم سيضطران إلى أن يستوعبا بعض
الأمور البشعة على نحو أسرع مما يجب . لست قلقاً بالنسبة لجم
وقدرته على ضبط أعصابه ، ولكن سكاوت لازالت مستعدة لمهاجمة
شخص ما على الفور إذا ماأحست أن كبرياءها في خطر . . .

انتظرت أن يخلّ العم جاك بوعده . ولكنه لم يفعل حتى الآن .

— أتيكوس ، هل سيكون الأمر سيئاً إلى حد كبير ؟ ليست لديك
فرصة كبيرة لمناقشته .

— لايمكن أن تكون الأمور أسوأ مما هي عليه ياجاك . ان الدليل
الوحيد الذي بين يدينا هي شهادة ذاك الرجل الأسود مقابل شهادة
أسرة يوويل . وهذا الدليل سيختصر إلى « هل فعلت ؟ » « كلا لم أفعل » .
وليس متوقعاً من هيئة المحلفين أن تصدق كلام توم روبنسون وتكذب
كلام أسرة يوويل . . . هل تعرف أسرة يوويل هذه ؟

قال العم جاك انه يعرفها ويتذكرها . ثم وصف أفرادها لأتيكوس ،
ولكن أتيكوس قال له :

— أنت تتحدث عن الجليل السابق ، وعلى أية حال فان الجليل
الحالي يشبه ذلك .

— ماالذي ستفعله إذن ؟

— قبل أن أنتهي سأحاول احراج المحلفين قليلاً ، وأظن على أية
حال أن هناك فرصة أمامنا للاستئناف . لأستطيع أن أعرف ماسيحدث
في هذه المرحلة من القضية . أنت تعرف أنني كنت آمل أن أعيش حياتي
دون الاضطرار للمرافعة في قضية كهذه ، ولكن جون تايلور أشار
إلي وقال : « أنت لها » .

— أي أنه أراد أن ينجو من هذه الورطة ، أليس كذلك ؟

— صحيح . ولكن هل تعتقد أنني كنت أستطيع مواجهة ولدي
إذا لم أفعل ذلك ؟ أنت تعرف ماسيحدث كما أعرفه أنا ، يا جاك ، وآمل
وأدعو إلى الله أن أستطيع الخروج بجم وسكاوت من هذه المحنة دون مرارة ،
ودون أن يصابا — وهذا أهم شيء — بداء مايكوم المعتاد : لماذا يصاب
أناس عقلاء بالجنون المطلق حين يحدث أي شيء يتعلق بزنجي ؟ هذا
أمر لا أدعي فهمه . آمل فقط أن جم وسكاوت سيأتيان إليّ أنا بحثاً عن

الأجوبة بدلاً من الاصغاء إلى رأي البلدة . آمل أن يشقا بي بما فيه
الكفاية . . . جان لويز ؟

قفزت فروة رأسي من مكانها . ألصقت رأسي بالزاوية : « نعم
ياسيدي ؟ »

— هيا إلى الفراش .

أسرعت إلى غرفتي وذهبت إلى سريري . لقد أثبت العم جاك أنه
أمير حقيقي حيث لم يخذلني . ولكني لم أستطع أن أعرف كيف استطاع
أتيكوس أن يعرف أنني كنت أسرق السمع إليهما ، ولم أدرك إلا بعد
مرور سنوات كثيرة أنه أرادني أن أسمع كل كلمة قالها :



المفصل العكاش

كان أتيكوس ضعيفاً : في الخمسين من عمره تقريباً . وحين سألناه جم وأنا لماذا هو عجوز إلى هذا الحد ، قال انه انطلق متأخراً ، وقد شعرنا بأن هذا ينعكس على قدراته ورجولته . لقد كان أكبر سنّاً بكثير من آباء زملائنا في المدرسة ممن هم في أعمارنا ، ولم يكن هناك من شيء نستطيع جم أو أنا أن نقوله فيما يتعلق به حين كان زملاء الصف يقولون : « أبي . . . » .

كان جم مولعاً بكرة القدم إلى حد الجنون . ولم يكن أتيكوس يتعب أبداً من لعب كرة القدم معه ، ولكن حين كان جم يريد أن يمسك به ليخلصه الكرة كان أتيكوس يقول : « أنا عجوز على مثل هذا يا بني » .

لم يكن أبونا يمارس عملاً مهماً . كان يعمل في مكتب وليس في صيدلية . لم يكن أتيكوس سائق عربّة النفايات الخاصة بالقرية ، ولم يكن مأمور البلدة ، ولم يكن مزارعاً ولا يعمل في مرآب ، أي لم يكن يمارس عملاً يمكنه أن يثير إعجاب أي شخص .

زيادة على ذلك ، كان يضع نظارات طبية . كان لا يرى تقريباً بعينه اليسرى ، ويقول عادة ان العيون اليسرى هي اللعنة القبلية المنزلة على عائلة فينتش . وكلما أراد أن يرى شيئاً ما على نحو جيد ، كان يدير رأسه وينظر بعينه اليمنى .

لم يكن يمارس تلك الأعمال التي كان يمارسها آباء زملاء الصف : لم يكن يذهب للصيد أبداً ولا يلعب البوكر أو يصيد السمك أو يشرب الخمر أو يدخن بل كان يجلس في غرفة الجلوس ويقرأ .

وهذه الصفات كان يمكن أن يبقى مغموراً ولكن حدث العكس : ففي ذلك العام ضجت المدرسة بالحديث حول دفاعه عن توم روبنسون ، ولم يكن ذلك الحديث من باب المديح أبداً . وبعد شجاري مع سيسيل جاكوبس حيث ألزمت نفسي بسياسة الجبن ، سرت اشاعة في المدرسة بأن سكاوت فينتش لن تعاود القتال مع أي شخص كان مرة أخرى ، فأبوها لا يسمح لها بذلك . ولم يكن ذلك صحيحاً تماماً : لم أكن لأقاتل علانية دفاعاً عن أتيكوس ، ولكن العائلة كانت أرضاً خصوبة . كنت مستعدة لمقاتلة أي شخص من العائلة ابتداء من ابن عم من الدرجة الثالثة فصاعداً وبالأسنان والأظافر . وكان فرانسيس هانكوك على سبيل المثال يعرف ذلك .

حين أهدانا أتيكوس بنادق ضغط الهواء رفض تعليمنا التصويب . لقد علمنا العم جاك المبادئ . قال ان أتيكوس لم يكن مهتماً بالبنادق .

وقال أتيكوس لجم في أحد الأيام : « أفضل أن تصوب إلى علب التلك في الفناء الخلفي ، ولكنني أعرف أنك ستطارد الطيور . حسناً ، بإمكانك اصطياد الطيور التي تريد من نوع أبي زريق ، هذا إذا استطعت اصابتها ، ولكن تذكر أن قتل العصفور الساخر خطيئة . »

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي سمعت بها أتيكوس يتحدث عن الخطيئة إذا ما فعل المرء شيئاً ما ، وقد سألت الآنسة مودي عن الموضوع قالت :

— والدك على حق ، فالعصافير الساخرة لا تفعل شيئاً سوى أنها تعرف لنا الموسيقى لنستمع بها . انها لا تأكل حقائق الناس ، ولا تعيش في اهرات الذرة ، ولا تفعل شيئاً سوى أنها تُغني حتى تُفني قلوبها من أجلا . لذا فان قتل العصفور الساخر خطيئة .

— ياآنسة مودي ، حيثنا هذا عجوز أليس كذلك ؟

— انه أقدم من البلدة ؟

— لا ، أعني أن الناس في حيثنا عجائز كلهم . جم وأنا الطفلان الوحيدان هنا . السيدة دوبوز تقرب من المئة سنة والآنسة راشيل عجوز وأنت وأتيكوس أيضاً .

قالت الآنسة مودي بحدة :

— لأعتقد أن المرء في سن الخمسين يعتبر عجوزاً جداً ، فأنا

لأنقاد في عربة بعد ؟ وكذلك أبوك . ولكن عليّ أن أقول إن العناية الإلهية كانت كريمة إذا أحرقت لي ذلك الضريح الضخم العتيق الذي كنت أعيش فيه ، فقد أصبحت أكبر سنّاً من أن أستطيع الاعتناء به . ربما تكونين على حق يا جان لويز ، هذا الحلي حي مستقر فعلاً . أنت لم تعاشري صغار السن كثيراً ، أليس كذلك ؟

— بلى ياسيدتي في المدرسة .

— أعني الشباب . أنت محظوظة كما تعلمين ، فأنت وجم تستفيدان من كون أليكما في هذه السن . لو كان أبوكما في الثلاثين من العمر لوجدتما الحياة مختلفة تماماً .

— طبعاً . لا يمكن لأتيكوس أن يفعل أي شيء

— قد تدهشين ، ولكن لازال فيه الكثير من الحياة .

— ماالذي يستطيع أن يفعله ؟

— يستطيع أن يجعل وصية شخص ما محكمة إلى حد أنه لايسمح لأي امرئ أن يتدخل فيها .

— حسناً ، هيا قولي شيئاً آخر . . .

— هل تعرفين أنه أفضل لاعب داما في هذه البلدة ؟ حسناً . عندما كنا في فينتشزلاندبنغ وكنا صغاراً بعد ، كان أتيكوس فينتش يستطيع أن يهزم كل اللاعبين على كلا ضفتي النهر .

— يا للرب الطيب يا آنسة مودي . جم وأنا نغلبه دائماً .

— لقد حان الوقت كي تكتشفي أنه يفعل ذلك عمداً . هل تعرفين أنه يستطيع العزف على الهارب اليهودي ؟
هذه الانجازات المتواضعة جعلتني أكثر خجلاً به .

قالت :

— حسناً . . .

— ماذا تعنين يا آنسة مودي ؟

— حسناً . . . لا شيء . لا شيء : ولكن يجب أن تكوني فخورة به بعد كل هذا الذي حكته لك عنه . لا يمكن لأي كان أن يعزف على الهارب اليهودي . والآن هيا ابتعدي عن طريق التجارين . الأفضل أن تذهبي إلى بيتك ، سأعمل في شجرات الأزاليا بعد قليل ، ولن أستطيع مراقبتك وأخشى أن يسقط لوح خشبي فوقك .

ذهبت إلى الفناء الخلفي فوجدت جم يطلق بندقيته على علبة من الصفيح وقد بدا لي أنه من الغباء بمكان فعل ذلك وحولنا كل طيور أبي زريق تلك . عدت إلى الفناء الأمامي ورحت أعمل مدة ساعتين في إقامة ممراس معقد عند جانب الرواق ، وقد أقمته من عجلة وصندوق برتقال وسبت الغسيل وكراسي الرواق وعلم أمريكي صغير أعطاني إياه جم بعد أن وجده في علبة « بوشار » .

وحين عاد أتيكوس لأجل وجبة الغداء وجدني منبطحة أصوب
بندقيتي عبر الشارع .

-- مالمدي تصوبين لإليه ؟

-- أصوب نحو مؤخرة الآنسة مودي .

التفت أتيكوس فشاهد هدفي الكبير وقد انحنى فوق شجيراته .
دفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه وعبر الشارع . صاح : « ياآنسة مودي .
أظن أنه من الأفضل أن أهدرك . أنت في خطر محقق » .

نصبت الآنسة مودي قامتها ونظرت باتجاهي ، وقالت : « أنت
ياأتيكوس شيطان قادم من الجحيم » .

حين عاد أتيكوس طلب مني أن ألغي المتراس ثم قال :

-- لاتدعيني أمسك بك توجهين البندقية تجاه أي شخص بعد الآن .

لقد تمنيت لو كان أبي شيطاناً قادمًا من الجحيم . وقد سألت كالبورنيا
حول موضوع قنرات أبي فقالت :

-- ماذا ؟ السيد فينتش ؟ انه يستطيع القيام بأمر جلية كثيرة .

-- مثل ماذا ؟

حكّت كالبورنيا رأسها وقالت :

-- حسنًا ، لأعرف بالضبط .

وقد أكد جم هذا الموضوع حين سأل أتيكوس ان كان سيلعب مع فريق « الميثوديين » ، وقال أتيكوس إن عنقه سينكسر لو لعب كرة القدم ، فقد أصبح عجوزاً على مثل تلك الألعاب . كان « الميثوديون » يحاولون أن يسددوا رهناً عقارياً مفروضاً على كنيتهم ، وقد تحدوا فريق « المعمدانين » ليلعبوا ضدهم مباراة في كرة القدم . كان والد كل طفل في البلدة سيشارك في المباراة كما يبدو ، عدا أتيكوس . قال جم انه لا يريد أن يذهب حتى ، ولكنه لم يكن يستطيع مقاومة اغراء كرة القدم بأي شكل من الأشكال ، وقد وقف يتفرج بكآبة عند خطّ التماس ومعه أتيكوس وأنا ، بينما والد سيسيل جاكوبس يحقق أهدافاً لفريق « المعمدانين » .

في أحد أيام السبت قررنا جم وأنا أن نذهب للاستكشاف مصطحين بنديقتنا لئلا نرى ان كنا نستطيع أن نجد أرنباً أو سنجاباً . وكنا قد ابتعدنا مسافة خمسمئة متر وراء منزل آل رادلي حين لاحظت أن جم كان يخلق بعينين نصف مغمضتين باتجاه شيء ما بعيد على امتداد الشارع . كان قد أمال برأسه إلى جانب واحد وراح ينظر من زاويتي عينيه .

— ما الذي تنظر إليه ؟

— ذلك الكلب العجوز هناك .

— انه « تيم جونسون » العجوز ، أليس كذلك ؟

— أجل .

كان تيم جونسون يخصص السيد هاري جونسون الذي كان يسوق باص بلدة موبيل ، ويعيش في الطرف الجنوبي من البلدة . وكان « تيم » هذا كلب صيد كبدي اللون ، وهو الحيوان المدلل لمايكوم كلها .

— ما الذي يفعله ؟

— لأعرف ياسكاوت . الأفضل أن نذهب إلى البيت .

— جم ، انه شهر شباط (فبراير) .

— لأعرف . سأذهب لأحكي لكال .

عدونا نحو المنزل وأسرعت نحو المطبخ

قال جم :

— يا كال ، هل يمكنك أن تأتي إلى الرصيف لدقيقة واحدة ؟

— لم باجم ؟ لأستطيع القدوم إلى الرصيف كل مرة تريدني بها أن

أفعل ذلك .

— هناك شيء ما غير طبيعي في ذلك الكلب العجوز هناك .

تنهدت كالبورنيا وقالت :

— لأستطيع أن أضمد ساق أي كلب الآن . هناك بعض الشاش

في الحمام ، اذهب وأخضره وضمّد له ساقه بنفسك .

هز جم رأسه وقال :

يشير . لم يكن تيم جونسون إلا مجرد نقطة بعيدة ، ولكنه أصبح أقرب إلينا الآن . كان يمشي على نحو شاذ ، وكان طرفه الأيمن كانا أقصر من طرفه الأيسرين . وقد ذكرني بسيارة عالقة في حفرة من الرمال .

قال جم :

— انه غير متوازن .

حدقت كالبورنيا ، ثم أمسكت بنا من الأكتاف وركضت بنا إلى البيت . أغلقت الباب الخشبي خلفنا ، وذهبت إلى الهاتف وصاحت : أعطني مكتب السيد فينتش . ياسيد فينتش . هذه « كال » تتكلم . أقسم بالله أن هناك كلباً مسعوراً في الشارع ، وهو يسير باتجاهنا ، أجل ياسيدي ، انه آت ياسيد فينتش . أعلن أنه قادم ، انه تيم جونسون العجوز ، نعم ياسيدي . . . نعم ياسيدي . . . نعم . . .

أعادت السماعة إلى مكانها وهزت رأسها حين حاولنا أن نسألها عما قاله أتيكوس . ثم قرعت جرس الهاتف وقالت :

— يآنسة يولاماي . . . ياسيدي ، لقد انتهيت من التحدث مع السيد فينتش ، أرجو أن تقطعي اتصالي معه ، وأصغي إلي يآنسة يولاماي ، هل تستطيعين أن تهتفي إلى الآنسة راشيل والآنسة ستيفاني كروفورد وكل من لديه هاتف في هذا الحي وتقولن لهم ان هناك كلباً مسعوراً قادماً بهذا الاتجاه ؟ أرجوك ياسيدي .

أصغت كالبورنيا ثم قالت :

— أعرف أنه شهر شباط (فبراير) ياآنسة يولاماي ، ولكني
أعرف أيضاً الكلب المسعور حين أراه . أرجوك أن تسرعني ياسيدتي ؟
سألت كالبورنيا جم :

— هل لدى آل رادلي هاتف ؟
نظر جم في الدليل وقال :
— لا ، ولكنهم لم يخرجوا من منزلهم على أية حال ياكال .
— لايهمني . سأقول لهم .
هرعت نحو الرواق الأمامي وأنا وجم على أعقابها . ولكنها صاحت :
— أنتما ابقيا في المنزل .

كان الحفي قد تلقى رسالة كالبورنيا . لقد رأينا كل باب خشبي
داخل حدود مرآى نظرنا وقد أغلق بشدة . ولم نر أي أثر لثيم جونسون .
راقبنا كالبورنيا تركض نحو منزل آل رادلي وهي ترفع تنورتها ومربلتها
فوق ركبتيها . ذهبت إلى الدرج الأمامي وقرعت على الباب . لم تحصل
على جواب فصاحت :

— ياسيد ناثن ، ياسيد آرثر ، هناك كلب مسعور قادم بهذا
الاتجاه . كلب مسعور قادم .

قلت :

— كان من المفروض أن تذهب نحو الجهة الخلفية .

هزّ جم رأسه وقال :

— لا فرق الآن .

قرعت كالبورنيا الباب بشدة ولكن عبثاً . لم يستمع إلى تحذيرها
أحد ، ولم يبد أن أحداً قد سمعه .

وحين ركضت بسرعة إلى الرواق الخلفي ، رأينا سيارة فورد سوداء
تتوقف عند الرصيف ، ويخرج منها أتيكوس والسيد « هك تيت » .

كان السيد « هك تيت » هو مأمور مقاطعة مايكوم . كان طويلاً
بطول أتيكوس ، ولكن أخف منه . وكان أنفه طويلاً ويرتدي جزمة
ذات ثقوب معدنية لامعة ، وبنطالاً ضيقاً من الأسفل ومعطفاً من القماش
ذي المربعات . أما حزامه فكان فيه صف من الرصاص . وكان يحمل
بندقية ثقيلة . وحين وصلا هو وأتيكوس إلى الرواق ، فتتحجج الباب .

قال أتيكوس

— ابقى في الداخل يا بني . أين هو يا كال ؟

قالت كالبورنيا وهي تشير إلى الشارع :

— لا بد أن يكون قد وصل إلى هنا الآن .

سأل السيد تيت :

— لم يكن يعدو ، أليس كذلك ؟

— لا ، ليس هو في مرحلة الاختلاج بعد ياسيد هك .

— هل نلحق به ياهك ؟

هكذا سأله أتيكوس فأجابه هك :

— الأفضل أن ننتظر ياسيد فينتش . انها تمشي عادة بصورة مستقيمة ، ولكن لاشيء أكيد ، فقد يتبع المنحنى ، وآمل أن يفعل ذلك أو أنه سيذهب مباشرة إلى الفناء الخلفي لآل رادلي . لننتظر لحظة .
قال أتيكوس :

— لأعتقد أنه قد يدخل فناء آل رادلي ؟ فالحاجز سيوقفه . ربما سيتبع الطريق . . .

كنت أظن أن الكلاب المسعورة تزيد أفواهاها ، وتعدو وتقفز وتهاجم الناس لتنهش حلوقهم ، وكنت أظن أن ذلك يحدث لها في شهر آب (أغسطس) . ولو أن تيم جونسون تصرف هكذا لكنت أقل خوفاً .

لاشيء يخيف أكثر من شارع مهجور في حالة الانتظار . كانت الأشجار ساكنة ، والعصافير الساخرة صامتة ، والنجارون الذين يعملون في إعادة بناء منزل الآنسة مودي قد اختفوا . سمعت السيد تيت ينشق ثم يمسح أنفه . ثم رأيتة ينقل بندقيته واضعاً إياها على ذراعه المعقوفة . رأيت وجه الآنسة ستيفاني كروفورد وقد أظرتة نافذة بابها الزجاجية .

ظهرت الآتسة مودي ووقفت إلى جانبها . وضع أتيكوس قدمه على رافدة أحد الكراسي ومسح يده ببطء على جانب فخذه .

قال بصوت خفيض :

— هاهو .

أصبح تيم جونسون تحت مرمى الأبصار ، وكان يمشي كالدائخ ضمن الحافة الداخلية للمنحنى الموازي لمنزل آل رادلي .

همس جم :

— انظري إليه . يقول السيد هك انها تسير بخط مستقيم . ولكن هذا لا يستطيع حتى أن يسير في الشارع .

قلت :

— انه يبدو مريضاً أكثر من أي شيء آخر .

— إذا ماجاء شيء أمامه الآن فسيهجم عليه فوراً .

وضع السيد تيت يده على جبينه وانحنى نحو الأمام . ثم قال :

— انه مسعور فعلاً ياسيد فينتش .

كان تيم جونسون يتقدم بطيئاً كالحلزون ، ولكنه لم يكن يعيث أو يتشمم النباتات : بدا وكأنه مصمم على السير في طريق واحد تحته قوة غير مرئية كانت تدفعه ببطء نحونا . استطعنا أن نراه وهو يرتجف

كخصان ينفض عن جسمه الذباب ، وفكه ينفتح وينغلق . كان جسده مائلاً إلى جانب ، ولكنه كان ينجذب تدريجياً نحونا .

قال جم :

— انه يبحث عن مكان يموت فيه .

التفت إلينا السيد تيت وقال :

— انه بعيد عن الموت يا جم ، فالمرض لازال في أوله .
وصل تيم جونسون إلى الشارع الجانبى الذي يمر أمام منزل آل رادلي ، وما تبقى من عقله المسكين جعله يتوقف فيبدو وكأنه يفكر في أي طريق يسلك . خطأ بعض الخطوات المترددة ثم توقف أمام باب منزل آل رادلي . حاول أن يستدير ليعود ولكنه وجد صعوبة في ذلك .

قال أتيكوس :

— انه ضمن المدى المجدي ياهك . الأفضل أن تنأله الآن قبل أن يذهب إلى الشارع الجانبى ، والله وحده يعرف من قد يكون عند المنعطف . ادخلي يا كمال .

فتحت كالبورنيا باب الشريط المنخلي ، ثم أوصدته بالمزلاج خلفها ، بعد ذلك رفعت المزلاج وتمسكت به . حاولت أن تسد الطريق أمامنا . جم وأنا ، بجسدها ، ولكننا كنا ننظر من تحت ذراعيها .

قال السيد تيت وهو يسلم البندقية إلى أتيكوس :

— إليك به ياسيد فينتش .

وكدنا يغشى علينا ، جم وأنا .

قال أتيكوس :

— لاتفزع الوقت ياهك . هيا .

— ياسيد فينتش هذا عمل يتطلب الإصابة في المقتل من الرصاصة

الأولى .

هز أتيكوس رأسه بقوة وقال :

— لاتفزع ياهك دون أن تفعل شيئاً . لن ينتظرك النهار بطوله ...

— بحق الله ياسيد فينتش ، انظر أين هو . إذا أخطأته فسوف

تدخل الرصاصة منزل آل رادلي . لآستطيع التصويب إلى هذا الحد
من الدقة وأنت تعرف ذلك .

— لم أطلق الرصاص منذ ثلاثين عاماً . . .

رمى السيد تيت البندقية إلى أتيكوس وقال :

— سأحس براحة عظيمة إذا فعلت ذلك الآن .

وكم يرى من خلال الضباب رحنا جم وأنا نراقب أبانا وهو

يتناول البندقية ويمشي نحو منتصف الشارع . مشى بسرعة ، ولكني

ظننت أنه كان يتحرك كما الغطاس تحت الماء : كان الزمان قد أصبح

بطيئاً إلى حدٍ يبعث على الغثيان .

حين رفع أتيكوس نظارتيه همهمت كالبورنيا :

— فلتساعده أيها المسيح الجميل
ثم رفعت يديها إلى خديها .

دفع أتيكوس نظارتيه إلى جبينه فعاودتا الهبوط . رماهما في
الشارع . وخلال الصمت سمعتهما يتحطمان . فرك أتيكوس عينيه
وذقنه ، ورأياه يرمش بقوة .

أمام منزل آل رادلي اتخذ تيم جونسون قراره أخيراً . لقد استدار
أخيراً وراح يسير في اتجاهه السابق نحو شارعنا . خطا خطوتين نحو
الأمام ثم توقف ورفع رأسه . رأينا جسمه يتصلب .

وبحركات سريعة جداً بدت وكأنها تجري كلها في وقت متزامن ،
جذبت يد أتيكوس مطرقة البندقية ذات الرأس المدور ، ثم رفعها
إلى كتفه .

سمعنا صوت البندقية يفرقع . قفز تيم جونسون ، تحبط ثم انهار
على الرصيف في كومة بنية بيضاء . لم يعرف ما أصابه .

قفز السيد تيت هابطاً من الرواق وركض نحو منزل آل رادلي .
توقف أمام الكلب ثم انحنى والتفت ونقر على جبينه فوق عينه اليسرى . قال :

— لقد انخرفت قليلاً إلى اليمين .
قال أتيكوس :

— كنت هكذا دائماً . لو كان الأمر بيدي لكنت استعملت
بنادقية رش .

انحنى إلى الأرض والتقط نظارتيه ، ثم طحن العدستين المكسورتين
تحت كعبه وذهب إلى حيث كان السيد تيت ووقف ينظر إلى تيم جونسون.
فتحت الأبواب واحداً اثر الآخر ، وعاد الحي إلى الحياة ببطء
من جديد . هبطت الآنسة مودي الدرج مع الآنسة ستيفاني كروفورد .
تجمد جم في مكانه . فرصته حتى يتحرك ، ولكن حين رأنا
أتيكوس قادمين ، صاح :

— ابقيا حيث أنتما .

وحين عاد السيد تيت وأتيكوس إلى الفناء كان السيد تيت يتسهم . قال :
— سأطلب من « زيبو » أن ينقله من هنا . لم تنس الكثير بعد
ياسيد فينتش . يقولون ان المهارة في التصويب لاتغادر المرء نهائياً .
كان أتيكوس صامتاً .

قال جم :

— أتيكوس ؟

— نعم ؟

— لا شيء .

— لقد رأيتك يأيها « الفيتشي » ذو الطلقة الأولى القاتلة .

استدار أتيكوس ليواجه الآنسة مودي . نظر كل منهما إلى الآخر دون أن يقول شيئاً ، ثم ركب أتيكوس مع المأمور في سيارته ، قال لحم :
- تعال إلى هنا . لا تقترب من ذلك الكلب ، هل تفهم ؟ لا تقترب منه ، انه خطر ميتاً كما هو حي .

— نعم ياسيدي . أتيكوس ؟

— ماذا يابني .

— لا شيء .

هنا قال السيد تيت وهو يتسم بلحم :

— ماحكايتك يا ولد ، ألا يمكنك أن تنطق ؟ ألم تكن تعرف أن والدك هو . . . ؟

قال أتيكوس :

— صمتاً ياهك لنعد إلى البلدة .

حين ابتعدا بالسيارة ، ذهبا جم وأنا إلى درج الآنسة ستيفاني الأمامي وجلسنا ننتظر وصول « زيرو » مع شاحنة القمامة .

جلس جم في حالة من الارتباك الخلد ، وقالت الآنسة ستيفاني :

— أخ ، أخ ، من كان سيفكر في كلب مسعور في شباط ؟ ربما لم يكن مسعوراً ، ربما كان مجنوناً فحسب . أكره أن أرى وجهه

هاري جونسون حين سيصل من بلدة موبيل. ويحد أن أتيكوس فينتش
قد قتل كلبه . ولكنه كان مليئاً بالبراغيث التي جاءته من مكان ما . . .
كانت الآنسة مودي والآنسة ستيفاني ستعزفان لحناً آخر لو كان
تيم جونسون لازال آتياً على امتداد ذلك الشارع ، وكانتا ستكتشفان
الحقيقة على أية حال خلال وقت قصير ، فرأسه كان سيرسل إلى
مدينة مونتغمري .

أصبح جم فجأة من الناطقين المبهمين :

— هل تريه ياسكاوت ؟ هل تريه واقفاً هناك ؟ . . . وفجأة
يسترخي كله وتبدو البندقية جزءاً منه . . . وقد فعل ذلك بسرعة
هائلة كأنه ال . . . أنا أضطر إلى التصويب عشر دقائق قبل أن أستطيع
اصابة شيء ما . . .

ابتسمت الآنسة مودي على نحو شرير ، ثم قالت :

— حسناً ياآنسة جان لويز ، هل لازلت حتى الآن تظنين أن
والدك لا يستطيع شيئاً ؟ هل لازلت نخبولة به ؟

قلت بخنوع :

— لا .

— لقد نسيت أن أقول ذلك اليوم أنه إلى جانب عزفه على الهارب
اليهودي ، فان أتيكوس فينتش كان أمهر رام في مقاطعة مايكوم
في زمانه .

ردد جم :

— أمهر رام .

— نعم هذا ماقلته يا جم فينتش . وأظن أنك ستغير من هجعتك الآن . أما كنتما تعلمان أن لقبه كان « ذو الطلقة الواحدة العجوز » حين كان فتياً ؟ عجباً ، حين كنا في فينتشز لاندلينغ ، وكان لا يزال في مقتبل العمر ، كان إذا ما أطلق خمس عشرة رصاصة وأصاب بها أربع عشرة حمامة ، يروح يشكو من أنه كان يبدّد ذخيره دون جدوى .

همهم جم :

— لم يذكر ذلك أبداً .

— لم يذكر ذلك أبداً ، أليس كذلك ؟

- لا ، ياسيدي .

قلت :

— أتساءل لماذا لا يذهب للصيد الآن ؟

قالت الآتسة مودي :

— ربما أستطيع أن أخبرك أنا . ان أباك أولاً وقبل كل شيء شخص متمدّن في أعماقه • ان المهارة في الرمي هبة من الله ، انها

موهبة . . . طبعاً عليك أن تتمرن حتى نجعلها كاملة ، ولكن الرمي يختلف عن عزف البيانو أو ماشابهه . أعتقد أنه تخلى عن بندقته حين أدرك أن الله وهبه ميزة غير عادلة يتميز بها عن معظم الأحياء . وأعتقد أنه قرر ألا يرمي ثانية إلا إذا اضطر إلى ذلك وقد اضطر إلى ذلك اليوم .

قلت :

— يبدو وكأنه فخور بها .

— الناس ذوو العقول الصحيحة لا يفتخرون بمواهبهم أبداً .

شاهدنا « زيرو » قادماً بشاحنته . تناول مدرأة من مؤخرة الشاحنة ورفع تيم جونسون بها بحذر شديد . قذف بالكلب إلى الشاحنة ثم صب شيئاً ما من وعاء كان يحمله على البقعة التي سقط فيها تيم وما حولها . ثم صاح :

— لا تقربوا من هنا لفترة .

حين عدنا إلى البيت قلت لجم انه صار لدينا حقاً شيء ما نتحدث عنه في المدرسة يوم الاثنين . استدار جم ليقول بحدة :

— لا تذكر كلمة واحدة حول ما حدث ياسكاوت .

— ماذا ؟ سأفعل ذلك بالتأكيد . ليس والد كلي تلميذ مهم رام في مقاطعة مايكوم .

قال جم :

— أعتقد أنه لو أردنا أن نعرف هذا الموضوع لحكى لنا عنه
بنفسه . لو كان فخوراً بذلك لحكى لنا عنه .

—ربما نسي ذلك .

— كلا ياسكاوت ، هذا شيء لن تفهميه . لقد أصبح أتيكوس
عجوزاً فعلاً ، ولكني لأكثر ان كان ليس قادراً على فعل أي شيء ،
ولا أكثر ان كان لا يقدر على فعل شيء مبارك .

اللقط جم حجرأ ورمى به مبتهجا نحو المرائب ثم ركض خلفه وصاح :
— أتيكوس جتلمان . مثلي تماماً .

* * *

الفصل الحادى عشر

حين كنا مانزال صغاراً ، كنا جم وأنا نقصر نشاطاتنا على الجانب الغربى من الحي ، ولكن بعد أن كاد العام الثانى لى فى المدرسة أن ينتهى وأصبح تعذيب بورادى من الأمور الماضية راح الجانب التجارى من مايكوم يجذبنا نحو الشارع الذى يمر بأمالك السيدة هنرى لافايت دوبوز . كان مستحيلاً الذهاب إلى البلدة دون المرور بمنزلها ، إلا إذا أردنا أن نمشي ميلاً كاملاً زيادة . لم تكن المواجهات الصغيرة السابقة معها قد تركت لدى أية رغبة فى المزيد ، ولكن جم قال ان على المرء أن يكبر أحياناً .

كانت السيدة دوبوز تعيش وحيدة لا يؤنس وحدتها إلا فتاة زنجية تعتني بها باستمرار ، وذلك فى المنزل الذى يلينا بمنزلة وكان له درج أمامى شاهق وردة قصيرة . كانت مسنة جداً ، وتقضي سحابة يومها فى الفراش والبقية فى كرسي ذي عجلات . وكان يشاع عنها أنها تحتفظ بمسدس قديم من طراز C S A (١) مخبأ تحت شالائها ودفاراتها العديدة .

(١) تعني بما كان يستعمله الجيش الكونفدرالى (الجنوبى) فى الحرب الأهلية الأمريكية .
(المترجم)

كنّا نكرها جم وأنّا . وإذا ما كانت جالسة في الرواق لدى مرورنا ، كانت تقلدنا بنظراتها الغاضبة ، وتعرضنا إلى تحقيق لاهوادة فيه حول سلوكنا ، وتعطينا تنبؤاً سوداويّاً عما سنؤول إليه حين نكبر ، وهو لا شيء دائماً . لقد تخلينا منذ فترة طويلة عن فكرة المرور من على الرصيف المقابل لمنزلها إذا كان هذا يجعلها ترفع صوتها حتى يسمعا الحى كله .

لم يكن في وسعنا أن نفعل مايسرها ، إذا قلت بكل اشراق أستطيعه : « مرحباً ياسيدة دوبوز » ، كنت سألتقى كاجابة : « لاتقولي لي مرحباً أيتها الفتاة القبيحة . يجب أن تقولي مساء الخير ياسيدة دوبوز . »

كانت شريرة . سمعت مرة أن جم ينادي أبانا باسمه « أتيكوس » وكان رد فعلها من النوع الذي يصيب بالسكتة القلبية . فالى جانب كوننا أكثر البلهاء الذين مروا بطريق منزلها وقاحة وصفاقة ، فقد قالت لنا أيضاً إنه من المؤسف ألا يتزوج أبونا بعد موت أمنا . لم تكن هناك سيدة أجمل من أمنا ، كما كانت تقول ، وانها لطريقة مؤسفة تلك التي ترك فيها أتيكوس ولديها دون أن يريتهما التربية الصحيحة . لم أكن أتذكر أمنا ، ولكن جم كان يتذكرها ، وكان يحكي لي عنها أحياناً ، وقد شجب لونه حين رمنا السيدة دوبوز برسالتها تلك .

لقد استنتج جم ، الذي نجا حتى الآن من بورادلي و كلب مسعور وأهوال أخرى ، أنه من الجبن التوقف عند درج منزل الآنسة راشيل الأمامي والانتظار ، كما قرر أن علينا أن نركض حتى زاوية مكتب

البريد كل مساء لمقابلة أتيكوس وهو عائد من عمله . وفي أمسيات عديدة لا تخصي كان أتيكوس يجد جم وقد ثار غضبه بسبب شيء ما قالته السيدة دوبروز خلال مرورنا .

كان أتيكوس يقول :

— لا عليك يا بني ، إنها سيدة عجوز ومريضة . عليك أن ترفع رأسك عالياً وأن تكون « جنتلماناً » . ومهما ثقل لك فان واجبك هو ألا تدعها تثير غضبك .

كان جم يقول إنها ليست مريضة على ما يبدو ، حيث أنها كانت تصبح بكل ذلك الصوت العالي . وحين كنا نمر ثلاثتنا بالقرب من منزلها ، كان أتيكوس يرفع قبعته ويلوح بها بفروسية باتجاهها ويقول : « مساء الخير ياسيدة دوبروز . تبدين كصورة هذا المساء » .

لم أسمع أتيكوس يقول كصورة ماذا . كان يحكي لها أخبار المحكمة ، ويقول أنه يأمل من كل قلبه أن يكون يومها طيباً غداً . ثم يعيد قبعته إلى رأسه ويرفعني لأركب على كتفيه في حضورها ثم نتجه إلى البيت في نور الشفق . وقد كنت أفكر في أوقات كهذه بأن أبي ، الذي كان يكره البنادق ولم يخض أية حرب ، كان أشجع رجل عاش حتى الآن .

في اليوم التالي على احتفال جم بميلاده الثاني عشر كانت النقود التي في جيوبه تكاد تحرقها ، وهكذا اتجهنا نحو البلدة مع العصر . وكان

جم يظن أن معه من المال مايكفي لشراء قاطرة بخارية صغيرة وعصا موسيقية لي .

منذ زمن طويل كنت قد وضعت نصب عيني شراء تلك العصا : كانت لدى محلات « ثي . إي . إلور » ، وكانت مزينة بالترترة والأشرطة المعدنية وثمنها سبعة عشر سنتاً . وكان طموحي الذي يأكلني حينها هو أن أكبر وأقود فرقة مدرسة مقاطعة مايكوم الثانوية وأروح أقذف بتلك العصا الطويلة وأدورها . وبعد أن كنت قد طوّرت موهبي بحيث أصبحت أستطيع أن أقذف بعصا ثم أعود لألتقطها مرة أخرى خلال هبوطها ، فقد سبب ذلك في أن يجعل كالبورنيا ترفض ادخالي إلى المنزل في كل مرة تراني فيها أحمل عصا في يدي . وظننت أنني أستطيع تفادي هذا العيب بعصا موسيقية حقيقية ، كما اعتقدت أن جم كان كريماً إذ سيشتري لي واحدة .

كانت السيدة دوبوز متمركزة على رواقها حين مررنا ، صاحت : — أين تذهبان أنتما الاثنان في مثل هذا الوقت ؟ ستلعبان الهوكي على ما أفترض . سأتصل بمدير المدرسة وأقول له .

ثم وضعت يديها فوق عجالات كرسيها واستدارت بزاوية مقدارها ٩٠ درجة .

قال جم :

— أنه يوم السبت يامسيادة دوبوز .

قالت بلهجة غامضة :

— لافرق أكان اليوم هو السبت أم غيره . وأتساءل ان كان أبوكمما يعرف أين أنتما .

— سيدة دوبوز ، اننا نذهب إلى البلدة وحدنا منذ كنا بهذا الطول .
وهنا وضع جم يده على ارتفاع حوالي قدمين من الرصيف وكفه نحو الأسفل .

صاحت :

— لا تكذبا عليّ . يا جيري فينتش ، لقد أعلمتني مودي أنكينسون أنك كسرت عريشة العنب هذا الصباح . وهي ستحكي لأبيك وثم ستتمنى لو أنك لم تولد أبداً . وإذا لم يرسلك أبوك إلى المدرسة الاصلاحية للاحداث قبل حلول الأسبوع القادم فليس اسمي دوبوز .

وقد قام جم ، الذي لم يقترّب من عريشة الآنسة مودي منذ الصيف الماضي ، والذي كان يعرف أن الآنسة مودي لن تشتكيه لأبيه لو فعل ذلك ، قام بانكار ذلك انكاراً شاملاً .

زعقت السيدة دوبوز :

— لاتعراضي . وأنت . . .

وهنا أشارت باصبع مصاب بالتهاب المفاصل باتجاهي :

— ماالذي تفعلينه في ذلك الأوفرول ؟ يجب أن تكوني مرتدية

ثوباً وسفرة قصيرة . ستنتهين إلى نادلة حين تكبرين ، هذا ان لم يغير
أحدهم من عاداتك منذ الآن . . . تصوروا فتاة من عائلة فينتش تعمل
نادلة في « مقهى أو كي » . . . هاه .

أصبت برعب شديد . كان « مقهى أو كي » مكاناً كثيباً في الجانب
الشمالي من ساحة البلدة . أمسكت بيد جم ولكنه نفّض يده من يدي
ثم همس :

— هيا بنا ياسكاوت . لآهتمي بها . ارفعي رأسك عالياً وكوني
« جنتلماناً » .

ولكن السيدة دوبوز. تابعت تقول :

— ليس هناك فتاة من عائلة فينتش تعمل نادلة فحسب بل ثمة فرد
آخر من تلك العائلة يدافع عن الزنوج في المحكمة .
تصلب جم . لقد أصابت منه السيدة دوبوز مقتلاً هذه المرة ،
وقد أدركت ذلك .

— أجل ، أجل ، مالذي أصاب هذا العالم حتى نرى واحداً من
عائلة فينتش يعارض المبادئ التي تربي عليها ؟ سأقول لكما ماذا ؟
وضعت يدها على فمها وحين رفعتها جرت وراءها خيطاً فضياً
طويلاً من الریق .

— أبوكما ليس أفضل من الزنوج والحالة الذين يدافع عنهم .

أصبح لون وجه جم قمرزياً . جذبته من كفه ، وقد تبعنا خلال متابعتنا السير على الرصيف خطبة فيليبية لاذعة حول الانحطاط الأخلاقي لعائلتنا ، وكانت المقدمة المنطقية لها أن نصف آل فينتش في مشفى المجانين على أية حال ، ولكن لو كانت أمانا على قيد الحياة لما كنا سنصل إلى مثل هذه الحال .

لم أكن أعرف ماهو الشيء الذي أزعج جم أكثر من غيره ، ولكنني ارتبت في أن يكون ذلك هو تقييم السيدة دوبوز للصحة العقلية للعائلة . لقد تعودت تقريباً على سماع الشتائم توجه إلى أتيكوس . ولكن كانت هذه أول شتائم أسمعها من شخص راشد . وباستثناء ملاحظاتها حول أتيكوس هذه المرة ، فإن هجوم السيدة دوبوز كان مجرد عمل روتيني . كان في الجو شيء من الصيف : في الظل كان الطقس بارداً ، ولكن الشمس كانت دافئة ، وهذا يعني أن الأوقات الطيبة كانت آتية : العطلة المدرسية وقنوم ديل .

اشترى جم محرك البخاري وذهبنا إلى محلات المور لشراء العصا الموسيقية لي . لم يشعر جم بأي متعة من الفوز بما كان يتمنى شراؤه ، فقد دفعه في جيبه وسار بصمت إلى جانبي باتجاه البيت . وفي الطريق إلى البيت كدت أصيب السيد « لينك ديس » الذي قال « انتبه ياسكاوت » وذلك حين كنت أقذف بالعصا في الهواء وأخطأت ، وحين اقتربنا من منزل السيدة دوبوز كانت عصاي قد اتسخت بسبب سقوطها في الطين مرات عديدة .

لم تكن هي جالسة على رواقها .

في السنوات التي تلت ، كنت أتساءل أحياناً عن السبب الذي جعل جم يرتكب ما ارتكبه ذلك اليوم ، وما الذي جعله يخالف مواليق « كن جنتلماناً يا بني » ومرحلة الاستقامة المرافقة بالحجل التي كان قد دخلها مؤخراً . ربما كان جم قد تحمل من الازعاج بسبب دفاع أتيكوس عن الزنوج بقدر ما تحملت أنا ، وكنت قد سلمت بقدرته على المحافظة على أعصابه ، فقد كان هادئ الطباع أصلاً وغير عصبي . في ذلك الحين فكرت على أية حال أن التفسير الوحيد لما ارتكبه كان أنه قد فقد عقله وجنّ لعدة دقائق .

ان ما فعله جم كان أمراً يمكن لي أن أفعله بكل بساطة لو لم أكن خاضعة لحظر من أتيكوس كان يتضمن ، كما افترضت ، الشجار مع السيدات العجائز الرهيبات . كنا قد اقتربنا من بوابة منزلها حين انتزع جم عصاي الموسيقية من يدي وركض وهو يضرب بها الدرج بجنون أثناء صعوده له حتى وصل إلى فناء السيدة دوبوز الأمامي ، ناسياً كل ما قاله أتيكوس وأنها كانت تخجى مسدساً تحت شالائها ، وأنه لو أخطأته السيدة دوبوز فإن خادمتها « جيسي » قد لانهطته .

ولم يهدأ حتى كان قد قطع رؤوس كل شجرة كامايا كانت لدى السيدة دوبوز ، وحتى امتلأت الأرض بالبراعم والأوراق الخضراء . ثم لوى عصاي على ركبته وكسرها إلى جزئين ورمها أرضاً .

في ذلك الحين كنت أزعم . شد جم شعري وقال انه لا يتم
بما فعل وانه مستعد لاعادة الكرة إذا أتيت له الفرصة ، وأني إذا لم
أخرس فسوف ينتف كل شعر رأسي . ولم أسكت فرفسي . فقدت
توازني وسقطت على وجهي . رفعتي جم بخشونة ولكنه بدا كأنه آسف .
ولم يكن هناك ما يقال .

لم نذهب للقاء أتيكوس لدى عودته إلى البيت ذاك المساء . تواريانا
في المطبخ حتى رمتنا كالبورنيا خارجاً . وبطريقة سحرية ما ، بدا أن
كالبورنيا عرفت كل ماجرى . لم تكن هي ذلك المصدر الجيد للعزاء
ولكنها أعطت جم كمكة محلاة فقسمها إلى نصفين وشاركني بها .
ولكن مذاقها كان كالقطن .

ذهبنا إلى غرفة الجلوس . أخذت مجلة لكرة القدم ووجدت صورة
لـ « ديكسي هاول » وأريتها لجم وقلت : « انه يشبهك » ، وكان
ذلك ألطف شيء كان يمكن أن أفكر في قوله له ، ولكن ذلك لم يكن
عزاء له . جلس قرب النافذة ، وتوقع ضمن كرسي هزاز ، وراح
ينتظر . خبا ضوء النهار .

بعد حقبتين جيولوجيتين ، سمعنا صوت احتكاك نعل حذاء أتيكوس
بالدرج الأمامي . أغلق الباب المنخلي بقوة ، مرت فترة صمت — أتيكوس
الآن عند مشجب القبعات في القاعة — ثم سمعناه ينادي : « يا جم » .
وكان صوته أشبه بريح شتائية .

أدار أتيكوس مفتاح نور السقف في غرفة الجلوس فوجدنا هناك ،
متجمدين ساكنين . كان يحمل عصاي الموسيقية بأحدى يديه ، وشراباتها
الصفراء القلدة تتدلى على السجادة . مدّ يده الأخرى وكانت تحتوي
على براعم زهور الكاميليا السمينّة .

قال :

— جم ، هل أنت المسؤول عن هذا ؟

— نعم ياسيدي .

— ولماذا فعلت ذلك ؟

قال جم بصوت خفيض :

— قالت انك تدافع عن الزنوج والختالة .

— هل فعلت هذا لأنها قالت ذلك ؟

تحركت شفتا جم ولكن « نعم ياسيدي » التي قالها لم تكن مسموعة .

— يا بني ، لاشك عندي بأنك كنت متزعجاً من زملائك بسبب

تعليقاتهم حول دفاعي عن الزنوج كما تقول ، ولكن أن تفعل شيئاً

كهذا لسيدة عجوز مريضة لأمر لا يمكن عذره . اني أنصحك بشدة

أن تذهب لتتحدث مع السيدة دوبوز ، ثم عد إلى البيت مباشرة بعد ذلك .

لم يتحرك جم .

— فأت لك اذهب .

ثبعت جم إلى خارج غرفة الجلوس .

قال لي أتيكوس :

— عودي إلى هنا .

عسدت .

تناول أتيكوس صحيفة « موبيل برس » وجلس في الكرسي المزاز الذي غادره جم قبل قليل . وأقسم بحياتي أنني لم أفهم كيف استطاع أن يجلس هناك بكل برود ويقرأ في الصحيفة بينما قد يتعرض ابنه الوحيد إلى القتل بمسدس من تذكارات الجيش الكونفدرالي . طبعاً كان جم يعاديني أحياناً حتى لأكاد أقتله ، ولكن حين تصل الأمور إلى حدها ، فقد كان جم هو كل ما أملك . لم يبد على أتيكوس أنه يدرك ذلك ، أو أنه يدركه ولا يكثر .

كرهته لذلك ، ولكنك حين تكون واقعاً في ورطة ، فانك تشعر بالتعب بسهولة : سرعان ما كنت أختبئ في حضنه وكانت ذراعه تطوقاني .

قال :

— أصبحت كبيرة على الهزّة .

— أنت لا تكترث بما قد يحدث له . لقد أرسلته إلى هناك حتى

يقتل بالرصاص بينما كان كل ما فعله هو الوقوف موقف الدفاع عنك .
دفع أتيكوس برأسه تحت ذقنه وقال :

— لم يحن الوقت للقلق بعد ، ولم يخطر لي أن يفقد جم رأسه بسبب
هذه المشكلة ، بل كنت أظن أنني سألاقي منك مصاعب أكثر .

قلت اني لأرى السبب في أن نحافظ على رباطة جأشنا ، واني
لأعرف أحداً في المدرسة يضطر إلى المحافظة على رباطة جأشه فيما
يتعلق بأي شيء .

— ياسكاوت ، حين يأتي الصيف سيكون عليك المحافظة على
رباطة جأشك فيما يتعلق بأشياء أسوأ بكثير . . . ليس هذا عادلاً
لابلنسبة لك ولا لجم ، أعرف ذلك ، ولكن علينا أحياناً أن نبذل
قصارى جهدنا رغم المصاعب ، وأن نتصرف على نحو مناسب حين
يجب أن نواجه شيئاً ما . حسناً ، كل ما يمكنني قوله هو أنكما حين
ستكبران أنت وجم ، فربما ستتذكران هذا كله ببعض العطف وبعض
الشعور بأنني لم أتخلّ عنكما . ان هذه القضية ، قضية توم روبنسون
أمام المحكمة ، شيء يتعلق بجوهر ضمير الانسان . ياسكاوت ، ما كنت
سأستطيع الذهاب إلى الكنيسة والصلاة لله إذا لم أحاول مساعدة ذلك
الانسان .

— أتيكوس ، لابد أنك على خطأ .

— ولماذا ؟

— حسناً ، يبدو أن معظم الناس يعتقدون أنهم على صواب وأنت على خطأ . . .

— ان لهم الحق وكل الحق في أن يظنوا ذلك ، وهم مخولون بالاحترام الكامل بسبب آرائهم ، ولكن قبل أن أستطيع معايشة الناس الآخرين ، علي أن أستطيع معايشة نفسي . ان الشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الانسان .

حين عاد جم وجدني لأزال في حضن أتيكوس . قال أتيكوس : « ماذا يابني ؟ » . أوقفني على قدمي وقمت باستكشاف سري بلجم . بدا كاملاً وصحيحاً ، ولكن كانت هناك نظرة غريبة في وجهه . ربما كانت قد أعطته جرعة من الكالوميل (١) .

— لقد نظّفت الفناء وقلت لها اني آسف ، ولكنني لست كذلك ، واني سأعمل في حديقته كل يوم سبت وأحاول أن أجعل زهورها تعود للنبو من جديد .

قال أتيكوس :

— لاعمى لقولك انك آسف ان لم تكن كذلك ، يا جم . انها عجوز ومريضة . لا يمكنك تحميلها مسؤولية ماتقوله أو تفعله . طبعاً

(١) ذرور يستعمل مسهلاً للمعدة . (المترجم)

أفضل لو أنها قالت ماقالته لي وليس لأي منكما ، ولكن لا يمكننا أن نتوقع أن نحصل دائماً على ما نريده .

بدا جم مفتوناً بزهرة مرسومة على السجادة . قال :
— يا أتيكوس ، أنها تريدني أن أذهب لأقرأ لها .

— تقرأ لها ؟

— نعم ياسيدي . تريدني أن أذهب عصر كل يوم بعد المدرسة وفي أيام العطلة أيضاً وأقرأ لها بصوت عال لمدة ساعتين . هل علي أن أفعل ذلك يا أتيكوس ؟
— بالتأكيد .

— ولكنها تريدني أن أفعل ذلك مدة شهر كامل .
— إذن فستفعله لمدة شهر كامل .

زرع جم اصبع قدمه الكبير بلطف في منتصف الزهرة وضغطها .
وأخيراً قال : « يا أتيكوس على الرصيف لأبأس ، ولكن هناك في داخل منزلها المعتم المخيف ، الذي فيه ظلال وأشياء على السقف . . »
ابتسم أتيكوس بكآبة وقال :

— لا بد أن هذا يواثم مخيلتك . تصور فحسب أنك ضمن منزل آل رادلي .

* * *

في يوم الاثنين الذي تلى تسلقنا جم وأنا الدرج الأمامي الشاهق المؤدي إلى منزل السيدة دوبوز ومشينا بهدوء فوق أرض المرّ المكشوف . ثم قرع جم المسلّح برواية « ايفانهو (١) » والمترع بالمعرفة السامية ، الباب الثاني إلى اليسار .

صاح :

— سيّدة دوبوز ؟

فتحت جيسي الباب الخشبي ثم رفعت مزلاج الباب المنخلي .

قالت :

— أهذا أنت يا جم فينتش ؟ أختك معك . لا أعرف . . .

قالت السيدة دوبوز :

— ادخليهما كليهما يا جيسي .

أدخلتنا جيسي ثم ذهبت إلى المطبخ .

حين عبرنا العتبة استقبلتنا رائحة قابضة للنفس ، رائحة عرفت في المنازل الكثيرة التي أبلأها المطر والتي تستعمل فيها مصابيح زيت الفحم ، وأوعية شرب الماء ، والشراف المتزلية غير المبيضة . وكانت هذه الرائحة تجعلني دائماً في حالة من الخوف والتوقع والترقب .

(١) من روايات وولتر سكوت . (المترجم)

في زاوية الغرفة كان سرير نحاسي ، وفي السرير كانت السيدة دوبيوز . تساءلت في نفسي ان كانت نشاطات جم هي التي جعلتها طريحة الفراش ، وشعرت بالراء لها للحظة . كانت تقبع تحت كومة من اللحف ، وتبدو ودودة .

كانت هناك منضدة ذات سطح من المرمر بالقرب من سريرها ، وعليها كأس وفيه ملحقة شاي ، ومحفنة ذات أذن حمراء ، وعلبة من القطن المأص ، وساعة منبّه فولاذية تقف على ثلاث أرجل دقيقة .

— اذن لقد جلبت أختك الصغيرة الوسخة معك ، أليس كذلك .

هكذا كانت تحيتها لنا .

قال جم بهدوء :

— أختي ليست وسخة ولست خائفاً منك .

قال ذلك رغم أنني لاحظت أن ركبتيه كانتا ترتجفان .

توقعت منها تقريراً مطوّلاً ، ولكن كل ماقالته كان :

— يمكنك أن تبدأ بالقراءة ياجيريمي .

جلس جم في كرسي من القصب وفتح رواية « ايفان هو » . وجذبت كرسياً آخر وجلست إلى القرب منه .

قالت السيدة دوبيوز :

— اقتربا أكثر . تعالا إلى جانب السرير ،

حركنا كرسيينا إلى الأمام . وكانت تلك أول مرة أكون فيها قريبة منها إلى ذلك الحد ، وكان الشيء الذي أريده أكثر من غيره هو أن أعيد كرسيي إلى الخلف .

كانت رهيبة . فقد كان وجهها بلون غطاء الوسادة القذر ، وزوايا فمها تلتصق بشيء رطب كان يندفع كنهر متجمد نازلاً الأخاديد العميقة التي تحيط بدقنها . كما كانت بقع الشيوخوخة الناجمة عن مرض الكبد تنتشر على خديها ، ولعينها الفاتحي اللون بؤبؤان سوداوان صغيران . يداها كانتا مليئتان بالعقد ، والجلد الميت قد نما فغطى أظافر يديها . كان طقم أسنانها السفلي غير موجود في فمها وكانت شفتها العليا ناثثة ، وبين الحين والآخر كانت تشد شفتها السفلى إلى طقم أسنانها العلوي حاملة دقنها معها . وكان هذا يجعل الشيء الرطب يتحرك على نحو أسرع .

لم أنظر أكثر مما اضطرت . أعاد جم فتح « ايفانو » وبدأ بالقراءة . حاولت متابعة الأسطر معه ، ولكنه كان يقرأ بسرعة لم أستطع مجاراتها . وحين كان جم يصل إلى كلمة لا يعرفها كان يتجاوزها ، ولكن السيدة دوبوز كانت تصطاده وتطلب منه أن يهجنها . قرأ جم لمدة عشرين دقيقة على الأرجح ، كنت خلالها أنظر إلى رف المدفأة الملطخ بالسخام ، وخارجاً عبر النافذة ، إلى أي مكان أستطيع معه عدم النظر باتجاهها .

وبينما راح يقرأ ، لاحظت أن تصحيحات السيدة دوبوز راحت تصبح أقل وأكثر تباعداً ، إلى حد أن جم ترك جملة بكاملها تتأرجح في الهواء . لم تكن هي تصغي اذن .

نظرت باتجاه السرير .

كان شيء ما قد حدث لها . كانت مضطجعة على ظهرها ، والآن تحف تصل إلى ذقنها . لم يكن مرثياً منها سوى رأسها وكتفيها . كان رأسها يتحرك ببطء من جانب إلى آخر . ومن حين إلى آخر كانت تفتح فمها إلى آخره حتى استطعت أن أرى لسانها يتحرك على نحو ضعيف . كانت خيوط الريق تتجمع على شفتيها وكانت تشفطها إلى الداخل ثم تفتح فمها ثانية . بدا فمها وكأنه كينونة خاصة بذاتها . كان يعمل على نحو مستقل ومنفصل عن بقية جسدها ، خارجاً وداخلاً ، وكأنه قوقعة في البحر . أحياناً كان فمها يصدر صوتاً يوحي بأن هناك مادة لزجة قد وصلت إلى درجة الغليان .

جذبت جم من كفه .

نظر إليّ ثم إلى السرير . تأرجح رأسها ذلك التأرجح المنتظم باتجاهنا ، فقال جم : « سيدة دوبوز ، هل أنت بخير ؟ » ولكنها لم تسمعه .

انطلقت ساعة المنبه ترنّ فتجمّدنا رعباً . بعد دقيقة وأعصابنا لازالت متوترة ، كنّا جم وأنا نمشي على الرصيف باتجاه البيت . لم

نركض ، كانت جيسي قد صرفتنا : فقبل أن يرن جرس المنبه حتى آخره كانت قد وصلت إلى الغرفة وراحت تدفعنا نحو الخارج قائلة :

— هيا إلى البيت .

تردد جم عند الباب .

قالت جيسي :

— لقد حان موعد دوائها .

وبينما كان الباب ينغلق خلفنا رأيت جيسي تمشي بسرعة باتجاه سرير السيدة دوبوز .

كانت الساعة هي الثالثة وخمسة وأربعون دقيقة حين وصولنا إلى البيت ، ولذا لعبت مع جم بكرة القدم في الفناء الخلفي حتى حان موعد لقاء أتيكوس . كان أتيكوس يحمل قلبي رصاص صفراوي اللون لي ومجلة مختصة بكرة القدم لجم ، وأعتقد أن تلك كانت مكافأة صامئة لنا عن أول جلسة لنا مع السيدة دوبوز . حكى له جم ماحدث .

سأل أتيكوس :

— هل أخافتكما ؟

— كلا ياسيدي ، ولكنها كريهة جداً . كما تتناها نوبات أو ماشابه . كما أنها تبصق كثيراً .

— انها لاتستطيع شيئاً حيال ذلك . حين يكون الناس مرضى
فإنهم لا يبدون بشكل مقبول أحياناً .

قلت :

— لقد أخافني .

نظر إلي أتيكوس من فوق نظارتيه وقال :

— لست مضطرة للذهاب مع جم كما تعلمين .

كان عصر اليوم التالي لدى السيدة دوبوز كالיום الأول تماماً ،
وهكذا كان الذي تلاه ، حتى توضح لي تدريجياً نموذج هو على الشكل
التالي : يبدأ كل شيء على نحو اعتيادي : أي أن السيدة دوبوز كانت
تطاردهم لفترة بمواضيعها المفضلة ، بزهور الكاميليا الخاصة بها وبمبول
أبيننا المتعلقة بحبه الزنوج ، ثم تصمت تدريجياً ، وبعدها تغيب عن الوعي
يرن جرس المنبه ، وتصرفنا جيبي وتكون بقية النهار ملكنا .

قلت لأتيكوس في إحدى الأمسيات :

— أتيكوس ، ماهو بالضبط « محب الزنوج » ؟

أصبح وجه أتيكوس عابساً .

— هل دعاك أحد بهذا اللقب ؟

— لا يا سيدي ولكن السيدة دوبوز تدعوك بهذا اللقب . انها تبدأ

جلسة عصر كل يوم بأن تدعوك بذلك اللقب . كما أن فرانسيس دعاني

بهذا اللقب في عيد الميلاد الماضي ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمعته بها .

سألني أتيكوس :

— ألهذا هاجمته وضربته ؟

— نعم ياسيدي . . .

— اذن لماذا تسأليني عن معناه ؟

حاولت أن أشرح لأتيكوس أن ماجعلني أفقد صوابي لم يكن مقاله فرانيس بل الطريقة التي قال بها مقاله .

— لقد قاله بالطريقة التي يقال فيها « قبيح الأنف » أو ماشابه .

قال أتيكوس :

— ياسكاوت ، ان « محب الزنوج » احدى تلك العبارات التي لاتعني شيئاً ، مثلها مثل « قبيح الأنف » . من الصعب تفسير ذلك ، ولكن الأشخاص الجاهلين التافهين يستعملونها حين يظنون أن شخصاً ما يفضل الزنوج عن نفسه . وقد سقطت من الاستعمال لدى بعض الناس من أمثالنا ، وذلك حين يريدون أن يلقبوا شخصاً ما بقلب وضعي قبيح .

— لست « محباً للزنوج » اذن ، أليس كذلك ؟

— بل أنا كذلك بكل تأكيد . أنا أفعل ماوسعني لأحب كل الناس...

أحياناً يكون ذلك صعباً . ياطفاتي لأعتقد أنه من المهيّن للانسان أن يلقب بلقب يعتقد من يطلقه أنه لقب مهين . ان ذلك يكشف لنا كم هو مسكين ذلك الشخص ، والأمر لا يضيرك أبداً . لذا لاتدعي السيدة دوبوز تحطم معنوياتك . ان لديها من المتاعب ما يكفيها .

وفي عصر أحد الأيام بعد شهر من ذلك ، كان جم يشق طريقه عبر مؤلفات السير وولتر « سكاوت (١) » كما كان جم يسميه ، وكانت السيدة دوبوز تصحح له في كل مناسبة ، حين طرق الباب فجأة ، فزعقت هي : « ادخل » .

ودخل أتيكوس . مضى نحو السرير وتناول يد السيدة دوبوز . قال :
— كنت قادماً من المكتب ولم أر الولدين ، فقلت في نفسي ربما لا يزالان هنا .

ابتسمت له السيدة دوبوز . ولم أصدق كيف يمكنها أن تجبر نفسها على محادثته حين بدا أنها تكرهه كل ذلك الكره . قالت : « أتعرف كم هي الساعة يا أتيكوس ؟ انها الخامسة وأربع عشرة دقيقة . الساعة سترن في الخامسة والنصف . أريدك أن تعرف ذلك . »

لقد خطر لي فجأة أننا كنا نبقى كل يوم فترة أطول قليلاً من اليوم السابق لدى السيدة دوبوز ، وان الساعة كانت ترن متأخرة بضع دقائق كل يوم ، وأنها كانت تدخل إحدى نوباتها لدى رنين الساعة .

(١) تعني المؤلف الشهير سكوت .

واليوم هاهي تعادي جم منذ ساعتين تقريباً دون أن يبدو عليها أنها
ستصاب بنوبة ، وأحسست بأني واقعة في القنخ دون أمل بالنجاة . كان
صوت المنبه هو الإشارة لتحريرنا ، وإذا لم ينطلق رنينه في يوم من
من الأيام فما الذي سنفعله ؟

قال أتيكوس :

- لدي احساس بأن أيام قراءة جم قد أصبحت معدودة .
- سيبقى لأسبوع آخر فحسب ، وذلك حتى نتأكد . . .

نهض جم وقال :

- ولكن . . .

رفع أتيكوس يده فصمت جم . وفي الطريق إلى البيت قال جم
انه وعد بالقيام بذلك لمدة شهر ، وان الشهر قد انقضى وانه لم يكن
من العدل الاستمرار أطول من ذلك .

قال أتيكوس :

- أسبوع واحد آخر فحسب .

- لا .

- بل أجل .

وفي الأسبوع التالي وجدنا نفسينا من جديد في منزل السيدة دوبوز .
كان المنبه قد توقف عن الرنين ، إلا أن السيدة دوبوز كانت تصرخنا

بعبارة : « هذا يكفي » وذلك في آخر العصر بحيث أننا حين نعود إلى البيت نجد أتيكوس يقرأ في صحيفته . ورغم أن نوباتها قد اختفت ، إلا أنها كانت في كل شيء آخر تلك السيدة دوبر العجوز نفسها : فحين كان السير وولتر سكوت يسهب في وصف الخنادق والقلاع ، كانت السيدة دوبر تصاب بالملل فتبدأ بمهاجمتنا :

— يا جيري فينتش ، لقد قلت لك انك ستعيش لتندم على تحطيم أزهارى من نوع الكاميليا . وأنت نادم على ذلك الآن ، أليس كذلك ؟ وكان جم يقول انه كذلك بالتأكيد .

— ظننت أنك تستطيع أن تقتل أزهارى من نوع « الثلج على الجبل » أليس كذلك ؟ حسناً ، ان جيسي تقول ان رؤوسها بدأت تنمو من جديد . في المرة التالية يجب أن تعرف كيف تحطم تلك الأزهار بالطريقة المناسبة ، أليس كذلك ؟ يجب أن تقلعها من جذورها ، أليس كذلك ؟ كان جم يقول انه سيفعل ذلك بالتأكيد .

— لآتهمهم حين تخاطبني يا ولد . ارفع رأسك وقل : « نعم ياسيدتي » . لاأظن أنك تشعر بالرغبة في رفع رأسك وأبوك على ماهو عليه .

كانت ذقن جم ترتفع ، وكان يخلد في السيدة دوبر بوجه خال من الامتعاض . فخلال الأسابيع التي مرت استطاع أن يربّي تعبيراً من الاهتمام اللطيف غير المنحاز كان يقدمه إليها جواباً على ابتكاراتها التي تجمّد الدم .

وأخيراً جاء اليوم الذي قالت فيه السيدة دوبوز في وقت العصر :
« هذا يكفي . لقد انتهينا . يومكما طيب . »

لقد انتهى الأمر إذن . تقافزنا على الرصيف في نشوة من الراحة المطلقة ، ورحنا ننتف ونزقق .

كان ذلك الربيع جميلاً : فالأيام أصبحت أطول وراحت تمنحنا مزيداً من الوقت للعب . كان عقل جم مشغولاً معظمه بالاحصائيات الحيوية المتعلقة بكل لاعب لكرة قدم في الكليات الجامعية للأمة كلها . في كل ليلة كان أتيكوس يقرأ لنا الصفحات الرياضية من الصحيفة . قد يشارك منتخب ولاية ألاباما في مباريات بطولة « روز باول » مرة أخرى هذا العام ، وذلك بناء على امكانيات أعضاء المنتخب الذين ماكننا قادرين على لفظ اسم أي واحد منهم . كان أتيكوس منهمكاً مرة في قراءة إحدى مقالات « ويندي سيتون » الرياضية حين رن جرس الهاتف . رد على الهاتف ، ثم ذهب إلى مشجب القبعات في القاعة وقال :
« سأذهب لأرى السيدة دوبوز قليلاً ، وسأعود بعد فترة قصيرة . »

ولكن أتيكوس ظل هناك إلى ما بعد موعد النوم . وحين عاد كان يعمل على سكاكر . جلس أتيكوس في غرفة الجلوس ووضع اللعبة على الأرض بالقرب من كرسيه .

سأله جم :

— ما الذي كانت تريد ؟

لم نكن قد رأينا السيدة دوبوز منذ شهر . ولم نعد نراها تجلس في
الرواق لدى مرورنا بمنزلها .

قال أتيكوس :

— لقد ماتت يابني . ماتت منذ دقائق قليلة .

قال جم :

— أوه . . . حسناً .

— ماقلته صحيح . انه لأمر حسن ، فهي لم تعد تعاني المزيد الآن .
لقد كانت مريضة منذ فترة طويلة يابني ، ألم تعرف ماكانت تلك
النوبات التي كانت تصيبها ؟

هز جم رأسه .

— كانت السيدة دوبوز مدمنة على المورفين . كانت تتناوله
كمسكن للآلام منذ سنوات طويلة . الطبيب هو الذي وصفه لها .
كان يمكن أن تقضي بقية حياتها وهي تتناوله وأن تموت دون كل تلك
الآلام ، ولكنها كانت شديدة العناد . . .

قال جم :

— ياسيدي ؟

قال أتيكوس :

— قبل مغامرتك الطائشة مباشرة كانت قد استدعتني لأحرر لها
لها وصيتها . لقد قال لها الدكتور رينولدز انه قد تبقى أمامها شهور
قليلة قبل أن تموت . كانت أمورها المالية منتظمة تماماً ولكنها قالت :
« هناك شيء واحد غير منتظم بعد » .

شعر جم بالحيرة فقال :

— وما كان ذلك ؟

— قالت انها ستغادر هذا العالم وهي غير مدينة بالفضل لشيء
أو لأحد . يا جم ، حين تكون مريضاً كما كانت هي ، فانه من الصحيح
أن تتناول أي شيء لتخفيف المرض . ولكن الأمر لم يكن صحيحاً
بالنسبة لها . قالت انها تنوي أن تخلص نفسها من الادمان على المورفين
قبل أن تموت ، وقد فعلت ذلك حقاً .

قال جم :

— أتعني أن نوباتها تلك كانت بسبب ذلك ؟

— نعم ، هذا صحيح . حين كنت تقرأ لها أشك في أنها كانت
تسمع كلمة واحدة أغلب الوقت . كان ذهنها وجسدها متركزين بالكامل
على ساعة المنبه . ولو لم تقع بين أيديها بسبب غلظتك لكنت قد أرسلتك
لتقرأ لها على أية حال . ربما كان ذلك بالنسبة لها نوعاً من صرف
الانتباه . وكان هناك سبب آخر .

سأله جم :

— هل ماتت حرة من الادمان ؟

— حرة كهواء الجبل . وكانت واعية حتى آخر لحظة تقريباً .
واعية . . .

وهنا ابتسم أتيكوس واستأنف قائلاً :

— ومشاكسة . كانت لاتزال تعارض تصرفاتي من كل قلبها ،
وقالت اني قد أقضي بقية عمري وأنا أدفع لك الكفالات لتخرج من
السجن . وقد طلبت من جيسي أن تبيء لك هذه العلبة .
التقط أتيكوس علبة السكاكر وسلمها إلى جم .

فتح جم العلبة . وكان في داخلها ومحاطة بلفائف من القطن الرطب ،
زهرة كاميليا كاملة بيضاء شمعية . كانت من نوع « الثلج فوق الجبل » .
جحظت عينا جم ، وزعق وهو يرميها أرضاً : « يا للشيطانة العجوز
الجهنمية ، يا للشيطانة العجوز الجهنمية . لماذا لاتركني بحالي ؟ »

وخلال لحظة كان أتيكوس قد نهض ووقف قبالة . دفن جم رأسه
في مقدمة قميص أتيكوس . قال له : « صه . أعتقد أن هذه هي طريقتها
كي تقول لك : كل شيء على مايرام الآن يا جم ، كل شيء على مايرام .
أنت تعرف أنها كانت سيدة عظيمة . »

رفع جم رأسه ووجهه قد اكتمى لوناً قرمزيًا وقال :

— سيّدة ؟ بعد كل تلك الأشياء التي قالتها عنك تسميها سيّدة ؟

— أجل كانت سيّدة عظيمة . كانت لها وجهات نظرها الخاصة بالأمور ، وهي تختلف كثيراً عن وجهات نظري ، ربما . . . يا بني ، لقد قلت لك انك لو لم تفقد عقلك وتفعل ما فعلته لكنت سأرسلك لتقرأ لها على أية حال . أردتلك أن ترى فيها شيئاً معيناً : أردتلك أن ترى ماهي الشجاعة الحقيقية ، بدلاً عن أن تفكر في أن الشجاعة هي رجل في يده بندقية . ان الشجاعة تكون حين تعرف أنك خاسر حتى قبل أن تبدأ ، ولكنك تبدأ على أية حال وتحاول أن تصل بقضيتك الخاسرة إلى آخرها مهما يكن من أمر . قد تكسب نادراً ، ولكنك تكسب على كل حال . لقد كسبت السيّدة دوبروز معركتها ، كل كيلو غرام من الكيلوغرامات الأربعين التي كانت تشكل وزنها قد كسبت تلك المعركة . ووفقاً لوجهة نظرها هي ، فقد ماتت غير مدينة لشيء ولا لأحد . كانت أشجع شخص عرفته في حياتي .

حمل جم علبة السكاكر ورماتها في النار . ثم التفت زهرة الكاميليا من على الأرض ، وحين ذهبت إلى فراشي رأيته يداعب بأصابعه التويجات العريضة . كان أتيكوس يقرأ في صحيفته .

* * *

القسم الثاني

٢٥٧ لا تقتل عصفورا ساخرا م-١٧

الفصل الثاني عشر

أصبح جم في الثانية عشرة . أصبح التعايش معه صعباً ، وصار متقلب الطباع مزاجياً . أما شهيته فصارت خفيفة ، وقد طلب مني مرات كثيرة أن أتوقف عن ازعاجه ، حتى استشرت أتيكوس : « هل تعتقد أنه مصاب بالدودة الشريطية ؟ » قال أتيكوس أن لا ، وإن كل ما في الأمر أن جم كان يكبر وأن علي أن أكون صبورة معه ، وألا أزعجه إلا بأقل قدر ممكن .

هذا التغير في جم حصل خلال أسابيع فحسب . لم تكن السيدة دويوز قد بردت عظامها في القبر بعد ، وكان جم ممتناً جداً لاصطحابي له حين كان يذهب ليقراً لها . وخلال ليلة واحدة ، بدا وكأن جم قد تبنى مجموعة غريبة من القيم وراح يحاول أن يفرضها علي فرضاً : وقد وصل الأمر في مرات عديدة إلى حد أنه كان يأمرني بما عليّ أن أفعله . وبعد مشادة كلامية واحدة صباح جم : « لقد حان الوقت لتصبحي فتاة وتنصرفي على النحو الصحيح . » انفجرت في البكاء والتجأت إلى كالبورنيا .

قالت :

— لانتقي كثيراً فيما يتعلق بتصرفات السيد جم .

— السيد جم ؟

— أجل ، لقد حان الوقت لأدعوه السيد جم الآن .

— ليس كبيراً إلى هذا الحد بعد . كل ما يحتاج إليه هو شخص يؤدبه ، ولست كبيرة بمافيه الكفاية لأفعل ذلك.

— باطفتي ، لأستطيع أن أفعل شيئاً حيال ما يحدث للسيد جم من نمو . انه يحتاج كثيراً إلى أن يكون وحيداً الآن ، وأن يتصرف كالصبيان ، لذا عليك أن تأتي إلى هنا ، إلى المطبخ حين تشعرين بالوحدة . سنجد أشياء كثيرة نفعلها هنا .

كانت بداية ذلك الصيف جيدة : أصبح باستطاعة جم أن يفعل ما يريد ، وكالبورنيا حلت بالنسبة لي محل ديل ، حتى يأتي ديل . وبدأت هي سعيدة برويتي كلما ظهرت في المطبخ ، وبمراقبتها بدأت أفكر بوجود بعض المهارة في كون الشخص امرأة .

ولكن جاء الصيف ولم يكن ديل هناك . استلمت رسالة وصورة منه . قالت الرسالة انه قد أصبح له أب جديد وهو يرفق صورته مع الرسالة ، وانه مضطر إلى البقاء في مدينة مريديان لأنهما قد خططتا لبناء زورق صيد . كان أبوه محامياً كاتيوكوس ، ولكنه أصغر سناً بكثير . كان لأبي

دیل الجدید وجهه وسمم مما جعلني أشعر بالسعادة في أن ديل قد حظي به ، ولكني شعرت بالانسحاق . فقد أنهى ديل رسالته قائلاً انه سيجني إلى الأبد وان علي ألا أقلق ، فهو سيأتي ليأخذني ويتزوجني حالما يحصل على ما يكفي من المال . إذن أرجوك أن تكتبي لي .

كان في حقيقة وجود خطيب دائم لي بعض التعويض عن غيابه : لم أفكر أبداً بغيابه ، ولكن الصيف كان يعني ديل عند بركة السمك يدخل مشكاك السمك ، عينا ديل اللتان تشعان خططاً معقدة لجعل بورادي يخرج من منزله ، كان الصيف هو السرعة التي كان ديل يمد رأسه ليقبلي بينما جم ينظر باتجاه آخر ، والتشوقات التي كان كل منا يشعر أن الآخر كان يشعر بها . معه ، كانت الحياة روتيناً ، وبدونه كانت الحياة أمراً لا يخطر . بقيت بأثمة مدة يومين .

وكأنما لم يكن ذلك كافياً ، فقد انعقد برلمان الولاية في جلسة طارئة وغادرنا أتيكوس لمدة أسبوعين . كان الحاكم توافاً إلى تحريك عجلة الحكومة قليلاً ، فقد كانت هناك اعتصامات في برمينغهام ، والصفوف التي تنتظر الخبز أصبحت أطول ، وأصبح سكان الأرياف أفقر . ولكن تلك كانت أموراً بعيدة من عالم جم وعالمي .

لقد دهشنا في صباح أحد الأيام حين شاهدنا رسماً كاريكاتيرياً في صحيفة « مونتهغمري أدفرتايزر » فوق عنوان يقول : « فينتش مايكوم » وهو يظهر أتيكوس عاري القدمين ويرتدي سروالاً قصيراً ،

ومقيد إلى مكتب : كان يكتب بعناية على لوح حجري بينما راحت بعض الفتيات الأباديات السخف يصحن « بو — هو » باتجاهه .

قال جم شارحاً :

— هذا لإطراء . انه ينفق وقته وهو يقوم بأشياء ماكان يمكن أن
تم لولا أن هناك من يقوم بها .

— هه ؟

زيادة على الخصائص الجديدة التي نمت لدى جم مؤخراً ، فقد
اكتسب أيضاً سيماء من الحكمة من النوع المثير للجنون .

— أوه ياسكاوت ، هذا أشبه بإعادة تنظيم أنظمة الضرائب للمديريات
وما شابه . هذا النوع من الأمور جاف جداً لمعظم الناس .

— وكيف تعرف ذلك ؟

— هيا دعيني وشأني . أنا أطلع الصحيفة .

حصل جم على أمنيته . غادرت المطبخ :

وبينما كانت تقشر البازلاء قالت كالبورنيا فجأة :

— ماذا سأفعل يوم الأحد من أجل حضوركم الصلاة ؟

— لاشيء ، على ماأظن . لقد ترك لنا أتيكوس مانتبرع به .

ضابت عينا كالبورنيا واستطعت أن أعرف مالذي كان يدور

في رأسها . قلت :

— ياكال ، تعرفين أننا سنتصرف كما يليق . لم نفعل أي شيء مسيء في الكنيسة منذ أعوام .

من الواضح أن كالبورنيا قد تذكرت أحد أيام الأحد الماطرة حين كنا دون آب ودون معلمة . فقد قام الصف ، الذي امتلك جريته ، بربط الطفلة « يونيس آن سيمبسون » إلى كرسي ووضعها في غرفة الآتون . ثم نسيناها ، وذهبنا إلى الطابق العلوي إلى الكنيسة ، وكنا نصغي بهدوء إلى الموعظة حين صدرت ضجة داوية من أنابيب مشعات التدفئة ، وظلت الضجة مستمرة حتى ذهب شخص ما ليرى ما في الأمر وأحضر إلينا يونيس آن وهي تقول أنها لن ترغب بلعب « الشدرخ (١) » بعد اليوم . قال جم فينتش أنها ما كانت لتحترق لو كان لديها مايكفي من الايمان ، ولكن الجو كان حاراً هناك على أية حال .

احتججت قائلة :

— وزيادة عليه ياكال ، فان هذه ليست هي المرة الأولى التي يتركنا فيها أتيكوس وحدنا .

— نعم ، ولكنسه يتأكد أولاً من أن معلمتك ستكون هناك : ولم أسمعها يقول ذلك هذه المرة . . . أعتقد أنه نسي .

(١) شدرخ : وفقاً لما ورد في التوراة هو أحد الصالحين الثلاثة الذين رماهم بنوخة نصر في القرن . (المترجم)

حكّت كالبورنيا رأسها . ثم ابتسمت فجأة وقالت :

— مارأيك أن تأتي أنت والسيد جم إلى الكنيسة معي غداً ؟

— حقاً ؟

ابتسمت كالبورنيا وقالت :

— مارأيكما ؟

ان كانت كالبورنيا قد سبق لها وحممتني بحشونة من قبل ، فان ذلك لا يمكن مقارنته مع مراقبتها لحمامي في ليلة السبت تلك . فقد جعلتني أفرك جسمي بالصابون مرتين ، وأن أستعمل ماء جديداً لغسل الصابون عن جسمي كل مرة ، كما حشرت لي رأسي في الحوض وغسلته بصابون الأوكتاجين والصابون القشتالي (١) . كانت قد أصبحت تترك جم يستحم وحده منذ سنوات ولكنها اقتحمت عليه حمامه هذه المرة وجعلته ينفجر غيظاً ويصيح : « ألا يمكن للمرء أن يستحم في هذا البيت دون أن تراه العائلة بأكملها ؟ » .

في صباح اليوم التالي ابتدأت نشاطها في وقت أبكر من المعتاد وذلك كي « تتأكد من ملابسنا » . وحين كانت كالبورنيا تنام في منزلنا ليلاً ، كانت تستعمل سريراً من النوع الذي يطوى في المطبخ . في ذلك الصباح كان السرير مغطى بملابسنا الخاصة بيوم الأحد . كانت

(١) صابون يصنع من زيت الزيتون . (المترجم)

قد استعملت الكثير من النشاء على ثوبي إلى حد أنه انتصب كالخيمة حين جلست وأنا أرثديه . كما جعلتني أرثدي تنورة تخنائية ولفّت نطقاً زهري اللون بشدة حول خصري . ثم لمعت حذائي المصنوع من جلد لماع بقطعة من الكعك البارد حتى رأّت وجهها فيه .

قال جم :

— يبدو الأمر وكأننا ذاهبان إلى « ثلاثاء المرفع (١) » .

يا كال ؟

— لأريد أن يقول أي شخص إنني لأعتني بولديّ جيداً .

جم . لا يمكنك إطلاقاً أن ترتدي ربطة العنق تلك مع تلك البذلة .
إنها خضراء .

— ما الخطأ في ذلك ؟

— البذلة زرقاء ، ألا ترى ذلك ؟

زجرت أنا :

— ها ها ، جم مصاب بعوى الألوان .

احمر وجهه غضباً ، ولكن كالبورنيا قالت :

(١) احتفال يعود إلى القرون الوسطى . ويقع هذا الثلاثاء قبل الصوم السابق على عيد الفصح . ولا زالت كثير من المدن الأوروبية والأمريكية تقيم كرنفالات تستمر أياماً بهذه المناسبة . (المترجم)

— هيا لانريد مزاحاً . عليكما الذهاب إلى « كنيسة الشراء الأول »
والابتسامات على وجهيكما .

تقع كنيسة الشراء الأول الأفريقية الميثودية الأسقفية في « الحلي »
خارج التخوم الجنوبية للبلدة ، عبر طريق منشرة الخشب الترابي . كانت
عبارة عن بناء قديم من ألواح خشب مقشورة الدهان ، الكنيسة الوحيدة
في مايكوم التي لها برج وجرس ، وكانت تسمى « الشراء الأول »
لأنه دفع ثمنها من الرواتب الأولى التي كسبها العبيد المحررون . كان
الزواج يصلون فيها أيام الآحاد ويلعب فيها البيض القمار بقية أيام
الأسبوع .

كان فناء الكنيسة من الطين المشوي وكذلك المقبرة التي إلى القرب
منه . وإذا ما مات شخص ما خلال فترة جفاف وانقطاع للمطر ، كان
الجثمان يغطي بقطع الثلج حتى يهطل المطر فتصبح الأرض طرية .
بضع قبور في المقبرة كان لها شواهد متداعية ، أما الحديثة منها فكانت
مؤطرة بزجاج ملون لامع وزجاجات الكوكاكولا المحطمة . أما
مانعات الصواعق التي كانت تحرس بعض القبور فكانت تشير إلى
الأموات غير المستقرين في نومتهم الأبدية . كما كانت هناك بقايا
شموع محترقة عند رؤوس القبور الحديثة جداً . كانت تلك مقبرة مرحة .

رحبت بنا الرائحة الحلوة المرة الدافئة ، رائحة الزنجبي النظيف حين
دخلنا فناء الكنيسة : كريم الشعر من صنف « قلوب الحب » الممزوج

بالخلتيت والنشوق وكولونيا « هويت » والتبغ المضوغ ، والنعناع
وبودرة الليلك .

وحين رأوا جم ورأوني مع كالبورنيا ، تراجع الرجال نحو الخلف
ورفعوا قبعاتهم ، أما النساء فوضعن أيديهن على خصورهن وهي من
علامات الاحترام التي تمارس في غير يوم الأحد من أيام الأسبوع .
أفسحوا المجال حتى نمرّ نحو باب الكنيسة . مشيت كالبورنيا بين جم
وبيني ، وهي ترد على التحيات الصادرة عن جيرانها المرتدين الملابس
الزاهية الألوان .

قال صوت من خلفنا :

— مالذي ترمين إليه ياآنسة كال ؟

التفتّ يدا كال حول أكتافنا فتوقفنا والتفتنا : كانت هناك امرأة
زنجية طويلة القد تقف في طريقنا . كانت تقف على رجل واحدة وقد
أسندت مرفقها الأيسر إلى منحني ردفها وراحت تشير إلينا بكف
مقلوبة . كان رأسها أشبه بالرصاصة ولها عينان لوزيتان ، وأنف مستقيم
وفم يشبه القوس الهندي . بدت وكأن طولها يبلغ سبعة أقدام .

أحسست بيد كالبورنيا تحفر في كتفي . ثم خاطبت المرأة بلهجة
لم أسمعها من قبل : « مالذي تريدينه يالولا ؟ » كانت تتحدث بهدوء
وباحترار :

— أريد أن أعرف لماذا تحضرين أولاداً بيضاً إلى كنيسة الزنوج .

— هذان ضيفاي .

هذا ماقالته كالبورنيا ولكني شعرت مرة أخرى أن صوتها كان غريباً : كادت تتحدث كبقيتهم الآن .

— حسناً ، وأظن أنك ضيفة في منزل آل فينتش بقية أيام الأسبوع .

سرت همهمة بين الحضور . همست كالبورنيا في أذني : « لا تغتاظي » .

ولكن الزهور التي كانت في قبعتها راحت تهتز من شدة السخط .

حين اقتربت لولا قاطعة الممر باتجاهنا قالت كالبورنيا :

— توقفني عندك يازنجية .

توقفت « لولا » ، ولكنها قالت :

— لا يجب عليك احضار الأولاد البيض إلى هنا . . . ان لهم كنيستهم

ولنا كنيستنا . هذه كنيستنا ، أليس كذلك ياآنسة كال ؟

قالت كالبورنيا :

— ولكنه الرب نفسه ، أليس كذلك ؟

قال جم :

— لنذهب إلى البيت ياكال ، فهم لا يريدوننا هاهنا . . .

وقد وافقته أيضاً : فلم يكونوا يريدوننا في ذلك المكان . أحسست

أكثر مما رأيت أنهم كانوا يطبقون علينا . بدوا وكأنهم يقتربون أكثر فأكثر ، ولكنني حين نظرت إلى كالبورنيا ، رأيت نوعاً من الضحك في عينيها . وحين نظرت إلى الممر من جديد ، كانت « لولا » قد اختفت . في مكانها رأيت جمهرة متماسكة من الناس الملونين .

خطأ أحدهم خارج الجمهرة . كان ذلك هو « زيرو » عامل القمامة الذي قال : « مسرّ جم : يسعدنا كثيراً أن تكونوا بيننا . لاهتموا بلولا ، أنها مشاكسة لأن « الكاهن سايكس » قد هدّد بتطهيرها . أنها من مثيري الاضطراب من زمن بعيد ، ولديها أفكار خيالية وآسالييها متعجرفة . . . يسرنا وجودكم معنا » .

بعد هذا قادتنا كالبورنيا إلى باب الكنيسة حيث حيّانا الكاهن سايكس وقادنا إلى المقعد الأمامي .

« كانت كنيسة الشراء الأول » دون سقف ودون طلاء من الداخل . وعلى امتداد جدرانها كانت هناك قناديل الكبروسين المعلقة على زوايا نحاسية . كانت المقاعد المصنوعة من خشب الصنوبر تستعمل للجلوس أثناء الصلاة . خلف المنبر المصنوع من السنديان كانت هناك لافتة من الحرير الزهري الذي بهت لونه من القدم وقد كتب عليها : « الله محبة » ، وهي الزينة الوحيدة للكنيسة باستثناء صورة فوتوغرافية للوحة « هنت » المسماة : « نور العالم » . لم يكن هناك أثر لبيانو أو أرغن أو كتب التراتيل وبروشورات الكنيسة : وهي الأمتعة الكهنوتية المألوفة التي نراها

كل أحد . كانت الكنيسة كثيفة من الداخل ، ذات برودة رطبة راحت تتلاشى مع قدوم أفراد الرعية وتجمعهم . وعند كل مقعد كانت هناك مروحة رخيصة من الورق المقوى تحمل دعاية لشركة تجارية وتقول : « أنت تسمي الشيء ونحن نبيعه لك » .

أشارت كالبورنيا إلى جم وإليّ لنجلس في آخر الصف وجلست بيننا . بحثت في حقيبتها ، وأخرجت مندليها ثم فكت العقدة القاسية التي تربط بها الفكة (الفراطاة) في زاويته . أعطتني عشرة سنتات كما أعطت جم مثله . فمس لها جم : « معنا سنتاتنا . احتفظي بالتي لك » . ولكنها قالت : « أنتما ضيفاي » . بدا على وجه جم بعض التردد حول مدى أخلاقية عدم دفع قطعة الستات العشرة ، ولكن كياسته الفطرية تغلبت فوضع قطعة الستات العشرة في جيبه . وفعلت كذلك بقطعتي دون وخز ضمير .

همست :

— كال ، أين كتاب التراتيل ؟

— ليس لدينا منها .

— ولكن كيف . . .

أسكتتني . كان الكاهن سايكس يقف وراء المنبر يحلق في الرعية حتى تصمت ، وهو شخص قصير ممتلئ القامة يرتدي بزة سوداء

وربطة عنق سوداء وقميصاً أبيض وساعة ذهبية ذات سلسلة كانت
تلتصق مع انعكاس الضوء عليها من النوافذ ذات الزجاج المصنفر .
قال :

— أيها الأخوة والأخوات ، يسرنا على نحو خاص أن يكون لدينا
ضيوف هذا الصباح . السيد والآنسة فينتش . كلكم تعرفون أباهما .
وقبل أن أبدأ سأقرأ بعض الاعلانات .
قلب الكاهن سايكس بعض الأوراق واختار واحدة ومد ذراعه
بها وقال :

— الجمعية التبشيرية ستجتمع في منزل الأخت « آبت ريفز » يوم
الثلاثاء القادم . أحضرن خياطتكن معكن .
قرأ من ورقة أخرى :

— كلكم تعرفون مشكلة الأخ توم روبنسون . لقد كان عضواً
مخلصاً من أعضاء « الشراء الأول » منذ أن كان صبيّاً . ان التبرعات
التي ستجمع اليوم وفي أيام الآحاد الثلاثة القادمة ستعطى إلى « هيلين »
زوجته لمساعدتها في تدبير شؤونها العائلية .
نخست جم هامسة :

— هذا هو المتهم الذي يدافع عنه أتيكوس . . .
— صه .

التفتت نحو كالبورنيا ولكنها أخرستني قبل أن أفتح فمي . وبعد أن خضعت ثبتت انتباهي على الأب سايكس الذي بدا وكأنه ينتظرني حتى أهدأ ثم قال :

— هل يسمح المشرف الموسيقي فيقودنا في أول ترتيلة ؟
نهض زيبو من مقعده وسار على امتداد الممشى الأوسط حتى توقف أمامنا وواجه الرعية . كان يحمل كتاب تراتيل مهترئاً . فتحه ثم قال : « سنغني الترتيلة التي رقمها مئتان وثلاث وسبعون » .

كان هذا أكثر مما أستطيع احتماله . قلت :

— كيف سنغني دون كتب تراتيل ؟

ابتسمت كالبورنيا :

— صمماً يا طفلي . سترين خلال دقيقة .

تنحنح زيبو وقرأ بصوت أشبه بقعقة المدافع البعيدة :

— « هناك أرض إلى ما وراء النهر » .

وبصوت متناغم على نحو اعجازي ، انطلقت مئة حنجرة تكرر ما قاله زيبو . أما المقطع الأخير الذي انتهى بهمة ذات بحة ، فقد تبعها صوت زيبو يقول :

« التي ندعوها الجميلة إلى الأبد » .

ومن جديسد علت الموسيقى حولنا : وكانت النغمة الأخيرة
تغنى بتمهل حتى يلاقيها زييو بالبيت التالي :

« ولن نصل إلى ذلك الشاطئ إلا بقوة الايمان » .

ترددت الرعية ، فقد كرر زييو البيت باهتمام ، وتم غناؤه .
وعند انتهاء اللازمة أغلق زييو الكتاب ، وهي اشارة إلى الرعية كي
تتابع دون مساعدته .

ومع النغمات المحتضرة لـ « التهليلة (١) » قال زييو :
« في ذلك البعيد العذب إلى الأبد .

خلف النهر اللامع مباشرة . »

وبيتاً بيتاً تبعته الأصوات ضمن تناغم بسيط حتى انتهت الترتيلة
في همهمة حزينة .

نظرت إلى جم ، الذي كان ينظر إلى زييو شزراً . لم أكن أنا
أصدق ذلك أيضاً ، ولكننا سمعنا ماسمعناه معاً .

ثم دعا الكاهن سايكس إلى الرب طالباً منه أن يبارك المرضى
والمساكين ، وهو اجراء لا يختلف عما يحدث في كنيستنا سوى أن الكاهن
سايكس لفت انتباه الرب إلى عدة حالات خاصة .

(١) أغنية ونجبة شعبية تشتمل على اشارات إلى أيام سعيدة قادمة (Jubilee) .
(المترجم)

كانت موعظته شجياً صريحاً للخطيئة ، ودعماً صارماً للشعار الذي كان على الجدار خلفه : وقد حذر رعيته من شرور المشروبات المسكرة والقمار والنساء الغريبات . كان صانعو وبائعو المشروبات الكحولية المصنعة محلياً يسببون الكثير من المشاكل في « الحلي » ، ولكن النساء كن أسوأ . ومن جديد ، وكما كان يحدث غالباً في كنيستنا فقد جويت بمبدأ « لاطهارة النساء » والذي بدا أنه يشغل بال كل القساوسة .

كنا جم وأنا قد استمعنا كل أحد إلى هذه الموعظة نفسها التي نسمعها الآن باستثناء اختلاف واحد : فقد كان الأب سايكس يستعمل منبره على نحو أشد حرية للتعبير عن آرائه في السقطات الفردية : فهاهو « جيم هاردي » قد تخلف عن الكنيسة منذ خمسة آحاد وهو ليس مريضاً . أما « كونستانس جاكسون » فالأفضل لها أن تنبّه إلى تصرفاتها فهناك احتمال كبير في أن تتشاجر مع جيرانها ، فقد نصبت حاجز البغضاء الوحيد في تاريخ « الحلي » .

أنهى الكاهن سايكس موعظته . وقف إلى القرب من منضدة أمام المنبر وطلب أن تتم تبرعات الصباح ، وهو اجراء كان غريباً على جم وعليّ . وتقدمت الرعية ، الواحد أثر الآخر ، وراحوا يرمون بقطع الخمسة سنتات والعشرة سنتات في وعاء للقهوة أسود مطلي بالبيضا . وتبعناهم جم وأنا وتلقينا كلمة « شكراً ، شكراً » خافتة حين صلصلت قطعائنا ذات العشرة سنتات .

وبالحيرتنا ، فقد أفرغ الكاهن سايكس الوعاء على الطاولة وقلّب النقود في يده . ثم رفع قامته وقال : « هذا لا يكفي . يجب أن نجمع عشرة دولارات . »

تحركت الرعية . « كلكم تعرفون لمن هذه التبرعات : لا يمكن هيلين أن تترك أطفالها وتذهب إلى العمل وتوم في السجن . وإذا تبرع كل منكم بعشرة سنتات أخرى فسنحصل على العشرة دولارات » ، ثم حرك الكاهن سايكس يده ونادى شخصاً في مؤخرة الكنيسة : « يا أليك » ، أغلق الأبواب . لن يغادر أحد هذا المكان حتى نحصل على عشرة دولارات . »

بحث كالبورنيا في حقيبة يدها وأخرجت حافظة نقود جلدية مهترئة . همس جم : « كلا يا كال » وذلك حين ناولته ربع دولار لامع ، واستأذف : « يمكننا أن نتبرع بنقودنا . أعطني عشرة سنتاتك باسمكاوت . »

كانت الكنيسة قد بدأت تصبح فاسدة الهواء وخطر لي أن الكاهن سايكس قد صمم على جعل رعيته تدفع المبلغ المستحق من عرقها . طقطقت المراوح وبدأت الأقدام تتراقص من التعب وأصبح ماضغو التبغ في حالة معاناة .

أذهلني الكاهن سايكس بقوله :

— يا كارلو ريتشاردسون ، لم أرك عند المذبح هنا بعد .

تقدم رجل نحيل يرتدي بنطالاً خاكي اللون نحو المذبح ووضع
قطعة نقود . وهممت الرعية استحقاقاً .

ثم قال الكاهن سايكس :

— أريد كل من ليس لديه أطفال أن يضحى ويقدم قطعة من
عشرة سنتات أخرى ، وعندها سنكون قد جمعنا المبلغ المطلوب .

ببطء وألم تمّ جمع الدولارات العشرة . فتح الباب ، وقد أعاد
لنا الحياة تيار الهواء الدافئ الذي دخل عبره . أنشد زيبو « على ضفاف
الأردن العاصفة » وانتهت طقوس الكنيسة .

أردت البقاء والاستكشاف ، ولكن كالبورنيا دفعتني أمامها عبر
المذبح . وعند باب الكنيسة وبينما توقفت لتتحدث مع زيبو وعائلته ،
تحدثنا جم وأنا مع الكاهن سايكس . كنت أتفجّر أسئلة ، ولكني
قررت أن أنتظر حتى تجيبني كالبورنيا عنها .

قال الكاهن سايكس :

— يسعدنا أن تكونا معنا . هذه الكنيسة لا تملك صديقاً أفضل
من أليكما .

وهنا تفجر فضولي فسألت :

— لماذا كنتم جميعاً تبرعون لصالح زوجة توم روبنسون ؟

— ألم تسمعي بالسبب ؟ ان لدى هيلين ثلاثة أطفال صغار ولا يمكنها الذهاب للعمل . . .

— لم لاتأخذهم معها يا حاضرة الكاهن ؟

هكذا سألته ، فقد كان من عادة عمال الحقول الزوج الذين لهم أطفال صغار أن يضعوا الأطفال في أي مكان ظليل بينما يعمل الآباء والأمهات : وعادة ماكان الأطفال الصغار يجلسون في الظل بين صفيين من شجيرات القطن . أما أولئك غير القادرين على الجلوس فكانوا يشدون إلى ظهور أمهاتهم بقمط كعادة الهنود الحمر أو يوضعون ضمن أكياس القطن الزائدة .

تردد الكاهن سايكس ثم قال :

— إذا كنت تريدين الحقيقة ياآنسة جان لويز ، فهي أن هيلين تلامي صعبة في إيجاد عمل لها هذه الأيام . . . وحين يزف موعد القطاف فأعتقد أن السيد « لينك ديس » سيسمح لها بالعمل عنده .

— ولم لا يا حاضرة الكاهن ؟

وقبل أن يستطيع الاجابة أحسست بيد كالبورنيا على كتفي . ومن جراء اضطعها قلت :

— نشكرك للسماح لنا بالدخول للصلاة .

وكرر جم ماقالته ثم اتجهنا نحو البيت .

سألت :

— كال ، أعرف أن نوم روبنسون في السجن ، وأنه فعل شيئاً رهيباً ، ولكن لم لايقبل الناس استخدام هيلين ؟

كانت كالبورنيا في ثوبها الأزرق الداكن الرقيق النسيج وقبعتها الكبيرة الأشبه بحوض الاستحمام ، تمشي بزن جم وبني . قالت :

— بسبب مايقال ان نوم قد فعله . ان الناس لايرغبون في التعامل مع أي فرد من أفراد عائلته .

— ولكن ماذا فعل بالضبط ياكال ؟

تنهدت كالبورنيا :

— لقد اتهمه السيد بوب يوويل الأب بأنه اغتصب ابنته وبالتالي فقد قبض عليه وسجن .

— السيد يوويل ؟

هنا بدأت ذاكرتي بالتحرك .

— هل له علاقة بأولئك الأولاد من عائلة يوويل الذين يأتون إلى المدرسة في أول يوم ثم يذهبون إلى البيت ؟ عجباً ، لقد قال أتيكوس انهم مجرد حثالة . . . وأنا لم أسمع أتيكوس يتحدث عن أي أناس بالطريقة التي تحدث بها عن عائلة يوويل . لقد قال . . .
— حسناً ، هم هؤلاء أنفسهم .

— إذن ، مادام كل شخص في مايكوم يعرف من هم هؤلاء اليوويل ، فسيسرّه أن يستخدم هيلين . . . ماهو الاغتصاب ياكال ؟ .
— انه شيء عليك أن تسأل السيد فينتش عنه . وهو يستطيع شرحه أفضل مني . هل أنتما جائعان ؟ . لقد أطال الكاهن موعظته هذا الصباح ، انه لا يكون متعباً إلى هذا الحد في العادة .
قال جم :

— انه يشبه واعظنا تماماً ، ولكن لم تنشدون التراتيل بهذه الطريقة ؟
— هل تعني « الترداد » ؟
— وهل هذا ما تسمى به هذه الطريقة ؟
— أجل انها تسمى « الترداد » ، وانهم ينشدون بهذه الطريقة منذ زمن بعيد ، منذ ذلك الوقت الذي أستطيع تذكره .
قال جم ان الرعية تستطيع أن تجمع تبرعات عام بكامله لتشتري بعض كتب التراتيل .

ضحكت كالبورنيا :

— لاينفع ، فهم لا يستطيعون القراءة .

سألت :

— لا يستطيعون القراءة ؟ كل أولئك الناس ؟

— أجل . لا يستطيع القراءة سوى أربعة أشخاص من رعية كنيسة
« الشراء الأول » . . . وأنا واحدة منهم .

سأل جم :

— في أي مدرسة كنت ياكال ؟

— لم أذهب إلى أية مدرسة . والآن لمر من علمني ياتري أول
الحروف ؟ إنها خالة الآتسة مودي أتكينسون ، الآتسة بوفورد العجوز ...

— هل أنت عجوز إلى هذا الحد ؟

— أنا أكبر منك من السيد فيتش حتى .

وهنا ضحكت كالبورنيا ثم قالت :

— لأعرف كم هو سني على أية حال . لقد حاولنا مرة ، السيد
فيتش وأنا أن نعود بذاكرتنا لتحديد كم هو عمري بالضبط ، وقد
لاحظنا أنني أستطيع أن أتذكر بضع سنوات فقط أكثر مما يستطيع هو ،
ولذا فأنا لست أكبر منه بكثير ، خاصة وأن الرجال لا يستطيعون على
أية حال أن يتذكروا جيداً كما تتذكر النساء .

— ومتى كان يوم ميلادك ؟

— اني احتفل به يوم عيد ميلاد المسيح ، فمن الأسهل تذكره
بهذه الطريقة . . . على كل حال لأعرف متى كان ميلادي بالضبط .

احتج جم :

— ولكنك لاتبدن ياكال في سن قرية حتى من سن أتيكوس .

— الناس الملونون لاتبدو عليهم السن بسرعة .

— ربما لأنهم لا يستطيعون القراءة . هل أنت من علم زيرو القراءة ؟

— نعم يامستر جم . لم تكن هناك مدرسة حتى حين كان هو صبياً . ولقد جعلته يتعلم على أية حال .

كان زيرو هو أكبر أبناء كالبورنيا . ولو أني كنت قد فكرت في ذلك لعرفت أن كالبورنيا كانت متقدمة في السن ، حيث كان لزيرو أولاداً تجاوزوا مرحلة الطفولة . . . ولكني لم أفكر في الأمر في حينه .

سألتها :

— هل علمته من كتاب صف الأول كما علمتنا ؟

— لا ، جعلته يحفظ صفحة من الكتاب المقدس كل يوم ، وكان هناك كتاب علمني منه الآتسة بوفورد . . . وأراهن على أنكما لاتعرفان من أين حصلت عليه .

لم نكن نعرف .

قالت كالبورنيا :

— لقد أعطاني إياه جدكما لأبيكما .

قال جم :

— وهل كنت في اللاندينغ أنت أيضاً ؟ لم يسبق لك أن ذكرت ذلك أمامنا .

— طبعاً ياسيد جم . لقد تربيت هناك بين منزل آل بوفورد واللاندينغ . كما قضيت كل أيامي أعمل في خدمة آل فينتش أو آل بوفورد ، ولقد انتقلت إلى مايكوم حين تزوج أبوكما وأمكما .

سألها :

— ماذا كان عنوان الكتاب يا كال ؟

— انه « تعليقات » لبلاكستون .

صعق جم :

— هل تعنين أنك علمت زيرو من ذاك الكتاب ؟

— نعم ياسيدي ياسيد جم .

وهنا وضعت كالبورنيا أصابعها على فمها في حركة خجلة وقالت :

— كانا الكتابين الوحيدين اللذين كنت أملكهما . كان جدك يقول ان السيد بلاكستون يكتب بلغة انكليزية جيدة

قال جم :

— لهذا إذن لا تتكلمين كبقيتهم .

— بقية من ؟

— بقية الناس الملونين ياكال ، ولكنك تكلمت مثلهم في الكنيسة...
لم يكن قد خطر لي أبداً أن تكون كالبورنيا تمارس حياة مزدوجة
هكذا بكل بساطة . وفكرة أن لها وجوداً منفصلاً خارجاً عن منزلكما
كانت فكرة جديدة ، هذا إذا لم نذكر شيئاً عن تضلعها بلغتين .

سألتها :

— ياكال ، لماذا تتحدثين بلغة الزنوج مع أمثالك حين تعلمين
أنها غير صحيحة ؟
— أنا أولاً "سوداء" . . .

قال جم :

— هذا لا يعني أن عليك أن تتكلمي بذلك الأسلوب حين تعرفين
الأسلوب الصحيح .
أمالت كالبورنيا قبعتها وحكت رأسها ، ثم ضغطت قبعتها حتى
غطت أذنيها وقالت :

— من الصعب الجواب . ولكن افترض أنك وسكاوت رحتما
تتكلمان لغة الملونين في البيت هنا : ألن يكون ذلك غير مناسب ؟
والآن ماذا إذا تحدثت أنا بلغة البيض في كنيتي ؟ ومع جيراني ؟
سيظنون أنني أتصنع إلى أقصى حد .

قلت :

— ولكنك تعرفين اللغة الصحيحة يا كال .

— ليس من الضروري أن يكشف المرء كل مايعرفه . ليس ذلك مما يليق بالسيدات المحترمات . وثانياً : لايجب الناس أن يكون إلى القرب منهم شخصاً يعرف أكثر مما يعرفون . ان ذلك ليغضبهم . ولن تستطيعوا أن تغيروا الناس بالتحدث بلغة صحيحة ، ان عليهم أن يتعلموها هم أنفسهم وحين لا يريدون التعلم فلا شيء يمكنك فعله إلا الصمت أو التحدث بلغتهم .

— كال ، هل يمكن أن آتي لأراك أحياناً ؟

نظرت إلي وقالت :

— ترينني يا حبيبتي ؟ أنت ترينني كل يوم .

قلت :

— أعني أزورك في بيتك . ربما بعد ساعات العمل ؟ يمكن لأتيكوس أن يذهب ليحضرنني .

— يمكن ذلك متى رغبت . سيسرنا حضورك .

كننا على الرصيف بالقرب من منزل آل رادلي .

قال جم :

— انظري إلى الرواق هناك

نظرت إلى منزل آل رادلي ، وأنا أتوقع رؤية ساكنه الشبحي يأخذ حمام شمس في الأرجوحة . كانت الأرجوحة فارغة .

قال جم :

— أعني رواقنا نحن .

نظرت عبر الشارع . وهناك رأيت العمة ألكسندرا : مفتونة ، مستقيمة وعنيدة كعادتها ، جالسة في الكرسي الهزاز وكأنها كانت تجلس هناك كل يوم من أيام حياتها .

* * *

الفصل الثالث عشر

كان أول شيء قالتها العمة ألكسندرا هو : « ضعي حقيبي في غرفة النوم الأمامية يا كالبورنيا » وكان ثاني شيء قالتها : « يا جان لويز . توقفي عن حك رأسك » .

حملت كالبورنيا حقيبتها العمة الثقيلة وفتحت الباب . قال لها جم : « أنا آخذها » وأخذها منها . سمعت الحقيبة وهي تضرب أرض الغرفة بقوة . كان للصوت ديمومة كثيفة .

سألتها :

— هل جئت في زيارة ؟

كانت زيارات العمة نادرة ، كما كانت تسافر في ترف وتمتلك سيارة بويك فخمة خضراء وسائماً أسود اللون ، وكلاهما محفوظان في حالة من النظافة غير صحيحة ، ولكنني لم أراهما يوماً .

سألني :

— « ألم يقل لكما أبوكما ؟

هزنا جم وأنا رأسينا .

— ربما نسي ذلك . هو لم يرجع بعد ، أليس كذلك ؟

قال جم :

— لا ، انه لا يرجع عادة إلا في أواخر فترة العصر .

— حسناً ، لقد قرنا ، أبوكما وأنا ، أنه قد حان الوقت لتقديمي

للبقاء معكما فترة من الزمن .

وكان عبارة « فترة من الزمن » في مايكوم تعني أية فترة من ثلاثة

أيام وحتى ثلاثين سنة . تبادلنا النظرات جم وأنا .

قالت موجهة كلامها إليّ :

— جم يكبر الآن وأنت أيضاً . وقد قرنا أنه من الأفضل لكما

أن يكون في حياتكما لمسة أثوية ما . ولن تمرّ سنوات كثيرة يا جان

لويز ، إلا وتصبحين مهتمة بالملابس والشبان

كان يمكنني أن أجيب بعدة أجوبة على هذا : فكالبورنيا أنى

مثلاً ، وستمّر سنوات كثيرة قبل أن أبدأ بالاهتمام بالشبان ، ولن

أهتم أبداً بالملابس ولكني بقيت صامتة .

سأل جم :

— وماذا عن العم جيمي ؟ هل سيأتي هو أيضاً ؟

— لا ، سيبقى في اللاندينغ . لابدّ من ادارة المكان .

ولحظة أن قلت لها « ألن تفتقديه ؟ » أدركت أن ذلك لم يكن سؤالاً لبقاً . فقد كان وجود العم جيمي أو غيابه سواء ، فهو لا ينطق أبداً . وتجاهلت العمة ألكسندرا سؤالني .

لم أستطع التفكير في أي شيء آخر أقوله لها . وفي الحقيقة لم أستطع أبداً أن أفكر في قول أي شيء لها ، وجلست أفكر في الحوارات المؤلمة الماضية التي جرت بيننا : كيف حالك يا جان لويز ؟ في أحسن حال ، شكراً ياسيدي ، وكيف حالك أنت ؟ في أحسن حال ، شكراً ، مالمالذي تفعلينه ؟ لاشيء . لاتفعلين شيئاً ؟ لا ، لابد أن لك أصدقاء ؟ نعم ياسيدي . إذن مالمالذي تفعلينه مع أصدقائك ؟ لاشيء .

كان واضحاً أن عمّي تعتقدي غيبة إلى أبعد حد ، لأنني سمعتها تقول مرة لأتيكوس اني بليدة .

كان هناك حكاية وراء ذلك كله ، ولكنني لم أرغب في انتزاعها منها في ذلك الحين : اليوم هو الأحد وكانت العمة ألكسندرا سريعة الغضب على نحو إيجابي في يوم الرب . وأعتقد أن السبب هو المشدّ (الكورسيه) الذي ترتديه يوم الأحد . لم تكن يدينة وانما ممتلئة ، وكانت تختار ألبسة وقائية تجعل صدرها ينشدّ إلى ارتفاعات تثير الدوار ، وتضيّق من خصرها وتوسّع من مؤخرتها ، وتنجح في أن توحى

بأنه كان للعبة ألكسندرا مرة جسم أشبه بالساعة الرملية . من أية زاوية كان جسمها هائلاً .

مرت بقية فترة ما قبل المساء ضمن تلك الكآبة اللطيفة التي تهبط حين يظهر الأقرباء ، ولكن هذه الكآبة تلاشت حين سمعنا سيارة قادمة . كان ذلك هو أتيكوس الذي عاد من مونتغمري . وهاهو جم ، ناسياً وقاره ، يركض معي للقائه . أمسك جم بحقيبة يده وحقيبة ملابسه ، وقفزت أنا إلى ذراعيه ، وأحسست بقبضته الجافة الغامضة وقلت : « هل جلبت لي كتاباً ؟ هل تعلم أن عمنا هنا ؟ » .

أجاب أتيكوس على كلا السؤالين بنعم . ثم قال : « مارأيك لو تأتي عمتك لتعيش معنا ؟ »

قلت اني أرغب في ذلك كثيراً ، وكانت تلك كذبة ، ولكن على المرء أن يكذب ضمن ظروف معينة وفي كل الأوقات ، وذلك حين لا يكون للمرء حيلة تجاهها .

قال أتيكوس :

— لقد شعرنا أن الوقت قد حان وأصبحتما في حاجة إليها الطفلان إلى . . . حسناً الأمر هكذا ياسكاوت : ان عمتك تقدم لي معروفاً وكلكم كذلك . لأستطيع البقاء طوال النهار معكم ، وسيكون هذا الصيف صيفاً حاراً .

قلت له : « نعم ياسيدي » دون أن أفقه كلمة مما قاله . كانت تسيطر علي فكرة أن ظهور العمة ألكسندرا ودخولها المشهد لم يكن من فعل أتيكوس بل من فعلها هي . كان لعمتنا أسلوب تصرح به عما « هو أفضل ما يكون للعائلة » وأعتقد أن قدومها للعيش معنا بدخل ضمن هذا المعيار .

رحبت بها مايكوم . قامت الأتسة مودي أنكينسون بنخب كعكة أنخمتي ، كما قامت الأتسة ستيفاني كروفورد بزيارات طويلة للعمة ألكسندرا ، وهي زيارات كانت تقتصر بمجملها على هز الأتسة ستيفاني لرأسها وقولها : « هاهه ، هاهه » . كما دعت الأتسة راشيل ، التي تعيش في المنزل المجاور مباشرة ، عمتي إلى القهوة في العصريات ، حتى السيد ناثن رادلي وصل به الأمر إلى حد الاقتراب من الفناء الأمامي لمنزلنا وأن يقول إنه سعيد برؤيتها ..

وحين استقرت في منزلنا وعادت الحياة إلى مجاريها ، بدت العمة ألكسندرا وكأنها كانت تعيش معنا دائماً في المنزل ، كان للمأكولات الخفيفة التي راحت تقدمها في حفلات الجمعية التبشيرية أثرٌ في اكتسابها المزيد من الشهرة كمضيقة . (لم تكن تسمح لكالبورنيا بصنع الماكل اللذيذة المطلوبة لتغذية أفراد الجمعية خلال استماعهم إلى تقارير طويلة عن المسيحيين من أكلة الرز) . كما أنها انضمت إلى نادي مايكوم للكتاب وأصبحت سكرتيرة له . وبالنسبة لكل الأطراف الحاضرة والمساهمة في حياة « المقاطعة » ، كانت العمة ألكسندرا واحدة ممن

يعلن آخر من تبقى من سلالتهم : فقد كان لديها زورق شهري وسلوك السيدات الرقيات . هات أي نقاش حول الدين والأخلاق وستجدها تدافع عنهما . لقد ولدت في حالة « المفعول » ، كما كانت من مروجي الاشاعات ومن النوع الذي لا يشفى من هذه العلة . وحين كانت العمة ألكسندرا تذهب إلى المدرسة ، كان الشك بالنفس أمراً لا يجده المرء في الكتب المدرسية ، ولذا لم تعرف معناه . لم تعرف في حياتها الملل ، وإذا مامُنحت أقل فرصة فإنها مستعدة لممارسة حقوقها الملكية : مستعدة للتدبير والنصيحة والتحذير والوعيد .

لم تكن ترك فرصة واحدة تفوتها دون أن تشير إلى عيوب المجموعات القبلية الأخرى بالمقارنة مع مجيئنا الأعظم ، وهي عادة بعث التسلية في نفس جم أكثر مما أغاظته : « الأفضل لعمي أن تراقب الطريقة التي تتحدث بها : فان معظم سكان مايكوم أقرباء لنا على أية حال » .

قالت عمي حين أرادت التوكيد على المغزى الأخلاقي لانتحار الشاب « سام مريوذر » ، ان انتحاره يعود إلى النزعة السوداوية للعائلة . وإذا ماضحت فتاة في السادسة عشرة خلال تلاوة الأناشيد في الكنيسة كانت عمي تقول : « هذا يظهر لكم أن كل نساء عائلة بنفيد طائشات » . لقد بدا وكأن الجميع في مايكوم يعانون من لؤثة ما : لؤثة سكر أو لؤثة قمار أو لؤثة بخل أو لؤثة تثير الضحك .

ومرة حين أكدت لنا عمشنا أن ميل الآنسة ستيفاني كروفورد

للتدخل في شؤون الآخرين كان وراثياً ، قال أتيكوس : « ياأختي ، حين تتوقفين عن التفكير في ذلك ، فان جيلنا هو عملياً أول جيل من آل فينتش لايتزوج من أولاد وبنات الأعمام . هل ستقولين ان لآل فينتش لوثة غشيان المحارم ؟ »

أجابت عمنا بلا ، وقالت ان ذلك هو السبب في أن لنا أيادي وأقداماً صغيرة الحجم .

لم أفهم أبداً سبب انشغالها بالوراثة . ومن مكان ما تلقيت انطباعاً بأن « الناس الأكابر » يتمتعون بحصافة الرأي . ولكن كان للعممة ألكسندرا رأي ، عبرت عنه على نحو غير مباشر ، يفيد بأنه كلما بقيت العائلة في بقعة واحدة من الأرض ، كانت أسمى وأرفع منزلة .

قال جم : « هذا يجعل آل يوويل من الأكابر أيضاً » . فقد كانت هذه القبيلة التي يشكل بورييس يوويل واخوته جزءاً منها ، تعيش في المكان نفسه خلف مقلب قمامة مايكوم ، وتكسب من احوال الضمان الاجتماعي للمديرية منذ ثلاثة أجيال .

كان لنظرية العممة ألكسندرا قيمة ما على كل حال . فممايكوم كانت بلدة عتيقة . وكانت تبعد عن فينتشزلاندينغ مسافة عشرين ميلاً إلى الشرق ، وهي تعتبر بلدة داخلية (غير ساحلية) وهذا محرج بالنسبة لبلدة عتيقة مثلها . كان من المفروض أن تكون مايكوم أقرب إلى النهر لولا ذكاء وبراعة شخص من آل سينكفيلد افتتح نزلاً في فجر التاريخ حيث يلتقي طريقان ، وكان ذلك هو النزول الوحيد في المنطقة . وقام سينكفيلد هذا — وهو غير وطني — بتوريد الذخيرة

إلى الهنود والمستوطنين في آن معاً ، دون أن يعرف أو يكثرث بأن يعرف ان كان يعيش في جزء من « مقاطعة ألاباما » أو مقاطعة قبائل « كريك » الهندية طالما كانت تجارته رائجة . وكانت التجارة ممتازة جداً حين أوفد الحاكم « ويليام وايات بيب » ، الذي كان يهدف إلى توطيد الأمن المحلي في المقاطعة المنشأة حديثاً ، أوفد اثنين من المسّاحين ليجدوا أين يقع وبدقة مركز الدائرة من المقاطعة ويؤسسها هناك مركزها الحكومي . وقد قام المسّاحان ، اللذان حلاّ ضيفين على سينكفيلد ، بإعلامه بأنه موجود ضمن الحدود الإقليمية لمقاطعة مايكوم ، وبينّاه البقعة المحتملة التي سيتم تأسيس المركز الحكومي فيها . ولو لم يقيم سينكفيلد بمنورة جريئة للمحافظة على ممتلكاته لكانت بلدة مايكوم قد أقيمت في وسط مستنقع ونستون ، وهو مكان خال تماماً من أي تشويق . وبدلاً من ذلك ، فقد نمت مايكوم وانتشرت من محورها الذي كان « نزل سينكفيلد » ، لأن سينكفيلد استطاع ذات مساء أن يجعل المسّاحين يثملان إلى درجة قصر النظر ، وبالتالي دفعهما إلى احضار خرائطهما ورسومهما ، وبعد قفزة هنا وإضافة هناك ، استطاع تعديل موقع مركز المقاطعة بحيث يوافق رغباته . وقد أعادهما في اليوم التالي مسلحين برسومهما وبخمسة كوارتات (*) من الريسكي في أحداثة سرجيهما : كوارتان لكل منهما وواحد للحاكم .

(*) الكوارت يساوي ربع غالون . (المترجم)

ولأن السبب الأساسي في وجودها كان الحكومة ، فإن مايكوم قد أنقذت من القنطرة والفوضى التي كانت تميز معظم بلدات ولاية ألاباما المشابهة لها في الحجم . في البداية كانت أبنيتها متينة ، وكانت دار المحكمة فخمة ضخمة ، وشوارعها عريضة تدل على حسن الذوق . وكانت نسبة عدد المهنيين إلى سكانها عالية : فقد كان المرء يجد فيها طبيب أسنان وورشة اصلاح للعربات ، وطبيباً ومصرفاً وكنيسة واصطبلًا . ولكن الحكمة المطلقة الكامنة وراء مناورة سينكفيلد أمر مفتوح للنقاش . فقد وضع البلدة الشابة بعيدة جداً عن النوع الرحيد من وسائل النقل العام المتوفر في تلك الأيام ، ألا وهو التنقل بالزوارق النهرية : وكان على المرء الآتي من الطرف الشمالي من المدينة أن يمضي يومين من السفر حتى يصل إلى مايكوم ويشترى البضائع من المخازن . ونتيجة لذلك ظل حجم البلدة ثابتاً لمدة مئة عام ، جزيرة في بحر مرقع من حقول القطن والغابات .

ورغم أن مايكوم أغفلت خلال « الحرب بين الولايات » (الحرب الأهلية الأمريكية) إلا أن قانون « اعادة البناء (١) » والخراب الاقتصه دي أجبر البلدة على النمو . وقد نمت باتجاه الداخل . نادرأما كان أشخاص جدد يستقرون فيها ، فقد كانت العائلات تتزوج من العائلات نفسها

(١) Reconstruction : برنامج اصلاحي بدأ به الرئيس الأمريكي لينكولن خلال الحرب الأهلية .

حتى لقد أصبح سكان البلدة يبدون متشابهين إلى حد ما . أحياناً ، كان أحدهم يعود من بلدة مونتغمري أو موبيل مع زوجة غريبة ، ولكن ذلك ما كان يسبب سرى موجة صغيرة ضمن التيار الهاديء للتشابه العائلي . لقد بقيت الأمور كما هي تقريباً خلال سنوات طفولي .

كان نظام الطوائف الاجتماعية موجوداً بالفعل في مايكوم : فالسكان الأكبر سنّاً ، أي الجيل الحالي من الناس الذين عاشوا جنباً إلى جنب لسنوات وسنوات ، كانت تصرفات كل منهم من النوع الذي يمكن التنبؤ به من قبل الآخرين : إذ كانوا يسلّمون بمواقف وفروق شخصية وحتى بايماءات ما على أنها تتكرر في كل جيل وتنصقل مع مرور الزمن . وهكذا فإن الأقوال المأثورة من نوع : « ليس هناك فرد من آل كروفورد غير فضولي » و « يز كل ثلاثة من آل مريوتر واحد سوداوي المزاج » و « الحقيقة ليست في آل ديلافيلد » و « كل آل بوفورد يمشون هكذا » ، كل هذه الأقوال المأثورة كانت بكل بساطة دليلاً للحياة اليومية ، لاتأخذ شيئاً من واحد من آل ديلافيلد دون أن تتصل بالمصرف على نحو سري ، ان كتف الآتسة مودي أتكينسون يميل إلى الانحناء لأنها كانت من آل بوفورد بالأصل ، وإذا ما كانت السيدة غريس مريوذر ترتشف « الجن » من زجاجات دواء خاص بوجع المفاصل فذلك ليس بالأمر غير العادي : فقد كانت أمها تفعل الشيء نفسه .

تلاءمت العمة ألكسندرا مع عالم مايكوم كما الكفّ مع القفاز ،
ولكن ليس مع عالمنا جم وأنا . وغالباً ماكنت أتساءل كيف يمكن لها
أن تكون أختاً لأتيكوس والعم جالك وإلى حد أنني استعدت حكايات
نصفت منسية كان جم قد لفقها منذ زمن طويل عن الأطفال الذين
يستبدلون بغيرهم عند الولادة وعن نبات البيروح السحري .

تلك كانت تأملات مجردة في الشهر الأول من إقامتها معنا ، حيث
كان لديها القيل لثقله لجم أو لي ، وحيث كنا نراها عند الوجبات
وفي الليل قبل الذهاب إلى الفراش . كان الوقت صيفاً وكنا نقضي
الوقت خارج المنزل . طبعاً كنت أحياناً وفي فترة بعد الظهر أركض
إلى البيت لأطفئ ظمئي ، فأجد غرفة الجلوس وقد غزتها سيدات مايكوم
المرشغات الهامسات المروّحات بالمرأوح ، وكانت عمّي تناديني
قائلة : « يا جان لويز ، تعالي وتحدّني إلى هؤلاء السيدات » .

حين كنت أظهر عند المنخل ، تلبّو عمّي وكأنها ندمت على
طلبها ، فعادة ماأكون ملطخة بالوحل أو معفرة بالتراب .

قالت لي عصر ذات يوم بعد أن أمسكت بي في القاعة :

— تعالي تحدّني إلى ابنة عمك « ليلي » .

— مـ . ؟

— ابنة عمك « ليلي بروك » .

— أهي ابنة عمنا ؟ لم أكن أعرف ذلك .

ابتسمت العمة ألكسندرا بطريقة نقلت إلى ابنة العم ليلى نوعاً من الاعتذار اللطيف ونوعاً من الاستنكار الشديد لي . وحين غادرت ابنة العم ليلى بروك البيت عرفت أنني تورطت في المتاعب .

من المحزون أن يكون أبي قد نسي أن يحدثني عن عائلة فينتش مافيه الكفاية ، أو أن يغرس أي اعتزاز في نفوس أولاده . قامت العمة باستدعاء جم الذي كان يجلس باحتراس على الكنبه إلى جانبي . غادرت هي الغرفة ثم عادت تحمل كتاباً ذا غلاف أرجواني وقد طبع عليه بأحرف ذهبية « تأملات جوشوا س . سانت كلير » .

قالت العمة ألكسندرا :

— لقد كتب ابن عمكما هذا الكتاب . لقد كان ذا شخصية جميلة .

تفحص جم الكتاب الصغير الحجم وقال :

— هل هذا هو ابن العم « جوشوا » الذي سجن فترة طويلة ؟

— وكيف عرفت ذلك ؟

— حسناً ، لقد قال أتيكوس انه جن خلال فترة وجوده في الجامعة . كما قال انه حاول أن يطلق النار على رئيس الولايات المتحدة وان ابن العم جوشوا هذا قال عن الرئيس انه لاشيء سوى مفتش للمجاري وحاول أن يقتله بمسدس قديم من النوع الذي له زند مصون .

ولكن المسدس انفجر في يده هو . كما قال أتيكوس ان ذلك كلف العائلة خمسمئة دولار لتخليصه من السجن . . .

كانت العمة ألكسندرا تقف متيِّسة كطائر اللقلق . قالت :

— هذا يكفي . سرى في هذا الأمر لاحقاً .

وقبل وقت النوم كنت في غرفة جم أحاول أن أستعير كتاباً ، حين قرع أتيكوس على الباب ودخل . جلس على حافة سرير جم ونظر إلينا بهدوء ثم ابتسم . تمنحج محاولاً أن يقول شيئاً ما كمقدمة لأشياء أخرى وبصوت نابع من الحلق ، وظننت أنه أصبح عجوزاً آخر الأمر ، ولكن مظهره لم يكن قد اختلف :

— لأعرف كيف سأقول ما علي أن أقوله .

قال جم :

— حسناً قل ما تريد . هل ارتكبنا خطأ ما ؟

كان أبونا يتململ بعصبية فعلاً . قال :

— لا ، ولكنني أريد أن أشرح لكم أن . . . عمتكما ألكسندرا قد طلبت مني . . . بابني ، أنت تعرف أنك من آل فينتش ، أليس كذلك ؟

— هذا ما قيل لي .

قال ذلك جم وهو ينظر نظرة جانبية . كان صوته قد بدأ يرتفع دون أن يستطيع السيطرة عليه . واستأنف :

— يا أتيكوس ، ما القصة ؟

وضع أتيكوس ساقاً فوق ساق ثم طوى ذراعيه وقال :

— أحاول أن أقول لكما حقائق الحياة .

ازداد امتعاض جم . ثم قال :

— أعرف كل ذلك .

وفجأة أصبح أتيكوس جاداً . فقال بلهجة المحامي ودون أي تغيير في طبقة صوته :

— لقد طلبت مني عمثكما أن أحاول وأفهمكما أنت وجان لويز أنكما لستم من الناس العاديين ، فأنتما نتاج عدة أجيال من التربية الراقية . . .

هنا توقفت أتيكوس وراقبني وأنا أحاول أن أجذب بقة خيالية على ساق .

استأنف قائلاً " بعد أن وجدتها وسحقتها :

— التربية الراقية ، وأن عليكما أن تنصرفا بما يليق باسم عائلتكما ...

ثابر أتيكوس على الكلام رغماً عنا :

— لقد طلبت مني أن أقول لكما إن عليكما أن تنصرفا كما يليق

بسيطة صغيرة وبجنتلمان ، إذ أنكما تلك السيدة الصغيرة وذلك الجنتلمان .
هي تريد أن تتحدث إليكما عن العائلة وما كانت تعنيه لمقاطعة مايكوم
خلال الأعوام الطويلة ، وبذلك سيكون عندكما فكرة عن تكونان ،
وقد تُدفعان إلى التصرف كما يليق بكما .
هكذا أنهى حديثه بسرعة كبيرة .

نظر كل منا إلى الآخر مصعوقاً ثم نظرنا إلى أتيكوس ، الذي كان
يبدو وكأن قبعته تضايقه . ولم نتحدث إليه .
ولتو أمسكت بمشط من خزانة جم ومررت أسنانه على حافظها .
قال أتيكوس :

— أوقفني هذه الضجة .

ألصقي فظاظته . كان المشط في منتصف رحلته ورميت به إلى الأرض .
ودون سبب شعرت بنفسني أنخرط في البكاء ولكن دون أن أستطيع
التوقف . لم يكن ذاك أبي الذي أعرفه . فأبي ما كان ليفكر بمثل تلك
الأفكار . أبي ما كان ليتحدث بذلك الأسلوب . لقد أوجت له العمة
ألكسندرا بذلك على نحو ما . ومن خلال دموعي رأيت جم غارقاً
في بركة مشابهة من العزلة وقد أمال رأسه جانباً .

لم يكن هناك مكان ما أبلأ إليه ، ولكنني التفتت أريد الرحيل فقابلت
مقدمة صدر أتيكوس . دفنت وجهي فيها واستمعت إلى الأصوات

الداخلية التي سكّانت تصدر من خلف القماش الأزرق الفاتح : دقات الساعة ، والطققة الخفيفة لقميصه المنشّى ، وصوت تنفّسه الخافت .

قلت له :

— معدّتك تقرقع .

— أعرف ذلك .

— الأفضل لك أن تشرب بعض الصودا .

— سأفعل .

— يا أتيكوس ، هل هذا السلوك الحسن وغيره سيجعل الأمور تختلف ؟ أعني هل أنك . .

أحسست بيده على مؤخرة رأسي . قال :

— لا تقلقي على أي شيء . لم يحن وقت القلق بعد .

حين سمعت بذلك ، عرفت أنه عاد إلينا . عاد الدم الذي في ساقي إلى التدفق مرة أخرى ، ورفعت رأسي .

— هل تريد منّا حقاً أن نفعل كل ذلك ؟ لا أستطيع أن أتذكر كل ماهو مفترض من آل فينتش أن يفعلوه . . .

— لا أريدك أن تتذكّريه . انسيه .

ذهب إلى الباب ثم خرج من الغرفة مغلقاً الباب وراءه . كاد يغلق الباب بعنف ، ولكنه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة وأغلقه بركة . وبينما كنا نحدق جم وأنا في الباب ، فتح مرة أخرى وأطل منه أتيكوس . كان حاجباه مرتفعين ونظاراتاه قد سقطتا على أنفه وقال :
— أبدو كابن العم جوشوا يوماً بعد يوم ، أليس كذلك ؟ هل تعتقدان اني سأنتهي يوماً إلى أن أكلف العائلة خمسمئة دولار ؟ .
أعرف الآن ماالذي كان يحاول أن يفعله ، ولكن أتيكوس كان رجلاً فحسب ، ومثل ذلك العمل كان يتطلب امرأة .

* * *

الفصل الرابع عشر

رغم أننا لم نعد نسمع شيئاً عن عائلة فينتش من العمة ألكسندرا ، فقد كنا نسمع عنها الشيء الكثير من سكان البلدة . ففي أيام السبت ، حين كنا نتسلح جم وأنا بالقطع النقدية من فئة الخمسة سنتات ، ويسمح لي جم بمرافقته (أصبح الآن يتحسس تماماً من وجودي معه في مكان عام) ، كنا نمرّ على نحو ملتو من بين الحشود العرقانة على الأرصفة فنسمع أحياناً : « هذان طفلاه » أو « هاهما اثنان من آل فينتش » . وحين كنا فلتفت لنواجه متهمينا ، كنا لانرى سوى زوج من المزارعين يتفحصان بأعينهما الحقن الشرجية في واجهة صيدلية مايكوم ، أو كنا نرى فلاحين قصيرين وبدبتين في قبعتين من القش جالسين في عربة هوفر .

« يمكنهم أن ينفلتوا من عقابهم ويغتصبوا الريف كله ، ولن تهتم الحكومة ، وهي المسؤولة ، أبداً » ، تلك كانت إحدى الملاحظات الغامضة التي سمعناها توجه إلينا مباشرة من شخص نحيل كان يمرّ بنا . وهذا ماذكرني بأن لديّ سؤالاً أطرحه على أتيكوس .

في تلك الليلة نفسها سألته :

— ماهو الاغتصاب ؟

نظر أتيكوس من وراء صحيفته ، كان يجلس في كرسية إلى القرب من النافذة . بعد أن كبرنا قليلاً ، فكرنا جم وأنا بأنه من الكرم ترك فترة ثلاثين دقيقة يخلو فيها أتيكوس لنفسه بعد العشاء .

تنهد ثم قال ان الاغتصاب هو المعرفة (الجسدية) لأثنى بالقوة ودون موافقتها .

— حسناً ، إذا كان هذا كل مافي الأمر فلماذا أخرجتني كالبورنيا حين سألتها عن الموضوع ؟

بدا أتيكوس متأملاً :

— أعيدي علي ماقلته .

— حسناً ، لقد سألت كالبورنيا ونحن عائدون من الكنيسة ذلك اليوم عن معنى تلك الكلمة وطلبت مني أن أسألك ولكني نسيت ذلك والآن تذكرت .

أصبحت صحيفته في حجره الآن :

— أعيدي علي ماقلته مرة أخرى .

وحكى له بالتفصيل عن رحلتنا إلى الكنيسة مع كالبورنيا . بدا

أتيكوس وكأنه يستمتع بالحكاية ، ولكن العمة ألكسندرا ، التي كانت جالسة في إحدى الزوايا وهي تطرز بصمت ، وضعت تطريزها في حجرها وحذقت بنا .

— هل كنتم جميعاً عائدتين من كنيسة كالبورنيا يوم الأحد ذاك ؟
قال جم :

— نعم ياسيديتي ، لقد اصطحبتنا إلى هناك .
تذكرت شيئاً ما فقلت :

— نعم ياسيديتي وقد وعدتني بالذهاب إلى منزلها في عصر أحد الأيام . يا أتيكوس سأذهب يوم الأحد القادم إذا كنت توافق . هل يمكنني ذلك ؟ قالت كال أنها ستأتي لتصطحبني إذا كنت ستذهب بالسيارة إلى مكان بعيد .
— لن تذهبي .

هذا ما قالته العمة ألكسندرا . التفت إليها مذهولة ثم التفت نحو أتيكوس في الوقت المناسب لالتقاط نظرته السريعة إليها ، ولكن كان قد سبق السيف العدل . قلت لها :

— أنا لم أسألك .

بالنسبة لشخص ضخم مثله ، كان أتيكوس يستطيع أن ينهض

ويجلس في الكرسي أسرع من أي شخص آخر عرفته في حياتي . كان قد نهض واقفاً على قدميه وقال :

— اعتذري من عمثك .

— أنا لم أسأها ، بل سألتك أنت . . .

أدار أثيكوس رأسه وسمّني إلى الجدار بعينه السليمة . كان صوته مميّاً :

— أولاً اعتذري من عمثك .

همهت :

— آسفة يا عمي .

— والآن ، هيا نوضح هذه المسألة : ستطيعين كالبورنيا وتطيعيني وتطيعين عمثك طالما كانت في هذا البيت ، هل فهمت ؟

لقد فهمت . فكرت قليلاً ثم استنتجت أن الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها الانسحاب مع بقية من ماء الوجه هي أن أذهب إلى الحمام ، حيث بقيت هناك فترة طويلة إلى حد جعلتهم يظنون أنني كنت مضطرة فعلاً إلى الذهاب إلى هناك . وحين عدت ، تريت قليلاً في الردهة لأسمع جدالاً عنيفاً يجري في غرفة الجلوس . وعبر الباب كنت أستطيع مشاهدة جم جالساً على الكنية ومجلة كرة القدم أمام وجهه ، ورأسه يتحرك كأن صفحاتها كانت تحوي مباراة تنس حية .

كانت عمتي تقول :

— . . . عليك أن تفعل شيئاً بالنسبة لها . لقد تركت لها الخبل على الغارب فترة أطول من اللازم يا أتيكوس ، أطول من اللازم .
— لأأرى أي ضرر في تركها تذهب إلى هناك ، فكال ستعني بها هناك بقدر ماتعني بها هنا .

من كانت تلك التي يتحدثون عنها ؟ غاص قلبي بين ضلوعي .
إنها أنا . أجلسست بالجدان المنشأة لسجن من القطن الزهري اللون تطبق عليّ ، وللمرة الثانية في حياتي فكرت بالهرب من البيت . وفوراً .
— أتيكوس ، لا بأس في أن تكون طيب القلب ، أنت لست بالشخص الصعب ، ولكن لديك ابنة عليك أن تفكر فيها . وهي فتاة تكبر كل يوم الآن .
— هذا ما أفكر فيه .

— لآحاول التهرب من الموضوع . عليك أن تواجه المسألة إن أجلاً أو عاجلاً ويمكن أن يكون ذلك هذه الليلة بالذات . الآن لسنأ في حاجة إليها .

جاء صوت أتيكوس هادئاً :

— ألكسندرا ، لن تغادر كالبورنيا هذا المنزل حتى ترغب هي بذلك . قد يكون لك رأي آخر ، ولكن ما كان يمكن لي أن أدبر الأمور

طوال هذه السنوات لولاها . انها فرد مخلص من أفراد هذه العائلة
وعليك أن تقبلي الأمور كما هي وببساطة . وإلى جانب ذلك ياأخوتي ،
فاني لأريدك أن تجهدني نفسك بالتفكير عنا . . . ليس هناك من داع
لذلك . لازلنا في حاجة إلى كمال كما كنا دائماً .

— ولكن ياأتيكوس . . .

— وزيادة عليه ، فلا أظن أن الطفلين قد تأذيا اطلاقاً من تربيتهما
لهما . وعلى كل حال ، فقد كانت أفسى عليهما في بعض الأمور من
أي أم ، فهي لم يسبق لها أن تركتهما يفلتان بأي غلطة ، كما أنها
لم تدللتهما أبداً شأن المربيات الملتونات البشرية . لقد حاولت أن تربيهما
وفق فلسفتها الخاصة في الحياة ، وفلسفة كال جيدة جداً ، وهناك شيء
آخر ، هو أن الطفلين يجانبها .

تنفست الصعداء . انهم لايعنونني أنا ، بل كالبورنيا . وبعد أن
ردت إليّ الحياة دخلت إلى غرفة الجالوس . كان أتيكوس قد التجأ
إلى ماوراء صحيفته وكانت العمة ألكسندرا تحاول جاهدة العمل بالتطريز .
كانت إبرتها تعمل في الدائرة المشدودة تنقيباً . توقفت وشدّت القماشة
أكثر : هاهي تعود للعمل ولكنها ثائرة .

نهض جم وسار عبر السجادة . أشار إليّ كي أتبعه . قادني إلى
غرفته وأغلق الباب . كان وجهه جدياً .

— لقد تشاجرا ياسكاوت .

كنا جم وأنا ننشاجر كثيراً هذه الأيام ، ولكنني لم أسمع أبداً
ولا رأيت شخصاً يتشاجر مع أتيكوس . لم يكن ذلك بالمشهد المريح .

— سكاوت ، حاولي ألا تعادي عمتنا ، أئسمعيني ؟

كانت ملاحظات أتيكوس لاتزال ترنّ في أذني ، ممّا جعلني
لألحظ لهجة الأمر في سؤال جم . ثم انتفض ريشي فجأة :

— هل تحاول أن تأمرني بما أفعله ؟

— لا ، ولكن المسألة . . . هي أن أتيكوس لديه الكثير من المشاغل
الآن ، وليس علينا أن نقلقه بمشاكلنا .

— مثل ماذا ؟

لم يكن يبدو على أتيكوس في نظري أنه مشغول بشيء ما على
وجه الخصوص .

— انها قضية توم روبنسون التي تزعجه حتى الموت . . .

قلت أن أتيكوس ماكان يقلقه أي شيء . وزيادة على ذلك ، فان
القضية لم تزعجنا ابداً إلا مرة بالأسبوع وعلى أية حال لم يكن ذلك
الازعاج من النوع الذي يدوم .

قال جم :

— السبب هو أنك لاتستطيعين الاحتفاظ بشيء ما في ذهنك إلا لفترة قصيرة . أما بالنسبة لنا نحن الكبار فالأمر يختلف ، فنحن . . .

كان ترفعه الذي يثير الجنون أمراً لا يَحتمل في هذه الأيام . لم يكن يرغب في شيء عدا القراءة والانعزال . ومع ذلك فقد كان لايزال يحكي لي عن كل ما يقرأه ، ولكن مع وجود اختلاف في هذه المرة : كان في السابق يظن أنني قد أحب ما يقرأ ، أما الآن فمن أجل أن يثقفني ويعلمني .

— يا للرب يا جيم . ومن تحسب نفسك ؟

— اني أعني ما أقوله ياسكاوت . إذا عادت العمة فسوف . . .
سوف أضربك على قفك . . .

بعد هذا لم يعد في إمكاني أن احتمل أكثر من ذلك .

— أيها المخنث الملعون ، سأقتلك .

كان جالساً على الفراش وكان من السهل الإمساك به من خصلة شعره الأمامية ولكمه على فمه . صفعني وحاولت أن أكبل له لكمة يسارية أخرى ، ولكن لكمة منه في المعدة أرسلتني منبطحة على الأرض . كادت أنفاسي تنقطع ، ولكني لم أكثرث لأني أدركت أنه كان يعارك ، كان يعاركني ويردّ على ضرباتي بمثلها . كنا لانزال ندين .

صرخت وأنا أستاذف العراك من جديد :

« لم تعد مترفعاً وقوياً الآن ، أليس كذلك ؟ » . كان لا يزال جالساً على الفراش ولم أستطع أن آتخذ وضعيّة ثابتة ، ولذا رميت بنفسي عليه بأقوى ما أستطيع وأنا أضربه وأشد شعره وقرصه وأخذشه بأظفاري . وما بدأ كملاكمة أصبح عراقاً حقيقياً . كنا لانزال نتعارك حين فصل بيننا أتيكوس .

— هذا يكفي . كلاكما إلى النوم فوراً .

عبرت لحجم عن شماتي به فهو يرسل إلى الفراش في ميعاد يومي أنا .

— من الذي بدأ الشجار ؟

هكذا سألنا أتيكوس مستسلماً .

— انه جم . كان يحاول أن يأمرني بما عليّ أن أفعله . ولكني

لست مضطرة إلى اطاعته ، أليس كذلك ؟

ابتسم أتيكوس وقال :

— إذن فستتفق على مايلي : ستطيعين جم كلما استطاع اقناعك

بذلك . هل هذا حل عادل ؟

كانت العمة ألكسندرا حاضرة وانما صامتة ؛ وحين نزلت إلى الردهة مع أتيكوس سمعتها تقول : « . . . هذا مجرد واحد من الأشياء التي كنت أقولها لك » ، وقد جعلنا هذا نتصالح من جديد ونشكل جبهة واحدة .

كانت غرفتنا متلاصقتين يصل بينهما باب ، وحين أغلقت الباب الذي بينهما ، قال لي جم : « ليلة سعيدة ياسكاوت » .

همهمت « ليلة سعيدة » وأنا أشق طريقي عبر الغرفة لأطفئ النور . وحين مررت بالسرير دست على شيء دافئ ومرن بل أملس بالأحرى . لم يكن ذلك الشيء كالمطاط القاسي ، وقد تولد لدي احساس بأنه حي . كما سمعته يتحرك .

أضأت النور ونظرت إلى الأرض قرب السرير . ان ماكنت قد دست عليه قد اختفى . قرعت على باب غرفة جم .

قال :

— ماذا ؟

— كيف يكون ملمس الحية ؟

— خشنة . باردة . مغبرة . لماذا ؟

— أعتقد أن هناك حية تحت سريري . هل يمكنك أن تأتي لترى ؟

— هل تمزحين ؟

فتح جم الباب . كان يرتدي بنطال بيجامته . وقد لاحظت ، ولكن ليس دون رضا ، أن آثار لكمائي لازالت على فمه . وحين رأى أنني كنت جادة فيما قلته . قال :

— إذا كنت تظنين أنني سأدس بوجهي أمام حية ، فلا شك أنك
مخطئة . انتظري لحظة .

ذهب إلى المطبخ وأحضر المكنسة . قال :

— الأفضل أن تصعدي إلى السرير .

سألته :

— هل تعتقد أن هناك حية فعلاً ؟

كان ذلك محتملاً ، فقد كانت منازلنا دون أقبية ، وكانت مبنية
فوق أساسات من الحجر لا ترتفع إلا بضعة أقدام عن الأرض ، وكان
دخول الزواحف ليس بالأمر غير الوارد وإن يكن ليس شائعاً . إن
العلر الذي تقدمه الآنسة راشيل هافرورد لتناولها كأساً من الويسكي
غير الممزوج كل صباح كان أنها لم تستطع أبداً أن تتغلب على خوفها
من أن تجد حية ذات جرس وقد التفت حول نفسها في خزانة غرفة
النوم ، أو على غسلها حين تذهب لتنشر قميصها الداخلي .

قام جم بحركة تجريبية مسح بها بالمكنسة مائحت السرير . ونظرت
إلى نهاية السرير لأرى ان كانت هناك حية ستخرج . لم يخرج شيء .

قام جم بحركة مسح أعمق .

— هل تنخر الحيات ؟

قال جم :

— انها ليست حية بل شخص ما .

وفجأة انطلقت رزمة قلدة بنية اللون من تحت السرير . رفع
جم الكنسة وضرب بها ولكنه أخطأ رأس « ديل » بمقدار بوصة حين
لاح ذلك من تحت السرير . ثم صاح :

— يا للرب العظيم !

راقبنا ديل وهو يخرج بالتدريج . كان الفراغ تحت السرير قد
جعله يحشر نفسه حشراً هناك . نهض ثم هدل كتفيه وأدار قدميه ضمن
تجويفي كاحليه ، وحك مؤخرة عنقه . وبعد أن عادت دورته الدموية
إلى حالها ، قال « مرحباً » .

توسل جم إلى الله مرة أخرى . أما أنا ففقدت النطق .

قال ديل :

— أكاد أموت . هاتوا أي شيء يؤكل .

وكم في حلم ذهبت إلى المطبخ وجلبت له بعض الحليب ونصف
رغيف من خبز الحنطة بقي من وجبة العشاء ، التهم ديل الطعام التهاماً
وهو يمضغه بأسنانه الأمامية كما هي عادته .

وأخيراً وجدت صوتي فقلت له :

كيف وصلت إلى هنا ؟

وبطريقة ملتوية وبعد أن أعاد الطعام إليه بعض الحياة ، بدأ ديل يقص علينا حكايته : فبعد أن قُيِّدَ بالسلاسل وترك ليموت في القبو (في بلدة ميريديان توجد أقبية للمنازل) من قبل أبيه الحديد الذي كان يكرهه ، وبعد أن تم إبقاؤه على قيد الحياة بواسطة حبات البازلاء النينة التي رماها إليه مزارع سمع استغاثاته (لقد قام الرجل الطيب برمي قرون البازلاء له عبر مرحة التهوية وذلك عن طريق دسها واحداً اثر آخر) ، فقد استطاع ديل أن يحرّر نفسه من قيوده بانتزاع السلسلة من الجدار . وقد تجول مسافة ميلين خارج بلدة ميريديان ولا زالت أساور القيد في معصميه ، حتى صادف فرقة استعراض صغيرة للحيوانات ووجد عملاً على الفور ، ألا وهو غسل الحمل . وقد سافر مع هذه الفرقة عبر كل الميسيسيبي حتى أنباته حاسته في التوجه ، والتي لاخطيء أبداً ، بأنه أصبح في مقاطعة أبوت ، ألاباما ، وأن مايكوم تقع عبر النهر مباشرة . وقد مشى بقية الطريق .

سأله جم :

— كيف وصلت إلى هنا ؟

كان قد أخذ ثلاثة عشر دولاراً من حافظة نقود أمه ، ولحق بقطار الساعة التاسعة المتوجه من ميريديان ونزل منه عند نقطة اتصال مايكوم ، ثم مشى مسافة عشر أو أحد عشر ميلاً من الأميال الأربعة عشر التي هي المسافة حتى مايكوم ، ولكن بعيداً عن الطريق العام وبين

الشجيرات الخفيضة حتى لا تطارده الشرطة ، كما أنه ركب بشيئة الطريق متعلقاً باللوح الخلفي لعربة قطن . انه تحت السرير منذ ساعتين كما يظن ، وقد سمعنا حين كنا في غرفة الطعام ، وكان رنين الشوكات والصحون قد جعله يكاد يجن . لقد ظن أننا ، جم وأنا ، لن نؤوي أبداً إلى فراشنا ، كما أنه درس موضوع الخروج ومساعدتي على التغلب على جم حين تشاجرنا ، حيث أن جم قد أصبح أطول بكثير ، ولكنه كان يعلم أن السيد فينتش سيظهر في أية لحظة ، وفكر في أنه من الأفضل له البقاء حيث كان . كان مرهقاً ، قلراً إلى حد لا يصدق ودون مأوى .

قال جم :

— يجب أن يعرفوا أنك هنا . وسنعرف على أية حال ان كانوا يبحثون عنك . . .

ابتسم ديل وقال :

— أعتقد أنهم لازالوا يبحثون عني في كل دور السينما في ميريديان .
— يجب أن تخبر أمك عن مكانك ، يجب أن تعرف أنك هنا . . .

التمعت عينا ديل وهو ينظر إلى جم ، فنظر جم إلى الأرض . ثم وقف جم وحطّم ذلك العرف المتبقي من طفولتنا ، إذ خرج من الغرفة وهبط إلى الردهة وسمعنا صوته ينادي من بعيد :

— أتيكوس ، هل يمكنك أن تأتي إلى هنا ياسيدي ؟

وتحت القنطرة التي جعلها العرق في خطوط ، شحب وجه ديل .
أحسست بالغثيان . كان أتيكوس في الباب الآن .

وصل إلى منتصف الغرفة وتوقف ويدها في جيبه ، وهو ينظر إلى
ديل .

وأخيراً وجدت صوتي فقلت :

— لأبأس يا ديل . حين يريدك أن تعرف شيئاً فهو يقوله لك .
نظر ديل إلي فقلت :

— أعني أنه لا أبأس . أنت تعرف أنه لن يزعجك ، وتعرف أنك
لا تخاف من أتيكوس .

همهم ديل :

— لست خائفاً . . .

— جائع فحسب ، وأراهن على ذلك .

هكذا جاء صوت أتيكوس جافاً ولطيفاً كعادته ، واستأنف قائلاً :

— يا سكاوت ، لدينا ما هو أفضل من رغيف من خبز الحنطة ،
أليست كذلك ؟ أطعمي هذا الشخص حتى يشبع ، وحين أعود سرى
ما سنفعله .

— سيد فينتش ، لا تخبر الآنسة راشيل ، لا تجعلني أرجع إليهم ،
أرجوك يا سيدي . والا سأهرب مرة أخرى . . .

قال أثيكوس :

— هوّن عليك يابني . لن يجعلك أي شخص تذهب إلى أي مكان سوى إلى الفراش وسريعاً جداً . كل ما سأفعله هو أنني سأقول للآنسة راشيل انك هنا وأطلب منها أن تسمح لك بالمبيت عندنا الليلة . هذا ما تريده ، أليس كذلك ؟ وأرجوك أن تعيد إلى أرض المقاطعة ما أخذته منها ، فتأكل التربة الطبيعي فيه ما يكفي من الأذى بحد ذاته .

حدّق ديل في شخص والذي المنسحب من الغرفة .

قلت :

— انه يحاول أن يبدو مضحكاً . انه يعني أن عليك أن تستحم . هل رأيت ؟ لقد قلت لك انه لن يزعجك .

كان جم واقفاً في إحدى زوايا الغرفة وعلى وجهه علامة الخيانة . قال :

— ديل ، كان عليّ أن أخبره . لا يمكنك أن تهرب مسافة ثلاثمائة ميل دون معرفة أملك .

تركناه دون أن نجيبه بكلمة واحدة .

أكل ديل ثم أكل وأكل . لم يكن قد أكل شيئاً منذ الليلة الماضية . فقد استعمل كل ما كان لديه من نقود ليشتري بها تذكرة القطار ، وقد ركب القطار كما اعتاد أن يفعل مرات عديدة ، وتبادل أطراف الحديث مع المفتش بكل برود ، وكان ديل بالنسبة للمفتش منظرأ

مألوفاً ، ولكنه لم يجرؤ على طلب تنفيذ النظام الخاص بالأطفال الصغار المسافرين وحدهم لمسافات طويلة : إذا كنت قد فقدت نقودك فإن على المفتش أن يقرضك بعض المال لتناول الطعام وسعيد أبوك إليه المال في المحطة :

كان ديل قد انتهى من تناول بقايا الطعام وكان يريد الوصول إلى علبة من لحم الخنزير والفاصولياء موجودة في حجرة حفظ الأطعمة حين انطلق صوت الآنسة راشيل في الردهة : « يا للمسيح ! » وارتجف هو كأرنب .

وقد تجلّد حين قالت : « انتظر حتى أوصلك إلى البيت . أهلك قد جنّوا عليك . » وكان هادئاً خلال نطقها : « إن كل ماورثته من عائلة هاريس يخرج الآن منك » وابتسم حين أردفت : « أعتقد أن بإمكانك المبيت هنا ليلة واحدة » وعانقها حين عانقته أخيراً .

رفع أتيكوس نظارتيه إلى الأعلى وفرك وجهه .

قالت العمة ألكسندرا :

— أبو كما متعب .

وكانت تلك أول كلمات تتلفظها العمة ألكسندرا منذ ساعات كما بدا لي . كانت هناك ، ولكنها كانت صامتة معظم الوقت .

— هيا إلى الفراش أيها الأطفال .

غادروا هم وهم في غرفة الطعام ، وكان أتيكوس لازال يمسح وجهه . سمعناه يضحك وهو يقول : « من الاغتصاب إلى الشغب إلى الفارين من بيوتهم وأتساءل عما ستجلبه ياترى الساعتان التاليتان . »
وبما أن الأمور سارت في أحسن حال ، فقد قررنا ديل وأنا أن نكون لطيفين مع جم . وزيادة عليه ، فقد كان على ديل أن ينام معه ، إذن لا بأس من التحدث إليه .

ارتديت بيجامتي وقرأت لفترة ثم وجدت نفسي فجأة غير قادرة على ابقاء عيني مفتوحتين . كان ديل وجم هادئين الآن ، وحين أطفأت مصباح القراءة لم يكن هنالك شعاع من الضوء يتسلل من تحت الباب المؤدي إلى غرفة جم .

لا بد وأني كنت قد غفوت لبعض الوقت ، لأنني حين قُصرت لأستيقظ كان ضوء القمر الغارب يغيرها بخفوت .

— تزحزحي قليلاً ياسكاوت .

همهمت :

— يظن أنه كان من واجبه أن يفعل ما فعله . اغفر له .

دخل ديل السرير وتمدد بالقرب مني . قال :

— لست غاضباً منه ، ولكنني أردت أن أنام إلى جانبك . هل

استيقظت تماماً ؟

في ذلك الحين كنت قد استيقظت تماماً ، ولكن بكسل .

— لماذا فعلت ما فعلته ؟

لا جواب .

— قلت لماذا هربت ؟ هل كان كريهاً كما تقول ؟

— لا . . .

— ألم تبني الزورق . كما كتبت لي ؟

— قال إننا سنبنيه . ولكننا لم نفعل . .

استندت على مرفقي مواجهة طيف ديل :

— ليس ذاك سبباً كافياً للهروب . انهم لا ينجزون عادة نصف

ما يعدون بانجازه . . .

— لم يكن ذاك هو السبب ، بل لأنهما ما كانا يهتمان بي .

وكان ذلك أغرب سبب للهروب سمعته في حياتي .

— وكيف ذلك ؟

— حسناً ، كانا يغادران البيت معظم الوقت ، وحين يعودان ،

كانا يدخلان غرفتهما ويقيان وحدهما .

— وما الذي كانا يفعلانه هناك في غرفتهما ؟

— لاشيء ، يجلسان ويقرآن فحسب ، ولكنهما لم يكونا يريداني
معهما .

دفعت الوسادة إلى اللوح الرأسي للسريـر وجلست :
— أتعلم ماذا ؟ لقد كنت أفكر في الهروب هذه الليلة لأنهم كانوا
جميعاً هنا . هل حقاً تريد هما معك طوال الوقت ياديل ؟
تتهـد ديل بصبر نصف تنهيدة .

— ليلة سعيدة ، فأتيكوس يغيب طوال النهار وأحياناً إلى منتصف
الليل وقد يغيب أياماً لدى برلمان الولاية وغيره . . أنت لا تريد هما
معك طوال الوقت . ياديل ، لا يمكنك أن تفعل شيئاً إذا كانا معك
طوال الوقت .
— ليس الأمر كذلك .

وحين بدأ ديل يشرح وجهة نظره ، شعرت أنني أتساءل بيني وبين
نفسي عن ماهية الحياة لو أن جم كان يختلف عما هو عليه ، وحتى
عما هو عليه الآن : ما الذي كنت سأفعله ياترى لو أن أتيكوس لم يشعر
بضرورة وجودي ومساعدتي ونصيحتي ؟ عجباً ، انه لا يستطيع أن
يتدبر أموره يوماً واحداً من دوني . وحتى كالبورنيا لا يستطيع أن تدبر
أمورها ما لم أكن موجودة . انهما يحتاجان إلي .

— ديل ، أنت لا تقول لي الحقيقة : لا يمكن لأسرتك أن تعيش

دونك . لا بد أنهما خسيان معك . هل أقول لك ماتفعله معهما . . .
تابع ديل بصوته الثابت نفسه في الظلام :

— المسألة هي ، ان ماأحاول أن أقوله هو . . . انهما يكونان
في حال أفضل بدوني ، ولا أستطيع أن أقدم لهما شيئاً . انهما ليسا
خسيسين ، فهما يشريان لي كل ماأريد ، ولكن المسألة هي كما يلي :
« الآن بعد أن حصلت على ماتريد اذهب والعب به وحدك . . . لديك
غرفة مليئة بكل الأشياء . لقد جئت لك بهذا الكتاب فاذهب وطالعه » .
هنا حاول ديل أن يعمق صوته وتابع قائلاً :

— « لست صبياً . الصبيان يخرجون ليلعبوا البيسبول مع الصبيان
الآخرين . انهم لا يقفون في المنزل ليزعجوا أسرهم » .
عاد ديل الآن إلى صوته الحقيقي :

— لا ، ليسا خسيسين . انهما يقبلانك ويعانقانك عند النوم وعند
الاستيقاظ في الصباح وعند الوداع ويقولان لك انهما يحبانك : يأسكاوت
هيا نحصل على طفل .
— من أين ؟

كان هناك رجل سمع به ديل ولديه زورق كان يجتدف به حتى
يصل إلى جزيرة ضبابية حيث كل الأطفال هناك ، ويمكن للمرأة أن
يطلب منه طفلاً . . .

— هذا كذب . عمتي قالت ان الله يسقطهم عبر المدبنة . على الأقل هذا ماأعتقد أنها قالته . في تلك المرة الواحدة لم يكن اسلوب عمتي واضحاً جداً .

— حسناً ، المسألة ليست كذلك . الناس تحصل على الأطفال من بعضها البعض . ولكن هذا الرجل . . . لديه كل الأطفال المنتظرين من* يوقظهم ، انه ينفخ فيهم الحياة . . .

غفا ديل مرة أخرى . طفت أشياء جميلة حول رأسه الخالم . كان أسرع مني بالقراءة مرتين . ولكنه كان يفضل سحر اختراعاته هو . كان يستطيع أن يجمع ويطرح أسرع من البرق ، ولكنه كان يفضل عالمه الشفقي الخاص به ، عالماً ينام فيه الأطفال ، منتظرين أن يُقطفوا كليلك الصباح . كان يتحدث مع نفسه ببطء حتى ينام وكان يجري أنا أيضاً معه ، ولكن في هدوء جزيرته الضبابية برزت صورة باهتة لمنزل رمادي له أبواب بنية حزينة .

— ديل ؟

— هم . . . ؟

— لماذا في رأيك لم يحاول بورادلي الهروب أبداً ؟

تنهد ديل تنهيدة طويلة ثم أدار ظهره إليّ .

— ربما ليس لديه مكان يهرب إليه . . .

* * *

الفصل الخامس عشر

بعد مكالمات هاتفية كثيرة ، والكثير من الدفاع عن المتهم ،
ورسالة غفران طويلة من أمه ، فقد تقرر أن ديل يستطيع المكوث .
تمتعنا بأسبوع من الهدوء معاً . وبعد ذلك بقليل كما بدا ، حل علينا
كابوس .

بدأ ذلك في إحدى الأمسيات بعد العشاء . كان ديل معنا ، والعممة
ألكسندرا في كرسيها في الزاوية ، وأتيكوس في كرسيه ، أما أنا
وجم فقد كنا على الأرض نقرأ . كان أسبوعاً هادئاً : فقد أطعت فيه
عمتي ، كما أن جم كان قد أصبح أكبر من أن يصعد إلى كوخ الشجرة ،
ولكنه ساعدنا ديل وأنا على انشاء سلم جديد من الحبال له . كان ديل
قد اهتمدى إلى خطة مضمونة لجعل بورادي يخرج دون أي ثمن . (سيضع
أثراً طويلاً من نقاط الليمون من الباب الخلفي إلى الفناء الأمامي وسيتبعه
جمو كنملة) . سمعنا قرعاً على الباب الأمامي ، وقام جم بفتح الباب
ثم قال ان السيد هك تيت قد وصل . .

قال أتيكوس :

— حسناً ، قل له أن يدخل .

— لقد سبق وفعلت . ولكن هناك بعض الرجال في الفناء في الخارج ، وهم يريدون منك الخروج .

في مايكوم ، يقف الرجال الراشدون خارجاً في الفناء الأمامي لسببين لا ثالث لهما : الموت والسياسة . وتساءلت عمن يكون قد مات يا ترى . ذهبنا جم وأنا إلى الباب الأمامي ، ولكن أتيكوس صاح : « عودا إلى الداخل » .

أطفأ جم أنوار غرفة الجلوس وألصق أنفه بالحاجز المنخلي للنافذة . احتجت العمة ألكسندرا ، لكنه قال لها : « لحظة واحدة باعتماه . أريد أن أرى من هم » .

احتللنا ديل وأنا نافذة أخرى . كانت هناك جمهرة من الرجال يتحلقون حول أتيكوس ، وبدوا وكأنهم يتحدثون جميعاً في وقت واحد . كان السيد تيت يقول :

— . . . سننقله إلى سجن المديرية غداً . لأريد أية مشاكل ، ولكني لأستطيع أن أضمن عدم حدوثها . . .
قال أتيكوس :

— لا تكن أحمقاً ياهك ، هذه مايكوم •

— قلت اني قلق لاغير . . .

— هك . لقد حصلنا على تأجيل واحد لهذه القضية حتى نضمن

عدم وجود مانقلق بشأنه . اليوم هو السبت . سنبداً المحاكمة الاثنين
على الأرجح . بإمكانك أن تبقى ليلة واحدة ، أليس كذلك ؟ لا أعتقد
أن هناك شخصاً واحداً في مايكوم سيضنّ علي بزبون واحد ، في هذه
الأوقات العصيبة إلى هذا الحد .

كانت هناك همهمة استحسن صمتت فجأة حين قال السيد
ليتك ديس :

— لا أحد هنا يريد أن يثير أية مشاكل، ولكن مايلقني هو
عصابة أولد ساروم . . . ألا يمكنك ياهك الحصول على تلك التي
تسمى . . . ماذا تسمى ؟

قال السيد تيت :
— نقل المحاكمة إلى بلدة أخرى . لم يعد ذلك ممكناً الآن ،
أليس كذلك ؟

قال أتيكوس شيئاً غير مسموع . التفت نحو جم الذي لوّح لي
أن أصمت .

كان أتيكوس يقول :

— . . . وإلى جانب ذلك ، لستم خائفين من تلك العصابة ،
أليس كذلك ؟

— . . . أنت تعرف كيف يتصرفون حين يكونون ثملين .

قال أتيكوس :

— انهم لا يشربون يوم الأحد عادة ، بل يذهبون إلى الكنيسة
ويقضون معظم اليوم فيها . .

قال أحدهم :

— هذه مناسبة خاصة على أية حال . . .

همهموا وغمغموا حتى قالت العمدة إن على جم أن يشعل أنوار
غرفة الجلوس وإلا فإنه سيخزي العائلة . ولكن جم لم يسمعها .

— . . . لأرى السبب في أنك أخذت هذه القضية على عاتقك .

كان المتحدث هو السيد لينك ديس الذي تابع الكلام قائلاً :

— سنخسر كل شيء من جراء هذه القضية يا أتيكوس . أعني
كل شيء فعلاً .

— هل تعتقد ذلك فعلاً ؟

كان ذلك هو سؤال أتيكوس الخطير . « هل تعتقد فعلاً » يأسكاوت
أنك تريد الانتقال بحجرك إلى هناك ؟ « ثم طاخ طاخ و يتم اجتياح
جميع حجراتي من على رقعة الداما . « هل تعتقد ذلك فعلاً » يابني ؟ اقرأ
هذا اذن . « وكان على جم أن يكافح بقية المساء وهو يقرأ خطابات
هنري و . غراي .

كان صوت أتيكوس هادئاً وهو يقول :

— يالينك ، قد يذهب ذاك الشاب إلى الكرسي (١) ، ولكنه لن يذهب إليه حتى. يقال الحقيقة . وأنت تعرف ماهي الحقيقة .

كانت هناك همهمة بين مجموعة الرجال ، وأصبحت أكثر إنذاراً بالسوء حين تراجع أتيكوس نحو آخر درجة في السلم الأمامي واقترب الرجال منه أكثر .

وفجأة صاح جم : « أتيكوس ، الهاتف ين . » .

قفز الرجال قليلاً ثم انتشروا . كانوا أناساً نراهم كل يوم : تجاراً ومزارعين من سكان البلدة . وكان هناك الدكتور زينولدز والسيد آفري أيضاً .

صاح أتيكوس :

— حسناً ارفع السماعة وأجب .

ضحك الجميع متفرقين ، وحين أضاء أتيكوس أنوار السقف في غرفة الجلوس وجد جم عند النافذة ، شاحباً عدا علامة حمراء على أنفه تركها الشريط المنخلي .

سألنا :

(١) يعني الكرسي الكهربائي . (المترجم)

— لماذا ياترى تجلسون جميعاً في الظلام ؟

راقبه جم وهو يذهب إلى الكرسي ويمسك بجريدة المساء . أعتقد
أحياناً أن أتيكوس قد أخضع كل أزمة من أزمات حياته إلى تقييم هادئ
خلف صحيفة « موبيل ريجيستر » و « برمينغهام نيوز » و « مونثغومري
أدفايزر » .

قال له جم :

— أنهم يلاحقونك ، أليس كذلك . يريدون النيل منك ، أليس
كذلك ؟

أخفض أتيكوس جريدته وحدث في جم ، ثم سأله : « مالمذي
كنت تقرأه ؟ » ثم قال بلطف : « لا يا بني . أولئك كانوا أصدقاءنا » .

— ألم تكن تلك عصابة ؟

كان جم ينظر شزراً .

حاول أتيكوس جاهداً أن يتسم ولكنه لم ينجح . قال : « لا ،
ليس لدينا غوغاء أو ماشابه في مايكوم . في حياتي كلها لم أسمع بوجود
عصابة في مايكوم . »

— لقد لاحظت عصابة « كوكلاكس » الكاثوليك في إحدى المرات .

— لم أسمع بوجود الكاثوليك في مايكوم أيضاً . وانك تخلط

الأمر ببعضها . في الماضي ، أي في حوالي عام ١٩٢٠ كانت هناك « عصابة » ، ولكنها كانت تنظيمًا سياسيًا أكثر من أي شيء آخر . وزيادة عليه ، فإنها لم تجد من ترهبه . وقد قاموا باستعراض في إحدى الليالي قرب منزل السيد سام لفي ، ولكن سام وقف على رواقه وقال لهم إن الأمور قد وصلت إلى حالة سيئة . لقد احتال عليهم ثم جعلهم ينجلون من أنفسهم إلى حد أنهم رحلوا بعيداً .

كانت تنطبق على عائلة « لفي » كافة معايير « الناس الأكابر » : فقد كانوا يتمتعون بالهدس السليم إلى أكبر حد ممكن ، كما كانوا يعيشون على قطعة الأرض نفسها في مايكوم منذ خمسة أجيال .

قال أتيكوس :

... لقد رحلت عصابة كوكلاكس ، ولن تعود أبداً .

مشيت مع ديل حتى منزل الآنسة راشيل ثم عدت في الوقت الملائم لأسمع أتيكوس وهو يقول لعمي : « . . . » . لصالح المرأة الجذوية بقدر ما هو لصالح أي شخص ، ولكن لا يمكن تفضيل الخيال الروائي اللطيف على حياة بشرية . وكان ذلك تصريحاً جعلني أشك في أنهما كانا يتشاجران مرة أخرى .

بحثت عن جم فوجدته في غرفته على السرير غارقاً في التفكير . سألته :

— هل يتشاجران ؟

— نوعاً ما ، انها لا تتركه وشأنه بالنسبة لقضية نوم روبنسون ،
كادت تقول ان أتيكوس يخزي اسم العائلة . ياسكاوت . . . أنا خائف .

— لماذا أنت خائف ؟

— خائف على أتيكوس . قد يسبب له شخص ما الأذى .

كان جم يفضل أن يبقى مبهماً ، وكان كل ما أجاب به على
أسئلتي أن أدعه بحاله وأنصرف لشؤوني .

كان اليوم التالي يوم أحد . في الفترة ما بين « مدرسة الأحد »
ووقت الصلاة في الكنيسة حين كانت الرعية تمدّ ساقبها وترتاح ، رأيت
أتيكوس واقفاً في فناء الكنيسة مع مجموعة أخرى من الرجال . كان
السيد هك تيت حاضراً وتساءلت في نفسي ان كان قد نزل عليه وحي
من الرب ، فقد كان لا يذهب إلى الكنيسة أبداً . وحي السيد أندروود
كان هناك . وهذا السيد أندروود لم يكن يمارس أي نشاط في أية مؤسسة
عدا صحيفة « مايكوم تريبيون » التي كان هو مالكيها ومحررها وعامل
طباعتها الأوجد . كان ينفق أيامه على منضدة الطباعة ، حيث كان
ينعش نفسه بين الحين والآخر من وعاء من خمر الكرز من سعة غالون
واحد موجود دائماً أمامه . كان نادراً ما يجمع الأخبار فقد كان الناس
يحضرونها إليه . ويقال انه ألّف كل اصدار لصحيفته « مايكوم تريبيون » .

من رأسه وسجلته على منضدة الطباعة . وكان ذلك أمراً يمكن تصديقه .
ولكن شيئاً ما قد حدث حتى جعل السيد أندروود يخرج من مكتبه .

اجتمعت بآتيكوس وهو يدخل من الباب . قال انهم قد نقلوا
توم روبنسون إلى سجن مايكوم . كما قال مخاطباً نفسه أكثر مما كان
يخاطبني انه لو تم احتجازه في سجن مايكوم منذ البداية لما حدثت أية
مشاكل . رأيتني يجلس على مقعده في الصف الثالث من الأمام ، وسمعت
يهدم تريتله « أقرب إليك ياربي » ، متأخراً عن بقية عدة آيات .
لم يكن يجلس معنا أبداً ، أي مع العمة وجم وأنا . كان يحب أن يكون
وحده في الكنيسة .

كان السلام المصطنع الذي يسود أيام الأحاد يصبح أكثر ازعاجاً
مع وجود العمة ألكسندرا ، فآتيكوس يهرب إلى مكتبه بعد الغداء
مباشرة ، حيث كنا نجده أحياناً إذا لحقنا به جالساً في كرسية الدوار
يطالع ، والعمة ألكسندرا تنام ساعتين في فترة بعد الظهر وتتحدث
أن تقوم بأية ضجة في الفناء ، فالحق كله في حالة راحة ، كما كان
جم في أيام « شيخوخته » الآن يأوي إلى غرفته مع كومة من مجلات
كرة القدم . ولذا كنت أنفق أيام الأحد مع ديل نلعب بصمت في
« مرعى الغزلان » .

كان الصيد محظوراً أيام الأحاد ، لذا كنت ألعب مع ديل بكرة
القدم الخاصة بجم حول المرعى لفترة ، ولم يكن في ذلك متعة ما .

سألني ديل إذا كنت راغبة في تسديد وكرة ما لى « بورادلي » . قلت اني لأظن أنه من اللائق ازعاجه ، وقضيت بقية فترة العصر أحكي لدليل عن حوادث الشتاء الفائت . وقد تأثر تماماً بما حكته له .

انفصلنا عند وقت العشاء ، وبعد تناول الوجبة كنا جم وأنا قد حضرنا أنفسنا لقضاء أمسية روتينية ، حين قام أتيكوس بعمل أثار اهتمامنا : دخل غرفة الجلوس حاملاً سلكاً كهربائياً طويلاً وفي نهايته مصباح كهربائي .

قال :

— سأخرج لبعض الوقت . حين أعود ستكونون نائمون ، لذا أقول لكم « ليلة سعيدة » منذ الآن .

وبعد أن قال ذلك وضع قبعته على رأسه وخرج من الباب الخلفي . قال جم : « انه يأخذ سيارته » .

كان لأبينا بعض التصرفات الغريبة : منها مثلاً أنه لا يأكل الحلوى أو الفاكهة بعد الطعام ، ومنها أيضاً أنه كان يحب المشي . وحسب ما أتذكر فانه كانت هناك سيارة « تشيفروليت » في حالة جيدة في مرآب المنزل ، وكان أتيكوس يستعملها كثيراً حين يسافر بغرض العمل ، ولكنه كان يمشي في مايكوم من المنزل إلى المكتب أربع مرات في اليوم قاطعاً حوالي الميدين سيراً على الأقدام . قال ان المشي هو رياضته

الوحيدة . في مايكوم ، إذا تمشى المرء دون هدف محدد في ذهنه ، فقد كان يعتقد أن عقل هذا الشخص قاصر .

فيما بعد تمنيت لعمتي ولأخي « ليلة سعيدة » ، وكنت قد أنهمكت في قراءة أحد الكتب حين سمعت جم يحشخش في غرفته . كانت الضجة التي يحدثها عادة حين يريد النوم مألوفة جداً لديّ ، ولكن هذه كانت مختلفة . قرعت على بابه وسألته :

— لم لا تريد أن تأوي إلى فراشك ؟

— سأنزل إلى البلد لفترة .

كان يغير بنطاله .

— لماذا ؟ الساعة العاشرة تقريباً يا جم .

كان يعرف ذلك ، ولكنه كان يود الرحيل على أية حال .

— إذن ، سأذهب معك وافقت أم لم توافق ، هل تسمعي ؟

رأى جم أن عليه أن يقاتلني حتى يبقيني في المنزل ، وأعتقد أنه ظن أن الشجار قد يثير غضب عمي ، ولذا استسلم ولكن بقليل من الكياسة .

ارتديت ملابسني بسرعة . انتظرنا حتى أطفأت عمي نور غرفتها ، ثم هبطنا الدرج الخلفي بهدوء . لم يكن هناك قمر في تلك الليلة .

همست :

— سيرغب ديل في القدوم أيضاً .

قال جم بكآبة :

— حسنًا :

قفزنا عبر جدار الممر ، وتجاوزنا فناء منزل الآتسة راشيل الجانبي ومضينا نحو شباك ديل . صفّر جم مقلداً صوت الحجل . ظهر وجه ديل عند الحاجز المنخلي ، ثم اختفى ، وبعد دقائق خمس ، رفع مزلاج الحاجز المنخلي وزحف خارجاً . وبما أنه كان جندياً قديماً حنكاً ، فهو لم يتحدث حتى أصبحنا على الرصيف . قال :

— ما الحكاية ؟

— ان جم مصاب بمرض « الفضول » ، وهو مرض تقول كالبورنيا ان كل الصبيان في سنه يصابون به .

— كل مافي الأمر أن لديّ احساساً خاصاً ، احساساً خاصاً .

مررنا قرب منزل السيدة دويوز ، الذي كان ينتصب هناك فارغاً مغلق المصاريع ، وقد نمت شجيرات الكاميليا ضمن الأعشاب الضارة وأعشاب الجونسون . كان هناك ثمانية منازل أخرى حتى نصل إلى زاوية مكتب البريد .

كان الطرف الجنوبي من الساحة مهجوراً . وعند كل زاوية انتصبت شجيرات « لغز القرد » ، وبينها مربوط الدواب المعدني يلتصع

تحت أنوار الشارع . كان النور يلتجئ في دورة المياه العامة ، وخلافه كانت دار المحكمة معتمة . كانت ساحة من المخازن كبيرة تحيط بساحة دار المحكمة الأصغر ، ومن أعماقها كانت أنوار خافتة ترسل بصيصاً ضِعِيفاً .

كان مكتب أتيكوس ضمن دار المحكمة حين بدأ بممارسة المحاماة ، ولكنه نقله بعد سنوات إلى مكان أهدأ ضمن بناء « مصرف مايكوم » . وحين درنا حول زاوية الساحة ، رأينا سيارته متوقفة أمام المصرف . قال جم : « انه هناك » .

ولكنه لم يكن هناك . حتى تصل إلى مكتبه كان عليك أن تسير ضمن ردهة طويلة . نظرنا عبر الردهة ، وكان من المفروض أن نرى لافتة كتب عليها : « أتيكوس فينتش ، محام قانوني » بأحرف صغيرة رصينة ينعكس عليها الضوء الخارج من خلف باب مكتبه . ولكن الظلام كان مخيماً .

حلق جم في باب المصرف ليتأكد . أدار مقبض الباب . كان مقفلاً . قال : « لنذهب حتى نهاية الشارع . ربما يقوم بزيارة السيد أندروود . »

لم يكن السيد أندروود يدير مكتب صحيفة « مايكوم تريبيون » فحسب ، بل كان يسكن فيه أيضاً . هذا بالإضافة إلى ماذكر ، وكان يغطي أخبار دار المحكمة والسجن عن طريق النظر — هكذا بكل بساطة —

من شباك غرفته في الطابق العلوي . كان مبنى المكتب في الزاوية الشمالية - الغربية من الساحة ، وللاوصول إليه كان علينا المرور من أمام السجن .

سجن مايكوم هو أكثر أبنية المديرية مهابة وقبحاً ، وكان أتيكوس يقول انه يبدو وكأنه صمم من قبل ابن العم « جوشوا سانت كلير » . كان لاشك حتماً لشخص ما . فهذا المبنى كان ذا وضع شاذ تماماً ضمن بلدة ذات مخازن مربعة الواجهات ومنازل ذات أسطح مائلة . فهو عبارة عن نكتة قوطية مصغرة إذن . كان عرضه زنازة واحدة وارتفاعه زنازتان ، وكان كاملاً من حيث الشرفات المقرجة والدعامات المرفقة . أما الفانتازيا المحيطة به فقد تعمقت بواسطة واجهته المبنية من الآجر والقضبان الفولاذية الشخينة على نوافذه الكنسية . لم يكن منتصباً فوق تلة منفردة بل محشوراً كالأسفين بين « مخازن خرداوات تيندال » ومكتب صحيفة « مايكوم تريبيون » . كان السجن هو الموضوع الوحيد لأحاديث أهالي مايكوم : فقد كان المنتقصون من قدره يقولون انه يشبه المرحاض من الطراز الفيكتوري ، أما المعجبون به فكانوا يقولون انه يمنح البلدة مظهراً جيداً وراسخاً ويدعو إلى الاحترام ، وما كان لأبي غريب أن يشك أبداً في أنه مليء بالزئوج .

وبينما كنا نسير على الرصيف ، شاهدنا نوراً منفرداً يلعب من بعيد . قال جم : « هذا مضحك ، فالسجن ليس له نور خارجي » .

قال ديل :

— يبدو وكأن النور معلق على الباب .

كان سلك كهربائي طويل يجري من بين قضبان نافذة الطابق الثاني ويزل حتى جانب البناء . وتحت النور الخارج من المصباح الكهربائي كان أتيكوس جالساً وهو يسند الباب الأمامي . كان يجلس على أحد كراسي مكتبه ، ويقرأ ، متجاهلاً حشرات الليل التي تراقص فوق رأسه .

تميات للجري ، ولكن جم أمسك بي . قال : « لاتذهبي إليه ، فقد لا يجب ذلك . انه بخير ، فلنذهب إلى البيت . كنت أريد أن أعرف أين هو فحسب » .

كنا نختصر الطريق عبر الساحة حين جاءت أربعة سيارات مغيرة من الطريق العام المؤدي إلى بلدة ميريديان ، وهي تتحرك ببطء في صف واحد . دارت حول الساحة وتجاوزت بناء المصرف ثم توقفت أمام السجن .

لم يخرج أحد منها . رأينا أتيكوس ينظر من خلف صحيفته . أغلقها ثم طواها بعناية ، ورمأها في حجره ثم دفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه . بدا عليه وكأنه كان يتوقع وصولهم .

همس جم : « هيا بنا » . انسللنا عبر الساحة وعبر الشارع حتى احتمينا عند باب « جتني جنفل » . ألقى جم نظرة خاطفة عبر الرصيف .

قال : « يمكننا الاقتراب أكثر » . جربنا حتى باب « مخزن خرداوات
تيندال » . أصبحنا الآن قرييين إلى حد كاف ، وفي الوقت نفسه دون أن
يرانا أحد .

خرج الرجال فرداً فرداً وزوجاً زوجاً من السيارات . أصبحت
الظلال مادة ملموسة حين كشف النور أشكالا صلبة تتحرك نحو
باب السجن . بقي أتيكوس حيث هو . كان الرجال يخفونه عن
أنظارنا الآن .

سأله أحد الرجال :

— هل هو في السجن هنا ؟

أجابه أتيكوس :

— نعم ، وهو نائم . لا توقظوه .

واذعائاً لما قاله أبي ، حدث مشهد أدركت فيما بعد أنه كان
مظهراً كوميدياً مقززاً لوضع غير كوميدي : إذ راح الرجال يتحدثون
بلهجة أقرب إلى الهمس .

قال رجل آخر :

— أنت تعرف مانريد . ابتعد عن الباب ياسيد فيتش .

قال أتيكوس بلهجة لطيفة :

— بامكانك أن تدور إلى الخلف ثم تعود إلى بيتك مرة أخرى
ياوولتر . ان هك تيت في مكان قريب من هنا .
قال أحد الرجال :

— ليلذهب إلى الجحيم . في هذا الوقت لا بد وأن يكون قد توغل
مع مجموعته إلى قلب الغابات ولن يخرجوا منها قبل الصباح .
— فعلاً ؟ وكيف ذلك ؟

كان الجواب البليغ هو :

— لقد ذهبوا في رحلة لصيد طيور الشنقب . ألم تسمع بذلك
ياسيد فينتش ؟

— لقد فكّرت فيه ، ولكني لم أصدقّه . إذن ، فهذا قد يغيّر من
الأمر ، أليس كذلك ؟

قال أبي هذه الجملة الأخيرة دون أن يتغير صوته .

قال صوت عميق آخر ، كان صاحبه مجرد ظل :

— أجل انه يغيرها .

— هل تعتقد ذلك فعلاً ؟

كانت تلك هي المرة الثانية التي أسمع فيها أتيكوس يطرح هذا
السؤال خلال يومين ، وكان ذلك يعني أن شيئاً ما سيحدث . إذن

يجب ألا أفوت علي الفرصة . أفلت من قبضة جم وجريت بأسرع
مأستطيع نحو أتيكوس .

صرخ جم وحاول أن يلحق بي ، ولكني كنت قد سبقته هو
وديل . شققت طريقي عبر أجساد معتمة تنبعث منها الروائح الكريهة
واندفعت نحو دائرة الضوء .

— مرحباً يا أتيكوس .

ظننت أنه سيفاجأ مفاجأة سارة ، ولكن وجهه قتل فرحتي .
فقد كانت هناك لمعة من الخوف الواضح تخرج من عينيه ، ولكنها
عادت إليهما حين شق ديل وجم طريقهما نحو النور .

كانت هناك رائحة الويسكي العفن وحظيرة الخنازير في المكان ،
وحين نظرت فيما حولي اكتشفت أن هؤلاء الرجال كانوا غرباء .
لم يكن هؤلاء هم الرجال الذين رأيتهم في الليلة الماضية . ارتبكت ارتباكاً
شديداً : فقد قفزت منتصرة إلى داخل حلقة من الناس لم يسبق لي أن
عرفتهم .

نهض أتيكوس من كرسيه ، ولكنه كان يتحرك ببطء ، كرجل
عجوز ، أنزل الصحيفة بحرص ، وراح يمسح على تجمعها بأصابع
متهله . كانت أصابعه ترتجف قليلاً .

قال :

— اذهب إلى البيت يا جم ، وخذ معك سكاوت ودبل .

كنا معندين على الطاعة الفورية ، ان لم تكن الطاعة المرحّة دائماً
لتعليمات أتيكوس ، ولكن من الطريقة التي كان جم يقف بها لم يكن
يفكر بالترشح .

— قلت لك أن اذهب إلى البيت .

هزّ جم رأسه . وكما وضع أتيكوس قبضتيه على وركيه ، كذلك
فعل جم ، وبينما كانا يواجهان أحدهما الآخر ، استطعت أن أرى
تشابهاً قليلاً بينهما : كان شعر جم الكستنائي الناعم وعيناه البنيتان
ووجهه البضاوي وأذناه المتقنّتا الصنع موروثة كلها عن أمنا ، وهي
تتباين بحدّة مع شعر أتيكوس الأسود الذي ونخطه الشيب وملامحه
العريضة ، ولكنهما كانا متشابهين على نحو ما . كان التحديّ المتبادل
يجعلهما متشابهين .

— يا بني ، قلت اذهب إلى البيت .

هزّ جم رأسه .

— سأرسله أنا إلى البيت ؟

هذا ما قاله رجل فظ ، ثم أمسك بجم بخشونة من قبته وكاد يرفعه
إلى الأعلى .

— اياك أن تلمسه .

ورفست الرجل بسرعة . ورغم أني كنت حافية ، إلا أني دهشت
أن أراه يتراجع في ألم حقيقي . كنت أنوي أن أرفس قصبه سافه ولكن
تهديني جاء أعلى بكثير .

وضع أتيكوس يده على كتفي وقال : « هذا يكفي ياسكاوت ،
لا ترفسي الناس . . . »

كنت أحاول أن أجاء مبرراً قلت :

— لن يعامل أي شخص بجم بهذا الأسلوب .

زيجر أحدهم :

— حسناً ياسيد فينتش ، أخرجهم من هنا . معك خمس عشرة
ثانية حتى تخرجهم من هنا .

في وسط هذا الاجتماع الغريب ، وقف أتيكوس وهو يحاول
أن يجعل جم يطيعه . ولكن جواب جم الثابت لتهديدات أتيكوس
وأوامره كان : « لن أذهب » . وأخيراً قال له أتيكوس : « أرجوك
ياجم ، خذهما إلى البيت » .

كنت قد بدأت أشعر بالتعب من كل ذلك ولكني شعرت أن بجم
أسبابه الخاصة فيما كان يفعله ، نظراً للاحتماالات الوازدة في حال
جعلته أتيكوس يذهب إلى البيت . تجولت بنظري مستطلعة الجمهرة .

كانت تلك ليلة صيف ، ولكن معظم الرجال كانوا يرتدون أوفرولات وقمصاناً من القطن مزررة حتى القبات . ظننت أنهم من الأشخاص الباردین بطبيعتهم ، حيث كانت أكمامهم أيضاً مزررة عند المعصم . كان بعضهم يرتدي قبعات جذبت حتى آذانهم . كانوا رجالاً ذوي وجوه متجهمة ، وعيون وسانة ، ويبدو عليهم أنهم غير معتادين على السهر حتى ساعات متأخرة . بحثت مرة أخرى عن وجه مألوف ، وفي مركز نصف الدائرة من الرجال ، وجدت وجهاً أعرفه .

— مرحباً ياسيد كانيغهام .

لم يبد على الرجل أنه سمعني .

— مرحباً ياسيد كانيغهام . كيف حال قضية « ملكك الموقوف »؟

كانت مشاكل السيد وولتر كانيغهام القانونية معروفة تماماً بالنسبة إلي ، فقد كان أتيكوس قد وصفها لي مطولاً مرة من المرات . رمش الرجل الضخم بعينه وشبك إبهاميه في حمالات أفروله . بدا عليه الانزعاج . تنحنح وفطر بعيداً . لقد فشل عرضي الودي تماماً .

لم يكن السيد كانيغهام يرتدي قبعة ، وكان الجزء العلوي من جبهته أبيض على عكس وجهه الذي صفته الشمس ، مما جعلني أؤكد من أنه يرتدي قبعة معظم الأيام . نقل وزنه من قدم إلى أخرى ، وكان يرتدي حذاء عمل ثقيل .

— ألا تتذكرني ياسيد كانينغهام ؟ أنا جان لويز فينتش . لقد جلبت لنا بعض الجوز مرة من المرات ، ألا تتذكر ؟ بدأت أحس باللاجدوى التي يشعر بها المرء حين لايتعرف عليه شخص سبق له وقابله مرة بالصدفة .

بدأت محاولتي من جديد :

— أنا أذهب إلى المدرسة مع وولتر . انه ابنك ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ياسيدي ؟

اضطر السيد كانينغهام إلى أن يرمي برأسه لإمالة خفيفة . لقد عرفني أخيراً .

قلت :

— انه في صفي ، وهو تلميذ جيد . انه ولد طيب ، ولد طيب حقاً . لقد اصططحبناه مرة ليتناول طعام الغداء معنا . ربما حكى لك عني ، فقد ضربته مرة ولكنه تصرف على نحو لطيف حيال ذلك . بلغه سلامي ، ألن تفعل ؟

قال أتيكوس مرة أنه من اللطف أن نتحدث إلى الناس حول اهتماماتهم وليس حول اهتماماتنا نحن . لم يبد السيد كانينغهام أي اهتمام بابنه . لذا تطرقت مرة أخرى إلى ملكه الموقوف وذلك في محاولة أخيرة يائسة حتى أجعله يشعر وكأفه في بيته .

رحت أنصحهم قائلة ان الأملاك الموقوفة شيء سيء ، حين استفتت
 ببطء إلى حقيقة أنني كنت أخاطب الحشد كله . كان الرجال جميعهم
 ينظرون إلي ، وبعضهم بفم نصف مفتوح . كان أتيكوس قد توقف
 عن نخس جم : كانا واقفين معاً بالقرب من ديل . كان اهتمامهم قد
 تصاعد حتى وصل حد الافتتان . حتى فم أتيكوس كان نصف مفتوح ،
 وهو وضع وصفه هو مرة بأنه فظ غير مألوف . تقابلت عيوننا فأغلق
 هو فمه .

— حسناً يا أتيكوس ، كل ما في الأمر أنني كنت أقول للسيد كاتينغهام
 ان الأملاك الموقوفة شيء سيء ، وهذا كل ما في الأمر ، ولكنك قلت
 انه ليس عليه أن يقلق ، فقد تتطلب القضية فترة طويلة حتى تجد لها
 حلاً . . . وأنكم ستخرجون منها رابحين في النهاية . . .

كنت قد بدأت أفقد رصيدي من الكلام ببطء ، متسائلة في
 نفسي عن مدى الحماقة التي ارتكبت ، فالأملاك الموقوفة قد تكون
 موضوعاً مناسباً لأحاديث غرفة الجلوس .

بدأت أحس بالعرق يتجمع عند أطراف شعري : كان بإمكانني
 احتمال أي شيء إلا "كَوْن" مجموعة من الناس تنظر إلي . كانوا جميعاً
 صامتين تماماً .

سألت :

— ما المسألة ؟

لم يقل أتيكوس شيئاً . نظرت فيما حولي ثم نحو السيد كانيغهام
الذي كان وجهه جامداً بالقدر نفسه . ثم فعل شيئاً عجيماً . فقد جلس
القرفصاء وأمسكني من كلا كفتي . وقال :

— سأبلغه سلامك أيتها السيدة الصغيرة

ثم انتصب واقفاً ولوح بقبضة كبيرة ثم صاح :

— هيا ننصرف . هيا بنا يا شباب .

وكما جاؤوا ، تحرك الرجال فرداً فرداً وزوجاً زوجاً عائدين
إلى سياراتهم المتداعية . انصرفت الأبواب ، وسعلت المحركات ، ثم
رحلوا جميعاً .

التفت نحو أتيكوس ، ولكن أتيكوس كان قد توجه نحو السجن
وكان يستند إليه ووجهه إلى الجدار . ذهبت إليه وشدت كمره :
« هل يمكننا الذهاب إلى البيت الآن ؟ » أوماً برأسه ، ثم أخرج منديله
ومسح وجهه بأكمله وتمحّط بشدة .

— ياسيد فينتش ؟

جاء صوت أجش هادئ من الظلام من فوق :

— هل رحلوا ؟

خطأ أتيكوس نحو الحلف ونظر إلى الأعلى . قال :

— لقد رحلوا . نعم ياتوم . لن يزعجوك بعد الآن .

ومن جهة أخرى قطع صوت آخر صمت الليل بحدة :
— أنت وباللعنة تصبح بأنهم لن يعودوا . لقد كنت أحملك طوال
الوقت ببندقيتي .

كان السيد أندروود وبندقية رش ذات سبطانيتين ينحنيان الآن عبر
نافذته فوق مكتب « مايكوم تريبيون » .

كان وقت طويل قد مضى على ميعاد نومني ، وكنت أشعر بتعب
متزايد . لقد بدا أن أتيكوس والسيد أندروود سيتحدثان بقية الليل كله ،
السيد أندروود من النافذة وأتيكوس متطلعاً إليه من الأسفل . وأخيراً
عاد أتيكوس ، أطفأ النور فوق باب السجن ، وحمل كرسيه .
سأله ديل :

— هل يمكن أن أحمله لك ياسيد فينتش ؟

لم يكن ديل قد نطق بكلمة واحدة طوال الوقت .

— لم لا ، شكراً يا بني .

سرنا باتجاه المكتب ، وقد تلاكأنا ديل وأنا خلف أتيكوس وجم .
كان الكرسي يعوق ديل ، فأصبحت خطواته أبطأ . سَبَقْنَا أتيكوس
وجم كثيراً ، وافترضت أن أتيكوس كان يلومه بشدة لعدم ذهابه
إلى البيت ، ولكنني كنت على خطأ . فبينما كانا يمران تحت أحد أنوار
الشارع ، مد أتيكوس يده ومسح بها على شعر جم ، وهي إحدى
الحركات التي يعبر بها عن حبه .

• • •

الفصل السادس عشر

سمعني جم . دفع برأسه من الباب الواصل بين غرفتي . وحين وصل إلى سريري التمع النور في غرفة أتيكوس . بقينا حيث نحن حتى انطفأ ، وسمعناه يتقلب في فراشه ، وانتظرنا حتى هدأ ثانية .

أخلني جم إلى غرفته ووضعني في السرير إلى جانبه . قال : « حاولي أن تنامي ، فسينتهي الموضوع بعد غد ربما » .

كنا قد دخلنا البيت بهدوء حتى لانوظ العمة . أخرس أتيكوس محرك السيارة عند الممر المؤدي إلى المنزل ثم دفع السيارة نحو المرائب . ذهبنا إلى الباب الخلفي ثم نحو غرفتي دون كلمة واحدة . كنت منهكة جداً وكدت أنام حين أصبحت ذكرى أتيكوس وهو يطوي صحيفته بهدوء ويدفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه هي ذكرى أتيكوس يقف في منتصف شارع مهجور مترقب ، يدفع بنظاراته إلى الأعلى . لقد صدمتني فحوى حوادث الليلة وبدأت أبكي . كان جم لطيفاً جداً بالنسبة للموضوع : ولمرة واحدة لم يذكرني بأن الأشخاص الذين قاربوا التاسعة من العمر لا يفعلون مثل تلك الأفعال .

كانت شهية الجميع ضعيفة في الصباح ، عدا شهية جم : فقد أكل ثلاث بيضات . راقبه أتيكوس باعجاب صريح ، أما العمه ألكسندرا فقد كانت ترتشف قهوتها وتشع موجات من الاستنكار . ان الأطفال الذين يتسللون خارج المنزل ليلاً عار على العائلة . قال أتيكوس انه سعيد جداً بأن هذا العار قد وصل إلى حيث كان ، فقالت العمه : « هراء ، فقد كان السيد أندروود هناك طوال الوقت » .

قال أتيكوس :

— وأتدريين ؟ انه لشيء مضحك بالنسبة لبراكستون هذا ، فهو يحتقر الزنوج ، ولا يحتمل أن يكون واحد منهم إلى القرب منه .

كان الرأي السائد في البلدة هو أن السيد أندروود رجل ضئيل الحجم ، انفعالي وبذيء اللسان ، أسماه أبوه في نوبة ما من نوبات المرح « براكستون براغ » ، وهو اسم بذل السيد أندروود قصارى جهده حتى لا يخلص منه . قال أتيكوس ان تسمية الناس بأسماء الجحالات الكونفدراليين (الجنوبيين) كان يساعد على خلق أشخاص مدمنين على السكر وذلك ببطء وثبات .

كانت كالبورنيا تقدم المزيد من القهوة للعمه ألكسندرا ، وقد هزت رأسها جواباً على ماظنته نظرة توسل رابحة . قالت : « لازلت صغيرة جداً ، وسأحكي لك حين لاتعودين كذلك » . قلت ان ذلك قد يساعد معدتي فقالت : « حسناً » . ثم جلبت فنجاناً من الخزانة ،

صبت ملء ملعقة شاي من البن فيه ومالأت الفنجان حتى آخره بالحليب .
شكرتها بأن مددت لسانها لها . ونظرت إلى الأعلى لأرى عمي وقد
قطبت وجهها علامة التحذير . ولكنها كانت تقطب في وجه أتيكوس .

انظرت حتى أصبحت كالبورنيا في المطبخ ثم قالت :

— لا نتحدث هكذا أمامهم .

— أتحدث أمام من ؟

— هكذا أمام كالبورنيا . لقد قلت : « براكتون أندروود
يحتقر الزنوج » أمامها مباشرة .

— حسناً ، أنا على ثقة من أن كال تعرف ذلك . كل شخص
في مايكوم يعرف ذلك .

كنت قد بدأت ألاحظ تغييراً دقيقاً في والدي هذه الأيام ، وكان
هذا التغيير يبرز حين يتحدث إلى عمي ألكسندرا . كان نوعاً من العناد
المهادىء وليس الغضب . ولقد تميز صوته بنوع من القسوة حين قال :

— كل ما يناسب قوله على المائدة يناسب قوله أمام كالبورنيا .
إنها تعرف كم تعني هي لهذه العائلة .

— لا أعتقد أن تلك عادة طيبة يا أتيكوس . إنها تشجعهم . أنت
تعرف كيف يتحدثون بين أنفسهم . إن كل ما يجري في البلدة يصل
إلى جيهم قبل الغروب .

رمى والدي سكينه وقال :

— لأعرف أي قانون يمنعهم من التحدث . وربما لو لم نكن
نعطيهم كل تلك المادة للحديث لصمتوا . لم لاتشربين قهوتك ياسكاوت ؟

كنت ألعب بها بملعقتي فقلت :

— كنت أحسب أن السيد كانينغهام صديق لنا . لقد قلت لي ذلك
منذ زمن بعيد .

— انه لايزال .

— ولكنه أراد الليلة الماضية ابداءك .

وضع أتيكوس شوكتة إلى جانب سكينه ودفع بصحنه جانباً . قال :

— السيد كانينغهام رجل طيب أساساً . ولكن لديه كما لدى
كل واحد منا نقاط ضعفه .

قال جم :

— لاتسمي تلك نقطة ضعف . كان مستعداً لأن يقتلك الليلة
الماضية أول ماوصل إلى هناك .

— ربما كان سيؤذيني قليلاً ، ولكنك ستبدأ يابني بفهم الناس
على نحو أفضل قليلاً حين تصبح أكبر . ان الغوغاء تتألف دائماً من
بشر في كل الأحوال . والسيد كانينغهام كان جزءاً من غوغاء في

الليلة الماضية ، ولكنه كان لا يزال انساناً . كل غوغاء في كل بلدة
جنوبية صغيرة مؤلفة دائماً من أشخاص تعرفهم . . . هذا ليس اطراء
لهم ، أليس كذلك ؟

قال جم :

— لا ، ليس اطراء .

— لذا تطلب الأمر أن تعيدهم طفلة في الثامنة من العمر إلى رشدهم .
أليس كذلك ؟ وهذا يثبت شيئاً ما : ان عصابة من الوحوش يمكن أن
توقف عند حدها لأن أفرادها لازالوا بشراً . هاهه . ربما نحتاج إلى
قوة شرطة مؤلفة من الأطفال . . . أنتم الأطفال جعلتم وولتر كانيغهام
يخس بورطقي لدقيقة واحدة . وكان ذلك كافياً .

حسناً ، كنت آمل أن جم سيفهم الناس على نحو أفضل قليلاً
حين يصبح أكبر سنّاً ، أما أنا فلن أفهم . قلت بلهجة مشددة :

— أول يوم يعود وولتر إلى المدرسة سيكون آخر أيامه .
قال أتيكوس بصوت خفيض :

— لن تلمسيه أبداً . لأريد أياً منكما أن يحمل ضغينة فيما يتعلق
بهذا الموضوع ، مهما يحدث .

قالت العمة ألكسندرا :

— هأنت ترى ماالذي ينتج عن أمور كهذه . لانتقل افي لم أحلرك .

قال أتيكوس انه لن يقول شيئاً من ذاك القبيل، ودفع كرسيه إلى الخلف ونهض قائلاً :

— بقي يوم واحد ، لذا اعذروني . يا جم ، لأأريد منك ومن سكاوت النزول إلى البلدة اليوم ، أرجوكم .

حين رحل أتيكوس ، وصل ديل وهو يقفز من الردهة إلى غرفة الطعام ، ثم أعلن قائلاً :

— البلدة كلها تتحدث عن الموضوع ، حول كيف تمكّنا من صد مئة شخص بأيدينا المجردة من أي سلاح . . .

حدقت به العمة ألكسندرا حتى أخرسته ، ثم قالت :

— لم يكن هناك مئة شخص ، ولم يصدّ أحد أحداً . كانوا عبارة عصابة من عائلة كانيغهام السكاري الفوضويين .

قال جيم :

— حسناً يا عمّي ، هذه فحسب طريقة ديل في النظر إلى الأمور .
ثم أشار إلينا لنتبعه .

قالت ونحن نتجه إلى الرواق الأمامي :

— ابقوا جميعاً ضمن الفناء اليوم .

بدا الأمر وكأنه يوم سبت . كان الناس من الطرف الجنوبي
للمقاطعة يعمرون عبر منزلنا بتيار بطيء انما ثابت .

مرّ السيد دولفوس رايموند وهو يترنح على جواده الأصيل .
همهم جم :

— ألا ترون كيف هو جالس على ذلك السرج ؟ كيف يمكن
للمرء أن يسكر قبل الثامنة صباحاً ؟

مرت عربة محملة حتى آخرها بالسيدات وهي تقف بالقرب منا .
كن يرقدين قلنسوات شمسية من القطن وأثواباً من القطن . كان رجل
ملتح في قبعة صوفية يقود تلك العربة . قال جم للدليل : « هؤلاء بعض
أفراد جماعة المينونايت (١) وهن لا يستعملن الأزارار أبداً » .

كان هؤلاء يعيشون في أعماق الغابات ويقومون بمقايضاتهم
عبر النهر وفادراً ما يأتون إلى مايكوم . اهتم دليل بالموضوع . شرح له
جم : « لهم جميعاً عيون زرقاء ، والرجال لا يستطيعون أن يخلقوا
ذقونهم بعد الزواج ، فنساؤهم يجب أن يدغدغن الرجال بها » .

مرّ أيضاً السيد « اكس بيلابس » على بغل ولوح لنا . قال جم :
« انه رجل مضحك ، واسمه « اكس » (٢) وليس هذا أول حرف

(١) Mennonite طائفة دينية لاتستعمل الاختراعات الحديثة . (المترجم)

(٢) حرف (x) يستعمل أيضاً في الرياضيات بمعنى (س) للمجهول . (المترجم)

من اسمه فحسب . كان مرة في المحكمة وقد سئل عن اسمه ، فقال انه « اكس بلايس » . طلب منه الكاتب أن يهجئه فقال : اكس . وسأله مرة أخرى فقال : اكس . وظلوا يسألونه حتى كتب حرف X على ورقة ورفعها أمام أعين الجميع ليروها . وسألوه من أين جاء بذلك الاسم فقال ان أهله سجلوه بهذا الاسم حين ولد .

وبينما كان سكان المديرية يمرون بنا ، قام جم بشرح سير الشخصيات الأبرز ومواقفها العامة للذيل : لقد صوت السيد « تنسو جونز » ضد القائمة الانتخابية التي كانت مع منع الخمر ، الآتية اميلي دافيز تتعاطى النشوق سراً ، السيد بايرون وولر يعزف على الكمان ، السيد جايلك سلايد نبت له الطقم الثالث من الأسنان .

ظهرت عربة محملة بمجموعة من المواطنين ذوي الوجوه الكالحة على غير عاداتها . وحين أشاروا إلى فناء الآتية مودي أتكينسون المتهب بالأزهار الصيفية ، خرجت الآتية مودي نفسها إلى الرواق . كان هناك شيء غريب في الآتية مودي : فحين تكون في رواقها تكون بعيدة عنا إلى حد لانستطيع معه رؤية ملامحها بوضوح ، ولكننا نستطيع دائماً أن نعرف مزاجها من الطريقة التي تقف بها . كانت تقف الآن وذراعاها على خاصرتيها وكتفها متهدلتان قليلاً ، ورأسها ملوي إلى جانب ونظاراتها تغمزان في ضوء الشمس . وعرفنا أنها كانت تبتسم على نحو أشد ما يكون فظاعة .

أبطأ سائق العربة من سرعة بغاله ، وصاحت امرأة ذات صوت
حاد : « ذاك الذي يأتي بخيلاء سيرحل في الظلام » .

أجابت الآنسة مودي :

— « القلب المرح يصنع وجهاً بشوشاً » .

خمنت أن « غاسلي الأقدام » كانوا يظنون أن « الشيطان » هو الذي
كان يقتبس من الكتاب المقدس لأغراضه الخاصة ، بينما أسرع السائق
ببغاله مبتعداً . أما لماذا كانوا يعترضون على فناء الآنسة مودي فكان
أمراً غامضاً ، وقد أصبح تأثيره مضاعفاً على عقلي لأنني لاحظت أن
معرفة الآنسة مودي بالكتاب المقدس كانت رائعة إذا ما أخذنا في الاعتبار
أنها شخص ينفق طوال نهاره خارج المنزل .

سألها جم بعد أن كنا قد مشينا باتجاهها :

— هل ستذهبين إلى المحكمة اليوم ؟

— لا ، ليس لدي عمل في المحكمة هذا الصباح .

سألها ديل :

— ألن تذهبي لتتفرّجي ؟

— لا ، لن أذهب . ان مراقبة شخص مسكين وهو يحاكم بتهمة
عقوبتها الموت لأمر يبعث على الكآبة . انظر إلى هؤلاء الناس ، هذا
أشبه بكرنفال روماني .

قالت :

— انهم مضطرون إلى محاكمته علنيًا . ليس لهم الحق في محاكمته
بغير هذه الطريقة .

— أنا مدركة لهذا تمامًا ، ولكن بسبب أنها علنية لست مضطرة
للذهاب ، أليس كذلك ؟

وصلت الآنسة ستيفاني كروفورد وكانت ترتدي قبعة وقفازات .
قالت :

— هم . . هم . . انظروا إلى كل هؤلاء الناس . . . يكاد المرء
يظن أن « ويليام جينينغز بريان » سيخطب .

سألته الآنسة مودي :

— إلى أين ياستيفاني ؟

— إلى « جيتني جنغل » .

قالت الآنسة مودي أنها لم تر طوال حياتها الآنسة ستيفاني وهي
ترتدي قبعة لدى ذهابها إلى « جيتني جنغل » .

قالت الآنسة ستيفاني :

— حسنًا ، فكرت في أنني قد ألقى نظرة على دار المحكمة من
الداخل لأرى مايفعله أتيكوس .

— الأفضل أن تحذري منه لئلا يسلمك أمراً قضائياً بالثول أمام المحكمة .

طلبت من الآنسة مودي أن تفسّر ما تلفظت به ، فقالت انه يبدو وكأن الآنسة ستيفاني تعرف الكثير عن القضية لدرجة أنه يمكن استدعاؤها كشاهدة .

انتظرنا حتى الظهر ، حين عاد أنيكوس إلى البيت ليتناول الغداء وقال انهم قد أمضوا الصباح وهم يختارون هيئة المحلفين . وبعد الغداء ، انتظرنا ديل ثم ذهبنا إلى البلدة .

كانت مناسبة أشبه بالاحتفال . لم يكن هناك مكان واحد فارغ لربط دابة أخرى عند ربط الدواب العمومي ، وكانت الدواب والعربات متوقفة تحت كل شجرة موجودة . كانت ساحة دار المحكمة مغطاة بالمتنزهين الجالسين على الصحف يشربون الحليب الدافئ من أباريق الفاكهة مع البسكويت والشراب . بعض الناس كان ينهش في دجاجة باردة وقطع من لحم الخنزير البارد . أما الأكثر غنى فكانوا يشربون مع الطعام الكوكاكولا المشتراة من الدكان وذلك من كؤوس الصودا ذات الشكل البصلي . كما كان هناك أطفال بوجوه قلرة يلعبون لعبة الامساك بأيديهم والدوران في حلقة ضمن هذا الحشد ، وأطفال يتناولون وجبة الغداء من صلبور أمهاتهم .

في زاوية بعيدة من الساحة ، جلس الزنوج بهدوء في الشمس ،

يتغذّون بالسردين والخبز المحمص والنكهات الأكثر حيوية لمشروب
الـ « نيهي كولا » . كان السيد دولفوس رايموند جالساً معهم .

قال ديل : « يا جم انه يشرب من كيس » .

بدأ السيد دولفوس رايموند وكأنه يفعل ذلك : فقد كانت هناك
مصاصتان صفراوان تتجهان من فمه إلى أعماق كيس ورقي بُي اللون .
همهم ديل .

— لم أر أحداً يفعل مثل هذا من قبل : كيف يستطيع أن يقي
على مافي الكيس ضمن الكيس ؟
ضحك جم وقال :

— في داخل الكيس زجاجة كوكاكولا مليئة بالويسكي وبذلك
فانه لا يزعج السيدات . ستراه وهو يمسّ منها طوال فترة بعد الظهر ،
كما أنه سيخرج لفترة ليمأأها مرة أخرى .
— ولماذا يجلس مع الملوثين ؟

— انه يفعل ذلك دائماً . انه يحبهم أكثر مما يحبنا ، على ما أعتقد .
وهو يعيش وحيداً عند حدود المقاطعة . كما أنه يعيش مع امرأة ملوثة
ولديه منها كل أنواع الأطفال « المولّدين » . سأريك بعضهم إذا
رأيتناهم .

قال ديل :

— لا يبدو عليه أنه من الخثالة .

— ليس هو كذلك ، فهو يملك كل ذلك الجانب من ضفة النهر
هناك ، كما أنه من عائلة عريقة جداً .

— إذن لماذا يتصرف هكذا ؟

— هذا أسلوبه في الحياة . يقولون انه لم يشف مما حدث يوم زفافه
حتى الآن . فقد كان من المفروض أن يتزوج فتاة من آل . . آل سبندر
على ما أظن . وكان من المفروض أن يقيم لهما حفل زفاف ضخم ،
ولكن ذلك لم يحدث : فبعد التمرين على الاحتفال الذي سيجري في
الكنيسة ، صعدت العروس إلى الطابق العلوي وفجرت رأسها ببندقية
رش . لقد ضغطت على الزناد بأصابع قدمها .

— هل عرف أحد السبب ؟

قال جم :

— لا ، لم يعرف أحد السبب بالضبط عدا السيد دولفوس . ويقال
انها انتحرت لأنها اكتشفت علاقته بتلك المرأة الملونة ، وكان هو
يعتقد أنه يستطيع الاحتفاظ بها ويتزوج أيضاً . ومنذ ذلك اليوم وهو
مخمور باستمرار نوعاً ما . ومع ذلك عليك أن تعلم أنه طيب جداً مع
أولئك الأطفال . . .

سألته :

— يا جم ماهو الطفل « المولّد » ؟

— الطفل « المولّد » نصفه أبيض ونصفه ملون . لقد رأيتهم
ياسكاوت . تعرفين ذلك الصبي أحمر الشعر أجعده والذي يعمل موزعاً
للكان . انه نصف أبيض . انهم بؤساء حقاً .

— بؤساء لماذا ؟

— لأنهم لا ينتمون إلى أي من الطرفين . الملونون لا يقبلون بهم
لأنهم نصف بيض والبيض لا يقبلون بهم لأنهم ملونون ، لذا فهم في
المنطقة الحرام ، لا ينتمون إلى أي طرف . ولكن السيد دولفوس ، كما
يقولون ، قد أرسل اثنين من أولاده هؤلاء إلى الشمال . في الشمال
لا تميز ضدهم . هاها ! إليك أحدهم هناك .

كان صبي صغير يتمسك بيد امرأة زنجية يمشي بانحائها . بدا
بالنسبة لي زنجياً تماماً : كان لونه بلون الشوكولاته الحقيقية وله منخران
عريضان وأسنان جميلة . أحياناً كان ينط بسعادة ، ولكن المرأة الزنجية
كانت تشد على يده حتى يتوقف .

التنظر جم حتى مرّاً ثم قال :

— هذا أحد صغار أولئك الأولاد .

قال ديل :

— كيف يمكنك التمييز ؟ بالنسبة لي بدا أسود .

— لا يمكنك تمييزهم أحياناً ، إلا إذا كنت تعرف من هو أبوهم ،
ولكن نصفه ينتمي إلى آل رايموند على أية حال .

سألته :

— ولكن كيف يمكنك التمييز ؟

— لقد قلت لك ياسكاوت أن عليك أن تعرفي من هم .

— حسناً ، كيف تعرف إننا لسنا زنوجاً ؟

— يقول العم جاك فينتش اننا لانعرف حقاً . كما يقول اننا
لو تنبعنا شجرة عائلة فينتش ، فلسنا زنوجاً ، ولكن ربما نكون قد
أقينا من اثيوبيا مباشرة أيام « العهد القديم » .

— حسناً ، لو خرجنا منذ أيام « العهد القديم » فالمسألة قديمة جداً
بحيث لم يعد لها من تأثير :

قال جم :

— هذا ماظننته ، ولكن في هذه المنطقة ، يكفي أن يكون فيك
نقطة دم زنجية واحدة حتى تتحول إلى رجل أسود تماماً . هاي ! انظروا ...
كانت اشارة ما غير مرئية قد جعلت المتناولين لغداًهم في الساحة
ينهضون وينثرون فيما حولهم قطعاً من الجرائد والسيلوفان وأوراق
الصر . التحق الأطفال بأمهاتهم ، وحملت النساء الرضع على الحصور

ضمن لفات خاصة ، بينما بدأ الرجال في القبعات المشربة بالعرق يجمعون أسرهم ويسوقونها عبر أبواب المحكمة . في الزاوية البعيدة من الساحة نهض الزوج والسيد دولفوس رايموند وففضوا الغبار عن بناطيلهم . كان بينهم قلة من النساء والأطفال ، مما بدا وكأنه يبدّد جو العطلة السائد . انتظروا بصبر عند الأبواب خلف عائلات البيض .

قال ديل :

— هيا بنا ندخل .

قال جم :

— لا ، الأفضل أن ننتظر حتى يدخل الجميع ، قد ينزعج أتيكوس إذا رأنا .

كانت دار المحكمة الخاصة بمديرية مايكوم تذكر إلى حد ما ببلدة أرلنغتون من ناحية واحدة : فقد كانت أعمدها التي تدعم سقفها الجنوبي أثقل بكثير مما يحتاجه الثقل الخفيف القائم فوقها . كانت تلك الأعمدة هي كل ما تبقى منتصباً بعد الحريق الذي تعرضت له دار المحكمة عام ١٨٦٥ وقد بنيت دار محكمة أخرى حول تلك الأعمدة . ومن الأفضل القول أنها بنيت رغباً عنها . أما بالنسبة للرواق الجنوبي ، فقد كانت دار محكمة مديرية مايكوم من الطراز الفيكتوري القديم تمثل منظراً مؤذياً إذا ماشوهدت من الشمال . ومن ناحية أخرى ، على

أية حال ، فإن الأعمدة المصممة لأحياء الطراز الأغريقي كانت تتناقض مع برج ساعة كبير من طراز القرن التاسع عشر يؤدي تلك الآلة الصبغة غير الجديرة بالثقة ، وهو على أية حال مشهد يدل على شعب مصمم على الاحتفاظ بكل ذرة من ذرات الماضي .

وللوصول إلى غرفة المحكمة ، في الطابق الثاني ، كان على المرء أن يمر بعدة كوات معتمة لاتصلها الشمس وتابعة للمقاطعة : فهناك نغمّ الضرائب ، وجابي الضرائب ، وكاتب المقاطعة ، ومحامي المقاطعة ، والكاتب الجوال ، أما قاضي الأشهاد فكان يقبع في غرفة صغيرة باردة معتمة تفوح منها روائح السجلات العتيقة المختلطة بروائح الاسمنت الرطب والبول الراكد . كان من الضروري إشعال الأنوار خلال وقت النهار ، كما كانت هناك دائماً طبقة من الغبار على لوائح الأرضية الخشبية الخشنة . كان سكان هذه المكاتب مخلوقات تابعة من بيتها : فهم رجال ذوو وجوه رمادية لم تلمسها الريح ولا الشمس .

عرفنا أن هناك ازدحاماً ، ولكننا لم نتوقع تلك الحشود في مدخل الطابق الأرضي . انفصلت عن جم ودبل ، ولكنني شققت طريقي نحو الجدار القريب من بئر السلم ، عارفة أن جم سيأتي أخيراً باحثاً عني . وجدت نفسي في وسط جماعة « نادي الكسالى » وجعلت نفسي تخفية قدر الامكان . وكان هؤلاء مجموعة من الرجال المستن المرتدين قمصاناً بيضاء وبناطيل خاكية ذات حمالات بمن أنفقوا حياتهم لا يفعلون

شيئاً ويمضون أيامهم الأخيرة جالسين على المقاعد المصنوعة من خشب الصنوبر والموضوعة تحت شجرات السنديان الحية في الساحة . وهم كما يقول أتيكوس نقاد يقطون لأعمال دار المحكمة ، وانهم يعرفون عن القانون بقدر ما يعرفه رئيس المحكمة ، وذلك بسبب السنوات الطويلة من المراقبة . في العادة ، يكونون هم نظارة المحكمة الوحيدون ، واليوم يبدو عليهم الامتعاض بسبب عدم قدرتهم على ممارسة روتينهم المعتاد . وحين تحدثوا بدا حديثهم هاماً ، وكان موضوعه هو أتيكوس .

قال أحدهم :

— . . . أظن أنه يعرف مايفعله .

قال آخر :

— لاأوافق على ذلك ، فأتيكوس فينتش قارئ متعمق ، قارئ متعمق جداً .

تهكمت جماعة النادي حين قال أحدهم :

— انه يقرأ جيداً ، وهذا كل مايفعله .

قال ثالث :

— لأقل لك شيئاً يا « بيبي » ، أنت تعرف أن المحكمة عينته ليدافع

عن ذلك الزنجي .

— أجل ، ولكن أتيكوس يهدف الى الدفاع عنه ، وهذا مالايعجبني

في هذه المسألة .

كان ذلك خبراً جديداً ، خبراً يلقي بضوء مختلف على الأمور :

فأتيكوس كان مضطراً للدفاع عن ذاك الزنجي سواء شاء أم أبى ،
واعتقدت أنه من الغريب ألا يكون قد قال لنا أي شيء حول هذا
الموضوع : كنا سنستطيع استعمال ذلك مرات عديدة للدفاع عنه وعن
أنفسنا . انه مضطر لذلك ، ولهذا السبب كان عليه أن يدافع عن ذلك
الزنجي ، كان من شأن معرفتنا بذلك أن تجعل الشجارات أقل وتخفف
كذلك كل تلك الضجة . ولكن هل كان ذلك يفسر موقف البلدة ؟ لقد
عيّنت المحكمة أتيكوس للدفاع عنه . وكان أتيكوس يهدف إلى الدفاع
عنه . وهذا ما كانوا لا يحبونه في الموضوع . ذلك أمر محير .

بعد أن انتظر الزنوج حتى صعد البيض إلى الطابق العلوي ، بدأوا
هم بالدخول . قال أحد أعضاء النادي : « هيه . انتظروا لحظة » .
وكان يرفع عالياً عكازه . ثم أردف : « لاتجعلوهم يصعدوا إلى الطابق
العلوي لفترة أخرى » .

بدأ أعضاء النادي صعودهم ذا المفاصل المتيبسة واصطدموا بديل
وجم وهما ينزلان الدرج ويبحثان عني . مرّا بصعوبة عبر هؤلاء
وصاح جم : « تعالي ياسكاوت ، لم يعد هناك مقعد واحد فارغ .
سنضطر إلى الوقوف » .

قال بغضب : « انظروا إلى هناك » بينما الزنوج يصعدوا إلى الطابق
العلوي كاللوجة . كان العجائز الذين سبقوهم سيحتلون معظم عجلات
الوقوف وكنا سيئي الحظ وذلك كله بسبب غلطي أنا ، هكذا أعلمني
جم . وقفنا بائسين عند الجدار .

— ألم تستطيعوا الدخول ؟

كان المتكلم هو الكاهن سايكس الذي كان واقفاً يتطلع إلينا
وقبعته السوداء في يده .

قال جم :

— مرحباً ياسيدي الكاهن . لا لم نستطع ، لأن سكاوت أفسدت
الأمر كله .

— حسناً ، لئلا نأخذنا نأخذنا عمله .

شق الكاهن سايكس طريقه إلى الطابق العلوي . وخلال دقائق
قليلة كان قد عاد وقال : « لا يوجد أي مقعد في الطابق السفلي . هل
تعتقدون أنه من المناسب أن تأتوا إلى الشرفة معي ؟ »

قال جم : « طبعاً طبعاً » . وأسرعنا سعيدين نسبق الكاهن سايكس
إلى طابق غرفة المحكمة . من هناك صعدنا درجاً مغطى وانتظرنا عند
الباب . جاء الكاهن سايكس وراءنا وهو يلهث ، ثم قادنا بلطف عبر
صفوف الزنوج الجالسين في الشرفة . نهض أربعة زنوج ومنحونا
مقاعدهم التي كانت في الصف الأول .

كانت شرفة الملونين تمتد على طول ثلاثة جدران من غرفة المحكمة
كشرفة للطابق الثاني ومنها كنا نستطيع مشاهدة كل شيء .

كان المحققون جالسين إلى اليسار تحت نوافذ طويلة . بدوا وكأنهم

مزارعون جميعهم ، حيث كانوا من ذوي البشرة المسفوعة بالشمس والقامة النحيلة ، ولكن ذلك كان طبيعياً: فنادرأما كان سكان البلدة يُختارون كمحلفين ، فقد كانوا اما مشغولين أو معدورين . كان واحد أو اثنان من المحلفين يبدوان نوعاً ما وكأنهما من آل كانيغهام إنما بملايس لائقة . في هذه المرحلة كانوا يجلسون مستقيمين ويقظين في مقاعدهم .

كان المدعي العام ورجل آخر وأنيكوس وتوم روبنسون يجلسون إلى مناضد وظهرهم لنا . وعلى منضدة ممثل الادعاء كان كتاب بني اللون وبعض أوراق الكتابة الصفراء . أما منضدة أنيكوس فكانت فارغة. ودخل الحاجز الذي يفصل النظارة عن المحكمة ، كان الشهود يجلسون على كراسي من جلد البقر . كانت ظهورهم إلينا .

كان القاضي تايلور على المنبر كقرش عجوز وسنان ، بينما كاتبه يجلس إلى مكان أخفض منه ويدون شيئاً ما بسرعة . كان القاضي تايلور يبدو كمعظم القضاة الذين سبق لي ورأيتهم : ودوداً ، أبيض الشعر ذا وجه محمر قليلاً ، كما كان رجلاً يدير شؤون محكمته على نحو غير رسمي وإلى حد مزعج : فقد كان يرفع قدميه عالياً في بعض الأحيان أو غالباً ما ينظف أظافر أصابعه بموسى جيبه . وفي جلسات « تطويق أمالي الضمير ومبادئ العدل الطبيعي على النزاعات » المطولة ، وخاصة ان كانت بعد وجبة الغداء ، كان يوحى للموجودين بأن النعاس يغالبه ، ولكنه كان انطباعاً تبدد إلى الأبد حين قام أحد المحامين مرة بإسقاط

كومة من الكتب إلى الأرض عن عمد في محاولة يائسة منه لابقاظه .
ويدون أن يفتح عينيه ، همهم القاضي تايلور : « ياسيد وايتي ، إذا
كررت هذا فسيكلفك مئة دولار كغرامة » .

كان رجلاً متمعماً في القانون ، ورغم أنه كان يبدو كمن يمارس
عمله دون اهتمام زائد إلا أنه كان يحكم قبضته في الواقع على أية
محاكمة تجري أمامه . مرة واحدة فحسب شوهد القاضي تايلور في
حالة تجمد كاملة في المحكمة ، وكان ذلك حين استطاع آل كانيغهام
تجميده . فقد كانت « أولد ساروم » وهي منتجعهم المفضل ، قد احتلت
من قبل عائلتين كانتا منفصلتين ومستقلتين في البداية ، ولكنهما ولسوء
الحظ تحملان الكنية نفسها . فقد تزوج آل Cunningham من
آل Coningham حتى أصبحت تهجئة الاسمين واحدة ، ولذلك حتى
قام أحد أفراد عائلة Cunningham بالاحتكام إلى القانون ضد أحد
أفراد عائلة Goninham بسبب خلافهما على حقوق ملكية قطعة
من الأرض . وخلال جدل في هذا المضمار ، أفاد Jeems Cunningham
بأن أمه كانت تكتب اسم العائلة على أنه Cunningham
على الصكوك وما شابهها ، ولكنها كانت بالفعل من آل Coningham
فقد كانت مهجئة غير موثوق بها ، كما كانت قارئة ضعيفة معتادة
على النظر بعيداً في بعض الأحيان ، وذلك حين تجلس على الشرفة
الأمامية في الأمسيات . وبعد تسع ساعات من الاصغاء إلى عجائب
سكان « أولد ساروم » ، رمى القاضي تايلور بالقضية إلى خارج المحكمة .

وحين سئل عن الأساس الذي استند إليه في ذلك ، قال : « تواطؤ بغرض تقديم المال من أجل النجاح دعوى قضائية » وصرح بأنه يرجو الله أن يكون المختصون قد اقتنعوا بأنهم استطاعوا التعبير عن وجهات نظرهم جهرًا . وقد حدث ذلك . وكان ذلك هو هدفهم أولاً وأخيراً .

كانت للقاضي تايلور عادة تأثير الاهتمام . فقد سمح بالتدخلين في غرفة المحكمة ولكنه لم يسمح لنفسه بذلك : وفي بعض الأحيان ، وحين يكون المرء محظوظاً ، فإنه قد يكسب امتياز مراقبته وهو يضع سيجاراً طويلاً جافاً في فمه وينهشه ببطء . وكان السيكر المطفأ يتلاشى ببطء ليعود للظهور بعد بضع ساعات كخبيصة زلقة مسطحة ، وقد انتزع لبّه واختلط بعصارات القاضي تايلور الهضمية . ومرة سألت أتيكوس كيف تستطيع السيدة تايلور أن تحتمل تقبيله ، ولكن أتيكوس قال انهما لا يقبلان بعضهما كثيراً .

كانت منصة الشهود إلى يمين القاضي تايلور ، وحين وصلنا إلى مقاعدنا كان السيد هك ثبت قد سبق وجلس على تلك المنصة .



الفصل السابع عشر

قلت :

— يا جم ، هل أولئك الجالسون هناك عائلة يرويل ؟

قال جم :

— صه ، السيد هك تيت يدلي بشهادته .

كان السيد تيت قد ارتدى مايلتي بالمناسبة : بذلة عمل عادية تجعله يبدو كأبي رجل آخر ، فلم تكن هناك الخزمة العالية والمعطف ذو المربعات وحزام الرصاص . ومن تلك اللحظة ماعاد يخيفني . كان يجلس منحنيًا إلى الأمام ويده بين ركبتيه ، وهو يصغي باهتمام إلى ممثل الادعاء .

لم يكن ممثل الادعاء الجوال وهو السيد غيلمر معروفًا لدينا كثيرًا ، فهو من بلدة « أبو تسفيل » وكتالانراه إلا لدى انعقاد المحكمة ، وكان ذلك نادرًا ما يحدث ، فالمحكمة لم تكن من الأمور التي تهمننا جم وأنا . كان رجلاً أمرد الوجه غزا الصلع رأسه ، وقد يكون في أي عمر

يتراوح بين الأربعين والستين . ورغم أن ظهره كان لنا ، إلا أننا عرفنا أن إحدى عينيه كانت حواء وكان يستغلها لمصاحته : فحين يبدو عليه أنه ينظر إلى شخص ما لم يكن هو يفعل ذلك في الواقع ، ولذلك كان المحلفون والشهود يعانون منه كثيراً . كان المحلفون ، الذين يظنون أنهم تحت المراقبة الشديدة يصغون باهتمام ، وكذلك الشهود الذين كانوا يظنون انظر نفسه .

كان السيد غيلمر يقول :

— . . . بالكلمات التي استعملتها أنت بنفسك ياسيد تيت .

قال السيد تيت وهو يلمس نظارتيه بيده ويتحدث إلى ركبتيه :

— حسناً ، لقد استدعيت . . .

— هل يمكنك أن توجه كلامك إلى هيئة المحلفين ياسيد تيت ؟

شكراً . من الذي استدعاك ؟

قال السيد تيت :

— لقد جاء لاصطحابي بوب . . . أعني بوب يوويل الجالس

هناك ، ففي إحدى الليالي . . .

— أية ليلة بالضبط ياسيدي ؟

— كانت ليلة الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) .

كنت على وشك مغادرة مكنتي للذهاب إلى البيت حين دخل بو . .
السيد يوويل ، وكان في حالة احتياج شديد وطلب مني أن أذهب إلى
منزله بسرعة لأن أحد الزنوج قد اغتصب ابنته .

— وهل ذهبت ؟

— بكل تأكيد . لقد ركبنا السيارة وانطلقنا بأسرع ما يمكن .

— وما الذي رأيته ؟

— لقد رأيته متمددة على الأرض في وسط الغرفة الأمامية ، وهي
الغرفة التي إلى اليمين . خلال الدخول إلى المنزل ، كان يبدو عليها أنها
ضربت ضرباً شديداً ، ولكنني أنهضتها على قدميها وغسلت وجهها هي
في دلو كان في الزاوية وقالت أنها على مايرام . وقد سألتها عن ضربها
فقال أنه توم روبنسون . . .

رفع القاضي تايلور ، الذي كان يركز اهتمامه على أظافر أصابعه ،
رأسه وكأنه يتوقع اعتراضاً ما ، ولكن أتيكوس بقي هادئاً .

— . . . وقد سألتها ان كان هو الذي ضربها فقالت نعم هو الذي
ضربني . وسألتها ان كان قد اعتدى على عفافها فردت بالإيجاب . ولذا
ذهبت إلى منزل السيد توم روبنسون وعدت به إلى هناك . وقد تعرفت
هي عليه على أنه الشخص المعتدي ولذا ألقيت القبض عليه . هذا كل
ما في الأمر .

قال السيد غيلمر :

— شكراً .

قال القاضي تايلور :

— أية أسئلة يا أتيكوس ؟

رد أبي وكان جالساً خلف منضدته وكرسيه مميلًا إلى جانب ،
وساقاه الواحدة فوق الأخرى وذراعه يرتاح فوق ظهر كرسيه :
« نعم » .

سأل أتيكوس الشاهد :

— هل استدعيت طبيباً باحضره المأمور ؟ هل استدعى أحد طبيباً ؟

قال السيد تيت :

— لا ياسيدي .

— لم تستدع طبيباً ؟

كرر السيد تيت :

— لا ، ياسيدي .

— ولم لا ؟

كانت هناك حدة في لهجة أتيكوس .

— حسناً سأقول لك لماذا . لم يكن ذلك ضرورياً ياسيد فينتش .

فقد كانت مضروبة ضرباً مبرحاً . كان واضحاً أن شيئاً ما قد حدث بكل تأكيد . كان ذلك واضحاً .

— ولكنك لم تستدع طبيباً ؟ بينما كنت هناك ، هل استدعى شخص ما طبيباً ، أو أحضر طبيباً ، أو حملها إلى الطبيب ؟
— لا ياسيدي .

هنا قاطع القاضي تايلور قائلاً :

— لقد أجابك على سؤالك ثلاث مرات يا أتيكوس . انه لم يستدع طبيباً .

قال أتيكوس :

— لقد أردت أن أتأكد يا حضرة القاضي .

فابتسم القاضي .

رأيت يد جم التي كانت تستريح على حاجز الشرفة تحكم من قبضتها عليه . تنهد فجأة . نظرت إلى الأسفل فلم أر ما استدعي مثل رد الفعل ذلك ، وتساءلت ان كان جم يحاول أن يمسرح الأمور . كان ديل يراقب بهدوء ، وكذلك الكاهن سايكس إلى جانبه . همست :
« ما القصة ؟ » فأجابني جم بإيجاز : « صه » .

كان أتيكوس يقول :

— يا حضرة الأمور ، قلت انها كانت مضروبة ضرباً مبرحاً .
كيف كان ذلك ؟

— حسناً

— صف جروحها فحسب ياهك .

— حسناً ، كانت مصابة في المناطق المحيطة بالرأس . وكانت
هناك كدمات على ذراعها ، فقد كان الحادث قد جرى قبل ثلاثين
دقيقة من وصولي . . .

— وكيف عرفت ذلك ؟

ابتسم السيد تيت وقال :

— آسف ، هذا ما قالوه . على أية حال كانت مصابة كلها بالكدمات
حين وصلت إلى هناك ، كانت إحدى عينيها مسودة من شدة الضرب .
— أية عين ؟

رمش السيد تيت ومشط شعره بيده ثم قال بصوت خفيض :

— دعني أتذكر .

ثم نظر إلى أتيكوس وكأنه يعتبر السؤال طفولياً .

سأله أتيكوس :

— ألا تستطيع أن تتذكر ؟

أشار السيد تيت إلى شخص غير مرئي على بعد خمسة بوصات
منه وقال :

— عيناها اليسرى .

قال أتيكوس :

— لحظة يا حضرة المأمور ، هل كانت تلك عيناها اليسرى وهي
تواجهك أم عيناها اليسرى وهي تقف بمحاذاة لك ؟ .

قال السيد تيت :

— أجل حسناً ، إنها عيناها اليمنى اذن . لقد كانت عيناها اليمنى ،
ياسيد فينتش . أتذكر الآن ، لقد كانت مضروبة على هذا الجانب
من وجهها . . .

رمش السيد تيت مرة أخرى ، وكأن شيئاً ما قد تم توضيحه له .
ثم أدار رأسه ونظر فيما حوله باتجاه توم روبنسون . وكأنما بالغريزة ،
رفع توم روبنسون رأسه .

لقد توضّح شيء ما لأتيكوس الآن ، وهذا ما جعله ينهض واقفاً :

— يا حضرة المأمور ، كرّر من فضلك ما قلته .

— قلت إنها كانت عيناها اليمنى .

— لا . . .

سار أتيكوس حتى مكتب كاتب المحكمة والنحن فوق اليد التي
كانت تدون بجنون . توقفت اليد ، قلبت الصفحات وقال كاتب
المحكمة : « ياسيد فينتش ، أتذكر الآن أنها كانت مضروبة على هذا
الجانب من وجهها » .

نظر أتيكوس إلى السيد تيت وقال :
— أي جانب ياهك ؟ هل لك أن تكرر ؟
— الجانب الأيمن ياسيد فينتش ، ولكن كانت هناك كدمات
أخرى . . . هل تريد أن تسمع عنها ؟
بدا أتيكوس وكأنه يطرح سؤالاً آخر ، ولكنه فكر فيه على نحو
أفضل ثم قال :

— نعم ، ماهي الكدمات الأخرى ؟
وبينما كان السيد تيت يجب استدراك أتيكوس ونظر إلى تومروبنسون
وكانه يقول ان ذلك كان شيئاً لم يكونا قد قايضا عليه .
— . . . كانت ذراعها مليئين بالكدمات ، كما أرثني عنقها .
كان على حنجرتها آثار أصابع واضحة . . .

— حول حنجرتها كلها ؟ في مؤخرة عنقها ؟
— سأقول حول عنقها كله ياسيد فينتش .
— ستقول ؟

— أجل ياسيدي ، فغنتها صغير ، وأي شخص كان يستطيع
الاحاطة به بواسطة . . .

— أجب على السؤال بنعم أو بلا من فضلك يا حاضرة الأمور .

هكذا قال أتيكوس بلهجة جافة وصمت السيد تيت .

جلس أتيكوس وأشار إلى ممثل الادعاء الذي هزّ رأسه باتجاه
القاضي الذي أومأ برأسه باتجاه السيد تيت الذي تمهض متبسّساً ونزل
من منصة الشهود .

إلى الأسفل منا ، استدارت الرؤوس ، واحتكت الأقدام بالأرضية ،
ونقل الأطفال إلى الأكتاف ، وهرب عدة أطفال من قاعة المحكمة .
تهمس الزنوج الجالسون خلفنا بصوت خفيض فيما بينهم ، كان ديل
يسأل الكاهن سايكس عما يحدث ، ولكن الكاهن سايكس قال انه
لا يعرف . حتى الآن ، كانت الأمور مملّة تماماً : لم يرعد أحد ، ولم
تجر جدالات بين ممثل الادعاء والمحامي ، ولم تكن هناك أية دراما ،
بل احباط لآمال جميع الحاضرين كما يبدو . كان أتيكوس يمارس
عمله بودّ وكأنه منهمك في جدال حول حق ملكية . ويقدرته اللامحدودة
على تهدئة البحار الهائجة ، فقد كان يستطيع أن يجعل دعوى اغتصاب
تبدو جافة كموعظة . لقد ولى الرعب الذي كان يسكن ذهني ، الرعب
الممزوج بالويسكي المغشوش ، وروائح الحظائر والرجال النكدين
الناعمي العيون ، والصوت الأجش الذي يصبح في ظلام الليل : « ياسيدي

فينتش ؟ هل رحلوا ؟ » لقد تلاشى الكابوس مع ضوء النهار ، وسيعود كل شيء كما كان .

كان المشاهدون كلهم في حالة استرخاء ، كما القاضي تايلور ، باستثناء جم . فقد كان فمه ملوياً بنصف ابتسامة هادئة ، وكانت عيناه سعيدتين كما قال شيئاً حول تعزيز دليل ما مما جعلني واثقة من أنه كان يتباهى .

— . . . روبرت إي . لي يوويل .

وجواباً على صوت الكاتب المدوي ، نهض رجل ضئيل الحجم يوحى شكله بالمشاكسة ومشى بخيلاء نحو المنصة ، ومؤخرة عنقه آخذة بالاحمرار من جراء سماعه لاسمه . وحين استدار ليحلف اليمين ، ورأينا وجهه وقد احمرّ كعنته . لم نر أي تشابه بينه وبين ابنه الذي هو سميّه أيضاً . كانت كومة من الشعر الضئيل المغسول حديثاً تنتصب من جبهته ، كما كان أنفه نحيلاً ، مدبباً ولامعاً . لم تكن له ذقن تقريباً ، بل بدت وكأنها جزء من عنقه المجعد .

صاح بتبجح : « فليساعدني الله » .

لكل بلدة في حجم مايكوم عائلات كعائلة يوويل . لم يكن من شأن أية تقلبات اقتصادية أن تغيّر أوضاعها : فأشخاص كعائلة يوويل كانوا يعيشون كضيوف على المقاطعة في أوقات اليسر كما في أوقات الكساد الاقتصادي . لم يكن هناك من موظف لضبط التغيب يستطيع

أن يضبط دوام أولادها في المدرسة ، كما لم يكن هناك من موظف صحة يستطيع تحريرهم من عللهم الخلقية ، والأنواع المختلفة من الديدان المعوية ، والأمراض الخاصة بالبيئة القنطرة ، التي كانوا مصابين بها .

كان أفراد عائلة يوويل يعيشون وراء مقلب قمامة البلدة فيما كان مرة كوخاً للزئوج . وقد دُعمت ألواح الكوخ الخشبية بألواح من الحديد المموج ، كما كان سطحه مغطى على نحو متراكب بعلب صفيح طرقت حتى سطحت ، لذا فإن الشكل العام له هو الذي يوحي فحسب بتصميمه الأصلي : فهو مربع ، له أربع غرف صغيرة مفتوحة على ردهة محشورة بينها ، والكوخ نفسه يستقر متقللاً على أربع كتل غير منتظمة من الحجر الكلسي . نوافذه عبارة عن فراغات مفتوحة في الجدران ، كانت تغطي في الصيف بشرايط لزجة من أغلفة الجبن لابتعاد الهوام التي تتغذى على قمامة مايكوم .

كانت الهوام تعاني من مواسم عجفاء بسبب أن عائلة يوويل تقوم بجرد يومي كامل للقمامة ، وكانت مخلفات صناعتهم تلك (أي مالا يؤكل مما يلتقطونه من القمامة) تجعل الأرض المحيطة بالكوخ تبدو كبيت دمية لطفل مجنون : فالسياج كان أجزاء من أغصان الأشجار وأذرة المكناس والأدوات ، وكلها موضوع في رؤوسها مطارق صلبة ومذاري مكسورة الأسنان ، ومحارف وفؤوس ومعازق ، وقد ثبتت إلى بعضها البعض بقطع من الأسلاك الشائكة . وضمن هذا السياج — المتراس فناء قلدر يحتوي على بقايا سيارة فورد (موديل T) مرفوعة

على قوالب حجرية ، وكرمي طيب أسنان منبوذ ، وبراد عتيق
بالإضافة إلى مواد أخرى أقل حجماً : أحذية عتيقة ، أجهزة راديو
مهترئة ، اطارات لوحات وبرطمانات مربى ، وبين هذا كله كانت
دجاجات مهزولات تتجول وتنقر الأرض في أمل .

ولكن إحدى زوايا الفناء كانت تحيّر بلدة مايكوم . فعلى امتداد
الحاجز ، وضمن صف منتظم كانت ستة أوعية قلذرة من النوع المطلي
بالمينا المكسور تحمل زهور ابرة الراعي (الغرنوقي) الحمراء اللامعة ،
والمعنى بها برقة وكأنها كانت ملكاً للآنسة مودي أتيكنسون ، لو أن
الآنسة مودي تنازلت فسمحت لزهور ابرة الراعي بالعيش في فنائها .
كان الناس يقولون ان هذه كانت لمايئلا يوويل .

لم يكن هناك من يعرف عدد الأولاد بالضبط في ذلك الكوخ .
فالبعض قال انهم ستة ، وقال آخرون بل تسعة : فقد كان هناك دائماً
أطفال عديدون قلذرو الوجوه خلف النوافذ كلما مرّ شخص مامن هناك ،
ولم تكن هناك مناسبة للمرور من هناك سوى في عيد الميلاد ، حين
تقوم الكنيسة بتوزيع سلال الهدايا وحين يطلب منا محافظ البلدة أن نساعد
عامل القمامة بأن نرمي بأنفسنا في مقلب القمامة بأشجار عيد الميلاد
والنفايات .

اصطحبنا أتيكوس معه في عيد الميلاد الماضي حين استجاب لطلب
المحافظ . كان هناك درب ترابي يتفرّع من الطريق العام باتجاه مقلب

القمامة ، وينتهي الطريق إلى مستوطنة زنجية صغيرة تبعد خمسمئة ياردة إلى ماوراء كوخ عائلة يوويل . كان من الضروري اما العودة إلى الطريق العام أو قطع الدرب كله ثم الالتفاف ، وكان معظم الناس يلتفتون عند المرور بالفناءات الأمامية لأكواخ الزنوج . ففي غسق كانون الأول المثلج ، تبدو أكواخهم نظيفة ودافئة يخرج من مداخنها دخان أزرق فاتح اللون ومداخلها تتوهج بلون العنبر من نيران المدافئ . في المكان كانت تفوح روائح لذيذة : فراريج ، ولحم الخنزير المقدد المقلي والهش كنسم الغسق . ظننا جم وأنا أنهم يطبخون السناجب ، ولكن رجلاً ريفياً عجوزاً كاتيكوس هو الذي ميّز روائح قلي اللحم « البوسوم » (١) والأرانب ، وهي روائح تلاشت لدى عودتنا بالسيارة مروراً بمسكن عائلة يوويل .

كل ما كان لذلك الرجل الضئيل الحجم الجالس على منصة الشهود من ميزات عن أقرب جيرانه إليه كان : هو أنك إذا كشطت بصابون « القلي (٢) » والماء الحار جداً بشرته فسرى أنها بيضاء .

سأله السيد غيلمر :

— أأنت السيد روبرت يوويل ؟

أجاب الشاهد :

(١) حيوان أمريكي من ذوات الجراب يتظاهر بالموت عندما يحدق به الغنظ (المترجم)

(٢) مادة تستعمل في صنع الصابون وهي شديدة الفعالية . (المترجم)

— هذا هو اسمي ياسيدي .

تصلّب ظهر السيد غيلمر قليلاً ، وشعرت بالأسف عليه . ربما كان من الأفضل أن أشرح شيئاً ما هنا . لقد سمعت أن أطفال المحامين ، إذا ما شاهدوا آباءهم في المحكمة ، في معمان جدال ما ، فإنهم يأخذون انطباعاً خاطئاً بأن ممثل الادعاء هو عدو الأب المحامي شخصياً ، ولذا يعانون من الآلام ويدهشون حين يرونهما يخرجان من قاعة المحكمة وكل ذراع في ذراع معذّبه خلال الاستراحة الأولى . ولكن هذا لم يكن صحيحاً بالنسبة لخم ولي . فنحن لم نتلق أية صدمات من جراء مراقبة أبينا يخسر أو يكسب . يؤسفني أنني لأستطيع تزويدكم بأية دراما في هذا الخصوص ، ولو أنني حاولت لكان ذلك غير حقيقي . كنا نستطيع على أية حال أن نعرف متى تصبح المناظرة لاذعة وليس بالأحرى حرفية ، ولكن هذا ما لاحظناه من مراقبة محامين آخرين غير والدنا . لم أسمع أتيكوس يرفع صوته أبداً في حياتي ، إلا إذا كان يخاطب شاهداً ثقيل السمع . كان السيد غيلمر يؤدي واجبه وكذلك أتيكوس . وإلى جانب ذلك ، كان السيد يويول هو شاهد السيد غيلمر ، ولم يكن من شأنه أن يكون جلفاً معه دون الناس جميعاً .

كان السؤال التالي هو :

— هل أنت والد ماييلا يويول ؟

وكان الجواب :

— حسنًا إن لم أكن أنا أبوها فلا أستطيع شيئًا حيال ذلك الآن ،
فأمها قد ماتت .

تحرك القاضي تايلور في مكانه . استدار ببطء في كرسية الدوار
ونظر باعتدال إلى الشاهد ثم سأله بطريقة جعلت الضحك الصادر عن
الجالسين إلى الأسفل منّا يتوقف فجأة :

— هل أنت والد ماييلا يوويل ؟

أجاب السيد يوويل بخنوع :

— أجل ياسيدي :

استمر القاضي تايلور في لهجته التي تدل على النية الطيبة :

— هل هذه هي المرة الأولى التي تمثل فيها أمام المحكمة ؟ لا أنكر
أنه سبق لي ورأيك هنا .

وبعد أن أجاب الشاهد بإمحاء من رأسه ، استأنف القاضي كلامه
قائلًا :

— حسنًا ، لندخل الموضوع مباشرة . لن يكون هناك أية تأملات
بديئة مسموعة حول أي موضوع من أي شخص في هذه المحكمة
طالما كنت هنا . هل تفهم ؟

أومأ السيد يوويل برأسه ، ولكنني لا أعتقد أنه فهم ، فقد تنهد
القاضي وقال :

— حسناً ياسيد غيلمر؟

— شكراً ياسيدي . ياسيد يوويل ، هل لك أن تحكي لنا وبكلماتك أنت مالذي حدث في مساء يوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ، من فضلك ؟

ابتسم جم ودفع شعره إلى الخلف . فعبارة « بكلماتك أنت » كانت من العلامات التجارية المميزة للسيد غيلمر . غالباً ماكننا نتساءل أن كان الشاهد سيستخدم كلمات شخص آخر ، ومن هو ذلك الشخص ياترى ؟

— حسناً ، في ليلة الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) . . . كنت قادماً إلى البيت من الغابات حاملاً بعض الخطب وما أن وصلت إلى السياج حتى سمعت ماييلا تصرخ كخنزير مطعون في حنجرتة داخل المنزل .

هنا نظر القاضي بحدة إلى الشاهد ولابد أنه لاحظ أن تأملاته خالية من القصد الشرير ، فقد استرخى على نحو ناعس .

— في أي وقت حدث ذلك ؟

— قبل المغيب مباشرة . حسناً ، قلت لنفسي ان ماييلا كانت تصرخ بمنون يجعلها تضرب حتى المسيح لو كان أمامها . ولكن نظرة أخرى من المنبر أخرست السيد يوويل .

قال السيد غيلمر :

— حسناً ؟ هل كانت تصرخ ؟

نظر السيد يوريل بحيرة نحو القاضي ثم قال :

— حسناً ، كانت ماييلا تصيح ذلك الصباح المقدس ولذا أسقطت

حملي وركضت بأسرع ما أستطيع ولكني اصطدمت بالسياج ، وحين
استطعت أن أفلت منه أسرعت نحو النافذة ورأيت . . .

وهنا أصبح وجه السيد يوريل قمرزياً . نهض وأشار باصبعه إلى
توم روبنسون وقال :

— رأيت ذاك الزنجي الأسود يواقع ابنتي ماييلا .

كانت قاعة محكمة القاضي تايلور هادئة جداً إلى حد أنه لم يستعمل
مطرقة سوى مرات قليلة ، ولكنه ظل يطرق بها الآن خمس دقائق
كاملة . كان أتيكوس قد انتصب واقفاً عند المنبر وهو يقول شيئاً
للقاضي . أما السيد هك تيت كأعلى ضابط شرطة في المديرية فقد وقف
في الممشى الأوسط وهو يهدىء قاعة المحكمة المكتظة بالناس . إلى
الخلف هنا ، بدرت أنة غاضبة مكتومة من الناس الملّونين .

انحنى الكاهن سايكس فوق ديل وفوتي وهو يشدّ جم من مرفقه وقال :

— ياسيد جم ، الأفضل أن تأخذ الآتسة جان لويز إلى البيت .

ياسيد جم ، هل تسمعي ؟

التفت جم وقال :

— سكاوت اذهبي إلى البيت . ياديل ، اذهبا إلى البيت كلاكما .

قلت وأنا أتذكر قولاً مأثوراً لأتيكوس :

— عليك أن تجربني على ذلك بالقوة .

قطب جم بسخط باتجاهي ، ثم قال للكاهن سايكس :

— أعتقد أنه لا بأس من بقائها يا حضرة الكاهن ، فهي لا تفهم على أية حال .

جُرحت مشاعري جرحاً مميّناً فقلت :

— بل أفهم بكل تأكيد ، وأستطيع أن أفهم كل ماتفهمهم أنت .

— صه . انها لا تفهم يا حضرة الكاهن ، فهي لم تبلغ التاسعة بعد .

كانت عينا الكاهن سايكس السوداوان قلفتين . قال :

— هل يعرف السيد فينتش أنكم هنا ؟ ليس هذا مناسباً للآنسة جان لويز ، ولا حتى لكما أيها الصبيان .

هز جم رأسه وقال :

— لا يستطيع أن يرانا من هذا البعد . لا بأس يا حضرة الكاهن .

كنت أعرف أن جم سيكسب لأنني أدركت أن لاشيء يمكن أن

يجعله يغادر الآن . اذن كنا في أمان ديل وأنا ، على الأقل لفترة ما :
فأتيكوس يستطيع أن يرانا من حيث كان ، هذا إذا نظر باتجاهنا .

وحين قرع القاضي تايلور بمطرقته ، كان السيد يوويل جالسا
باعتداد في كرسي الشهود ، وهو يراقب ماصتته يده . فعبارة واحدة
حوّل المتزهرين السعيدين إلى جمهور عابس متوتر مهمهم ، منوم
مغناطيسياً ببطء على طرقات المطرقة التي راحت حدتها تخف حتى
أصبح الصوت الوحيد في قاعة المحكمة عبارة عن نقرات خفيفة : ربما
كان القاضي يضرب طاولته بقلم رصاص .

وبعد أن عاد القاضي تايلور إلى السيطرة على محكمته مرة أخرى ،
استرخى من جديد في كرسيه . بدا متعباً فجأة ، فقد ظهرت عليه
بؤادر الشيخوخة ، وفكرت فيما قاله أتيكوس : فهو والسيدة تايلور
لم يعودا يقبلان بعضهما بعضاً كثيراً : لابد وأنه في السبعين الآن .

قال القاضي :

— كان هناك طلب باخلاء القاعة من المشاهدين ، أو من

النساء والأطفال على الأقل ، ولكننا سنرفض هذا الطلب مؤقتاً . يرى
الناس عادة مايبحثون عنه ، ويسمعون مايصفون إليه ، ولهم الحق في
اخضاع أولادهم لذلك ، ولكنني سأؤكدهم عليكم أمراً واحداً : عليكم
أن تسمعوا وتروا ماتسمعونه وتروونه بصمت أو ستغادرون هذه القاعة ،

ولكنكم ان تغادروها حتى تم محاكمتكم جميعاً بتهمة تحقير المحكمة .
ياسيد يوويل ، عليك أن تبقي شهادتك ضمن اللغة الانكليزية المسيحية ،
إذا أمكن . تفضل ياسيد غيلمر .

ذكرني السيد يوويل بالصم والبكم . كنت على ثقة من أنه لم يسمع
كلمات القاضي تايلور الموجهة إليه : فقد كان فمه يناضل بصمت
ضدها ، ولكن وجهه أظهر تأثيرها عليه . لم يعد الاعتداد بادباً عليه ،
بل حل محله نوع من الاهتمام العنيد الذي لم ينطل على القاضي إطلاقاً :
وطوال مكوث السيد يوويل على منصة الشهادة ، كانت عينا القاضي
مركزتين عليه ، وكأنه يتحداه أن يقوم بحركة خاطئة .

تبادل السيد غيلمر وأتيكوس النظرات . كان أتيكوس قد جلس
مرة أخرى ، وقد أبقى قبضته على خده و كنا نستطيع مشاهدة وجهه .
كان السيد غيلمر يبدو يائساً نوعاً ما . ولكن سؤالاً بدر عن القاضي
جعله يسترخي ، إذ قال :

— ياسيد يوويل ، هل شاهدت المتهم يقيم علاقة جنسية مع ابنتك ؟
— نعم لقد رأيته .

كان الجمهور هادئاً ، ولكن المتهم قال شيئاً . همس أتيكوس
شيئاً ما فصمت توم روبنسون .

سأل السيد غيلمر :

- قلت انك كنت عند النافذة ؟
- نعم ياسيدي .
- وكم تبعد النافذة عن الأرض ؟
- حوالي ثلاثة أقدام .
- هل كنت قادراً على رؤية الغرفة بوضوح ؟
- نعم ياسيدي .
- كيف بدت الغرفة ؟
- حسناً ، كانت في حالة من الفوضى وكان عراكاً قد حصل .
- وماذا فعلت حين رأيت المتهم ؟
- حسناً ، لقد درت حول المنزل لأدخل ، ولكنه خرج من الباب
الأمامي قبلي مباشرة . وقد ميّزته جيداً . ولكني كنت منشغلاً جداً
بمايلاً بحيث لم ألحق به . أسرعت إلى داخل البيت وكانت ممددة على
الأرض وهي تزرق . . .
- إذن ماذا فعلت ؟
- حسناً ، لقد ركضت إلى مكتب السيد تيت بأسرع مااستطعت .
فقد كنت أعرف الفاعل جيداً إذ أنه يعيش في وكر الزنوج القريب
ويمرّ بالقرب من المنزل كل يوم . باحضرة القاضي ، اني أطالب المقاطعة

منذ خمسة عشر عاماً بأن تطهر ذلك الوكر القريب من منزلي ، فهؤلاء
الناس خطرون كجيران ، زيادة على أنهم يخفصون من قيمة ممتلكاتي...

قال السيد غيلمر بلهجة مستعجلة :

— شكراً ياسيد يوويل .

هبط الشاهد بسرعة من على المنصة واصطدم بقوة أتيكوس الذي
نهض ليستجوبه . سمح القاضي للحاضرين بالضحك .

قال أتيكوس بلطف :

— لحظة ياسيد . هل يمكنني أن أسألك سؤالاً أو سؤالين ؟

عاد السيد يوويل إلى منصة الشهود ، ثم جلس ، وراقب أتيكوس
بارتياب متعال ، وهو تعبير شائع لدى شهود مقاطعة مايكوم حين
يواجهون بمحامي الخصم .

قال أتيكوس :

— ياسيد يوويل ، يبدو أن الناس مارسوا الكثير من الركض تلك
الليلة . هياً كتر ماحدث : فأنت تقول انك ركضت إلى المنزل ،
وركضت إلى النافذة ، وركضت إلى الداخل ، وركضت إلى ماييلا
وركضت إلى السيد تيت . هل ركضت خلال كل ذلك الركض
نحو الطبيب ؟

- لم يكن هناك من داع لذلك . فقد رأيت ماحدث .
- ولكن هناك شيئاً لأفهمه . ألم تكن مهتماً بحالة ماييلا ؟
- كنت مهتماً جداً . لقد رأيت من فعل ذلك .
- لا ، أعني حالتها الصحية . ألم تفكر بأن طبيعة جروحها تتطلب اهتماماً طبياً فورياً ؟

— ماذا ؟

- ألم تجد أنه من الضروري أن تجلب لها طبيباً على الفور ؟
- قال الشاهد انه لم يفكر بذلك أبداً ، فهو لم يستدع طبيباً لأي من أولاده طوال حياته ، ولو أنه اضطر إلى ذلك فسيكلفه ذلك خمسة دولارات . ثم أضاف :

— أهذا كل ما في الأمر ؟

قال أتيكوس بلهجة عرضية :

- ليس تماماً . ياسيد يوويل ، لقد سمعت شهادة المأمور . أليس كذلك ؟

— ماذا تعني ؟

- كنت في قاعة المحكمة حين كان السيد هك تيت على منصة على منصة الشهود ، أليس كذلك ؟ لقد سمعت كل ماقاله ، أليس كذلك ؟

درس السيد يويويل المسألة بعناية وبدأ عليه أنه قرر أن السؤال
آمن . قال :

— نعم .

— هل توافق على وصفه بلجروح مايبلا ؟

نظر أتيكوس نحو السيد غيلمر وابتسم . بدا على السيد يويويل أنه
مصمم على ألا يمنح الدفاع فرصة لممارسة القوة .

— لقد شهد السيد تيت قائلاً ان عينها اليمنى كانت مسودة ،
وأنها كانت مصابة فيما حول . . .
قال الشاهد :

— حسناً حسناً ، أوافق السيد تيت على كل ماقاله .

سأله أتيكوس برقة :

— هل توافق فعلاً ؟ كل ماأريده هو أن أتأكد من الموضوع .
ثم سار نحو كاتب المحكمة ، وقال له شيئاً ، وقد قام الكاتب بتسليتنا
عدة دقائق بإعادة قراءة شهادة السيد تيت بطريقة بدا معها أنه يقرأ
أسعار سوق الأسهم : « . . أجل حسناً ، أنها عينها اليمنى إذن .
لقد كانت عينها اليمنى ياسيد فينتش . أتذكر الآن لقد كانت مضروبة » .
ثم قلب الصفحة وقرأ : « على هذا الجانب من وجهها ياحضرة المأمور
كرر من فضلك ماقلته . قلت أنها كانت عينها اليمنى » .

قال أتيكوس :.

— شكراً يا « بيرت » . لقد سمعت الشهادة مرة أخرى ياسيد
يوويل . هل لديك ماتضيفه على ذلك ؟ هل توافق على مقاله المأمور ؟
— أؤيد تيت . كانت عينها مسودة وكانت قد تعرضت لضرب
شديد .

بدا الرجل الضئيل وكأنه نسي الاذلال الذي تعرض له سابقاً من
القاضي . وكان يتضح أنه ظن أتيكوس نداءً سهلاً . وبدا وجهه يحمر
مرة أخرى ، كما انتفخ صدره ، وأصبح من جديد ديكاً صغيراً
أحمر . وظننت أن قميصه سيتمزق عند سؤال أتيكوس التالي :

— ياسيد يوويل ، هل تستطيع أن تقرأ وتكتب ؟

هنا قاطع السيد غيلمر قائلاً :

— اعتراض . لأرى علاقة لقدرة الشاهد على القراءة والكتابة
بهذه القضية ، وأعتقد أن السؤال لاعلاقة له بالموضوع وغير هام .

كاد القاضي يقول شيئاً ولكن أتيكوس سبقه فقال :

— ياسيدي القاضي ، إذا سمحت بهذا السؤال والسؤال اللاحق
فستعرف فوراً علاقته بالموضوع .

قال القاضي :

— حسناً ، لئر ، ولكن أريدك أن تجعلنا نعرف يا أتيكوس .
الاعتراض مرفوض .

بدا على السيد غيلمر الفضول حول علاقة ثقافة السيد يوويل بالقضية.
قال أتيكوس :

— سأكرر السؤال : هل تستطيع القراءة والكتابة ؟
— طبعاً .

— هل لك أن تكتب اسمك وترينا إياه ؟

— سأفعل ذلك . كيف تظن أنني أوقع شيكات الاعانة إذن ؟
كان السيد يوويل يحاول تحبيب المواطنين به . وكانت الهمسات
والضحكات الخافتة الصادرة عن الطابق الأول تدور حول هذا الشخص ،
وكم هو مسكين .

بدأت أشعر أنني أصبحت عصبية . بدا أتيكوس وكأنه يعرف
مايفعله ، ولكن بدا الأمر لي وكأنه ذاهب لصيد الضفادع دون ضوء .
محظور محظور محظور عليك كمحام أن تسأل شاهد أسوأ لا تعرف الجواب
عليه مسبقاً ، وكانت تلك عقيدة رضعتها مع الحليب . افعل ذلك ،
وستحصل غالباً على جواب لا تريده ، جواب قد يجعلك نخسر الدعوى .
كان أتيكوس يبحث في جيب جاكيتيه عن شيء ما . أخرج مظلوفاً
ثم أخرج قلمه من صدرته . كان يتحرك ببطء ، وقد التفت بحيث

يراه المحلفون جيداً . فتح غطاء قلمه وركبه على القلم بلطف . ثم
هز القلم قليلاً وسلمه مع المظروف إلى الشاهد ، وقال له :

— هل لك أن تكتب اسمك عليه ؟ أريده واضحاً حتى يراك
المحلفون تفعل ذلك .

كتب السيد يوويل على ظهر المظروف ثم رفع نظره برضى ذاتي
ليرى القاضي يحدق فيه وكأنه زهرة كاردينيا عطرة في أوج تفتحها
على منصة الشهادة ، وليرى السيد غيلمر نصف جالس نصف واقف
عند منضدته . كان المحلفون يراقبونه ، وكان أحدهم ينحني إلى الأمام
ويده فوق الحاجز .

سأل :

— ما المهم في الموضوع .

قال القاضي :

— أنت أعسر ياسيد يوويل .

استدار السيد يوويل بغضب نحو القاضي وقال انه لا يرى علاقة
بين كونه أعسر وبين هذه القضية ، وإنه رجل يهاب المسيح وإن أتيكوس
فيتنش يحتال عليه . ان المحامين الماكرين من أمثال أتيكوس فينتش
يحتالون عليه طوال الوقت بأساليبهم الماكرة . لقد أخبرهم بما حدث ،
وسيقول ذلك مراراً وتكراراً ، وقد فعل ما وعد به : فكل مأسأله إياه

أتيكوس بعد ذلك لم يجعله يغير افادته ، فقد نظر من النافذة ثم ركض
فهرب الزنجي ، ثم ركض نحو الشريف . وأخيراً صرفه أتيكوس .

سأله السيد غيلمر سؤالاً آخر .:

— بالنسبة لكتابتك باليد اليسرى ، هل أنت قادر على استعمال
كلتا يديك بالبراعة نفسها ياسيد يوويل ؟

— لبست كذلك اطلاقاً ، أستطيع استعمال إحدى يديّ كالأخرى
تماماً . اليد الواحدة كالأخرى .

ثم نظر بغضب إلى منضدة الدفاع .

بدا جم وكأنه في نوبة هادئة إذ كان يضرب حاجز الشرفة برقعة ،
وهمس مرة قائلاً :

— لقد أمسكتنا به .

لم أكن من الرأي نفسه ، فقد كان أتيكوس يحاول أن يظهر — كما
بدا لي — انه من المحتمل أن يكون السيد يوويل هو الذي ضرب مايبلا .
لقد استطعت أن أتابع الأمر إلى ذلك الحد . إذا كانت عينها اليمنى
هي المسودة من الضرب وكانت أصابتها في معظمها في الجهة اليمنى
من الوجه ، فهذا سيظهر أن الذي ضربها شخص أعسر . كان شروك
هولمز وجم فيتش سيوافقان على ذلك . ولكن يمكن أن يكون نوم

روبسون أعسر أيضاً . وقد تخيلت شأن السيد هك تيت أن شخصاً
يواجهني مثلاً ثم تخيلت في ذهني وبسرعة حركات إيمائية سريعة ،
واستنتجت أنه من الممكن أن يكون قد أمسك بها بيده اليمنى وضربها
بيده اليسرى . نظرت إليه . كان ظهره لنا ، ولكنني استطعت رؤية
كتفيه العريضين ، وعنقه الأشبه بعنق الثور ثخانة . كان يمكنه بكل سهولة
أن يكون قد فعل ذلك . اعتقدت أن جم يستعجل الحكم على الأمور .

* * *

الفصل الثامن عشر

ولكن شخصاً ما كان يصبح مرة أخرى :

— ماييلا فايوليت يوويل

سارت فتاة شابة نحو منصة الشهادة . وبينما كانت ترفع يدها وتنقسم أن الشهادة التي ستقدمها ستكون هي الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة وليساعدها الله على ذلك ، بدا عليها أنها رقيقة التكوين ، ولكن حين جلست وأصبحت في مواجهتنا على كرسي الشهود ، بدت على حقيقتها : فتاة ذات جسد قوي التركيب معتادة على العمل المضي .

في مقاطعة مايكوم كان من السهل أن تعرف الشخص الذي يستحم على نحو منتظم ، بالمقارنة مع أولئك الذين يستحمون مرة في السنة : كان للسيد يوويل مظهر يبدو معه وكأنه مسلوب سلقاً ، فقد نزع جسده بالماء لليلة واحدة مما حرمه طبقات وقائية من القذارة ، وبدت بشرته حساسة لعناصر الطبيعة . أما ماييلا فبدت وكأنها فتاة تحاول أن تبقي نفسها في حالة من النظافة ، وتذكرت صف أصص زهر الغرنوقي في فناء منزل عائلة يوويل .

طلب السيد غيلمر من ماييلا أن تحكي للمحلفين بكلماتها هي بالذات
عما حدث مساء يوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)
من العام الماضي ، بكلماتها هي بالضبط إذا تفضلت .

كانت ماييلا تجلس صامتة .

بدأ السيد غيلمر بصبر :

— أين كنت عند العسق في ذلك المساء ؟

— على الرواق .

— أي رواق ؟

— لا يوجد سوى رواق واحد ، الأمامي .

— مالذي كنت تفعله على الرواق ؟

— لا شيء .

قال القاضي تايلور :

— احك لنا ماحدث فحسب ، دون زيادة أو نقصان ، هل لك

في ذلك ؟

حدقت ماييلا فيه ثم أجهشت بالبكاء . غطت فمها بيديها وانتحبت .

سمع لها القاضي بالبكاء لفترة ثم قال : « يكفي هذا الآن . لا تخافي .

من أي شخص موجود هنا ، طالما كنت تقولين الحقيقة . هذا كله .

غريب عليك ، أعرف ذلك ، ولكن ليس عليك أن تخجلي أو تخافي
من أي شيء . مالدني تخشينه ؟ » .

تلفظت ماييلا بشيء ما ويدها على فمها .

سألها القاضي :

— مالدني قلته ؟

— هو .

انتحبت وهي تشير إلى أتيكوس .

— السيد فينتش ؟

أومات برأسها بشدة فائقة :

— لأأريده أن يفعل بي مافعله بأبي ، فقد حاول أن يجعله يبدو

أعسر . . .

حك القاضي تايلور شعره الأبيض الكثيف . من الواضح أنه لم
يواجه سابقاً بمشكلة من هذا النوع . سألها :

— كم عمرك ؟

— تسعة عشر عاماً ونصف .

تنحج القاضي وحاول ذون نجاح أن يتحدث بلهجة ملطفة . زار :

— ليس لدى السيد فينتش أية نية في تخويفك ، ولو فعل فأنا

هنا لأمنعه . وهذا شيء من بين أشياء أخرى هي من صميم عملي .
والآن ، هيا ، فأنت فتاة كبيرة . ارفعي رأسك وقولي لنا . . . قولي
لنا ما حدث لك . يمكنك ذلك ، هه ؟

همست بلحم :

— هل لديها حدس سليم ؟

كان جم ينظر نحو منصة الشهادة . قال :

— لانستطيع أن نعرف بعد . لديها من العقل ما يكفي لجعل القاضي
يشعر بالأمى عليها ، ولكنها قد تكون مجرد . . . أوه ، لأعرف .

بعد أن هدأت ، قامت ماييلا وحدثت أتيكوس بنظرة مليئة
بالرعب وقالت للسيد غيلمر :

— حسناً ياسيدي ، لقد كنت واقفة على الرواق و . . . ومرو
هو وكما ترى ، كانت هناك تلك الخزنة في الفناء التي جلبها والدي
لنحطّ بها . قال لي والدي إن عليّ أن أفعل ذلك بينما هو في الغابات ،
ولكني لم أكن أشعر بالقوة الكافية ، وجاء هو . . .

— « من هو » ؟

أشارت ماييلا إلى توم روبنسون .

قال السيد غيلمر :

— سأضطر إلى أن طلب منك أن تكوني أكثر تخصيصاً ، أرجوك .
فالكاتب لا يستطيع أن يسجل الایماءات على نحو جيد .

قالت :

— ذاك الذي هناك . روبنسون .

— إذن ماذا حدث ؟

— قلت له : « تعال إلى هنا يازنجي وحطّب لي هذه الخزانة ،
وسأعطيك خمسة سنتات » . كان يستطيع أن يفعل ذلك بكل سهولة .
وهكذا دخل الفناء ودخلت المنزل لأحضر له الخمسة سنتات ثم التفت
فجأة وقبل أن أدرك ماحدث كان قد انقض عليّ . كان قد تسلل خلفي ،
لقد فعل ذلك . لف ذراعه حول عنقي وهو يشتمني ويقول كلاماً
قلداً . . . قائلته وصرخت ، ولكنه كان قد أمسك بي من عنقي .
وقد ضربني المرة تلو المرة . . .

انتظر السيد غيلمر حتى استعادت ماييلا رباطة جأشها : كانت
قد لوت مندليها فتحوّل إلى جبل متعرق : وحين فتحت له لشمس وجهها
كان عبارة عن كتلة من التجميدات من ضغط يديها الحارّتين . انتظرت
السيد غيلمر حتى يسألها سؤالاً آخر ، ولكنه حين لم يفعل قالت :

— رماني إلى الأرض وكان يمسكني من عنقي واغتصبني .

سأل السيد غيلمر :

- هل صرخت؟ هل صرخت ودافعت عن نفسك؟
- أعتقد أنني فعلت ، فقد صرخت بأقوى ما استطعت ، ورفضت وصحت بأعلى ما استطعت .
- ثم ماذا حدث؟
- لا أتذكر جيداً ، ولكن الشيء التالي الذي أتذكره هو أنني عرفت أن بابا كان في الغرفة يقف فوق ويصرخ : « من الذي فعل ذلك؟ من هو؟ » ثم اغمي علي والشيء التالي الذي أتذكره هو السيد تيت وهو يرفعني عن الأرض ويقودني إلى دلو الماء .
- من الواضح أن سرّ ماييلا قد منحها الثقة ، ولكنها لم تكن ثقة أبيها الوقحة : فقد كان هناك شيء ما فيها يوحى بالخلصة ، كهرة ذات عينيّن ثابتتين وذيل مرتعش .
- سألها السيد غيلمر :
- قلت انك دافعت عن نفسك بأقوى ما تستطيعين . دافعت بالأسنان والأظافر؟
- لقد فعلت ذلك بكل تأكيد .
- هل أنت متأكدة من أنه اغتصبك بمعنى الكلمة؟
- التوت قسماً ماييلا ، وخشيت أن تنخرط في البكاء مرة أخرى .
- ولكنها قالت بدلاً عن ذلك .:

— لقد فعل ما كان ينبغي .

لقت السيد غيلمر الانتباه إلى القيثارة بأن مسح رأسه بيده . قال بلطف :

— حسناً ، هذا كل ما هنالك الآن . ولكن ابقني هنا . فأنا أتوقع من السيد فينتش الضخم الشرير أن يسألك بعض الأسئلة .

همهم القاضي تايلور بلهجة مترتبة :

— لا يتوجب على مثل النيابة أن يجعل الشاهد يتحامل على وكيل الدفاع ، على الأقل ليس هذه المرة .

نهض أتيكوس مبتسماً ، ولكنه بدلاً من أن يسير نحو منصة الشهود فتح معطفه وعلّق إبهاميه في صدرته ، ثم مشى ببطء عبر القاعة نحو النوافذ . نظر إلى الخارج ، ولكنه لم يبذل مجهوداً تاماً بما رآه ، ثم التفت وسار بسرعة نحو منصة الشهود . ومن سنوات طويلة من الخبرة ، استطعت أن أعرف أنه كان يحاول الوصول إلى قرار حول شيء ما .

قال مبتسماً :

— آنسة ماييلا ، لن أحاول اخافتك لفترة ما ، لم يثن الأوان بعد . ولكن هيا نتعرف الواحد على الآخر . كم هو عمرك ؟

— سبق وقلت اني في التاسعة عشرة ، قلت ذلك إلى القاضي هناك . وهنا أشارت ماييلا برأسها نحو منبر القاضي بامتعاض .

— أجل ، لقد فعلت ذلك ، أجل ياسيديتي . عليك أن تحتمليني

ياآنسة ماييلا ، فأنا أشيخ ولا أستطيع الآن أن أتذكر جيداً كما كنت في السابق . قد أسألك عن أشياء سبق لك وقتلتها ، ولكنك ستجيبيني ، أليس كذلك ؟ هذا حسن .

لم أستطع أن أرى أي شيء في تعاير ماييلا يبرّر افتراضه بأنه قد ضمن تعاونها الكامل معه . فقد كانت تنظر إليه بسخط شديد .
قالت :

— لن أجيب على كلمة واحدة تقولها طالما تواظب على السخرية مني .
سألها أتيكوس وقد أخذته المفاجأة :

— ماذا بأسيدتي ؟

— طالما تهزأ مني .

قال القاضي تايلور :

— السيد فينتش لا يهزأ منك . ماحكايته ؟

نظرت ماييلا من تحت جفنيها المسدلين إلى أتيكوس ، ولكنها
قالت للقاضي :

— طالما يدعوني بسيدتي ويقول لي ياآنسة ماييلا فلست مضطرة إلى قبول طريقته في ازدرائي ، لست مضطرة إلى ذلك .

استأنف أتيكوس مشيته نحو النوافذ وترك للقاضي تايلور معالجة هذا الموضوع . لم يكن القاضي تايلور من ذلك النوع من الأشخاص

الذين يثيرون الشفقة ، ولكني أحسست بالشفقة عليه وهو يحاول الشرح . قال لماييلا :

— هذا هو أسلوب السيد فينتش . لقد عملنا معاً في هذه المحكمة منذ سنوات وسنوات ، والسيد فينتش مهذب دائماً مع الجميع . انه لا يحاول الهزء بك ، بل يحاول أن يكون مهذباً . هذا هو أسلوبه فحسب . عاد القاضي ليسند ظهره إلى كرسیه ، وقال :

— يا أتيكوس ، هيا نتابع هذه الاجراءات ، وعلى الكاتب أن يسجل أن الشاهد لم يتعرض للهزء به ، بل العكس هو الصحيح .

تساءلت في نفسي ان كان قد سبق لأي شخص أن ناداها بـ « سيدتي » أو « الآتسة ماييلا » ، ربما لا ، حيث انها انزعجت من مجرد سماعها لتعابير الكياسة الروتينية . كيف هي حياتها ياترى ؟ سرعان ماوجدت الجواب .

استأنف أتيكوس :

— تقولين انك في التاسعة عشرة ، كم أخت وأخ لديك ؟

ثم سار من النوافذ عائداً إلى المنصة .

أجابت :

— سبعة .

وتساءلت في نفسي ان كانوا كلهم من تلك العينة التي رأيتها
في أول أيام المدرسة .

— هل أنت كبراهم ؟

— نعم .

— منذ متى ماتت أمكم ؟

— لأعرف . منذ وقت طويل .

— هل سبق لك وذهبت إلى المدرسة ؟

— أكتب وأقرأ على نحو جيد كيأبأ الخالص هناك .

ذكرتني ماييلا بشخصية في كتاب قرأته أسمها « السيد جينغل » .

— كم بقيت في المدرسة ؟

— سنتان . . . ثلاث . . . لأدري .

ببطء ولكن بثقة بدأت أرى نمط أسئلة أتيكوس : فمن أسئلة
كان السيد غيلمر لايجدها غير ذات صلة بالموضوع أو غير أساسية
بحيث يعترض عليها ، كان أتيكوس يرسم ويطء أمام المحلفين صورة
للحياة العائلية لأسرة يوويل . فقد عرفت هيئة المحلفين مايلي : كانت
شيكات الاعانة غير كافية اطلاقاً لأطعام العائلة ، وكان هناك شك
كبير في أن الأب يسكر بثمانها . . . فقد كان يغيب أحياناً في المستنقع

لأيام يحالها ويعود مريضاً : نادراً ما كان الطقس بارداً بما فيه الكفاية ليتطلب ارتداء حذاء ، ولكن حين كانوا يحتاجون إلى حذاء، كانوا يصنعونه من قطع العجلات القديمة . كانت العائلة تستقي الماء بالدلاء من نبع كان ينبثق من أحد أطراف مقلب القمامة — وكانوا يبقون المنطقة المحيطة به نظيفة من القمامة — وبالنسبة للنظافة كان على كل واحد منهم أن يعتني بنفسه : إذا أردت أن تغتسل فعليك أن تحضر الماء بنفسك . كان الأطفال الأصغر سناً مصابون بالزكام الدائم ويعانون من مرض الحكة المزمنة . وكانت هناك سيدة تأتي أحياناً وتسأل ماييلا عن السبب في عدم بقائها في المدرسة : وقد سجلت الجواب كما يلي : طالما كان في العائلة اثنان يستطيعان الكتابة والقراءة فلا حاجة للبقية أن يتعلموا : فقد كان بابا بحاجة إلى وجودهم في البيت .

قال أتيكوس رغباً عن أنفه :

— يا آنسة ماييلا . . . ان فتاة مثلك في التاسعة عشرة من العمر لا بد وأن يكون لها أصدقاء . من هم أصدقاؤك ؟

قطبت الشاهدة كأنها قد وقعت في مأزق . قالت :

— أصدقاء ؟

— أجل ، ألا تعرفين أحداً في سنك أو أكبر قليلاً ، أو أصغر ؟
شبان وفتيات ؟ مجرد أصدقاء عاديين ؟

اشتعل عداء ماييلا مرة أخرى بعد أن كان قد خمد متحولاً إلى
حيادية حاقدة ، فقالت :

— أتتهزأ بي مرة أخرى ياسيد فينتش ؟

ترك أتيكوس سؤالها يجيب على سؤاله .

كان سؤاله التالي :

— هل تحبين أباك ياآنسة ماييلا ؟

— أحبه ، ماذا تعني ؟

— أعني ، هل هو طيب معك ، هل التعامل معه سهل ؟

— انه محتمل إلا حين . . .

— إلا حين ماذا ؟

نظرت ماييلا إلى أبيها ، الذي كان جالساً وكرسيه مميل على
الحاجز . عدل جلسته وراح ينتظر جوابها .

قالت ماييلا :

— إلا حين لاشيء . قلت انه ممكن احتمالاه .

مال السيد يوويل في كرسيه مرة أخرى .

سألها أتيكوس بلطف شديد :

— إلا حين يشرب ؟

فكان أن أومأت برأسها موافقة .

— هل يضربك ؟

— ماذا تعني ؟

— حين يكون غاضباً ، هل يضربك عادة ؟

نظرت ماييلا فيما حو لها ، ثم نحو كاتب المحكمة ، ثم إلى القاضي .

قال القاضي :

— أجبني على السؤال يا آنسة ماييلا .

صرخت بشبات :

— لم يسبق لبابا أن لمس شعرة في رأسي طوال حياتي . لم يلحسني
مرة واحدة .

كانت نظارتا أتيكوس قد انزلتتا قليلاً ، فدفعهما نحو أعلى أنفه . قال :

— لقد كانت محادثتنا جيدة حتى الآن يا آنسة ماييلا ، والآن أعتقد أنه
من الأفضل لنا أن نعالج القضية . تقولين انك طلبت من توم
روبنسون أن يأتي ليكسر لك . . . ما كان ذلك ؟

— خزانة ، خزانة عتيقة ذات أدراج من جانب واحد .

— هل كنت على معرفة جيدة بتوم روبنسون ؟

— ماذا تعني ؟

— أعني هل كنت تعرفين من هو ، وأين يعيش ؟

أومأت ماييلا برأسها وقالت :

— كنت أعرف من هو ، فقد كان يمرّ بالقرب من المنزل كل يوم .

— هل كانت تلك أول مرة تطلبين منه أن يدخل إلى ماوراء

السياج ؟

أجفلت ماييلا قليلاً لدى سماعها السؤال . كان أتيكوس يقوم
برحلة حجّ بطيئة نحو النواخذ ، كما كان يفعل طوال الوقت : كان
يطرح سؤالاً ثم ينظر إلى الخارج وينتظر الجواب . لم يرَ إجفائها
اللا ارادي ووثبتها في مكانها وهي جالسة ، ولكن بدا لي أنه يعرف
أنها تحركت . استدار ثم رفع حاجبيه وقال :

— هل كانت تلك . . . ؟

-- نعم .

— ألم يسبق لك أن طلبت منه أن يدخل إلى ماوراء السياج ؟

الآن كانت جاهزة للإجابة :

— لم أفعل ، وبكل تأكيد لم أفعل .

قال أتيكوس بهدوء :

— إنَّ « لم أفعل » واحدة تكفي . ألم تطلبي منه أن يؤدي لك خدمات كنلك من قبل ؟

تنازلت ماييلا قائلة :

— ربما أكون قد فعلت ذلك . كان هناك عدة زنوج في الجوار .

— هل تتذكرين أية مناسبات أخرى ؟

— لا .

— حسناً ، والآن إلى ماحدث . قلت ان توم روبنسون كان خلفك

في الغرفة حين التفت ، هل هذا صحيح ؟

— نعم .

— قلت انه « لف ذراعه حول عنقك وهو يشتمك ويقول كلاماً

قذراً » . هل هذا صحيح ؟

— نعم صحيح :

أصبحت ذاكرة أتيكوس دقيقة فجأة . قال :

— تقولين : « رماني وأمسك بي من عنقي واغتصبني » . هل

هذا صحيح ؟

— هذا ماقلته .

— هل تذكرين أنه ضربك على وجهك ؟

ترددت الشاهدة .

— تبدين واثقة تماماً بأنه أمسك بك من عنقك . وفي تلك الأثناء كنت تدافعين عن نفسك ، ألا تتذكرين ؟ فأنت « رفته وصرخت بأقوى ما استطعت » . هل تتذكرين أنه ضربك على وجهك ؟

كانت ماييلا صامته . بدا أنها تحاول أن توضح شيئاً ما لنفسها . واعتقدت لبرهة أنها كانت تمارس حيلة السيد تيت وحياتي في التظاهر بأن شخصاً ما كان أمامها . نظرت إلى السيد غيلمر .

— انه سؤال سهل ياآنسة ماييلا ، لذا سأبدل محاولة أخرى . هل تذكرين أنه ضربك على وجهك ؟

كان صوت أتيكوس قد فقد تلك الراحة التي يوحى بها عادة ، فأصبح يتحدث بصوته القاسي الحياضي المهني :

— هل تذكرين أنه ضربك على وجهك ؟

— لا ، لا أذكر ان كان ضربني . أعني أنني أذكر ، لقد ضربني أجل .

— هل كانت آخر جملة لك هي الجواب ؟

— ماذا ؟ نعم ، لقد ضربني . . . لا أستطيع أن أذكر ، هذا كل ما في الأمر . . . لقد حدث كل ذلك بسرعة كبيرة .

نظر القاضي تايلور بصرامة نحو ماييلا . قال :

— لا تبكي أيتها الشابة . . .

ولكن أتيكوس قاطعه قائلاً :

— فلتبك إذا أردت ياسيدي القاضي . لدينا من الوقت مايكفي .

نشقت ماييلا بغضب ونظرت إلى أتيكوس وقالت :

— سأجيب على أي سؤال لديك . . . أجلسي هنا واهزأ بي ، هل

لك أن تفعل ذلك ؟ سأجيب على كل سؤال لديك . . .

قال أتيكوس :

— هذا حسن . لم يبق إلا القليل من الأسئلة . ياآنسة ماييلا ، لاأريد

أن أكون مضجراً ، ولكنك أفدت بأن المتهم قد ضربك ، أمسك بك

من عنقك ، وخنقك ، واغتصبك . أريدك أن تكوني متأكدة من

الشخص الصحيح . هل لك أن تعرفي على الشخص الذي اغتصبك ؟

— سأفعل ، انه هناك .

التفت أتيكوس نحو المتهم وقال :

— قف يا قوم . دع الآنسة ماييلا تنظر إليك جيداً . هل هذا هو

الرجل ياآنسة ماييلا ؟

كانت كتفا توم روبنسون القويتان تتموجان تحت قميصه الرقيق .

نهض ووقف ويده اليمنى على ظهر كرسيه . بدا عليه أنه غير متوازن إلى حد كبير ، ولكن ذلك لم يكن بسبب طريقة وقوفه إذ كانت ذراعه اليسرى أقصر من اليمين بخمسة عشر سنتيمتراً ، وكانت تتدلى دون حراك إلى جانبه . كان في نهايتها يد صغيرة زاوية ، ومن هذا المكان البعيد ، من الشرفة ، كنت أستطيع أن أرى أنها يد عاطلة تماماً .

همس جم :

— سكاوت ، سكاوت انظري . يا حضرة الكاهن ، انه مشلول .

انحنى الكاهن سايكس من فوقى وهمس بلحم :

— لقد انحشرت في محلجة اللقطن ، في محلجة السيد دولفوس رايموند حين كان صبيّاً بعد . . . وقد نرف حتى كاد يموت . . . وقد تمزقت كل عضلات ذراعه وانفصلت عن عظامها . . .

قال أتيكوس :

— هل هذا هو الرجل الذي اغتصبك ؟

— انه هو بكل تأكيد .

كان سؤال أتيكوس التالي عبارة عن كلمة واحدة :

— كيف ؟

كانت ماييلا الآن في حالة هياج :

— لا أعرف كيف فعل ذلك ، ولكنه فعلها . . . قلت ان كل شيء
حدث بسرعة كبيرة وإلى حد أي . . .

— والآآن هيا ندرس الموضوع بهدوء . . .

هكذا بدأ أتيكوس ، ولكن السيد غيلمر قاطعه باعترض : لم يكن
السؤال غير ذي صلة بالموضوع أو غير أساسي ، ولكن أتيكوس كان
يرهب الشاهدة .

ضحك القاضي تايلور فوراً :

— اجلس يا هوراس ، انه لا يفعل ما تقول له . بل العكس هو الصحيح
فالشاهدة هي التي ترهب أتيكوس .

كان القاضي تايلور هو الشخص الوحيد الذي ضحك في القاعة .
حتى الأطفال الرضع كانوا صامتين ، وتساءلت فجأة ان كانوا قد
اختنقوا على صدور أمهاتهم .

قال أتيكوس :

— والآآن ، يا آنسة ماييلا ، لقد شهدت بأن المتهم قد خنقك
وضربك . لم تقولي إنه تسلل من خلفك وضربك خلسة فأفقدك الوعي ،
بل أنك التفت فوجدته هناك خلفك . . .

كان أتيكوس قد عاد إلى ما وراء منضدته ، وقد شدد على كلماته
بأن راح يضرب بأصابعه عليها :

- هل تريدن إعادة النظر في شهادتك ؟
- هل تريدني أن أقول ما لم يحدث ؟
- لا ياسيدي ، أريدك أن تقولي ما حدث فعلاً : قولي لنا مرة أخرى ، من فضلك ، ما الذي حدث ؟
- لقد قلت لك ما حدث .
- لقد شهدت بأنك التفت فوجدته خلفك . هل خفقت عندئذ ؟
- أجل
- ثم ترك عنقك وضربك ؟
- قلت انه فعل .
- وقد ضربك على عينك اليسرى حتى اسودت بقبضته اليمنى ؟
- لقد تفاديت الضربة . . . وقد طاشت ، لقد طاشت فعلاً .
- لقد تفاديتها وطاشت .
- لقد نزل الوحي على ماييلا أخيراً .
- لقد أصبحت فجأة واضحة بالنسبة لهذه المسألة . فمئذ قليل كنت لاتستطيعين التذكر جيداً ، أليس كذلك ؟
- قلت انه ضربني .

- حسناً . لقد خنقك ، ضربك ثم اغتصبك ، هل هذا صحيح ؟
- صحيح بكل تأكيد .
- أنت فتاة قوية ، مالم الذي كنت تفعلينه طوال الوقت ، هل كنت تقفين فحسب ؟
- قلت لك اني صرخت ورفضت وقاتلت . . .
- مد أتيكوس يده وخلع نظارتيه ، ثم أدار عينه اليمنى الصحيحة نحو الشاهدة ، وأمطرها بالأسئلة . قال القاضي تايلور :
- سؤال واحد في كل مرة يا أتيكوس . امنح الشاهدة فرصة للجواب .
- حسناً ، لماذا لم تهربي ؟
- حاولت . . .
- حاولت ماذا ؟ مالم الذي منعك ؟
- أنا . . . لقد رماني أرضاً . هذا ما فعله . لقد رماني أرضاً وارتمى فوقي .
- هل كنت تصرخين طوال ذلك الوقت ؟
- كنت أصرخ بكل تأكيد .

— لماذا إذن لم يسمعك الأطفال الآخرون ؟ أين كانوا ؟ عند
مقلب القمامة ؟

لا جواب .

— أين كانوا ؟

— لماذا لم تجعلهم صرخاتك يهرعون مسرعين ؟ المقلب أقرب من
الغابات ، أليس كذلك ؟

لا جواب .

— أو أنك لم تصرخي حتى شاهدت والدك عند النافذة ؟ لم تفكر
بالصراخ إلا حينذاك ، أليس كذلك ؟

لا جواب .

— صرخت أولاً على أبيك بدلاً عن أن تصرخي على توم
روبنسون ؟ هل كان الأمر كذلك ؟

لا جواب .

— من ضربك ؟ توم روبنسون أم أبوك ؟

لا جواب .

— ما الذي رآه أبوك عند النافذة ، جريمة اغتصاب أم أفضل دفاع
عنها ؟ لم لا تقولين الحقيقة يا طفلي ؟ ألم يضربك بوب يوويل ؟

حين التفت أتيكوس مبتعداً عن ماييلا بدا وكأن معدته تؤلمه ،
ولكن وجه ماييلا كان مزيجاً من الرعب والغضب . جلس أتيكوس
متعباً ولتغ نظارتيه بمنديله .

وفجأة نطقت ماييلا :

— لدي ما أقوله .

رفع أتيكوس رأسه :

— هل تريد أن تقولي لنا ما حدث ؟

ولكنها لم تسمع الشفقة التي كانت في اقتراحه .

— لدي ما أقوله ثم لن أقول شيئاً آخر بعد ذلك . ذلك الزنجي هناك
اغتصبني ، وإذالم تقوموا أنتم أيها الرجال الأكابر بأي اجراء
يتعلق بذلك ، فلمن سوى جنباء عفين ، جنباء عفين كلكم . ان
تصرفاتكم الرفيعة لاتساوي شيئاً . ان « سيدتي » ، و « الآتسة ماييلا »
لاتساوي شيئاً ياسيده فينتش . . .

ثم انفجرت باكية بدموع حقيقية . كان كثفها يهتران من البكاء
الغاضب . وقد التزمت بكلمتها . فلم تعد تجيب على أية أسئلة ، وحتى
حين حاول السيد غيلمر أن يعيدها إلى سكة المحاكمة . واعتقد أنها
لو لم تكن فقيرة وجاهلة إلى ذلك الحد ، لكان القاضي تايلور قد سجنها
للاحتقار الذي أظهرته لكل من كان في قاعة المحكمة . على أية حال

كان أتيكوس قد أصابها بضربات موجعة إلى حد كبير وبأسلوب لم يكن واضحاً لي ، ولكنني لم أشعر بأي سرور لقاء فعله ذلك . كان يجلس ورأسه إلى الأرض . ولم أر أبداً شخصاً يحدق في شخص آخر بمثل ذلك الحقد الذي كانت تظهره ماييلا بينما كانت تغادر منصة الشهادة وتمرّ بالقرب من منضدة أتيكوس .

وحين قال السيد غيلمر للقاضي تايلور ان الادعاء سيسريح ، قال القاضي : « لقد حان الوقت لناخذ جميعنا قسطاً من الراحة . سنسريح مدة عشر دقائق » .

تقابل أتيكوس مع السيد غيلمر أمام منبر القاضي وتامسا ، ثم غادر قاعة المحكمة عبر باب يقع إلى خلف منصة الشهود ، وكانت تلك اشارة لنا جميعاً للاسترخاء . لقد اكتشفت أنني كنت أجلس على حافة المقعد الطويل ، واني كنت مصابة بخابر نوعاً ما . نهضت وثناءب وكذلك فعل ديل ، ومسح الكاهن سايكس وجهه بقبعته . كانت الحرارة تسعين درجة (١) على الأقل كما قال .

كان السيد براكتون أندروود ، الجالس بهلوء في كرسي مخصص للصحافة ، يمتص الافادات بأسفنجة عقله ، ويسمح لعينييه الساخرتين بالتجوال عبر شرفة الملونين ، وحين قابلتا عينيّ شخر ثم نظر بعيداً .

(١) فهرنهايت ، (المترجم)

قلت :

— جم ، لقد رأنا السيد أندروود .

— حسناً ، لن يقول لأتيكوس ، بل سينشرها في الزاوية الاجتماعية من صحيفته .

ثم التفت جم نحو ديل وراح يفسر له النواحي الأدق في المحاكمة ، ولكنني تساءلت في نفسي عما تكون تلك . لم تكن هناك أية جدالات مطولة بين أتيكوس والسيد غيلمر حول أية نقاط . وبدأ على السيد غيلمر أنه يمارس الادعاء على مضض تقريباً ، فقد كان الشهود يقادون من أنوفهم كالحمير ، مع اعتراضات قليلة جداً من قبله . ولكن أتيكوس قال لنا مرة إنه في محكمة القاضي تايلور ينتهي أي محام يفسر الافادة تفسيراً حرفياً إلى أن يستلم تعليمات صارمة من المنبر . وقد اختصر ذلك كله لي على أنه يعني أن القاضي تايلور قد يبدو كسولاً ويعمل وهو نائم ، ولكن نادراً ما كان ينقض أي حكم يصدره ، وكان ذلك هو البرهان على مدى جودته كقاض . قال أتيكوس إنه كان قاضياً جيداً .

عاد القاضي تايلور الآن وصعد إلى كرسیه الدّوّار . أخذ سيجاراً من جيب صدرته وفحصه بدقة . قرصت ديل . وبعد أن مرّ السيجار بتفتيش القاضي الدقيق عانى من عضبة شرييرة . شرحت له : « أحياناً تأتي لراقبه ، وسيستغرقه ذلك بقية وقت مابعد الظهر . راقبه وستر » . ودون ادراك منه للمراقبة التي تمارس عليه من فوق ، تخلص القاضي

تايلور من النهاية المقصومة بأن دفعها إلى ماين شفتيه بمهارة خير ثم
وبرمية واحدة رماها نحو المصممة فنزلت فيها وسمعناها وهي تهبط فيها .
همهم ديل :

— لاشك أنه كان ماهراً جداً في لعبة الكرة المضغوغة ؟

الاستراحة تعني حكماً خروجاَ عاماً ، ولكن الناس لم تكن اليوم
تتحرك . وحتى أعضاء نادي الكسالى الذين فشلوا في تخجيل الشبان
ليجلسوا في مقاعدهم ظلوا واقفين على امتداد الجدران وأعتقد أن السيد
هك تيت قد حجز مرحاض المديرية ليستعمله الرسميون .

عاد أتيكوس والسيد غيلمر ، ونظر القاضي تايلور إلى ساعته .
قال : « الساعة تقترب من الرابعة » ، وكان ذلك محيراً حيث كان
يجب على ساعة دار المحكمة أن تكون قد رنت مرتين على الأقل عند
تمام الساعة . لم أسمعها ولم أسمع حتى اهتزازاتها .

قال القاضي تايلور :

— هل سنحاول إنهاء الدعوى هذا اليوم ؟ مارأيك يا أتيكوس ؟

قال أتيكوس :

— أعتقد أننا نستطيع ذلك .

— كم شاهد لديك ؟

— واحد .

— حسناً ، استدعه .

* * *

الفصل التاسع عشر

تلمس توماس روبنسون المكان من حوله ، ومرّر أصابعه تحت ذراعه اليسرى ثم رفعها . وجّه يده نحو الكتاب المقدس وحاولت يده الأشبه بالمطاط أن تقيم اتصالاً مع الغلاف الأسود للكتاب . وحين رفع يده ، فإن الأخرى المعطوبة انزلت عن الكتاب المقدس واصطلمت بالمنضدة . كان يحاول مرة أخرى حين زار القاضي تايلور :

— حسناً ياتوم . لا بأس بذلك .

أقسم توم ثم سار نحو كرسي الشهود . وقد حفزه أتيكوس على أن يحكي لنا بسرعة مايلي :

كان توم في الخامسة والعشرين ، متزوجاً وله ثلاثة أطفال ، وقد سبق له وخالف القانون مرة من قبل : فقد حكم عليه مرة بثلاثين يوماً بسبب جنحة بسيطة .

قال أتيكوس :

— كانت بسيطة ، ماالذي ارتكبه ؟

— تشاجرت مع رجل آخر حاول أن يجرحني .

— وهل نجح في ذلك ؟

— نعم ياسيدي ، قليلاً ، ولكن ليس على نحو مؤذ تماماً . أنت ترى أفي . . .

وهنا حرك ثوم كتفه الأيسر .

قال أتيكوس :

— أجل ، لقد أدنتما كلاكما ؟

— نعم ياسيدي ، وكان علي أن أقضي فترة السجن لأنه لم يكن معي من المال مايكفي لدفع الغرامة . أما الشخص الآخر فقد دفعها .
انحنى ديل عبري وسأل جم عما كان أتيكوس يفعله . قال جم :
ان أتيكوس كان يري المحلفين أن ثوم ليس لديه مايخفيه .

سأله أتيكوس :

— هل كنت على معرفة بمايلا فايوليت يوويل ؟

— نعم ياسيدي ، فأنا مضطر إلى المرور بالقرب من منزلها لدى ذهابي إلى الحقل وعودتي منه كل يوم .

— حقل من ؟

— أنا أعمل بقطف القطن لدى السيد لينك ديس .

- هل كنت تقطف القطن في تشرين الثاني (نوفمبر) ؟
- لياسيدي ، أنا أعمل في فنائنه في الخريف والشتاء . وأعمل طوال السنة ، فلهذه الكثير من أشجار الجوز وما شابه .
- تقول انه كان عليك أن تمر من أمام منزل آل يوويل للوصول إلى مكان العمل والعودة منه . هل هناك طريق آخر غيره ؟
- لياسيدي ، لا يوجد طريق آخر أعرفه .
- ياتوم ، هل سبق لها وتحدثت إليك ؟
- نعم ياسيدي ، فأنا أرفع قبعتي حين أتمرّ بالقرب من منزلها ، وفي أحد الأيام طلبت مني أن أدخل إلى داخل السياج وأن أحطّب لها خزانة .
- ومنى طلبت منك أن تحطّب تلك . . . الخزانة ؟
- ياسيد فينتش ، لقد كان ذلك في الربيع الماضي . وأتذكر تلك الحادثة لأن الوقت كان وقت تحطيب ، وكانت معي معزقي . قلت لها اني لأحمل إلا تلك المعزقة ، ولكنها قالت ان لديها بلطة . وقد أعطتني البلطة وحطبت لها الخزانة . قالت : « أعتقد أن عليّ أن أعطيك خمسة سنتات ، أليس كذلك ؟ » فقلت لها : « لياسيدي ، هذا مجاني » . ثم ذهبت إلى البيت . ياسيد فينتش كان هذا في الربيع الماضي أي منذ أكثر من سنة من الآن .

- هل دخلت مرة أخرى إلى ذلك المكان ؟ .
- نعم ياسيدي .
- متى ؟
- حسناً ، مرات كثيرة .
- مدّ القاضي تايلور يده إلى مطرقته غريزياً ، ولكنه ترك يده تسقط ،
فألهمة تحتنا سكنت دون تدخل منه .
- وفق أية ظروف ؟
- عفوك ياسيدي ؟
- لماذا دخلت ضمن السياج كثيراً من المرات ؟
- استرخى جيبين توم روبنسون وقال :
- كانت تدعوني إلى الدخول ياسيدي . ويبدو أنني كلما مررت
من هناك كان لديها شيء ما أفعله لها . . كتكسير الخطب ، أو نقل
الماء لها . كانت تسقي تلك الزهور الحمراء يومياً . ..
- هل كنت تتلقى أجراً لقاء خدماتك ؟
- لا ياسيدي ، ليس بعد أن عرضت علي خمسة سنتات في المرة
الأولى . لقد كنت سعيداً بأداء تلك الخدمات ، فلم يكن يبدو على السيد
يوويل أنه يساعدنا اطلاقاً ، وكذلك الأطفال ، وكنت أعرف أن
ليس لديها الكثير من تلك السنتات الخمسة .

— وأين كان الأطفال الآخرون ؟

— كانوا في أنحاء المكان باستمرار ، كانوا دائماً هناك . كانوا يراقبونني وأنا أعلم ، هذا بعضهم ، أما بعضهم الآخر فكان يجلس في النافذة .

— هل كانت الآتسة ماييلا تتحدث إليك ؟

— نعم ياسيدي ، كانت تتحدث إليّ .

وبينما كان توم روبنسون يدلي بشهادته ، خطر لي أن ماييلا يوبيل كانت دون شك أكثر الأشخاص بالعالم شعوراً بالوحدة. كانت أكثر وحدة حتى من يورادلي ، الذي لم يخرج من منزله منذ خمسة وعشرين عاماً . وحين سألتها أتيكوس ان كان لديها أصدقاء ، بدا عليها أنها لم تفهم ما يعنيه ، ثم ظنت أنه كان يهزأ منها . كانت حزينة — كما فكرت — كأولئك الأطفال الذين سماهم جيم بـ « المولدين » : فالبيض لا يكثرئون بها لأنها كانت تعيش بين الخنازير ، والزواج لا يكثرئون بها لأنها بيضاء . ما كان يمكنها أن تعيش مثل السيد دولفوس رايموند ، الذي كان يفضل صحبة الزوج ، لأنها لم تكن تملك صفة نهر ولم تكن من عائلة عريقة غنية . لم يقل أحد عن عائلة يوبيل : « تلك هي طريقهم في الحياة » . كانت مايكوم تقدم لهم سلال الهدايا في عيد الميلاد وفقدوا المعونة الاجتماعية وظاهر يدها . كان توم روبنسون ، على الأرجح ، هو الشخص الوحيد الذي كان يعاملها باحترام . ولكنها تقول انه

اغتنبها ، وحين انتصبت بعد أداء الشهادة نظرت إليه وكأنه قدارة
بين قدميها .

قاطع أتيكوس تأملاني قائلاً :

— هل حدث أن دخلت إلى منزل آل يوويل في أي وقت من
الأوقات . . . هل حدث أن دخلت إلى منزل آل يوويل دون دعوة
واضحة من أحدهم ؟

— لا ياسيدي ، ياسيد فينتش ، لم أفعل ذلك أبداً . ولا يمكن أن
أفعل مثل ذلك ياسيدي .

كان أتيكوس يقول أحياناً ان الطريقة الوحيدة لمعرفة ماإذا كان
الشاهد يكذب أو يصدق هو أن تصغي إليه وليس أن تراقبه : وقد
طبقت هذا الاختبار . . . لذا أنكر توم روبنسون الأمر ثلاث مرات
في نفس واحد ، ولكن بهدوء ، دون أي علامة انتحاب في صوته ،
وقد وجدت نفسي أصدقه ، رغم احتجاجاته الكثيرة . بدا عليه أنه
زنجي محترم ، والزنجي المحترم لا يمكن أن يدخل فناء شخص ما
بمبادرة منه .

— ياتوم ، مالذي حدث معك مساء يوم الواحد والعشرين من
تشرين الثاني (نوفمبر) من العام الماضي ؟

إلى الأسفل منا ، كان الحضور قد أمسكوا كلهم بأنفسهم ومالوا
بأجسادهم إلى الأمام . وحلفنا فعل الزنوج الشيء نفسه .

كان توم زنجياً ذا لون أسود مخملي ، ليس لامعاً ، بل مخملياً
أسود فاعماً . كان بياض عينيه يلمع في وجهه ، وحين كان يتحدث
كنا نرى ومضات أسنانه اللامعة . لو كان دون عاهة لكان نموذجاً
جميلاً للانسان .

قال :

— ياسيد فينتش ، كنت ذاهباً إلى بيتي كالعادة في ذلك المساء ،
وحيث مررت بمنزل آل يوويل كانت الأنسة ماييلا على الرواق ، كما
أفادت . كان المكان هادئاً ولم أدرك لماذا . كنت أفكر في السبب ، وأنا
أمرّ من هناك ، حين طلبت مني أن أدخل لأساعدتها مدة دقيقة واحدة .
حسناً ، دخلت ضمن السياج ونظرت فيما حولي أبحث عن حطب
لأكسره ، ولكنني لم أجده أي حطب ، وقالت : « لا ، لدّي شيء
آخر لك في المنزل . فالأبواب القديمة قد تخلخلت مفصلاتها وتكاد تقع »
قلت : « هل لديك مفك للبراغي ياآنسة ماييلا ؟ » قالت ان لديها واحداً
بالتأكيد . حسناً ، صعدت الدرج وأشارت إلي بالدخول ، ودخلت
إلى الغرفة الأمامية ونظرت إلى الباب . قلت ياآنسة ماييلا هذا الباب
يبدو جيداً . حركته إلى الخلف وإلى الأمام وكانت مفصلاته جيدة . ثم
أغلقت هي الباب في وجهي . ياسيد فينتش ، كنت أتساءل عن سبب
الهدوء في المنزل ، وقد فهمت أنه لم يكن هناك طفل واحد في المكان ،
ولا واحد منهم ، وقلت ياآنسة ماييلا أين هم الأطفال ؟

بدأت بشرة توم السوداء المخملية باللمعان ، ومرّر يده على وجهه .
— قلت لها أين الأطفال ، وقالت — وكانت تضحك بطريقة ما —
قالت انهم ذهبوا جميعاً إلى البلدة للحصول على الآيس كريم . قالت :
« لقد استغرق مني جمع سبع قطع من فئة الخمسة سنتات سنة كاملة ،
ولكنني فعلتها أخيراً . لقد ذهبوا جميعاً إلى البلدة » .
لم يكن انزعاج توم نابعاً من رطوبة الجو . قال له أتيكوس :

— وماذا قلت لها آنثد ياتوم ؟

— قلت لها ، مرحى ياآنسة ماييلا ، هذه معاملة ذكية منك لهم :
فقلت : « هل تظن ذلك ؟ » لأظن أنها فهمت ماكنت أعنيه . . . كنت
أعني أنه كان ذكياً منها أن توفر النقود ولطيف منها أن تعامل اخوتها
بتلك الطريقة .

قال أتيكوس :

— أفهمك ياتوم . استمر .

— حسناً ، قلت لها اني أفضل الذهاب طالما لا يوجد ماأفعله من
أجلها ، وقالت نعم أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلها ، فسألتها عنه ،
وقالت إن عليّ أن أقف على كرسي هناك وأنزل لها صندوقاً من أعلى
الخزانة .

— أليست تلك هي الخزانة نفسها التي حطبتها ؟

ابتسم الشاهد وقال :

— لا ياسيدي ، خزانة أخرى . كانت عالية علو السقف . وهكذا صنعت ماطلبته وكنت أحاول الوصول إلى الصندوق حين حدث الشيء التالي الذي أتذكره ، ألا وهو أنها . . . أنها أمسكت بي من ساقي ، أمسكت من ساقي ياسيد فينتش . لقد أخافتني إلى درجة أنني وقعت وقلبت الكرسي . . . كان ذلك هو الشيء الوحيد ، قطعة الأثاث الوحيدة التي تحركت من مكانها في تلك الغرفة ، ياسيد فينتش ، وذلك قبل أن أغادرها . وأقسم بالله على ذلك .

— ماالذي حدث بعد أن قلبت ذلك الكرسي ؟

كان توم روبنسون قد وصل إلى حالة صمت كاملة . نظر إلى أتيكوس ، ثم إلى المحلفين ، ثم إلى السيد أندروود الجالس عبر الغرفة . — ياتوم ، لقد أقسمت على أن تقول الحقيقة كلها . هل لك أن تقولها ؟

مرّر توم يده بعصبية فوق فمه .

— ماالذي حدث بعد ذلك ؟

قال القاضي تايلور وقد اختفى ثلث سيكاره الآن :

— أجب على السؤال .

— ياسيد فينتش ، لقد نزلت من على ذلك الكرسي والتفت ،
ولكنها قفرت علي بطريقة ما .

— قفرت عليك ؟ بعنف ؟

— لا ياسيدي . . . لقد . . . ضمتني . ضمتني من خصري .

في هذه المرة هبطت مطرقة القاضي بعنف ، وحين حدث ذلك
أضيت الأنوار في السقف . لم يكن الظلام قد حل بعد ، ولكن شمس
العصر كانت قد غادرت النوافذ . وسرعان ما استعاد القاضي النظام .

— ثم مالذي فعلته ؟

ابتلع الشاهد ريقه بصعوبة ثم قال :

— تناولت حتى قبلتي على هذا الجانب من وجهي . قالت أنها
لم يسبق لها أن قبلت رجلاً راشداً من قبل وأنها يمكن لها أن تقبل زنجياً
أيضاً . وقالت أنها لا يهملها ماسيفعله أبوها لها . قالت : « قبلني أيها
الزنجي » . قلت : « يا آنسة ماييلا ، دعيني أخرج من هنا » وحاولت
أن أركض ولكنها ألصقت ظهرها بالباب وكان علي أن أدفعها . لم
أكن أريد ايداءها ياسيد فينتش ، وقلت لها : « دعيني أخرج » ،
ولكن وحين كنت أقول ذلك راح السيد يويويل يصرخ عبر النافذة .

— وماذا قال ؟

ابتلع نوم روبنسون ريقه بصعوبة مرة أخرى ، واتسعت عيناه .

— قال شيئاً لا يليق بي قوله . . . لا يليق بأطفال هؤلاء الناس
الجالسين هنا أن يسمعوه .

— ما الذي قاله باتوم ؟ يجب أن تقول للمحلفين ما قاله .

أغلق توم روبنسون عينيه بشدة وقال :

— لقد قال « آيتها العاهرة الملعونة من الله ، سأقتلك » .

— ثم ماذا حدث ؟

— ياسيد فينتش ، رحت أعلو بأسرع ما أستطيع وإلى حد أنني
لأعرف ما حدث .

— باتوم ، هل اغتصبت ماييلا يوويل ؟

— لا ياسيدي .

— هل أذيتها بأية طريقة كانت ؟

— لا ياسيدي .

— هل قاومت محاولاتها ؟

— ياسيد فينتش ، لقد حاولت ألا أكون غليظاً معها . لم أكن
أرغب في أن أكون غليظاً ، لم أكن أريد أن أدفعها أو ماشابه .

خطر لي أن سلوك توم روبنسون ، بطريقته الخاصة ، كان جيداً
بقدر سلوك أتيكوس . لم أكن قد فهمت دقة ورطة توم حتى شرحها

لي أبي فيما بعد : فهو لم يكن ليجرؤ على ضرب امرأة بيضاء ضمن
أية ظروف ثم يتوقع أن يعيش طويلاً ، ولذا انتهز أول فرصة وهرب...
وهو دليل أكيد على الشعور بالذنب .

قال أتيحوس :

— فلنعد باتوم إلى السيد يوويل ، هل قال لك شيئاً ؟
— لم يقل شيئاً ياسيدي . قد يكون قال شيئاً ، ولكني لم أكن
هناك . . .

قاطعه أتيكوس بحدة :

— حسناً ، ماذا سمعت ، مع من كان يتكلم ؟
— ياسيد فينتش ، كان يتحدث إلى الآتسة ماييلا وينظر إليها .
— ثم ركضت ؟
— لقد فعلت ذلك بالتأكيد ياسيدي .

— لماذا ركضت ؟

— كنت خائفاً ياسيدي .

— ولم كنت خائفاً ؟

— ياسيد فينتش ، لو كنت زنجياً شافني ، خلفت أنت أيضاً .
جلس أتيكوس . كان السيد غيلمر في طريقه نحو منصة الشهادة ،

ولكن قبل أن يصل إلى هناك ، نهض السيد لينك ديس من مكانه
بين الجمهور وأعلن :

— أريد منكم جميعاً أن تعرفوا شيئاً واحداً الآن . لقد عمل هذا
الشاب لدي منذ ثماني سنوات ولم يسبب لي مشكلة واحدة ولو صغيرة ،
ولا حتى ذرة من مشكلة .

— أغلق فمك ياسيدي !

هكذا صاح القاضي تايلور الذي استيقظ تماماً الآن وراح يزمجر
وقد أصبح وجهه قرنفلي اللون ، كما أن حديثه لم تشبه أية شائبة بسبب
سبحاره . صاح :

— يالينك ديس ، أن كان لديك ماتقوله يمكنك أن تفعل ذلك
تحت القسم وفي الوقت المناسب ، ولكن حتى يحين ذلك عليك أن تخرج
من هذه القاعة ، أسمعني ؟ اخرج من هذه القاعة ياسيدي ، أسمعني ؟
وسأكون ملعوناً إذا استمعت إلى هذه الدعوى مرة أخرى .

نظر القاضي تايلور نظرات حادة كالسكاكين نحو أتيكوس ،
وكأنه يتحده أن يقول شيئاً ، ولكن أتيكوس كان قد أطرق برأسه
وراح يضحك في عيبه . تذكرت شيئاً ما كان قد قاله حول ملاحظات
القاضي تايلور المقعمة بالسلطة والتي كانت تتجاوز واجباته أحياناً ،
ولكن قلة من المحامين كانت تفعل أي شيء حيالها . نظرت إلى جم ،

ولكن جم هز رأسه . قال : « هذا لا يشبه أن يقوم أحد المحلفين ويتحدث ، حينها سيكون الأمر مختلفاً على ما أعتقد . لقد كان السيد لينك يخل بنظام المحكمة أو ماشابه » .

قال القاضي تايلور للكاتب أن يلغي كل ما كتب بعد جملة « ياسيد فيتش لو كنت زنجياً شافني تخفت أنت أيضاً » . وقال للمحلفين ان عليهم أن ينسوا أمر المقاطعة . نظر بارتياح نحو الممشى الأوسط وانتظر على ما افترضت ، حتى يخرج السيد لينك ديس نهائياً . ثم قال :

— تفضل ياسيد غيلمر :

سأل السيد غيلمر :

— لقد سجت مرة ثلاثين يوماً بسبب جنحة بسيطة ؟

— نعم ياسيدي .

— كيف بدا ذلك الزنجي بعد أن انتهت منه ؟

— لقد ضربني ياسيد غيلمر .

— أجل ، ولكنك حُكِمْتَ أيضاً ، أليس كذلك ؟

رفع أتيكوس رأسه وقال :

— لقد كانت تلك جنحة بسيطة وكل شيء موجود في الملف

ياسيدي القاضي .

ظننت أنه يبدو متعباً .

قال القاضي بتعب مماثل :

— سيحب الشاهد على كل حال .

— نعم ياسيدي حكمت بثلاثين يوماً .

كنت أعرف أن السيد غيلمر سيحكي بكل اخلاص ان أي شخص
أدين بارتكاب جنحة بسيطة يمكنه أن يفكر في اغتصاب ماييلا يوويل ،
وكان ذلك هو السبب الوحيد الذي لديه . ومثل تلك الأسباب تكون
عادة مثمرة .

— ياروبنسون ، أنت ماهر جداً في تفسير الخرائن والحطب بيد
واحدة ، أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدي . أعتقد ذلك .

— هل أنت قوي إلى حد أنك تستطيع أن تخنق امرأة بيد واحدة
وترميها إلى الأرض ؟

— لم أفعل ذلك ياسيدي .

— ولكنك قوي بما فيه الكفاية لتفعل ذلك ؟

— أعتقد ذلك ياسيدي .

— كنت تشتهيها منذ زمن طويل ، أليس كذلك أيها الولد ؟

— لا ياسيدي ، لم أنظر إليها باشتهاء أبداً .

— إذن كنت لطيفاً جداً معها حتى تقوم بكل ذلك التحطيط ونقل الماء ، أليس كذلك ؟

— كنت أحاول مساعدتها فحسب ياسيدي .

— كان ذلك كرماء كبيراً منك ، فقد كان لديك في البيت أعمال أخرى تقوم بها بعد عودتك من عملك اليومي ، أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدي .

— لماذا لم تكن تؤدي تلك الأعمال بدلاً عن أن تخدم الأنسة يوويل ؟

— لقد كنت أؤدي هذه وتلك .

— لا بد وأنت كنت مشغولاً جداً . لماذا ؟

— لماذا ماذا ياسيدي ؟

— لم كنت حريصاً على القيام بتلك الخدمات لتلك المرأة ؟

تردد توم روبنسون وهو يبحث عن جواب . ثم قال :

— بدت وكأنها كانت بحاجة إلى من يساعدها ، ولم يكن هناك من يساعدها ، كما كنت أقول . . .

— رغم وجود السيد يوويل وسبعة أطفال في المنزل باولده ؟

— حسناً ، قلت ان الأمر بدا وكأنهم لم يكونوا يملكون لها يد المساعدة . . .

— وهل قمت بذلك التحطيط وبتلك الأعمال لمجرد طيبة قلبك يا ولد ؟

— حاولت مساعدتها كما قلت .

ابتسم السيد غيلمر ابتسامة كالحة نحو المحلفين وقال :

— أنت شاب طيب جداً على ما يبدو . . . هل فعلت ذلك كله ولم تتلق سنتاً واحداً لقاءه ؟

— نعم ياسيدي . لقد شعرت بالشفقة عليها ، فقد بدا عليها أنها كانت تحاول بذل جهدها أكثر من بقيتهم . . .

— لقد « شعرت » بالشفقة « عليها » ، شعرت « بالشفقة » عليها ؟

بدا على السيد غيلمر وكأنه مستعد للوصول حتى السقف .

أدرك الشاهد خطأه وتحرك بضيق في كرسيه . ولكن سبق السيف العدل . فالى الأسفل منا ، لم يعجب جواب توم روبنسون أحداً . وتوقف السيد غيلمر فترة طويلة حتى يترك ذلك تأثيره . ثم قال :

— والآن ، ذهبت إلى البيت كالعادة ، في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، وطلبت هي منك أن تدخل وتحطّب لها الخزانة ؟

- لا ياسيدي .
- هل تنكر دخولك المنزل ؟
- لا ياسيدي ، قالت ان لديها شيئاً ما أفعله لها داخل المنزل . . .
- انها تقول انها طلبت منك أن تحطب لها خزانة ، أهذا صحيح ؟
- لا ياسيدي ، ليس صحيحاً .
- إذن فأنت تقول انها تكذب يا ولد ؟
- نهض أتيكوس ولكن توم روبنسون لم يكن في حاجة إليه .
- لم أقل انها تكذب ياسيد غيلمر ، بل أقول انها على خطأ .
- ورداً على الأسئلة العشرة التالية التي ألقاها السيد غيلمر مسترجعاً أقوال ماييلا حول الحادثة ، كان جواب الشاهد هو أنها على خطأ .
- ألم يطردك السيد يوويل من المنزل يا ولد ؟
- لا ياسيدي ، لأظن أنه فعل ذلك .
- ألا تظن ذلك ، ماذا تعني ؟
- أعني أنني لم أبق في المنزل مدة كافية حتى يتاح له أن يطردني .
- أنت صريح جداً حول هذا الموضوع . لماذا هربت بهذه السرعة ؟
- قلت اني كنت خائفاً ياسيدي .
- إذا كنت غير مذنب ، فلماذا تخاف ؟

— كما قلت سابقاً ، لم يكن وجود زنجي في مثل تلك . . . الورطة
أمراً مأموناً :

— ولكنك لم تكن في ورطة . . . لقد أهدت بأنك كنت تقاوم
الآنسة يوويل . هل كنت خائفاً من أنها قد تؤذيك ، فهربت وأنت
ذلك الرجل الضخم ؟

— لا ياسيدي ، كنت خائفاً أن أقدم إلى المحاكمة كما يحدث
لي الآن .

— خائفاً من القاء القبض عليك ، خائفاً من أن تواجه بما ارتكبته ؟

— لا ياسيدي ، بل كنت خائفاً من أن أواجه بما لم ارتكبه .

— هل تتواقع معي يا ولد ؟

— لا ياسيدي ، لم أحاول ذلك .

كاذ ذلك هو كل ما استطعت سماعه من استجواب السيد غيلمر ،
لأن جم جعلني أصطحب ديل إلى الخارج . لسبب ما ، بدأ ديل بالبكاء
ولم يستطع أن يتوقف عنه : بكى بصمت في البداية ثم ارتفع صوت
بكائه حتى سمعه أشخاص عديدون كانوا على الشرفة . قال جم اني
إذا لم أذهب معه فسيجبرني على ذلك ، وقال الكاهن سايكس انه من
الأفضل لي أن أذهب ، ولذا ذهبت . بدا على ديل أنه في حالة جيدة
ذلك اليوم ، ولكني أعتقد أنه لم يكن قد شفي بعد تماماً من قضية
فراوه من منزل أمه .

— أأست على مايرام ؟

هكذا سأأته حين وصلنا إلى أسفل الدرج .

حاول ديل أن يتماسك حين هبطنا الدرج الجنوبي . كان السيد لينك ديس الشخص الوحيد على الدرجة العليا . سأأني حين مررت بالقرب منه : « هل حدث شيء هام ياسكاوت ؟ » فأأبأته وأنا أأأفت نصف التفأة : « لأياسيدي . ديل مريض » .

— أعالوا إلى مأأأ الأشجار ، فرأما أأر علىكم الحرّ .

أأأرنا أأأأ شجرة سنديان أية وجلسنا أأأها .

قال ديل :

— لم أستطع أأأأاله ، هذا كل مأفي الأمر .

— من ، أوم ؟

— أأأ السيد غيلمر العأوز الذي راح يعامله بأأأ الطريقة و أأأأ إلىه بأأأ الأسلوب الكريه .

— ياديل ، هذا عمله . عأبأ ، لو لم يكن لأأنا وكلاء نأابة . . .
لما أمكن أوءد محامي الدفاع ، كما أأأأ .

أأفس ديل بأبر :

— أأرف كل أأأ ياسكاوت . ولكن الطريقة أأى كان أأأأ بها جعلأني أأعر بالغبأان ، بالغبأان أأام .

- من المفترض أن يتصرف كذلك ياديل ، لقد كان يستجو . . .
- لم يكن يتصرف بتلك الطريقة حين .
- ياديل ، كان أولئك هم شهوده هو .
- حسناً ، السيد فينتش لم يتصرف بتلك الطريقة مع ماييلا والعجوز يوويل حين كان يستجوبهم . ان طريقة ذلك الرجل في مخاطبته بكلمة « ولد » طوال الوقت وهزئه به وتطلعه نحو المحلفين في كل مرة يجيب بها . . .
- حسناً ياديل ، ولكنه مجرد زنجي على أية حال .
- لا يهمني ذلك أبداً . لاحق لهم ، لاحق لهم في معاملتهم بتلك الطريقة . لاحق لأحد أن يتكلم بتلك الطريقة . . . لقد جعلتني أشعر بالغيثان .
- هذا هو أسلوب السيد غيلمر ولا شيء آخر ياديل ، انه يتصرف بهذه الطريقة مع الجميع . لم تره بعد وهو يضرب ضربته الأخيرة . لماذا حين . . . حسناً ، بدا السيد غيلمر اليوم وكأنه كان لا يمارس حتى نصف ما يمارسه عادة . انهم يتصرفون هكذا دائماً ، أعني معظم المحامين .
- السيد فينتش لا يتصرف بتلك الطريقة .
- انه ليس مثلاً ياديل ، انه . . .

كنت أحاول أن أفتش في ذاكرتي عن عبارة حادة من عبارات
الآنسة مودي أنكيسون . وقد وجدتها : « انه في قاعة المحكمة كما
هو في الشارع العام » .

قال ديل :

— ليس هذا ما أعنيه .

— أعرف ماتعنيه يا ولد .

صدر هذا عن صوت الى الخلف منا . وظنناه يأتي من جذع الشجرة ،
ولكنه كان صوت السيد دولفوس رايموند . كان يحدق فينا من
وراء الجذع .

— لست ضعيفاً ، إنما تجعلك هذه القضية مريضاً ، أليس كذلك ؟

* * *

الفصل العشرون

— تعال إلى هنا يا بني ، فلدي شيء يشفي معدتك .

وبما أن السيد دولفوس رايموند كان رجلاً شريفاً فقد قبلت دعوته بامتعاض ، ولكنني لحقت بديل . وبطريقة ما ، لم أكن أظن أن أتيكوس سيوافق على تودّنا للسيد رايموند ، وكذلك العمة ألكسندرا .

قال لدبل وهو يعرض عليه كيسه الورقي وفيه المصاصات الورقية :

— إليك . خذ رشفة جيدة ، ستهدئك .

رشف دبل من المصاصات ، وابتسم ثم أخذ رشفة طويلة .

ضحك السيد رايموند الذي بدا عليه أنه يتمتع بافساد طفل .

حدّرت دبل قائلة :

— احذر يا دبل .

ترك دبل المصاصات وابتسم وقال :

— ياسكاوت ، لم تكن تلك سوى كوكاكولا .

استند السيد رايونند على جذع شجرة وهو جالس . كان متمدداً
على العشب قبل ذلك . قال :

— لن تشيأ بي أيها الصغيران ، فهذا سيخرب سمعي .

— هل تعني أن كل ما تشربه من ذلك الكيس هو الكوكاكولا ؟
مجرد كوكاكولا فحسب ؟

— نعم يآآسي .

وأوماً السيد رايونند برأسه . أحببت رائحته . كانت مزيماً من
رائحة الجلود والجياذ وبذور القطن . كان يرتدي جزمة الركوب الانكليزية
الوحيدة التي رأيتها في حياتي .

— هذا كل ما تشربه ، معظم الوقت .

— إذن ، فأنت تدعي أنك نصف . . . ؟ اعدرني ياسيدي . . .
لم أكن أعني . . .

ضحك السيد رايونند ، فهو لم يترعج أبداً ، وحاولت أن أولف
سؤالاً حذراً :

— لم تفعل ما تفعله ؟

— لم أفعل . . . أوه حسناً ، تعذرن لماذا أنظاھر ؟ حسناً ، الأمر
بسيط جداً . بعض الناس لا يتظاهرون . . . كما أفعل أنا . والآن أستطيع
أن أقول فليذهبوا إلى الجحيم . لا يهمني سواء أحبوا ذلك أم كرهوه .

وأنا أقول اني لأكثرث إذا لم يعجبهم الأمر ، هذا حق بما فيه الكفاية . . . ولكني لأقول فليذهبوا إلى الجحيم . هل فهمتما ما أعني ؟ .

قلنا ديل وأنا :

— لا ياسيدي .

— أحاول أن أمنحهم سبباً ، أترى ان معي الآن ؟ ان ذلك يساعد الناس على إيجاد سبب إذا لم يستطيعوا إيجاد . حين أنزل إلى البلدة ، وهو أمر نادر ، فاني لو تمايلت قليلاً وشربت من هذا الكيس ، سيقول الناس دولفوس رايموند واقع تحت سيطرة الويسكي . . . ولذا لن يغير من أساليبه . انه لا يستطيع مغالبة نفسه ، ولذا يعيش هذا النوع من الحياة .

— ليس هذا من الأمانة في شيء ياسيد رايموند ، أي أن تجعل نفسك أسوأ مما أنت عليه . . .

— ليس من الأمانة في شيء ، ولكنه يساعد الناس كثيراً . بيني وبينك يا آنسة فينتش ، لست ذلك السكير ، ولكنك ترين أنهم لن يقادروا أبداً أن يفهموا أنني أعيش بهذه الطريقة لأن تلك هي الطريقة التي أريدها . أحسست بأنه لايتوجب علي أن أكون هنا وأنا أصغي لهذا الرجل الآثم الذي لديه أطفال مولودون ولا يهتم بمن يعرف أو لا يعرف ذلك . ولكنه كان رجلاً آمراً . فلم يسبق لي أن قابلت كائنات يرتكب عن عمد

تزويراً ضد نفسه . ولكن لماذا أسرّ إلينا بأعمق أسرارهِ ؟ سألتُهُ عن
السبب فقال :

— لأنكما طفلان ويمكنكما أن تفهما ذلك ، ولأنني سمعت أن
ذلك الطفل . . .

وهنا أشار برأسه نحو ديل واستأنف قائلاً :

— أن ذلك الطفل لم تتأثر غرائزه بعد بالأمور السائدة هنا . بعد أن
يكبر قليلاً لن يصاب بالغثيان ويبكي . وبما ستصدمه على أساس أنها . . .
ليست عادلة تماماً ، ولكنه لن يبكي بعد أن يكبر سنوات أخرى قليلة .
— يبكي من أي شيء ياسيد رايغوند ؟

كانت ذكورية ديل قد بدأت تثبت وجودها .

— يبكي بسبب الجحيم الصرف الذي يمنحه بعض الناس للآخرين . . .
دون تفكير حتى . يبكي بسبب الجحيم الذي يمنحه البيض للملوثين ،
دون أن يتوقفوا ليفكروا حتى في أن هؤلاء بشر أيضاً .

همهت :

— يقول أتيكوس إن خداع رجل ملّون أسوأ بعشر مرات من
خداع رجل أبيض . يقول إنّه أسوأ شيء يمكن للمرء أن يفعله .

قال السيد رايغوند :

— لأظن ذلك . . . ياآنسة جان لويز ، أنت لاتعرفين أن أباك ليس من النوع العادي من الناس ، وأن الأمر يتطلب سنوات قليلة حتى يتم إدراكه . أنت لم تري من العالم مايكفي بعد . لم تري هذه البلدة حتى ، ولكن كل ماعليك فعله هو أن تعودى إلى المحكمة .

وهذا ماذكرني بأننا كنا قد فوتنا على أنفسنا كل استجواب السيد غيلمر تقريباً . نظرت إلى الشمس ، وكانت تسقط بسرعة وراء أسطح المخازن على الجانب الغربي من الساحة . وبما أني كنت بين نارين ، فلم أستطع أن أقرر أيهما أريد أن أقفز فيها : السيد رايغوند أو المحكمة القضائية الجواله الخامسة .

قلت :

— تعال ياديل . هل أنت أفضل حالاً الآن ؟

— لقد سعدت بلقائك ياسيد رايغوند ، وشكراً للشراب . لقد هدأني كثيراً .

أسرعنا عائدين إلى دار المسكمة ، تسلقنا السلام، ثم مجموعتين من الأدرج ، وشققنا طريقنا نحو حاجز الشرفة . كان الكاهن سايكس قد احتفظ لنا بمقعدينا .

كانت قاعة المحكمة هادئة ، وتساءلت من جديد أين كان أولئك الأطفال . تحول سيكار القاضي تايلور الآن إلى بقعة بنية في منتصف فمه :

كان السيد غيلمر يكتب على احدى رزمتي الأوراق الصفراء التي على منضدته ، محاولاً أن يسبق كاتب المحكمة الذي كانت يده تهتز بسرعة .
همهت : « بالسوء الحظ ، لقد فاتت علينا » .

كان أتيكوس قد أصبح في منتصف مرافعته أمام المحلفين . كان من الواضح أنه قد أخرج بعض الأوراق من محفظته التي كانت موضوعة على كرسيه ، لأنها كانت على منضدته . كان توم روبنسون يعبث بالأوراق .

— . . . عدم توفر أي دليل موثق ، فهذا الرجل قد أتهم بجناية ويُحاكم الآن وقد يدفع حياته ثمناً لذلك . . .

قرصت جم :

— هل بدأ منذ زمن طويل ؟

— لقد انتهى من التطرق إلى الدليل ، ولسوف نفوز ياسكاوت .
لأرى كيف لا يمكننا ذلك . انه يرافع منذ خمس دقائق . لقد جعل الأمر يبدو بسيطاً وسهلاً . . . حسناً ، كنت أتمنى أن أشرحه لك ، ولكنك لن تفهميه حتى .

— هل السيد غيلمر . . .

— صه . لاجديد ، المعتاد فحسب . صه الآن .

نظرنا إلى الأسفل من جديد . كان أتيكوس يتحدث بطلاقة ،

بذلك النوع من التجرد الذي يستعمله حين يملئ رسالة . كان يمشي ببطء جيئة وذهاباً أمام المحلفين ، وبدأ على المحلفين أنهم يصغون باهتمام : كانت رؤوسهم مرفوعة وكانوا يتبعون خطى أتيكوس بما بدا وكأنه تقدير . وأعتقد أن ذلك كان بسبب أن أتيكوس لم يكن يهدر كالرعد .

توقف أتيكوس ، ثم فعل شيئاً لم يكن من عادته . فك ساعته وسلسلتها ووضعهما على الطاولة قائلاً :

— إذا سمحت المحكمة . . .

أولاً القاضي تايلور برأسه ، ثم فعل أتيكوس شيئاً لم أره يفعله من قبل أو بعد ذلك ، في السر أو في العلانية : فكّ أزرار صدرته ، وزر قبته ، وحلّ ربطة عنقه قليلاً ثم خلع معطفه . لم يكن من عادته أن يفعل أيّاً من هذه الأشياء إلاّ بعد أن يدخل إلى غرفته في وقت النوم ، وبالنسبة لحم ولي ، فقد بدا لنا هذا مساوياً لوقوفه أمامنا وهو عارٍ تماماً . تبادلنا نظرات مروّعة .

وضع أتيكوس يديه في جيبه ، ثم استدار نحو المحلفين ، رأيت زرقبته الذهبي ورأسه قلبي الخبز والرصاص وهما يلتصقان تحت النور .

قال :

— أيها السادة .

نظرنا جم وأنا مرة أخرى كل نحو الآخر : كان أتيكوس يقوّلها

على نحو عادي وبالطريقة التي يخاطبني أنا فيها حتى كأنّ صوته قد فقد
حدثه وتجرّده ، وكان يتحدث إلى المحلفين وكأنهم أشخاص واقفون
عند زاوية مكتب البريد .

كان يقول :

« ياسادة ، لن أطيل ، ولكني أريد أن أستعمل ماتبقى لي من وقت
لديكم لأذكّركم بأن هذه الدعوى ليست بالدعوى الصعبة ، ولا تحتاج
إلى تمحيص دقيق لحقائق معقدة ، ولكنها تتطلب منكم أن تكونوا
واقفين دون أي شك يقبله العقل بأن المتهم مذنب . أولاً : هذه الدعوى
ماكان يجب أن تقدم إلى المحكمة أصلاً . هذه القضية بسيطة وواضحة
كالأبيض والأسود .

« لم تقدم النيابة ولو ذرة واحدة من الأدلة الطبية تثبت أن الجريمة
المتهم بها توم روبنسون قد حدثت إطلاقاً . بل اعتمدت النيابة بدلاً
عن ذلك على شهادة شاهدين لم تكن الأدلة التي صرّحاً بها موضع
الارتياح فحسب خلال الاستجواب ، بل ان المتهم قد نقضها كلية .
المتهم ليس مذنباً ، ولكن الاتّهم الحقيقي شخص موجود في هذه القاعة .

« وأقول الاتّهم أيها السادة ، لأن الاتّهم هو الذي دفعها إلى أن تفعل
مافعلته . انها لم ترتكب جريمة ، بل كان مافعلته مجرد خرق لمجموعة
أعراف صارمة من أعراف مجتمعتنا تتمتع بقداسة القدم ، أعراف مترممة
إلى حدّ أن أي شخص يخرقها سيُنْبَذ من قبلنا كأنما لا يليق به أن يعيش

بيننا . إنها ضحية الفقر القاسي والجهل ، ولكنني لأستطيع أن أرثي لها : فهي بيضاء . كانت تعرف تماماً ضخامة إثمها ، ولكنها ثابرت على خرق تلك الأعراف لأن رغبتها كانت أقوى منها . وقد ثابرت على ذلك ، وكان رد فعلها التالي شيئاً عرفناه كلنا في وقت من الأوقات . لقد فعلت شيئاً مارسه كل طفل : حاولت أن تبعد دليل إثمها عن نفسها . ولكنها في هذه الحالة لم تكن طفلاً يخشى الشيء المحرم الذي سرقه : بل صوبت ضربتها نحو ضحيتها — يجب بالضرورة أن تبعده عن نفسها — يجب أن يزال من أمام ناظرها ومن هذا العالم . يجب أن تدمر دليل إثمها .

« وما هو دليل إثمها ؟ انه توم روبنسون ، الكائن البشري . عليها أن تبعد توم روبنسون عنها . فتوم روبنسون هو الشيء الذي يذكّرها يومياً بما ارتكبته . وما هو الإثم الذي ارتكبته ؟ لقد حاولت إغواء رجل زنجي .

« إنها بيضاء ، وقد حاولت إغواء زنجي . لقد حاولت شيئاً يعتبر في عرف مجتمعتنا أمراً محظوراً : لقد قبلت رجلاً أسود . ليس عملاً عجوزاً ، بل شاباً زنجياً قوياً . لم تكن تأبه بالعرف قبل أن تخرقه ، ولكنها أحست بوطأته فيما بعد .

« لقد شاهد والدها ما حدث ، وقد أفاد الشاهد بذلك . ما الذي فعله والدها ؟ لانعرف ، ولكن هناك دليل مادي يشير إلى أن ماييلا يوبويل تعرضت لضرب وحشي من قبل شخص استعمل يسراه على وجه الحصر .

نحن نعرف مافعله السيد يوبيل إلى حد ما : لقد فعل ماكان سيفعله أي رجل أبيض محترم دؤوب يخاف الله في مثل تلك الظروف
لقد أقسم على تقديم دليل ، ووقعه دون شك بيسراه ، والآن يجلس أمامكم توم روبنسون ليتحمل وزر ذلك ، وباليد الصالحة الوحيدة التي يملكها : يده اليمنى .

« وهكذا ، فإن زنجياً هادئ الطباع ، محترماً ومتواضعاً حدث أن تهوّر تهوّرًا كاملاً فأحس « بالشفقة » على امرأة بيضاء وها هو يضطر الآن إلى أن يضع شهادته مقابل شهادة شخصين أبيضين . لاأحتاج إلى تذكيركم بمظهرهما وسلوكهما على منصة الشهادة فأنتم قد شاهدتموهما بأنفسكم . ان شاهدي النيابة ، واستنفي هنا مأمور مقاطعة مايكوم ، قد قدّما نفسيهما إليكم أيها السادة ، وإلى هذه المحكمة ، وهما واثقان على نحو ساخر من أنه لن يجرى التشكيك بشهادتيهما ، وواثقان من أنكم أيها السادة ستوافقون على مايقولانه على أساس الفرضية — الفرضية الشريرة — التي تفيد أن « كل » الزوج يكذبون ، وأن « كل » الزوج أشخاص لأخلاقيون أساساً ، وأن « كل » الذكور الزوج لايمكن الوثوق بهم فيما يخص نساءنا ، وهو افتراض يربطه المرء بدرجة قدراتهم العقلية .

« وهذه أيها السادة كذبة سوداء بحذ ذاتها بقدر ماهي بشرة توم روبنسون سوداء ، كذبة لست مضطراً إلى أن ألفت انتباهكم إليها . فأنتم تعرفون الحقيقة ، والحقيقة هي : بعض الزوج يكذبون ، وبعض

الزواج لأخلاقيون ، وبعض الزوج الذكور لا يمكن الوثوق بهم فيما يخص النساء . . . أكنّ سوداوات أو بيضاوات . ولكن هذه حقيقة تنطبق على الجنس البشري كله وليس على عنصر بعينه منه . ليس في هذه المحكمة شخص لم يتفوه بكذبة في حياته ، أو لم يرتكب عملاً لأخلاقياً ، ولا يوجد رجل حيّ لم ينظر في حياته إلى امرأة ما بشهوة .

توقف أتيكوس وأخرج منديله . ثم خلع نظارتيه ومسحهما ، ورأينا شيئاً آخر فيه نراه للمرة الأولى : فنحن لم يسبق لنا أن رأينا يعرق . . . كان واحداً من أولئك الرجال الذين لا تعرق وجوههم ، ولكن وجهه كان لامعاً الآن .

« أمر آخر أياها السادة قبل أن أنهي مرافعتي . قال « توماس جفرسون (١) مرة ان كل الناس قد خلقوا متساوين ، وهي عبارة يُغَرِّمُ البانكي والجانب النسوي من « الفرع التنفيذي » في واشنطن برمينها . هناك ميل في هذا العام (١٩٣٥) لدى بعض الناس لاستعمال هذه الجملة خارج سياقها ، وذلك حتى تنطبق على كل الشروط . والمثال الأكثر مدعاة للضحك الذي أستطيع التفكير به هو أن الناس المسؤولين عن التربية العامة يرفعون التلاميذ الأغبياء والكسالى مع المجتهدين . . . وذلك لأن كل الناس قد خلقوا متساوين — هكذا يقول لك المربّون — فالأطفال الذين يرسبون في صفوفهم يعانون من مشاعر نقص رهيبة . نحن نعرف

(١) - (١٧٤٣-١٨٢٦) رئيس الولايات المتحدة ومؤلف « اعلان الاستقلال » (المترجم).

أن الناس لم يخلقوا كلهم متساوين بالمعنى الذي يريد بعض الناس. أن يُقنعونا به : فبعض الناس أكثر ذكاء من غيرهم ، وبعض الناس لديهم فرصة أكبر لأنهم ولدوا ولديهم هذه الفرصة ، بعض الناس يجمعون من المال أكثر من الآخرين ، وبعض السيدات يُجندن صنع الكعك أكثر من غيرهن . . . بعض الناس ولدوا وهم يتمتعون بموهبة تفوق المستوى العادي لأغلبية الناس .

« ولكن هناك طريقة واحدة في هذا البلد — يخلق فيها الناس متساوين جميعاً — فهناك مؤسسة انسانية واحدة تجعل الفقير يتساوى مع فرد من عائلة « روكفلر » ، والأحمق يتساوى مع شخص كآينشتاين ، والجاهل يتساوى مع عميد كلية . هذه المؤسسة ، أيها السادة ، هي المحكمة .

« ويمكن أن تكون تلك هي « المحكمة العليا للولايات المتحدة » أو أكثر المحاكم تواضعاً في البلد كلها ، أو هذه المحكمة الموقرة التي تعملون بخدمتها . ان لمحاكمنا أخطاءها ، كما لأية مؤسسة انسانية ، ولكن في هذا البلد محاكمنا هي المساوي الأكبر بين البشر ، وفي محاكمنا كل الناس خلقوا متساوين .

« لست بالمثالي حتى أؤمن بحزم بتزاهة محاكمنا وبنظام المحلفين ، فهذه ليست مثالية بالنسبة لي ، بل هي واقع حي فعّال . أيها السادة ، ليست المحكمة سوى كل شخص منكم يجلس أمامي هنا على منصة

المحلفين . والمحكمة تكون قديمة بقدر ما يكون مخلوقها كذلك ، وتكون هيئة المحلفين قديمة بقدر ما هم الأشخاص الذين يشكلونها قديمون . أنا واثق من أنكم أيها السادة ستراجعون دون انفعال الشهادات التي استمعتم إليها ، وتصلون إلى قرار ، وتعيدون هذا المتهم إلى عائلته . أناشدكم بالله أن تقوموا بواجبكم » .

انخفض صوت أتيكوس ، وحين استدار مبتعداً عن المحلفين قال شيئاً ما لم أسمع . قال ذلك لنفسه أكثر مما قاله للمحكمة . قرصت جم :

— ماذا قال ؟

— « أناشدكم باسم الله أن تصدقوه » . أعتقد أنه قال ذلك .

انحنى ديل من فوق ولكن جم :

— انظر إلى هناك .

تابعنا اصبعه بقلوب غائصة . كانت كالبورنيا تتقدم نحو منتصف الممشى بين الصفيين من المقاعد وهي تنجيه نحو أتيكوس مباشرة .

* * *

الفصل الحادي والعشرون

توقفت بنجل عند الحاجز وانتظرت حتى تكلّفت اهتمام القاضي
تايلور . كانت ترتدي مريلة نظيفة وتحمل مظروفاً في يدها .

رآها القاضي تايلور وقال :

— هذه كالبرونيا ، أليس كذلك ؟

قالت :

— نعم ياسيدي . هل يمكنني أن أوصل هذه الرسالة للسيد فينتش
ياسيدي ؟ لا علاقة لهذه بالـ . . . بالمحاكمة .

أوماً القاضي برأسه وأخذ أتيكوس المظروف من كالبرونيا .
فتحه وقرأ محتوياته وقال :

— سيدي القاضي ، هذه رسالة من أختي . وهي تقول أن طفلي
مفقودان ، فهما لم يعودا إلى البيت منذ الظهر . . . إني . . . هل يمكنك . . .
— أعرف أين هما يا أتيكوس .

هكذا تكلم السيد أندروود : ثم استأنف :

— انهما هناك في الشرفة الخاصة بالملوئين . . . وهما هناك منذ الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة عشرة بالتحديد .

التفت أبونا ونظر إلى الأعلى . صاح :

— جم ، انزل من هناك .

ثم قال للقاضي شيئاً لم نسمعه . نزلنا متجاوزين الكاهن سايكس وشققنا طريقنا نحو الدرج .

كان أتيكوس وكالبورنيا في انتظارنا في الطابق الأسفل . بدت كالبورنيا في حالة من الغيظ ، أما أتيكوس فبدا منهكاً .

كان جم يقفز مستثاراً :

— لقد كسبنا ، أليس كذلك ؟

قال أتيكوس بإيجاز :

— لأعرف . هل كنتم هنا فترة بعد الظهر كلها ؟ اذهبوا مع كالبورنيا إلى البيت وتناولوا عشاءكم . . . وابقوا في المنزل . .

توسل جم :

— أوه يا أتيكوس . . . اسمح لنا بالبقاء . أرجوك اسمح لنا بسماع الحكم . أرجوك ياسيدي .

— قد يخرج المحلفون ويعودون خلال دقيقة ، لانعرف . . .

ولكننا لاحظنا أن أتيكوس كان يلين .

— حسناً ، لقد سمعتم المحاكمة كلها ، فلا بأس من أن تسمعوا
البقية . أقول لكم ؟ يمكنكم العودة بعد أن تتناولوا طعام العشاء . . .
كلوا ببطء فلن يضيع عليكم أي شيء هام الآن . . . وإذا كان المحلفون
لا زالوا خارجاً ، فبإمكانكم الانتظار معنا . ولكني أتوقع أن تنتهي
الأمر قبل عودتكم .

سأل جم :

— هل تعتقد أنهم سيبرثونه بهذه السرعة ؟

فتح أتيكوس فمه ليجيب ، ولكنه أغلقه وغادرنا .

تضرعت أن يحفظ لنا الكاهن سايكس مقاعدنا ، ولكنني توقفت
عن ذلك حين تذكرت أن الناس نهضوا ولبثوا يغادرون جماعات
جماعات حين يخرج المحلفون من القاعة . . . واللبلة سيفزون بالغ
العصير والسندويش ، ومقهى « الأوكي » والفندق ، هذا إذا لم يكونوا
قد جلبوا معهم وجبات عشايتهم أيضاً .

سارت بنا كالبرونيا إلى المنزل قائلة :

— سأسلخ جلد كل منكم وهو حي ، لا أستطيع أن أتصور مجرد
تصور فكرة اصغائكم أيها الأطفال لكل ذلك . ياسيد جم ، ألسنت تعرف

أنه ليس من المفروض فيك أن تأخذ أختك الصغيرة إلى تلك المحاكمة ؟
ستصاب السيدة ألكسندرا بالشلل حتماً حين تعرف . ليس لائقاً بالأطفال
أن يسمعوا . . .

كانت أنوار الشارع مضاءة ، ولمحنا الشكل الجانبي لوجه كالبورنيا
المتععض حين مررنا من تحتها .

— ياسيد جم ، كنت أظن أن لك رأساً بدأ ينمو على كتفيك ،
لأستطيع أن أتصور مجرد تصور . أنها أختك الصغيرة . لأستطيع أن
أتصور ذلك ياسيدي . لابد أنك خجلان من نفسك تماماً . . . أليس
فيك عقل أبداً ؟

كنت متنبهة تماماً ، فقد حدثت أمور كثيرة حتى الآن وبسرعة
كبيرة شعرت معها أنه سأمضي سنوات عديدة قبل أن أستطيع فرزها ،
وهاهي كالبورنيا الآن تتخلى عن جم العزيز على قلبها . ماالذي سيجلبه
المساء من مفاجآت أخرى أيضاً ؟

كان جم يضحك :

— ألا تريدان أن تسمعي عما حدث ياكال ؟

— اسكت ياسيدي . عليك أن تكون مُطعاً طناً الرأس خجلاً الآن
بدلاً عن أن تضحك .

أحييت كالبورنيا سلسلة من التهديدات التي علاها الصدا والي

لم ترعج جم اطلاقاً ، ثم صعدت الدرج الأمامي وهي تصبح بجملتها المشهودة : « إذا لم يؤدبك السيد فينتش فأنا سأفعل . . . ادخل إلى المنزل ياسيدي » .

دخل جم مبتسماً ، وأومات كالبورنيا برأسها علامة الموافقة على مشاركة ديل لنا طعام العشاء : « هيا اهتف إلى الآتسة راشيل فوراً فهي تبحث عنك كالمخبولة في كل مكان . واحذر لثلا تعندك بالزورق إلى ميريديان منذ الصباح الباكر » .

جاءت العمدة ألكسندرا للقائنا ، وكاد يغى عليها حين أخبرتها كالبورنيا عن المكان الذي كنا فيه . وأعند أن مشاعرها جُرحت حين قلنا لها أن أتيكوس قال ان بإمكاننا العودة ، لأنها لم تفه بكلمة واحدة خلال العشاء . كانت تعيد ترتيب الطعام في صحنها ، وتنظر إليه بحزن بينما قامت كالبورنيا على خدمتنا ، جم وديل وأنا بنوع من الانتقام . صبت كالبورنيا الحليب ، ووضعت سلطة البطاطا ولحم الخنزير المقدد وهي تهمهم : « يجب أن نتجولوا مما فعلتم » وتكررها بدرجات مختلفة الحدة . وكان آخر أوامرها : « فلتأكلوا كلكم ببطء » .

كان الكاهن سايكس قد احتفظ لنا بمقاعدنا . وقد دهشنا حين علمنا أننا قد غبنا حوالي الساعة تقريباً ، وكنا مندهشين أيضاً إذا وجدنا قاعة المحكمة كما تركناها انما مع تغييرات طفيفة : كانت منصة المحلفين

فارغة ، والتهتم قد رحل ، وكذلك القاضي تايلور ، ولكنه عاد للظهور حين كنا نجلس .

قال جم :

— لم يتحرك أحداً تقريباً .

قال الكاهن سايكس :

— لقد تحرك الناس بعض الشيء حين خرج المحلفون . لقد جلب الرجال هناك في الأسفل العشاء للنساء ، وهؤلاء أطعمن أطفالهن .

سأل جم :

— منذ متى غادر المحلفون القاعة ؟

— منذ ثلاثين دقيقة تقريباً . السيد فيتش والسيد غيلدر قاما بالمزيد من الخطابة ، كما أن القاضي تايلور هاجم المحلفين .

— وكيف كان هو ؟

— ماذا أقول ؟ حسناً ، لقد كان جيداً . لا أشكو منه إطلاقاً ، لقد كان عادلاً تماماً . لقد قال لهم إذا صدقتم هذا ، سيكون لديكم حكم واحد تصدرونه ، وإذا صدقتم ذاك فسوف تصدرون حكماً آخر . أعتقد أنه كان يميل إلى جانبنا قليلاً . . .

ثم حك الكاهن سايكس رأسه .

ابتسم جم وقال بحكمة :

— ليس من المفروض به أن يميل إلى أي جانب ، ياسيدي الكاهن ولكن لا تبتئس ، فقد كسبناها. لأستطيع أن أتصور كيف يمكن لأي هيئة محلفين أن تدين المتهم بناء على ماسمعناه . . .

— هيا لاثكن واثقاً إلى هذا الحد ياسيد جم ، فأنا لم أر في حياتي هيئة محلفين تصدر قراراً لصالح رجل ملون ضد رجل أبيض . . . ولكن جم قال إن هذه المرة ستكون استثناء، وقد أخضعنا لمراجعة مطوّلة حول الدليل المطلوب ، ولأفكاره حول القانون فيما يخص الاغتصاب : لا يكون الأمر اغتصاباً إذا سمحت المرأة للرجل بذلك ، ولكن يجب أن تكون في الثامنة عشرة من عمرها — هذا في ولاية ألاباما — ومايلا كانت في التاسعة عشرة . طبعاً عليها أن ترفض وتصرخ ، وعليها أن تُغلب وتُداس بالأقدام ، والأفضل أن تُضرب حتى يغمر عليها . إذا كانت تحت الثامنة عشرة ، لا يكون كل هذا ضرورياً حتى يُتهم الرجل بالاغتصاب . .

اعترض الكاهن سايكس قائلاً :

— ياسيد جم ، ليس من اللائق أن تسمع السيدات الصغيرات مثل هذا الكلام . . .

— أوه ، أنها لاتعرف عما نتحدث . ياسكاوت أنت أصغر من أن تفهمي هذه الأمور . أليس كذلك ؟

— ليس الأمر على هذه الحال أبداً ، فأنا أفهم كل كلمة تقولها .
ربما كانت لهجتي مقنعة أكثر من اللازم ، لأن جم صمت ولم
يناقش الموضوع مرة أخرى .
سأل جم :

— كم الساعة ياسيدي الكاهن ؟
— إنها تقرب من الثامنة .

نظرت إلى الأسفل فشاهدت أتيكوس يتمشى حول المكان ويداه
في جيبيه : جال بالنوافذ ثم سار محاذياً الحاجز وحتى منصة المحلفين .
نظر إلى داخلها ، ثم تفحص القاضي تايلور المربع على عرشه ، ثم عاد
من حيث بدأ . حاولت أن ألفت نظره ، وحين نجحت في ذلك لوّحت
له . وقد ردّ على تحيّي بابتسامة بالرأس ثم استأنف جولته .

كان السيد غيلمر واقفاً عند النوافذ يتحدث إلى السيد أندروود .
بينما كان « بيرت » ، كاتب المحكمة ، يدخن السيكارة تلو الأخرى
دون أن يطفىء أيّاً منها : كان يجلس وقدماه فوق الطاولة .

أما راسميّو المحكمة ، أولئك الحاضرون منهم : أتيكوس والسيد
غيلمر والقاضي تايلور الغارق في النوم ، و « بيرت » ، فقد كانوا
الوحيدين الذين بدا عليهم أنهم يتصرفون على نحو عادي . لم يسبق لي أن
رأيت قاعة محكمة مكثّظة بالبشر وساكنة إلى هذا الحد . أحياناً كنت

تسمع صوت طفل يتقن باكيًا ، أو آخر يخرج راكضاً ، ولكن الكبار كانوا يجلسون أو يقفون كمن في كنيسة . في الشرفة ، كان الزنوج يجلسون أو يقفون من حولنا في صبرٍ توراني .

عانت ساعة المحكمة القديمة من التوتر التمهيدي ثم دقت معلنة تمام الساعة ، ثمانية دقائق تصم الآذان وتهزّ العظام .

وحين دقت إحدى عشر مرة كنت قد فقدت كل شعور . فبعد معاركتي للنوم ، سمحت لنفسني بأن أغفو غفوة قصيرة على ذراع الكاهن سايكس وكتفه المريح . ثم استيقظت وقلت بجهد مخلص محاولة أن أبقى كذلك ، وذلك بالنظر إلى الأسفل والتركيز على الرؤوس التي تحتنا : كانت هناك ست عشرة رأساً صلعاء وأربعة عشر رجلاً يمكن أن نسميهم على أنهم من أصحاب الشعر الأحمر ، وأربعون رأساً تراوح ألوانها ما بين البني والأسود ، وتذكرت شيئاً كان جم قد شرحه لي مرة حين كان يمر بفترة موجزة من البحث الفيزيائي : قال إن مجموعة كبيرة من الناس — مثلاً ستاد رياضي مليء بالناس — لو ركزت كلها على شيء واحد ، كأن تشعل ناراً في شجرة في غابة ، فالشجرة ستشتعل من تلقاء ذاتها ، ولهوت بفكرة الطلب إلى كل شخص في الأسفل بأن يركز على إطلاق سراح توم روبنسون ، ولكني فكرت في أنهم إذا كانوا منهكين بقدر ما أنا منهكة ، فلن تنجح الحيلة .

كان ديل غارقاً تماماً في النوم ورأسه على كتف جم ، وجم كان صامتاً .

سألته :

— ألم يطيلوا مداولتهم ؟

قال بسعادة :

— طبعاً ياسكاوت .

— من الطريقة التي تحدثت بها ، كان يخيل لي أنها تستغرق خمس دقائق فحسب .

رفع جم حاجبيه وقال :

— هناك أمور لاتفهمينها .

وكنت متعبة إلى حد أنني لم أجادله .

ولكن لا بد أنني كنت مستيقظة إلى حد معقول ، وإلا لما كنت قد تلقيت ذلك الانطباع الذي كان يزحف إلى داخلي . ولم يكن يختلف كثيراً عن ذلك الذي عرفته في الشتاء الماضي ، وقد ارتجفت ، رغم أن الليلة كانت حارة . وقد نما ذلك الشعور حتى أصبح الجحش في قاعة المحكمة كما كان بالضبط في صباح يوم بارد من أيام شباط (فبراير) ، حين سكنت العصفائر الساخرة وتوقف التجارون عن الطرق في منزل الأنسة مودي الحديد ، وحين أغلق كل باب خشبي في الحي بذلك الاحكام الذي تغلق به أبواب منزل آل رادلي . شارع فارغ مهجور في حالة من الانتظار ، وقاعة المحكمة كانت مكتظة بالناس . لم تعد

الليلة الصيفية القانظة لتختلف عن صباح يوم شتائي بارد . أما السيد هك تيت ، الذي كان يدخل قاعة المحكمة ويتحدث إلى أتيكوس ، فقد كان مرتدياً على الأرجح جزمته العالية وجاكتته ذات المربعات . كان أتيكوس قد أوقف رحلته الهادئة ووضع قدمه على الدعامة السفلى لأحد الكراسي . وبينما كان يصغي إلى ما يقوله السيد تيت ، كان يمرر يده ببطء على فخذه صعوداً ونزولاً ، وتوقعت من السيد تيت أن يقول في أية لحظة : « إليك به ياسيد فيتش . . . » .

ولكن السيد تيت قال : « المحكمة ستعتقد من جديد » وقد قالها بصوت مدو بالسلطة ، وارتفعت الرؤوس التي تحتنا فجأة . غادر السيد تيت القاعة ثم عاد بتوم روبنسون . أوصل جم إلى مكانه إلى القرب من أتيكوس ووقف هناك . تنبه القاضي تايلور فجأة وجلس مستصباً وهو ينظر إلى منصة المحلفين .

ولكن ما حدث بعد ذلك كانت له صفة أشبه بالحلم : ففي الحلم رأيت المحلفين يعودون ، وهم يتحركون كمن يسبح تحت الماء ، وجاء صوت القاضي تايلور من البعيد البعيد ، وكان ضئيلاً . ورأيت شيئاً مألوس من المتوقع أن يراه إلا ولد للحام ، أو لا يترقبه إلا هو ، وكان ذلك أشبه بمراقبة أتيكوس وهو يمشي في الشارع ، ويرفع بندقيته إلى كتفه ثم يجذب الزناد ، ولكنني كنت أراقب طوال الوقت مدركة أن البندقية كانت فارغة .

ليس من عادة هيئة من المحلفين أدانت متهماً أن تنظر باتجاهه ، وحين دخلت تلك الهيئة ، لم ينظروا واحداً منهم نحو توم روبنسون. سلم رئيسها قطعة من الورق إلى السيد تيت الذي سلمها بدوره إلى القاضي . .

أغلقت عيني . كان القاضي تايلور يقرأ أصوات المقرعين : « مذنب . . . مذنب . . . مذنب . . . مذنب . . . » اختلست النظر إلى جيم : كانت يدها بيضاوين من شدة امساكه بجاذب الشرفة ، وكانت كفاه تتنفضان وكأن كل كلمة « مذنب » كانت عبارة عن طعنة تصيبه بينهما .

كان القاضي تايلور يقول شيئاً ما . كانت مطرقة في يده ، ولكنه لم يكن يستعملها . شاهدت بغير وضوح أتيكوس وهو يدفع بأوراقه من منضدته إلى داخل حقيبته يده . أغلقها ، توجه نحو كاتب المحكمة وقال له شيئاً ما ، ثم أومأ برأسه للسيد غيلمر ، ثم توجه نحو توم روبنسون وهمس له بشيء ما . كان أتيكوس يضع يده على كتف توم حين همس له . تناول أتيكوس جاكنته من ظهر الكرسي ووضعها على كتفيه . ثم غادر القاعة ولكن ليس من المخرج المعتاد . ربما كان يريد الذهاب إلى البيت من أقصر طريق ، لأنه كان يمشي بسرعة عبر الممشى الأوسط متجهاً نحو المخرج الجنوبي . لاحقت بنظري أعلى رأسه وهو يشق طريقه نحو الباب . لم ينظر إلى الأعلى .

كان أحدهم يقرصني ، ولكنني كنت غير راغبة في أن أبعد عينيّ

عن الناس الذين في الأسفل أو عن صورة أتيكوس وهو يمشي وحيداً
غير الممشى .

— يا آنسة جان لويز ؟

نظرت فيما حولي . كانوا قد شرعوا بالوقوف . كل من حولنا
ومن في الشرفة على الجدار المقابل من الزنوج كانوا يهتفون بالنهوض .
كان صوت الكاهن سايكس بعيداً بعد صوت القاضي تايلور .

— يا آنسة جان لويز ، قفي . فأبولك يغادر المحكمة .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

كان دور جم في البكاء الآن . فقد كان وجهه مغططاً بالدموع الغاضبة ونحن نشق طريقنا بين الحشد السعيد . كان يهمهم : « ليس عدلاً » طوال طريقنا نحو زاوية الساحة حيث وجدنا أتيكوس بانتظارنا . كان أتيكوس واقفاً تحت عمود النور ويبدو عليه وكأن شيئاً لم يحدث : كان أزرار صدرته مقفلة ، وقبته وربطة عنقه في مكانهما الصحيح ، وسلسلة ساعته تلتصق . لقد عاد إلى هلوته المعتاد من جديد .

قال جم :

— ليس عدلاً .

— لا يا بني ، ليس عدلاً .

ثم سرنا نحو البيت .

كانت العمة ألكسندرا لازالت ساهرة تنتظر . كانت في الروب دو شامبر ، وكنت أستطيع أن أقسم أنها كانت ترتدي المشد تحت . همهمت : « آسفة يا أخي » . وبما أنني لم يسبق أن سمعتها تنادي أتيكوس ؛ « أخي » من قبل ، فقد اختلست نظرة إلى جم ، ولكنه لم يكن يصغي . كان

ينظر إلى أتيكوس ثم إلى الأرض وتساءلت ان كان يعتقد ياترى أن
أتيكوس مسؤول نوعاً ما عن إدانة توم روبنسون .

سألت عمي مملّحة إلى جم :

— هل هو بخير ؟

قال أتيكوس :

— سيكون بخير الآن . كانت التجربة أقوى قليلاً مما يستطيع
احتماله .

تنهد أبونا ثم استأنف قائلاً :

— أنا ذاهب لأنام ، وإذا لم أستيظ في الصباح لاتنادوا علي .

— لم أكن أعتقد أنه من الحكمة أولاً وقبل كل شيء أن أدعهما ...

قال أتيكوس :

— هذا هو بيتهما ياأختي . لقد جعلناه لهما على هذه الشاكلة ،

فعليهما أن يتعلّما كيف يتغلبا على الصعوبات :

— ولكن ليس عليهما الذهاب إلى دار المحكمة والتمرّغ . . .

— إنها أيضاً جزء من مقاطعة مايكوم بقدر ماهي حفلات الشاي

التبشيرية .

قالت العمة ألكسندرا وقد بدا القلق في عينيها :

— يا أتيكوس ، أنت آخر شخص كنت أفكر في أنه قد يسخر منا .

— لست أسخر منك بل أنا منهك فحسب . سأذهب إلى الفراش .

قال جم بكآبة :

— أتيكوس . . .

التفت أتيكوس في الممشى وقال :

— ماذا يابني ؟

— كيف استطاعوا أن يفعلوا ما يفعلونه ؟ ، كيف استطاعوا ؟

— لأعرف ، ولكنهم فعلوه . لقد فعلوا ذلك سابقاً وفعلوه الليلة

وسيفعلونه من جديد وحين يفعلونه . . . يبدو أن الأطفال هم وحدهم

الذين سيكون . فلتصبح على خير .

ولكن الأشياء تكون دائماً في حالة أفضل في الصباح . نهض أتيكوس

في وقته المعتاد وكان في غرفة الجلوس وراء صحيفة « موبيل ريجيستر »

عندما دخلناها متعثرين . كان وجه جم الصباحي يطرح السؤال الذي

كانت شفتاه الرسائتان تحاولان جاهدتين نطقه .

قال له أتيكوس ونحن ندخل إلى حجرة الطعام وهو يطمثنه : « لم

يحن أو ان القلق بعد ، فالأمر لم ينته عند هذا الحد . سيكون هناك استئناف ،

ويمكنك الاعتماد على ذلك . يا للسماء يا كأل ، ما هذا كله ؟ » وكان

يحدق في طبق افطاره .

قالت كالبورنيا :

— لقد أرسل لك والد توم روبنسون هذا الفروج هذا الصباح ،
وقد جهزته لك .

— قولي له اني فخور بذلك . . . وأراهن على أنهم لا يتناولون في
« البيت الأبيض » فرايج على الفطور . وما هذه ؟

قالت كالبورنيا :

— انها أقراص أرسلتها « إستيلا » من الفندق .

نظر إليها أتيكوس بحيرة فقالت :

— الأفضل أن تدخل المطبخ وتظر ما بداخله ياسيد فينتش .

لحقنا به . كانت طاولة مثقلة بطعام يكفي لدفن العائلة بأكملها :
قطع ضخمة من لحم الخنزير المملح ، البندورة (الطماطم) ، الفاصولياء
وحشى العنب . ابتسم أتيكوس ابتسامة عريضة حين وجد برطماناً من
عظام رسغ الخنزير المخللة .

سألت :

— أعتقد أن عمي ستسمح لي بأكل هذه في حجرة الطعام ؟

قالت كالبورنيا :

— كان هذا كله موجوداً على الدرج الخلفي حين وصلت إلى هناك

هذا الصباح . انهم . . انهم يقدرون مافعلته ياسيد فينتش . انهم . . انهم يحاولون أن يفعلوا ماهو أكبر من امكانياتهم ، أليس كذلك ؟

اخضلت عينا أتيكوس . سكت برهة ثم قال :

— قولي لهم اني ممتن جداً ، قولي لهم . . . قولي لهم ان عليهم ألا يفعلوا ذلك مرة أخرى . فهذه أوقات عصيبة . . .
غادر المطبخ وذهب إلى حجرة الطعام واعتذر لنفسه من العمة ألكسندرا ، ثم ارتدى قبعته وانطلق نحو البلدة .

سمعنا خطوات ديل في القاعة ، ولذا تركت كالبورنيا فطور أتيكوس الذي لم يلمسه على الطاولة . وبين اللقم أخبرنا ديل عن رد فعل الأنسة راشيل على أحداث الليلة الماضية ، وكان كما يلي : إذا أراد رجل كأتيكوس فينتش أن ينطح جداراً صخرياً ، فذاك رأسه وهو حرق فيه .

دمدم ديل وهو يقضم فخذ دجاجة :

— كنت أود أن أقول لها ولكنها لم تبعد كمن سيصغي ذلك الصباح . قالت انها استيقظت في منتصف الليل وتساءلت أين كنت ياترى في مثل تلك الساعة من الليل ، وقالت انها أرادت أن تقول للمأمور أن يبحث عني ولكنه كان في المحكمة .

قال جم :

— ياديل ، عليك أن تتوقف عن مغادرة المنزل دون اعلامها .
فهذا يغضبها .

تنهد ديل بصبر . ثم قال :

— لقد قلت لها حتى أزرقّ وجهي أين كنت ذاهباً . . . ولكن
الحكاية وما فيها أنها ترى وراء كل ماأفعله أمراً مبيتاً ، أراهن على أن
تلك المرأة تشرب مايعادل ثمن غالون على الفطور في كل صباح . . .
وأعرف أنها تشرب كأسين مليئين ، فقد رأيتهما تفعل ذلك .

قالت العمة ألكسندرا :

— لاتتحدث بهذه الطريقة ياديل . هذا لايليق بطفل . أنها طريقة ...
مليئة بالسخرية .

— ليس الأمر كما تقولين ياعمة ألكسندرا . ان قول الحقيقة
ليس مليئاً بالسخرية ، أليس كذلك ؟

— ولكن الطريقة التي تقول بها الحقيقة توحى بذلك .

التمعت عينا جم وهو ينظر إليها ، ولكنه قال لدليل :

— لنذهب . يمكنك أن تأخذ البكرة معك .

حين ذهبنا إلى الرواق الأمامي ، كانت الآنسة ستيفاني كروفورد

مشغولة بالحديث إلى الآنسة مودي أتكنسون والسيد آفري . نظروا
بأنجاءنا واستمروا في الحديث . زجر جم . تمتيت لو كان معي سلاح .

قال ديل :

— أكره نظرات الكبار إلينا . فهذا يشعرونا أننا ارتكبنا شيئاً ما .

صاحت الآنسة مودي طالبة من جم أن يذهب إليها .

أنّ جم وقفز من الأرجوحة .

قال ديل : « سنذهب معك » .

كان أنف الآنسة ستيفاني يرتجف من الفضول . أرادت أن تعرف
من أعطانا الإذن بالذهاب إلى المحكمة . . . لم قرنا هي ولكن الأمر كان
قد شاع في كل أنحاء البلدة هذا الصباح بأننا كنا نجلس في شرفة الملونين .
هل وضعنا أتيكوس هناك كنوع من الـ . . . ؟ ألم تكن هناك في وسط
أولئك الـ . . . ؟ هل فهمت سكاوت كل الذي . . . ؟ ألم نصب بالخنون
ونحن نرى أبانا يهزم ؟

كانت كلمات الآنسة مودي قاتلة . قالت :

— هه باستيفاني . لأستطيع قضاء فترة الصباح كلها هنا على
الرواق . . . يا جم فينتش ، لقد قادت عليك لأرى ان كنت تستطيع
أنت وزميلك تناول بعض الكعك معي . لقد استيقظت منذ الخامسة

صباحاً لأطبخها ، لذا من الأفضل أن تقولوا نعم . اعلمينا يا ستيفاني .
صباحك جميل يا سيد آفري .

على طاولة مطبخ الآتسة مودي كانت كمكة كبيرة وكمكتان
صغيرتان . كان من المفروض أن تكون هناك ثلاث كمكات . لم يكن
من شأن الآتسة مودي أن تنسى ديل ، ولا بدّ أننا قد عبرنا لها عن ذلك
دون كلمة واحدة . ولكننا فهمنا كل شيء حين قطعت الآتسة مودي
قطعة من الكمكة الكبيرة وأعطتها إلى جم .

وبينما كنا نأكل ، شعرنا أن تلك كانت طريقة الآتسة مودي في
التعبير عن رأيها في أنه لم يتغير أي شيء فيما يتعلق بها . كانت تجلس
بهدهوء في كرسي المطبخ وتراقبنا .

وفجأة تحدثت :

— لانتلمر يا جم ، فالأمور لا تكون عادة بذلك السوء الذي تبدو عليه .
داخل البيت ، وحين تريد الآتسة مودي أن تقول شيئاً مطولاً ،
فإنها تنشر أصابعها على ركبتيها وتجعل الجسر الاصطناعي في فمها
مستقراً في مكانه . لقد فعلت كل ذلك وانتظرناها .

— أريد أن أقول لكم بكل بساطة أن هناك بعض الناس في هذا
العالم قد خلّقوا ليؤدوا الأعمال البغيضة نيابة عنا . وأبوكما واحد من
هؤلاء .

قال جم :

— أوه . حسناً .

أجابت الآنسة مودي وقد أدركت ماعناه جم بتلك المهممات
القدرية :

— لانتقل لي أوه — حسناً ياسيدي ، فلستَ كبيراً بما فيه الكفاية
لتقييم ماقلتُهُ .

كان جم يحدق في قطعته نصف المأكولة من الكعك . قال :

— ان ذلك أشبه بيرقة في شرفقتها ، كشيء نائم ومغلف ومحفوظ
في مكان دافئ . كنت أظن دائماً أن سكان مايكوم هم أفضل الناس
في العالم ، أو على الأقل هكذا كانوا يبدوون لي .

قالت الآنسة مودي :

— نحن أكثر الناس أماناً في العالم ، فنحن نادراً جداً ما نطالب بأن
نكون مسيحيين حقيقيين ، ولكن حين يحدث ذلك ، فإن لدينا أشخاص
كأتيكوس ليدافعوا عنا .

ابتسم جم بكآبة :

— أتمنى لو كانت كل المقاطعة تفكر بطريقتك .

— ستدهش لو علمت كم نحن كثيرون .

علا صوت جم وهو يقول :

— من هم ؟ من فعل في هذه البلدة شيئاً واحدة يساعد به توم روبنسون ؟ قولي من ؟

— أصدقاؤه الملونون وأشخاص مثلنا . أشخاص كالقاضي تايلور . كالسيد هيك تيت . توقف عن الطعام وابدأ بالتفكير يا جم . هل سبق لك وفكرت في أن تعين القاضي تايلور لأتيكوس كمحام للدفاع عن ذلك الشاب لم يكن مجرد مصادفة ؟ وأن للقاضي تايلور أسبابه في تعيين أتيكوس ؟

كانت تلك مجرد فكرة ، فالدفاعات التي تعينها المحكمة تحال عادة إلى « ماكسويل غرين » وهو آخر محام انضم إلى النقابة وكان في حاجة إلى بعض الخبرة . كان على ماكسويل غرين أن يدافع في قضية توم روبنسون .

كانت الآتسة مودي تقول :

— فكروا في ذلك ، فالأمر لم يكن مجرد مصادفة . كنت جالسة على الرواق هناك في الليلة الماضية ، وكنت أنتظر . انتظرت وانتظرت ورايتكم تعودون جميعاً وأنتم تمشون على الرصيف . وبينما كنت أنتظر فكرت في أن أتيكوس فينتش لن يكسب الدعوى ، فهو لا يستطيع أن يكسبها ، ولكنه الشخص الوحيد في هذه الأثناء الذي يستطيع أن يجعل هيئة المحلفين تتداول كل تلك الفترة الطويلة في قضية كهذه . وقد فكرت كما يلي : اننا نتقدم خطوة . . . حسناً أنها خطوة صغيرة جداً ، ولكنها خطوة على أية حال .

همهم جم :

— التحدث بهذه الطريقة جيد . . . ولكن هل يستطيع القضاة
والمخامون المسيحيون أن يعوضوا عن محققين وثنيين ؟ ماأن أكبر . . .

قالت الآنسة مودي :

— هذا شيء سيكون عليك أن تأخذه من أليك .

هبطنا الدرجات الباردة الجلدية لمنزل الآنسة مودي الحديد وعدنا
إلى الشمس ، فوجدنا السيد آفري والآنسة ستيفاني كروفورد مايزالان
في المكان . كانا قد سارا قليلاً على امتداد الرصيف ووقفنا أمام منزل
الآنسة ستيفاني . وكانت الآنسة راشيل تسير باتجاههما .

قال ديل :

— أعتقد أني سأكون مهنجاً حين أكبر ء

توقفنا عن السير جم وأنا .

— نعم ياسيدي ، سأكون مهنجاً . فليس هناك في هذا العالم
ماأستطيع أن أفعله تجاه الناس سوى الضحك ، لذا سأنضم إلى السيرك
وأضحك حتى أرتوي .

قال جم :

— لقد فهمت الأمر معكوساً يا ديل ، فالمهرجون حزينون ، والناس هم من يضحك عليهم .

— حسناً ، سأكون نوعاً جديداً من المهرجين . سأقف في منتصف الحلقة وأضحك على الناس . انظروا إلى هناك ، كل واحد منهم يبدو عليه وكأنه يركب على عصا مكسرة . والحالة راشيل قد سبق لها وركبت واحدة .

كانت الآنسة ستيفاني والآنسة راشيل تلوحان لنا ببجئون ، بطريقة لم تكذب ملاحظة ديل .

قال جم :

— أوه يا للرب . أعتقد أنه سيكون غير ممكن تجاهلهم .

كان هناك شيء ما على غير مايرام . فالسيد آفري كان عمره الوجه من نوبة عطاس أصابته وكاد يعصف بنا خارج الرصيف حين اقتربنا منه . كانت الآنسة ستيفاني ترتجف من الاثارة ، وأمسكت الآنسة راشيل بكتف ديل وقالت له :

— ادخل إلى الفناء الخلفي وابق هناك . هناك خطر قادم .

سألت :

— ما المسألة ؟

— ألم تسمعي بعد ؟ لقد انتشر الخبر في كل أنحاء البلدة . . .

في هذه اللحظة خرجت العمة ألكسندرا إلى الباب ونادت علينا،
ولكنها كانت قد تأخرت كثيراً . فقد استمتعت الآنسة ستيفاني بإعلامنا
بأنه في هذا الصباح أوقف السيد بوب يوويل أتيكوس عند زاوية مكتب
البريد ، وبصق في وجهه ، وقال له انه سينتقم منه ولو كان عليه أن
ينتظر حياته كلها .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

كان التعليق الوحيد الذي صدر عن أتيكوس هو :

— كنت أتمنى لو أن السيد يوويل لا يمتصغ التبغ .

وفقاً لرواية الآنسة ستيفاني كروفورد على أية حال ، فقد كان أتيكوس يغادر مكتب البريد حين اقترّب منه السيد يوويل ، وشمته ، وبصق عليه ، وهدّد بقتله . وقالت الآنسة ستيفاني (التي كانت هناك ورأت كل شيء) إذ كانت تمرّ بالقرب من محلات جيتني جنغل (ان أتيكوس لم يرمش له جفن ، بل أخرج منديلته ومسح وجهه ووقف هناك وترك السيد يوويل يسميه بأسماء لا يمكن لها أن تكررّها بلسانها بأي شكل من الأشكال . كان السيد يوويل محارباً قديماً اشترك في حرب مجهولة ، وقد كان رد فعل أتيكوس الهادى قد جعله يقول له : « أنت أكثر اعتداداً بنفسك من أن تتشاجر معي ، أليس كذلك يا ابن الحرام يا محبّ الزوج ؟ » وقالت الآنسة ستيفاني ان أتيكوس قال : « لا ، بل إذا أصبحت عجوزاً على ذلك » ، ثم وضع يديه في جيبه وسار في طريقه . وقالت الآنسة ستيفاني ان مثل تلك المسائل تناسب شخصاً كأتيكوس فينتش ، فهو يستطيع أن يكون متحفّظاً تماماً أحياناً .

ولكننا جم وأنا لم نأخذ المسألة على أنها مسئلة .

قلت :

— على أية حال ، فقد كان أعظم رام في المديرية في مرة من المرات .
كان يستطيع . . .

قال جم :

— أنت تعرفين أنه يرفض حمل البندقية . وهو لا يملك واحدة
حتى . . . وتعرفين أنه حتى في تلك الليلة عند السجن لم يكن يحمل بندقية .
قال لي مرة ان حمل البندقية هو دعوة لشخص ما كي يطلق النار عليه .

قلت :

— الأمر الآن مختلف ، سنطلب منه أن يستعير واحدة .

وقد طلبنا منه ذلك فقال :

— هــ راء .

قال ديل ان مناشدة الطبيعة الأفضل في أتيكوس. قد يكون لها تأثير
أفضل : وعلى أية حال فإننا سنموت جوعاً إذ. قتله بوب يوويل ،
وزيادة على ذلك فان العمة ألكسندرا هي التي ستربينا ، وكنا نعرف
جميعاً ما الذي ستفعله أول ما تفعله وقبل أن يدفن أتيكوس : فهي
ستطرد كالبورنيا. قال جم إذا حاولت أنا البكاء وادعيت الاصابة

بنوبة ، فأنا صغيرة بعد وفتاة أيضاً ، فقد يرضخ أتيكوس . ولكن هذا لم يكن صحيحاً .

إلا أن أتيكوس حين لاحظنا نتجول ببطء في الجوار ، لأننا كل ولا نمارس اهتمامنا المعتادة ، اكتشف كم كنا خائفين . وقد قام في إحدى الليالي باغراء جم بمجلة لكرة القدم ، ولما رأى جم يقلب الصفحات ثم يرميها جانباً ، قال :

— ما الذي يقلبك يا بني ؟

أجابه جم متطرقاً إلى أب الموضوع مباشرة :

— السيد يوويل .

— ما الذي حدث ؟

— لم يحدث شيء . نحن خائفان عليك ونعتقد أن عليك أن تفعل شيئاً ما حياله .

ابتسم أتيكوس بسخرية وقال :

— وماذا أفعل ؟ هل أوقع معه عقد سلام ؟

— حين يقول رجل ما انه سينال منك ، فيبدو أنه يعني مايقوله .

قال أتيكوس :

— لقد عنى ماقاله حين هددني . يا جم ، عليك أن تحاول النظر

إلى الأمور من وجهة نظر بوب يوويل ولو للدقيقة واحدة : لقد حرّمته في تلك المحاكمة من آخر خرقه من الصدق حاول أن يحتج وراءها ، هذا ان كانت لديه في الأصل أساساً . وكان على هذا الرجل أن ينتقم بطريقة ما ، فهو من ذلك النوع من الناس . وهكذا ، فلن كان البصاق في وجهي وتهديده لي قد أنقذ مايبلا يوويل من جولة اضافية من الضرب ، فأنا سعيد بما حصل . لقد كان عليه أن «يفش خلقه في شخص ما » وأفضل أن أكون أنا ذلك الشخص وليس بالأحرى أولئك الأطفال الذين يملؤون منزله . هل تفهمني ؟

أوما جم برأسه .

دخلت العمّة ألكسندرا الغرفة بينما كان أتيكوس يقول :

— ليس علينا أن نخشى بوب يوويل إطلاقاً ، فقد أخرج كل ماعنده في ذلك الصباح .

قالت العمّة :

— لايجب أن تكون واثقاً إلى هذا الحد يا أتيكوس . فهو من ذلك النوع من الناس الذين قد يفعلون أي شيء ليثأروا الأمر ما . أنت تعرف كيف يكون هؤلاء الناس عادة .

— مالمذي يمكن أن يفعله يوويل ذاك لي يا أختي ؟

قالت العمّة :

— شيئاً ما وخلصه . عليك أن تأخذ ذلك بالحسبان .

أجاب أتيكوس :

— ليس لدى أي شخص في مايكوم فرصة كبيرة ليرتكب شيئاً
خلصه .

بعد ذلك ، لم نعد خائفين . كان الصيف يشارف على الانتهاء ،
وقد استمتعنا بما تبقى منه قدر الامكان . وقد أكد لنا أتيكوس أن توم
روبنسون لن يحدث له شيء حتى تراجع محكمة أعلى قضيته ، وأن
أمامه فرصة طيبة لاطلاق سراحه ، أو محاكمته من جديد على الأقل .
كان الآن في سجن « إنفيلد بربزون فارم » ، الذي يبعد سبعين ميلاً
والواقع ضمن حدود مقاطعة تشستر . وسألت أتيكوس ان كان يسمح
لزوجة توم وأولاده أن يزوروه ، فأجاب بالنفي .

وسأله في إحدى الأمسيات :

— إذا خسر الاستئناف ، مالذي سيحدث له ؟

قال أتيكوس :

— سيذهب إلى الكرسي (١) ، مالم يخفف حاكم الولاية عقوبته .
لم يكن وقت اللقاء بعد ، ياسكاوت . وأمامنا فرصة طيبة للفوز .

(١) يعني هنا أنه سيعدم على الكرسي الكهربائي . (المترجم)

كان جيم ممدّداً على الأريكة يقرأ في مجلة « الميكانيك للجميع » .
رفع عينيه وقال :

— ليس هذا عدلاً . فهو لم يقتل أحداً حتى لو كان مذنباً بالفعل
بما اتهم به . انه لم يقض على حياة أحد .
قال أتيكوس :

— أنت تعرف أن الاغتصاب في ولاية ألاباما يعتبر جريمة يعاقب
عليها بالموت .

— نعم ياسيدي ، ولكن هيئة المحلفين لم تكن مضطرة إلى الحكم
عليه بالموت . . . ولو أرادت لحكمت عليه بالسجن عشرين عاماً .
قال أتيكوس :

— قوم روبنسون شخص ملون ، يا جيم . ليس في هذه المنطقة
من العالم هيئة محلفين تقول : « نعتقد أنك مذنب ، ولكن ليست مذنباً
جداً » وذلك فيما يتعلق بتهمة كهذه . فقد كانت المسألة مسألة تبرئة
مباشرة أو لاشيء إطلاقاً .
كان جيم يهز رأسه :

— أعرف أن ذلك ليس صحيحاً ، ولكنني لا أستطيع أن أعرف
مكمن الخطأ . . . ربما لا يجب أن يكون الاغتصاب جريمة يعاقب عليها
بالموت . . .

رمى أتيكوس صحيفته إلى القرب من كرسيه . قال انه لم يعترض
أبداً على القانون الخاص بالاعتصاف ، ولا مرة واحدة ، ولكنه كان
يشعر بارتياح عميق بمدى صحته كلما طلبت النيابة عقوبة الموت وأقرت
هيئة المحلفين طلبها اعتماداً على دليل عرضي تماماً . ثم نظر إليّ فرآني
أستمع فتبسّط في الكلام : « أعني ، قبل أن يُحكم على شخص بالاعدام
لأنه ارتكب جريمة قتل ، مثلاً ، يجب أن يكون هناك شاهد عيان
أو شاهدان . يجب أن يكون هناك شاهد يقول : (نعم لقد كنت هناك
ورأيتَهُ وهو يجذب الزناد) » .

قال جم :

— ولكن أشخاصاً كثيرين شفقوا بناء على دليل عرضي .

— أعرف ذلك ، وربما كان كثيرون منهم يستحقون الشك
فعلاً ، ولكن في حالة عدم توفر شاهد العيان ، فهناك دائماً شك ما ،
وأحياناً ظل لشك . القانون يسميه « شك معقول » ، ولكني أعتقد أن
المتهم مخول بأن يكون فوق الشك . هناك دائماً احتمال — مهما كان
هذا الاحتمال غير وارد — بأن المتهم بريء .

قال جم بعناد :

— إذن ، فالمسألة تعود في النهاية إلى هيئة المحلفين . يجب أن
نتخلص من نظام المحلفين .

بلد أتيكوس جهداً حتى لا يتسم ، ولكنه لم يستطع مغالبة الابتسام .

قال :

— أنت تقسو علينا نوعاً ما يا بني . أعتقد أن هناك طريقة أفضل .
يجب تغيير القانون . تغييره بحيث يكون للقضاة فقط حق تثبيت العقوبة
بالنسبة للقضايا التي تتعلق بالاعدام .

— إذن ، فلتذهب إلى مولتنغومري وتغير القانون .

— ستدهش إذا عرفت مدى صعوبة ذلك . لن أعيش لأرى القانون
يتغير ، وإذا عشت لراه فستكون رجلاً طاعناً في السن .

لم يعجب ذلك جم . قال :

— لا ياسيدي ، يجب التخلص من نظام المحلفين فالرجل لم يكن
مدينياً في الأصل ، وقالوا انه مدين .

— لو كنت واحداً من أولئك المحلفين يا بني ، ومعك أحد عشر
صياً من أترابك ، لكان توم رجلاً حراً الآن . فحى الآن لم يتدخل
أي أمر في تفكيرك . أما أولئك المحلفون في قضية توم فهم اثنا عشر
رجلاً عاقلاً في الحياة اليومية ، ولكنك لاحظت أن شيئاً ما كان يحول
بينهم وبين التفكير العقلاني . كما شاهدت الشيء نفسه في تلك الليلة
أمام السجن . وحين ابتعد ذلك الطاقم ، لم يبتعد أفرادهم لأنهم أشخاص
عاقلون ، بل ابتعدوا لأننا كنا هناك . هناك شيء ما في علمنا هذا يجعل

الناس يفقدون عقولهم : وفي هذه الحالة لا يستطيعون أن يعدلوا حتى ولو حاولوا . في محاكمنا ، حين تكون هناك شهادة رجل أبيض ضد شهادة رجل أسود ، فالأبيض هو الرابع دائماً . إنها حقيقة بشعة جداً ، ولكنها من حقائق الحياة .

قال جم باصرار :

— هذا بعيد عن العدل .

ثم ضرب ركبته بيده وقال :

— لا يمكنك أن تدين شخصاً بدليل كذلك الدليل ، أليس كذلك ؟

— لا يمكنك « أنت » ذلك ، ولكنهم « هم » قادرون على ذلك . المكان الوحيد الذي يجب أن يعامل فيه الإنسان بعادل هو قاعة المحكمة ، مهما كان لونه ، ولكن للناس أسلوبهم الخاص في حبل مشاعر البغض الخاصة بهم إلى منصة المحلفين . وحين تكبر ، سترى البيض وهم يغشون السود في كل يوم من أيام حياتك ، ولكن دعني أقل لك شيئاً يجب ألا تنساه : كلما غش رجل أبيض رجلاً أسود ، كائناً من كان ذلك الرجل ، ومهما بلغت ثروته أو عراقه أسرته ، فإنه لاشك شخص وضع .

كان أتيكوس يتحدث بهلوه إلى حد أن كلمته الأخيرة تحطمت بحلجة على أذنانا . نظرت نحوه ، فرأيت وجهه متقدماً .

— ليس هناك مايثير اشمزازي أكثر من رؤية رجل أبيض تافه يستغلّ جهل الزنجي . لانتجهاوا الأمر ، فهو يتفاهم ، وفي يوم من الأيام سندفع حساب « فاتورة » ماحدث ويحدث . وآمل ألا يكون ذلك في فترة حياتكما أيها الطفلان .

كان جم يحكّ رأسه . وفجأة اتسعت عيناه وقال :

— يا أتيكرس ، لماذا لا يختار أشخاص مثلنا ومثل الآنسة مودي بين هيئة المحلفين ؟ أنت لا ترى شخصاً واحداً من بلدة مايكوم ضمن هيئة المحلفين : فكلهم من منطقة الغابات .

استند أتيكوس إلى الوراء في كرسية الهزاز . ولسبب ما بدا عليه أنه سرّ من جم . قال :

— كنت أتساءل في نفسي : متى ياترى خطر لك ذلك الخاطر ؟ على كل حال هناك أسباب كثيرة . منها مثلاً أن الآنسة مودي لا يمكن أن تكون ضمن هيئة المحلفين لأنها امرأة . . .

شعرت بالنقمة فقلت :

— أتعني أن النساء في الألباما لا يمكنهن . . .

— نعم ، وأعتقد أن الهدف من ذلك هو حماية سيداتنا الرقيقات من حضور دعاوى كدعوى توم . وزيادة عليه فاني أشك في أن يتم

البت في أية دعوى في مثل تلك الحالة ، فالسيدات سيقاطعن باستمرار
ليطرحن الأسئلة .

ضحكنا جميعاً وأنا . كان وجود الآتسة مودي ضمن هيئة المحلفين
أمراً مؤثراً . وفكرت في السيدة دويوز العجوز على كرسيها ذي
العجلات . . . وهي تقول : « أوقف ذلك الطرق ياجون تايلور ، فأنا
أريد أن أسأل هذا الرجل سؤالاً » . ربما كان أجدادنا يتمتعون بالحكمة .
كان أتيكروس يقول :

— بالنسبة لأناس من أمثالنا . . . فهذه هي حصتنا من « الفاتورة » .
في العادة نحصل على المحلفين الذين نستحق . ان سكان مايكرم الشجعان
غير مهتمين أولاً ، أما ثانياً فهم خائفون . ثم هم . . .
سأل جم :

— خائفون ، لماذا ؟

— ماذا لو أن السيد لينك ديس هو الذي سيقرر مبلغ الأضرار
الذي سيؤدى إلى الآتسة مودي لو حدث مثلاً أن الآتسة راشيل دهستها
بسيارة . ان السيد لينك ديس لن يفكر في أن يخسر أيّاً منهما كزبون
لمحلته التجاري ، أليس كذلك ؟ ولذا فإنه يقول للقاضي تايلور انه
لاستطيع أن يكون ضمن هيئة المحلفين لأنه ليس لديه من يهتم بمخزنه
خلال غيابه . وهكذا يعذر القاضي تايلور . وأحياناً يعذره بغضب .

سألت :

— وما الذي سيجعله يظن أن احدهما ستتوقف عن الشراء
من مخزنه ؟

قال جم :

— الآنسة راشيل ستفعل ذلك ، ولكن ليس الآنسة مودي . ولكن
تصويت المحلفين يظل سرياً ، أليس كذلك ؟

ضحك أبونا وقال :

— أمامك الكثير لتتعلمه بعد يابني . من المفروض أن يبقى تصويت
المحلفين سراً . ولكن العمل كمحلف يجبر الانسان على أن يقرر شيئاً
ويدلي برأيه فيه . لا يجب الناس ذلك . ففي بعض الأحيان يكون ذلك
أمراً لا يدعوا للسرور .

همهم جم :

— ولكن محلفي توم وصلوا إلى قرارهم بسرعة .

تحركت أصابع أتيكوس نحو ساعة جيبه :

— لا لم يكن الأمر كذلك .

قالها بهمس وكأنه يتحدث إلى نفسه . ثم استأنف :

— كان ذلك هو الشيء الذي جعلني أفكر بأن هذه قد تكون

ظلاً لبداية ما . لقد أمضى المحلفون ساعات قليلة حتى وصلوا إلى قرار .
كان قرارهم أمراً لا مناص منه ، فهم سيدينون المتهم ، ولكنهم يصلون
إليه عادة بدقائق قليلة . في هذه المرة . . .

وهنا قطع حديثه ونظر إلينا :

— ربما تودون أن تعرفوا أن هناك شخصاً واحداً بلذل
جهداً كبيراً . . . وفي البداية كان هذا الشخص يزجر مطالباً بالبراءة
الكاملة .

دهش جم فسأل :

— من ؟

التمعت عينا أتيكوس وقال :

— لأستطيع أن أقول من ، ولكني سأخبركم بالتالي ولن أذهب
أبعد من ذلك : كان واحداً من أصدقاؤكم القدامى من « أولد ساروم »...

صاح جم بصوت كالنباح :

— أحد أفراد أسرة كاتينغهام ؟ واحد من . . . لم أُمَيِّز أي واحد
منهم ضمن هيئة المحلفين . . . لاشك أنك تمزح .
ثم نظر إلى أتيكوس نظرة جانبية .

— انه واحد من أقربائهم . له حادثة . لم يلفت نظري . له حادثة .
كان يمكن أن يلفت نظري ، ولكن لم يحدث .

قال جم بلهجة تبجيلية :

— يا للسماء ، الآن يريدون قتله وبعد لحظة يحاولون اطلاق
سراحه . . . لا يمكن لي أن أفهم هؤلاء البشر طوال حياتي .

قال أتيكوس ان كل ماعلى المرء أن يفعله هو أن يعرفهم . وان
آل كانينغهام لم يأخذوا أو ينتزعوا شيئاً من أي شخص منذ أن هاجروا
إلى «العالم الجديد» ، قال ان الأمر الآخر المتعلق بهم هو أنك ما أن تكسب
احترامهم فانهم يساندونك بكل ما فيهم من قوة . وان لديه شعوراً ،
ولكنه مجرد شك لا أكثر ، بأنهم غادروا السجن في تلك الليلة يحملون
احتراماً كبيراً لآل فيتش . ثم انه حتى يغير أحد أفراد آل كانينغهام
رأيه فلا بد من حدوث صاعقة ، وزيادة عليه لابد أن يقوم فرد آخر
من آل كانينغهام بإقناع هذا الشخص . ثم قال : « لو كان لدينا اثنان
من أفراد تلك المجموعة (التي هاجمت السجن) ، لكان لدينا هيئة
محلفين لاستطيع اتخاذ أي قرار » .

قال جم ببطء :

— هل تعني أنك وضعت بالفعل ضمن هيئة المحلفين رجلاً أراد
قتلك قبل ذلك بليلة ؟ كيف أمكنك أن تخاطر بمثل تلك الطريقة ،
بأتيكوس ، كيف ؟

— حين تحلل الأمر ، سرى أن المخاطرة كانت قليلة . لا يوجد فرق بين شخص ذاهب ليدين وآخر ذاهب ليدين ، أليس كذلك ؟ ولكن هناك فرقاً ضئيلاً بين انسان ذاهب ليدين وآخر مشوش العقل قليلاً ، أليس كذلك ؟ لقد كان المجهول الوحيد على اللائحة كلها . سألت :

— مقاربة ذلك الرجل من السيد ولتر كانينغهام ؟ نهض أتيكوس ، وتمطى وتساءب . لم يكن قد حان وقت نومنا نحن بعد ، ولكننا فهمنا أنه أراد أن نمنحه فرصة لقراءة صحيفته . التقطها ، وفتحها ثم نقرني على رأسي نقرة خفيفة . دندن متحدثاً إلى نفسه :

— لئلا الآن . لقد تذكرت . انه ابن عمه وابن خالته في الآن نفسه . — وكيف يمكن ذلك ؟

— تزوجت أختان من أخين . هذا كل مالدي لأقوله لك ، عليك أن تحلّيها بنفسك .

عذبت نفسي ثم وصلت إلى حل هو أنني لو تزوجت من بجم وكان لدي أخت وتزوجها فسيكون أولادنا أولاد خالة في الوقت نفسه . ثم قلت لجم بعد أن كان أتيكوس قد غادر الغرفة : « عجباً يا بجم ، ان آل كانينغهام أشخاص مضحكون . هل سمعت ماقيل يا عمي ؟ » .

كانت العمة ألكسندرا تمحوك بساطاً ، ولم تكن تراقبنا . كانت تجلس في كرسيها وسلة الشغل إلى جانبها ، وقد نشرت بساطها على حضنها . لم كانت السيدات تمحوك الأبسطه في الليالي الحارة ؟ أمر حيرني فعلاً .

قالت :

— سمعته .

تذكرت تلك المناسبة البعيدة المأساوية حين: أسرع للدفاع عن وولتر كاتينغهام الصغير . والآن أنا سعيدة لأنني فعلت ما فعلته . قلت : « ماان تبدأ المدرسة حتى أدعو وولتر إلى البيت على الغداء » هكذا خططت وقد نسيت قراري الخاص بأن أضربه في المرة التالية التي سأراه فيها . « يمكنه البقاء معنا أحياناً بعد المدرسة أيضاً . يمكن لأنيكوس أن يأخذه بالسيارة إلى (أولد ساروم) . وربما سيستطيع أن يقضي الليل معنا أحياناً ، مارأيك يا جم ؟ موافق ؟ » .

قالت العمة ألكسندرا : « سنرى » ، وفي العادة يكون مثل هذا التصريح منها تهديداً ، وليس وعداً . ولدهشتي التففت إليها وقلت :

— لم لا ياعمي ؟ انهم أناس طيبون .

نظرت إلي من فوق نظارتيها الخاصة بالخيطة وقالت :

— يا جان لويز ، لأشك أبدأ في أنهم أناس طيبون . ولكنهم

ليسوا من طينتنا .

قال جم :

— انها تعني أنهم جاهلون ياسكاوت ؟

— وما هو الجاهل ؟

— أوه ، انه ذو الذوق الرديء ، أنهم يحبون العزف على الكمان
وما شابه .

— وأنا أيضاً .

قالت العمة ألكسندرا :

— لانتكوني حمقاء يا جان لويز ، فالسألة هي أنك تستطيعين أن
تفركي وولتر كانيغهام حتى يلمع جلده ، وتستطيعين أن تلبسيه حذاء
وبدلة جديدة ، ولكنه لن يكون مثل جم أبداً . وزيادة عليه ، فإن
في تلك العائلة نزعة إلى السكر بعرض ميل كامل . ان نساء آل فينتش
لا يبدن اهتماماً بمثل هذا النوع من الناس .

قال جم :

— ياعمتي ، انها لم تبلغ التاسعة بعد .

— ولكن من الأفضل أن تتعلم ذلك منذ الآن .

هاقد تحدثت العمة ألكسندرا ، ولقد ذكرتني جيداً بأخر مرة
قامت فيها بالاعتراض بشدة . لم أعرف السبب أبداً . . وكان ذلك حين

كنت منهمكة بالخطط الخاصة بزيارة منزل كالبورنيا : كنت فضولية ومهتمة بالموضوع ، وكنت أريد أن أكون « ضيفتها » ، وأرى كيف كانت تعيش ومن هم أصدقاؤها . ربما كان ذلك أشبه بمن يريد أن يرى الوجه الآخر للقمر . في هذه المرة كانت التكتيكات مختلفة ، ولكن هدف العمة ألكسندرا كان هو نفسه . ربما كان هذا هو السبب الذي دفعها لتأتي وتعيش معنا : لتساعدنا على اختيار أصدقائنا . سأحاول أن أصدّاها طالما أستطيع ، لذا قلت :

— ان كانوا أناساً طيبين . لم لا أستطيع إذن أن أكون لطيفة مع وولتر ؟

— لم أقل ان عليك ألا تكوني لطيفة معه . يجب أن تكوني ودودة ومهذبة معه ، يجب أن تكوني مؤدبة مع الجميع باعزيرتي . ولكن لا يجب أن تدعيه إلى البيت .

— وماذا لو كان من أقربائنا ؟

— انه ليس من أقربائنا ، ولكن حتى ولو كان كذلك ، لما تغيّر جوابي .

قال جيم مدافعاً :

— يا عمي ، يقول أتيكوس ان المرء يستطيع اختيار أصدقائه ولكنه لا يستطيع حتماً اختيار أفراد عائلته ، سيقون أقرباءه سواء أقرّ بذلك أم لا ، وحين لا يقرّ بذلك فإنه يبدو غيباً تماماً .

— هذا هو أبوكما وهذا رأيه منذ زمان بعيد ، ولكني لازلت أقول ان جان لويز لن تدعو وولتر كانيغهام إلى هذا المنزل . وحتى لو كان هو ابن عمها وابن خالتها في آن واحد ، فإنه لن يُستقبل في هذا البيت ما لم يكن ذلك ليقابل أتيكوس بشأن يخص العمل . أعتقد أن هذا أمر مبتوت فيه .

كانت قد قالت : « لا » ولكن عليها أن تشرح أسبابها هذه المرة ، لذا سألتها :

— ولكني أريد أن ألعب مع وولتر ياعتي ، فلم لأستطيع ؟

نخلعت نظارتها ثم حدثت في وقالت :

— سأقول لك لم لا . لأنه . . . حسالة ، لهذا لأريدك أن تلعب معه . لن أسمح لك بالتواجد معه حتى لا تتعلمي عاداته وما لا يعرف سوى الرب ماذا أيضاً . أنت كما أنت الآن مشكلة كافية وافية لأبيك . لأعرف ما الذي كنت سأفعله ، ولكن جم أوقفني عند حدتي . فقد أمسكني من كتفي ووضع ذراعه حولي ، وقادني وأنا أبكي بمنون إلى غرفة نومه . سمعنا أتيكوس فأطل برأسه من باب غرفته ، ولكن جم قال له بصراحة : « لاشيء ياسيدي . كل شيء على مايرام » ، فعاد أتيكوس إلى غرفته .

قال جم : « مارأيك ببعض العلكة ؟ » ثم مده إلى جيبه وأخرج

بعضاً منها ومن النوع الفاخر . وقد استغرقت مني تلك العلكة دقائق
بجالتها حتى حولتها إلى حشوة مريحة داخل فمي بعد أن استمتعت بسكرها .

كان جم يعيد ترتيب بغض الأمور على منضدة الزينة . كان شعره
كثيفاً زيتياً في الخلف وفي الأمام ، وقد تساءلت في نفسي ان كان سيبدو
أبدأ كشعر رجل في المستقبل . ربما لو حلقه كله وبدأ ينمو من جديد ،
فسعود شعره إلى ما كان عليه . كان حاجباه قد أصبحا أكثف ، كما
لاحظت أنه أصبح أكثر نحولاً . انه يصبح أكثر طولاً .

حين تلفتُ ، لا بد وأنه ظن أنني قد بدأت أبكي من جديد ، لأنه قال :

— هل أريك شيئاً شريطة ألا تفشي السر إلى أحد ؟

قال ذلك وهو يفك أزرار قميصه ويبتسم بخجل .

— حسناً ماهو ؟

— ألا تستطيعين أن تريه ؟

— لا .

— انه شعر .

— أين ؟

— هنا . هنا تماماً .

لقد كان لطيفاً معي هذه الليلة لذا قالت له أنه يبدو جميلاً ، ولكنني
لم أر شيئاً .

— انه جميل فعلاً يا جم .

— ونحت ابطي أيضاً . سأذهب لألعب كرة القدم في العام القادم .
سكاوت ، لاجعلي العنة تثير غضبك .

لقد بدا لي أنه كان يقول لي البارحة فحسب إن عليّ ألا أثير
غضب العمة .

— أنت تعرفين أنها غير معتادة على البنات ، أو في أحسن الأحوال
البنات من أمثالك . انها تحاول أن تصنع منك سيدة محترمة . ألا يمكنك
أن تتعلمي الخياطة أو ماشابه ؟

— لا بحق الجحيم . انها لا تحبني ، هذا كل ما في الأمر ، وأنا
لا يهمني . ان تلقيبها لولتر كانيغهام بالختالة هو الذي جعلني أغضب
وليس ماقالته عن أنني أمثل مشكلة لأنيكوس . فقد وضّح لي هو موقفه
مني مرة بصراحة ، فقد سألته ان كنت أمثل مشكلة له وقال إنني لست
بالمشكلة الكبيرة ، وفي أسوأ الحالات فاني مشكلة يستطيع حلها ، وان
عليّ ألا أقلق فكري ولو لثانية واحدة بأنني أزعجه . لا لقد غضبت
بسبب وولتر ، فهو ليس ختالة يا جم . انه ليس كآل يوويل .

رفس حذاءه ثم وضع رجليه على السرير . أسند نفسه إلى وسادة
وأضاء نور القراءة . قال :

— أتعرفين ياسكاوت ؟ لقد فهمت القضية كلها الآن . لقد فكرت

بها كثيراً مؤخراً وقد استطعت فهمها كلها . هناك أربعة أنواع من الأشخاص في العالم . هناك النوع العادي من أمثالنا والجيران ، وهناك النوع من أمثال آل كانيغهام الذين يعيشون في الغابات ، والنوع من أمثال آل يوويل هناك عند مقلب القمامة ، والزئوج .

— وماذا عن الصينيين ، و « الكانجو » الذين يقطنون مقاطعة بولدوين ؟

— أنا أعني سكان مقاطعة مايكوم . والمسألة هي أن نوعنا لا يحب نوع آل كانيغهام ، وهؤلاء لا يحبون نوع آل يوويل ، وآل يوويل يكرهون ويحتقرون الأشخاص الملونين .

هنا قلت بلحم لأنه لو كان كلامه صحيحاً ، فلماذا لم يبرئ محلفو نوم ، وهم كلهم أشخاص شبيهون بآل كانيغهام ، لم يبرؤوا نوم نكاية بآل يوويل ؟

أزاح جيم سؤالي بيده مبعداً إياه على أساس أنه طفولي . قال :

— هل تعلمين أنني رأيت أتيكوس يدقّ بقدمه الأرض عندما يكون هناك عزف على الكمان في الراديو ؟ وأنه يحب المشروب المحظور أكثر من أي شخص آخر عرفته . . . ؟

— إذن فهذا يجعلنا كآل كانيغهام . لأرى السبب في أن عمي

— لا ، دعيني أنهي حديثي أولاً . . . كلامك صحيح ولكننا

لأننا نختلف عنهم على نحو ما . قال أتيكوس مرة ان السبب في أن عمتي مولعة بالعائلة هو أن كل مالدينا هو الخلفية الاجتماعية ، وليس لدينا سنتاً واحداً يدعم هذه الخلفية .

— حسناً يا جم ، لا أعرف . . . لقد قال لي أتيكوس مرة أن معظم ما يقال عن « العائلات العريقة » كلام فارغ ، لأن عائلة كل شخص قديمة قدم عائلة أي شخص آخر . وسألته ان كان ذلك يشمل الأشخاص الملونين والآنكليز . فردّ عليّ بالاجاب .

قال جم :

— الخلفية الاجتماعية لاتعني العائلة العريقة . بل تعني منذ متى كانت عائلة المرء تقرأ وتكتب . ياسكاوت ، لقد درست هذه المسألة كثيراً ، وهذا هو السبب الوحيد الذي اكتشفته . في قديم الزمان حين كان آل فينتش لايزالون في مصر ، لا بد أن أحدهم تعلم شيئاً من الهيروغليفية ، وعلمها لابنه .

وهنا ضحك جم ثم استأنف قائلاً :

— تصوري ان عمتي فخورة بأن أبا جدّها كان يستطيع القراءة والكتابة . . . ان السيدات يحترن أشياء مضحكة ليفخرن بها .

— حسناً ، أنا سعيدة أنه كان يستطيع ذلك ، وإلا فمن كان سيعلم أتيكوس والآخرين ؟ ولو أن أتيكوس لا يستطيع القراءة ، لكننا أنت وأنا في ورطة . ولكني لا أعتقد أن هذه هي الخلفية الاجتماعية يا جم .

— حسناً ، كيف تفسرين إذن أن آل كانيغهام مختلفون عنا ؟
السيد وولتر لا يستطيع بالكاد توقيع اسمه ، لقد رأيته . كل ما في
الأمر أننا كنا نمارس القراءة والكتابة قبلهم بزمان طويل .

— لا ، بل يجب على كل شخص أن يتعلم ، فلا أحد يولد وهو متعلم .
ان وولتر ذكي كما يجب ، ولكنه يتخلف أحياناً لأن عليه أن يبقى
في البيت ليساعد أباه . انه لا ينقصه أي شيء . لا يا جم ، أعتقد أن هناك
نوعاً واحداً من الناس . انه الناس .

التفت جم وضرب مخدته . وحين عاد ليستند عليها كان وجهه
يعلوه الغموض . كان قد غرق الآن في إحدى نوبات احساسه بالاحباط ،
وكنت قد شعرت بالتعب . عقد حاجبيه ، وأصبح فمه خطاً نحيلاً .
صمت لفترة .

قال أخيراً :

— هذا ما فكرت به أنا أيضاً حين كنت في مثل عمرك . ولكن
كان هناك نوع واحد من الناس فلماذا لا يتفاهمون معاً ؟ وإذا كانوا
كلهم متشابهون ، فلماذا ينحرفون عن المسار ليهتقر الواحد منهم
الآخر ؟ ياسكاوت ، أظن أنني بدأت أفهم شيئاً ما . أظن أنني بدأت
أفهم السبب في أن بورادلي بقي محجوزاً في المنزل كل هذه السنوات
وقد أغلق عليه النوافذ والأبواب . . . السبب في ذلك هو أنه « يريد »
ان يبقى في الداخل .

الفصل الرابع والعشرون

ارتدت كالبورنيا أكثر مرايلها المنشأة قساوة . حملت صينية من الشرلوت (١) ، واستندت إلى الباب المؤرجح ، ثم ضغطت بلطف . أعجبت بالليونة والرشاقة اللتين كانت تحمل بهما الأحمال الثقيلة من الأشياء اللذيذة . وكذلك فعلت العمة ألكسندرا ، على ماعتقد ، لأنها سمحت لكالبورنيا بأن تقدم الحلوى اليوم .

كان شهر آب (أغسطس) على أبواب ايلول (سبتمبر) . ديل سيقادر إلى ميريديان غداً . اليوم كان هو وجم قد ذهبا بعيداً إلى « دوامة باركر » . فقد اكتشف جم بدهشة غاضبة أن أحداً لم يكلف نفسه أبداً أن يعلم ديل السباحة ، وهو يعتبرها نوعاً من المهارات الضرورية كالمنشي . كانا قد أمضيا عصرين متتالين عند النهر ، وقالوا أنهما سيمارسان السباحة عاريين ولذا لا أستطيع مرافقتهم ، وهكذا وزعت ساعتها المترعة بالوحدة ما بين كالبورنيا والآنسة مودي .

(١) Charlotte : حلوى من شيزوكريما وفاكهة . (المترجم)

اليوم كانت العمة ألكسندرا وحلققتها التبشيرية في حالة عراك في أنحاء المنزل كله . ومن المطبخ، استطعت أن أسمع السيدة غريس مريوذر تقدم تقريراً في غرفة الجلوس حول الحياة القلّدة التي تعيشها قبيلة « المرونا » ، كما أظن أنني سمعت الاسم . فقد كانت هذه القبيلة تنبذ النساء في أكواخ حين يزف موعدهن ، ولا أعرف ماهو ذلك ؟ ولم يكن لديها أي حسّ بالعائلة — كنت أعرف أن هذا سيحزن عمتي — كما كانت تُخضع الأطفال لاختبارات رهبة حين يصلون إلى سن الثالثة عشرة . كانوا يعجون بالأمراض وبديدان الأذن ، ومعضفون لحاء شجر معين ثم ييصقونه في وعاء كبير مشترك . وبعد ذلك يشربونه ليسكروا .

انفض الاجتماع لتناول المرطبات والمأكولات الخفيفة .

لم أكن أعرف أكان عليّ الدخول إلى حجرة الطعام أم البقاء بعيداً . لقد كانت العمة ألكسندرا قد طلبت مني أن أنضم إليهن لتناول الطعام إلا أنه لم يكن ضرورياً أن أحضر الجانب العملي من الاجتماع ، إذ قالت انه سيضجرني . كنت أرثدي ثوبي الوردي اللون الخاص بيوم الأحد ، وحذاء وتنورة تحتانية ، وقد فكرت في أنني لو أرقّت أي شيء لكان على كالبورنيا أن تغسل ثوبي مرة أخرى لأجل الغد . لقد كانت مشغولة جداً اليوم ، وقررت أن أبتعد عن حجرة الطعام .

سألته وأنا أرغب في مساعدتها :

— هل أستطيع مساعدتك يا كال ؟
توقفت كالبورنيا في الردهة وقالت :

— ابقى ساكنة كالفأرة في تلك الزاوية ، وستساعديني على تحميل
الصواني حين أعود .

بدأت المهمة اللطيفة للسيدات ترتفع حين فتحت كالبورنيا الباب :
« عجباً يا ألكسندرا ، لم أر في حياتي مثل هذه الشرلوت . . . انها جميلة
جداً . . . لا أستطيع أبدأً أن اطهو فطيرتي هكذا ، أبدأً أبدأً . . . من
كان سيفكر في صنع الكاتو الصغير بتوت الندى ؟ . . . كالبورنيا ؟
. . . من كان سيخطر له ذلك . . . أي شخص سيقول لك ان زوجة
الواعظ . . . لا — لا ، حسناً هي كذلك ، وذاك الطفل الآخر الذي
لا يستطيع المشي بعد . . . »

أصبحن الآن صامتات ، وعرفت أنهن قد حصلن على الطعام
جميعاً . عادت كالبورنيا ووضعت إبريق أُمي الفضي الثقيل على صينية .
هممت : « إبريق القهوة هذا عجيب . انهم لا يصنعون مثله هذه
الأيام . »

— هل يمكن لي أن أحمله إلى الداخل ؟

— إذا كنت حريصة ولن توقعيه . ضعيه في نهاية المائدة عند
السيدة ألكسندرا . هناك عند الفناجين وما شابه . هي التي ستصّب القهوة .

حاولت أن أضغط بمؤخرتي على الباب المورجح كما تفعل كالبورنيا ولكن الباب لم يفتح . فتحت كالبورنيا الباب لي وهي تبسم وقالت : « انتهي الآن . انه ثقیل . لا تنظري إليه ولن تريقيه » .

كانت رحلتي ناجحة : ابتسمت العمة ألكسندرا ابتسامة لامعة وقالت : « ابقي معنا يا جان لويز » . وكان ذلك جزءاً من حملتها لتعليمي كيف أصبح سيدة محترمة .

كان من عادة كل مضيئة لاحدى الحلقات أن تدعو جيرانها لتناول المأكولات الخفيفة ، أكن « معمدانيات » أم « مشيخيات » ، وكان ذلك يفسر حضور الآنسة راشيل (الرزين كحضور القضاة) والآنسة مودي والآنسة ستيفاني كروفورد . جلست بالقرب من الآنسة مودي وأنا أشعر ببعض العصبية وتساءلت لماذا ترتدي النساء قبعاتهن لكي يعبرن الشارع فحسب ؟ كانت النساء المحتشدات يملأنني دوماً بخوف غامض ورغبة أكيدة في أن أكون في مكان آخر ، ولكن هذا الشعور هو ما كانت تسميه العمة ألكسندرا بشعور « الطفل المدلل » .

كانت السيدات منتعشات في الثياب الرقيقة ذات الأزهار : كن أغلبهن قد وضعن الكثير من البودرة ولكن دون استعمال حمرة الخدود ، أما النوع الوحيد من أحمر الشفاه في الغرفة فكان « تانجي ناتشورال » . كما كان طلاء « كيو توكس ناتشورال » يلتصع على أظافر أيديهن ، ولكن بعض السيدات الأصغر سناً كن يستعملن النوع المسمى

« روز » . كانت روائع عطورهن سماوية . جلست بهدوء ، بعد أن تغلبت على يديّ بأن تمسكت بواسطتهما بلراعي الكرسي ، وانتظرت أن تكلمني احداهن .

لمع جسر الأسنان الذهبي في فم الآنسة مودي حين قالت :
— أنت أنيقة جداً اليوم ياآنسة جان لويز . أين بنطالك اليوم ؟
— تحت ثوبي .

لم أكن أريد أن أبدو مضحكة ، ولكن السيدات ضحككن . التهبت وجنتاي حين أدركت خطئي ، ولكن الآنسة مودي نظرت إلي نظرة جدية . أنها لاتفضحك أبداً إلا إذا كنت قصدت أن أكون مضحكة .
وفي الصمت المفاجيء الذي أعقب ذلك ، صاحبت الآنسة ستيفاني كروفورد عبر الغرفة :

— ماذا تريدن أن تكوني حين تكبرين يا جان لويز ؟ محامية ؟
— لا ، لم أفكر بذلك بعد . . .
أحببتها وأنا ممتنة لكونها تلفظت فغيّرت مجرى الحديث . ثم بدأت أختار مهنتي بسرعة : ماذا أقول مرضعة ؟ قائدة طائرة ؟
— حسناً . . .
— عجباً ، ظننتك تريدن أن تكوني محامية ، فقد سبق لك وبدأت بالذهاب إلى المحكمة .

ضحكت السيدات مرة أخرى . قالت احدها :
- ستيفاني تلك شخص غريب الأطوار .

تشجعت الآنسة ستيفاني على متابعة الموضوع فقالت :

- ألا تريدن أن تكوني محامية حين تكبرين ؟

لمست يد الآنسة مودي يدي ، فأجبت برقة كافية :

- لا ، مجرد سيده .

نظرت إليّ ستيفاني بشك ، وقررت أنني لم أكن أقصد أية وقاحة ،

وقد قنعت أخيراً بأن قالت :

- حسناً ، لن تكون لديك فرصة كبيرة لتحقيق ذلك حتى تبدي

بارتداء الفساتين مرات أكثر .

أطبقت يد الآنسة مودي بشدة على يدي فلم أقل شيئاً . كان دفء

اليده كافياً .

كانت السيدة غريس مريوذر جالسة إلى يساري ، وشعرت أنه

من الأدب التحدث إليها . كان السيد مريوذر وهو الميثودي المخلص

وقت الجدل لا يرى في الغناء ماهو ضار . كان يقول : « يا للعناية السماوية

الملهشة . كم هو جميل ذلك الصوت ، انه ينقذ بائساً مثلي . . . » .

وكان الرأي السائد في مايكوم ، على أية حال ، أن السيدة مريوذر

قد جعلته يصحو وصنعت منه مواطناً مفيداً . بالتأكيد ، كانت السيدة مريوذر أكثر السيدات ورعاً في مايكوم . بحثت عن موضوع قد يكون مهماً لها ، قلت :

— ماالذي درستموه عصر هذا اليوم ؟

قالت :

— آه يا طفلي ، كنا نتحدث عن أولئك « المرونا » البائسين .

ثم صممت . كان لابد من بضع أسئلة أخرى .

كانتا عينا السيدة مريوذر البنيتان الواسعتان تمتلئان دائماً بالدموع حين تتذكر المضطهدين . قالت :

— انهم يعيشون في تلك الغابة دون أي شخص آخر عدا السيد ج .

غرايمز ايفريت . ليس هناك شخص واحد أبيض مستعد للاقتراب منهم سوى السيد ج . غرايمز ايفريت الورع كالقديسين .

كانت السيدة مريوذر تعزف بصوتها كأنه آلة الأرغن ، فكل كلمة تأخذ مداها الكامل :

— الفقر . . . الجهل . . . انعدام الأخلاق . . . لاأحد يعرف

كل ذلك بالضبط سوى ج . غرايمز ايفريت . هل تعرفين أنه حين طلبت مني الكنيسة القيام بتلك الرحلة إلى أرض المعسكر قال لي ج .

غرايمز ايفريت . . .

— هل كان هو هناك ياسيدتي ؟ ظننت . . .

— كان هناك في إجازة . قال ج. غرايمز ايفريت لي : « ياسيدة مريودز ، ليست لديك أية فكرة ، أية فكرة عما نجابهه هناك » . هذا ماقاله لي .

— نعم ياسيدتي .

— قلت له : « ياسيد ايفريت ، ان سيدات « الكنيسة الأسقفية لمايكوم ألاباما في الجنوب وراءك مئة بالمئة » . هذا ماقالته له . وكما تعرفين ، فقد أخذت على نفسي عهداً في تلك اللحظة . قلت لنفسي حين أعود إلى البلدة ، سأحاضر حول موضوع « المرونا » وأجاب رسالة ج. غرايمز ايفريت إلى مايكوم ، وهذا ماأفعله الآن .

— نعم ياسيدتي .

حين كانت السيدة مريودز تمز رأسها ، كانت خصلات شعرها الداكن اللون تنهزهز . قالت :

— ياجان لويز ، أنت فتاة محظوظة . فأنت تعيشين في بيت مسيحي مع أشخاص مسيحيين في بلدة مسيحية . أما هناك في أرض ج. غرايمز ايفريت فلا شيء سوى الخطيئة والقذارة .

— نعم ياسيدتي .

— الخطيئة والقذارة . . . عما كنت تتحدثين ياجيرترود ؟

وهنا التفتت السيدة مريوذر إلى السيدة الجالسة إلى القرب منها :
 « أوه تعين تلك . . . حسناً ، دائماً أقول اغفري وانسي ، اغفري
 وانسي . ان ماعلى الكنيسة أن تفعله هو أن تساعدنا على أن تعيش حياة
 مسيحية من الآن فصاعداً وذلك من أجل أولئك الأطفال . يجب أن يذهب
 بعض الرجال إلى هناك ويقولوا للواعظ أن يشجعها » .
 هنا قاطعتها قائلة :

— اعذريني ياسيدة مريوذر . هل تتحدثون جميعكم حول
 ماييلا يوويل ؟
 — مايي . . . ؟ لا ياطفلتي . بل زوجة ذلك الزنجي ، زوجة
 توم ، توم . . .

— روبنسون ياسيدتي .
 التفتت السيدة مريوذر نحو جارتها مرة أخرى :
 — هناك شيء واحد أؤمن به فعلاً يا جبرترود ، ولكن بعض
 الناس لا يرونه بطريقتي نفسها . لو أننا نجعلهم يعرفون أننا نغفر لهم ،
 وأننا قد نسيتنا الموضوع ، فإن هذا كله سينقضي .
 قاطعتها مرة أخرى :

— ياسيدة مريوذر ، مالذي سينقضي ؟
 التفتت إلي من جديد . كانت السيدة مريوذر واحدة من أولئك

الراشدين المحرومين من الأطفال ، والذين يظنون أنه من الضروري استعمال نبرة صوت مختلفة لدى التحدث إلى الأطفال . قالت باللهجة الدارجة :

— لاشيء يا جان لويز . الطباخون وعمال الحقول غير راضين ، ولكنهم عادوا إلى هديهم الآن . . . لقد همهموا وتمتعوا طوال ذلك اليوم الذي تلا تلك المحاكمة .

وأجهت السيدة مريودز السيدة فارو :

— يا جيرترود ، سأقول لك ان ليس هناك ما هو أكثر تحييراً من العابس مقطب الجبين . ان أفواههم تتهدل حتى تصل إلى هنا . وإذا ماجلبت احداً من لتساعدك في المطبخ ، فهذا سيفسد يومك كله . هل تعرفين ما قلت لخادمتي « صوفي » يا جيرترود ؟ قلت: « يا صوفي ، أنت بكل بساطة لا تتصرفين اليوم كما يليق بمسيحية . لم يكن المسيح عيسى من النوع الذي يهمهم ويتمم ويتدمر طوال النهار . » وهل تظنين أن ذلك أجدي معها ؟ لقد رفعت عينها عن الأرض وقالت : « لا ، ياسيدة مريودز ، لم يكن المسيح يفعل ذلك » . أقول لك يا جيرترود ان عليك ألا تدعي فرصة واحدة تفوتك دون أن تذكرني فيها الرب .

وتذكرت هنا الأرغن الصغير القديم في المعبد الصغير في « فينتشر لاندينغ » . حين كنت صغيرة جداً ، وكنت إذا ما أحسنت التصرف خلال النهار ، يسمح لي أتيكوس أن أنفخ بمنفاخه بينما يقوم هو بمتابعة

لحن ما باصبع واحد ، وكانت النعمة الأخيرة تستمر طالما بقي هناك
هواء يقيها . كان هواء السيدة مريودر قد كُفِدَ ، كما رأيت ، وكانت
تسترجع مخزونها بينما تهبأت السيدة فارو للتحدث .

كانت السيدة فارو امرأة رائعة التكوين ، ذات عينين فانتحي
اللون وقدمين صغيرتين . كان لشعرها تموجات دائمة ، وهو كومة
من الحلقات الرمادية المتلاصقة . كانت الثانية في ترتيب أكثر السيدات
ورعاً في مايكوم ، وكانت لديها عادة غريبة إذ كانت تمهد لأي شيء
تريد قوله بصوت ناعم ذي صفر .

قالت . :

— اس — اس — اس يا غريس ، هذا شبيه بما كنت أقوله لـ « الأخ
هيوستون » ذلك اليوم . قلت له : « س — س — س يا « أخ هيوستون » ،
يبدو أننا نحارب في معركة خاسرة ، أجل معركة خاسرة . فهم لا يكتثون
أبداً . يمكننا تثقيفهم حتى تزرق وجوهنا ، يمكننا أن نحاول أن نجعلهم
مسيحيين حتى نسقط أرضاً من التعب ، ولكن لا توجد سيدة آمنة في
فراشها هذه الأيام » . قال لي : « ياسيدة فارو ، لأعرف ما الذي نحن
مقدمون عليه هنا » فقلت له س — س — س ان مايقوله حقيقة واقعة .

أومأت السيدة مريودر برأسها بحكمة . كان صوتها يعلو على
رنين فنانجين القهوة والأصوات البلدية الصادرة عن السيدات وهن
يقضن المأكولات . قالت :

— يا جبرترود ، أقول لك ان هناك بعض الناس الطيبين وان كانوا ضالين في هذه البلدة . انهم طيبون لكنهم ضالون . انهم أولئك الذين يظنون أنهم يفعلون الصواب في هذه البلدة ، هؤلاء من أعني . لست أنا بالتي تسميهم ، ولكن بعضهم في هذه البلدة ظن أنه كان يفعل الصواب منذ فترة ، ولكن ما فعله حقاً كان تخريضهم . هذا كل ما فعله . كاد الأمر يبدو وكأنه الصواب حين فعلوا ما فعلوا ، أنا واثقة من أنني لأعرف ، لست مثقفة في هذا المجال ، ولكنها كانت مقنعة الجبين . . . متدمرة . . . أقول لك ان « صوفي » لو استمرت فيما كانت عليه يوماً آخر لطردها . لم يقتنع رأسها المصنوع من الصوف أن السبب الوحيد الذي يجعلني أبقيتها في خدمتي هو هذا الكساد الاقتصادي وأنها في حاجة إلى ذلك الدولار والربع الذي هو أجرها الاسبوعية .

— إنه لا يعرف النفاق ، أليس كذلك ؟

كانت الآتسة مودي هي من قالت ذلك . خطان ضيقان على زاويتي فمها ، وهي تجلس بصمت إلى القرب مني ، وفنجان القهوة متوازن على ركبة واحدة . كنت قد فقدت خيط الحديث منذ فترة طويلة ، وذلك حين توقفتا عن التحدث عن زوجة توم روبنسون ، وقد أوضحت نفسي بالتفكير في فينتشزلاندنغ والنهر . كانت العمدة ألكسندرا قد جعلت الأمور ارتجاعية : فالجزء العملي من الاجتماع كان مروعاً فظيلاً والجزء الاجتماعي منه كان كثيباً .

قالت السيدة مريوذر :

— يامودي ، أنا واثقة أنني لأعرف ماالذي تعنيه .

قالت الآنسة مودي باقتضاب :

— أنا واثقة من أنك تعرفين .

وصممت . حين تكون الآنسة مودي غاضبة فإن اقتضاها يكون جليدياً . كان شيئاً ما قد جعلها غاضبة جداً ، وكانت عيناها الرماديتان باردتين كصوتها . احمرّ وجه السيدة مريوذر ، ونظرت إلي ثم التفتت بعيداً . كانت السيدة فارو قد اختفت عن ناظري .

نهضت العمة ألكسندرا من خلف منضدتها ووزّعت بسرعة المزيد من المأكولات ، وشبكت السيدة مريوذر والسيدة غيتس في حوار حيوي . وحين جعلتهما تنهماكان في الحديث مع السيدة بيركينز ، خطت العمة ألكسندرا نحو الخلف . نظرت نحو الآنسة مودي نظرة ملؤها الامتنان الصافي ، واستغربت من عالم النساء . لم تكن الآنسة مودي والعمة ألكسندرا صديقتين حميمتين على نحو خاص ، وهاهي العمة تشكرها الآن على شيء ما وبصمت . لماذا ؟ لم أكن أعرف . وقد شعرت بقناعة كافية بسبب اكتشافي أن العمة ألكسندرا يمكن أن توخز إلى حد يجعلها تشعر بالامتنان لعون قدم لها . لم يكن هناك شك في ذلك ، فسرعان ماسوف أدخل هذا العالم ، الذي تتأرجح على سطحه السيدات المعطرات ببطء ، وهن يروّحن بالمرابح برقّة ويشربن الماء البارد .

ولكني كنت أكثر شعوراً بالراحة في عالم والدي . فأشخاص كالسيد
هك تيت لا يوقعونك في الفخ بأسئلة بريئة ليضحكوا عليك ، وحتى
جم ماكان يتزع كثيراً إلى الانتقاد إلا إذا قلت أمامه شيئاً سخيلاً .
بدت السيدات لي وكأنهن يعشن في رعب ثقيل الوطأة من الرجال ،
وبدا كذلك أنهن لا يستحسنن الرجال من كل قلوبهن ولكني كنت
أحب الرجال . كان هناك شيء ما فيهم مهما مارسوا الشتم والشرب
والقمار ومضغوا التبغ ، مهما كانوا كريهين ، فقد كان هناك شيء
ما فيهم كنت أحبه غريزياً . . . فهم ليسوا . . .

— منافقون ياسيدة بير كيتز ، منافقون بالفطرة . . .

هذا ما كانت تقوله السيدة مريوذر ثم استأنفت قائلة :

— على الأقل لانهمل هذه الخطيئة على أكتافنا هنا . الناس هناك
يعطونهم حريتهم ، ولكنك لا ترينهم يجلسون إلى الطاولة نفسها معهم .
على الأقل نحن لا نمارس ذلك الخلداع الذي يمارسونه فهم يقولون لهم :
نعم أنتم أنداد لنا ولكن ابعلوا عنا ، أما هنا فنحن نقول : عيشوا
بطريقتكم ونحن نعيش بطريقتنا . وأعتقد أن تلك المرأة ، تلك « السيدة
روزفلت » قد فقدت عقلها . . . لقد جنت حتماً إذ تأتي إلى مدينة
بير مينغهام وتحاول الجلوس معهم . لو كنت محافظ بير مينغهام . . .

حسناً لم تكن أي منا محافظ بير مينغهام ، ولكني رغبت لو كنت
حاكم ألاباما لمدة يوم واحد : كنت سأطلق سراح توم روبنسون

بسرعة إلى حد أن « الجمعية التبشيرية » لن يكون لديها من الوقت ما يكفي لتلتقط أنفاسها . كانت كالبورنيا تحكي منذ أيام لطباخة الآنسة راشيل حول توم روبنسون وكيف أنه يصعب عليه تحمل مأصابه ، ولم تتوقف عن الحديث حين دخلت المطبخ . قالت ان أتيكوس فعل كل ما بوسعه ليهون عليه سجنه ، وان الشيء الأخير الذي قاله لأتيكوس قبل أن يؤخذ إلى السجن هو : « وداعاً ياسيد فينتش ، لا يمكنك أن تفعل أي شيء الآن ، لذا لا فائدة من المحاولة » . قالت كالبورنيا ان أتيكوس حكى لها أنه منذ أن أخذوا توم إلى السجن فقد هذا كل أمل ، قالت ان أتيكوس حاول أن يشرح الأمور له وكيف أن عليه أن يبذل قصارى جهده حتى لا يفقد الأمل لأن أتيكوس يبذل قصارى جهده للعمل على إطلاق سراحه . وسألت طبخة الآنسة راشيل كالبورنيا لماذا لا يقول أتيكوس : « أجل ، سيطلق سراحك » ويترك الأمور عند ذلك الحد . . . لو قال ذلك فانه سيمنح الراحة إلى توم . قالت كالبورنيا : « لأنك لاتعرفين القانون جيداً . أول شيء تتعلمينه عندما تعيشين مع أسرة تتعامل بالقانون هو أنه لا توجد أية أجوبة محددة على أي شيء . لا يستطيع السيد فينتش أن يقول ان شيئاً ما هو كذا حين لا يعرف أنه كذلك » .

سمعت الباب الأمامي ينصفق وسمعت خطوات أتيكوس في الردهة . وتساءلت تلقائياً عن الساعة . ليس هذا وقت عودته إلى البيت ، وفي أيام اجتماعات « الجمعية التبشيرية » فإنه يبقى عادة في البلدة حتى يحلّ الظلام .

توقف في الردهة . كانت قبعته في يده ، وكان وجهه شاحباً .

قال :

— المعلقة سيداتي . أرجوكن الاستمرار في الاجتماع . لا تدعني أقطع عليكن الاجتماع . يا ألكسندرا ، هل يمكنك القدوم إلى المطبخ للحظة ؟ أريد أن أستعير منك كالبورنيا لفترة .

لم يدخل عبر حجرة الطعام ، بل ذهب إلى الردهة الخلفية ودخل المطبخ من الباب الخلفي . قابلناه العمة ألكسندرا وأنا . فتح باب حجرة الطعام مرة أخرى وانضمت الآتسة مودي إلينا . كانت كالبورنيا قد نهضت نصف نهضة من كرسيها .

قال أتيكوس :

— يا كال ، أريدك أن تذهبي معي إلى منزل هيلين روبنسون . . .

سألت العمة ألكسندرا وقد أفلقتها النظرة التي كانت مرتسمة

على وجه أبي :

— ما الحكاية .

— لقد ماتت توم .

رفعت العمة ألكسندرا يدها إلى فمها .

قال أتيكوس :

— لقد أطلقوا النار عليه . كان يركض . كان ذلك خلال فترة التريخس . قالوا انه اندفع فجأة بجناح نحو السور وبدأ يتسلق . أمامهم تماماً . . .

— ألم يحاولوا إيقافه ؟ ألم يحدّوه ؟
كان صوت العمّة ألكسندرا يرتجف .

— أوه نعم ، طلب منه الحراس التوقف . لقد أطلقوا عدة طلقات في الهواء ثم أطلقوا بقصد القتل . وقد أصابوه حين تجاوز السور تماماً . قالوا انه لو كانت لديه ذراعان سليمان لنجا ، فقد كان يتحرك بسرعة . وجلسوا فيه سبعة عشر ثقب رصاصة . لم تكن هناك حاجة إلى إطلاق كل تلك الطلقات عليه . كال ، أريدك أن تأتي معي وتساعدني على اخبار هيلين بالنبأ .

همهمت كالبورنيا وهي تحاول فك مريبتها دون جدوى :
— نعم ياسيدي .

اقتربت منها الآنسة مودي وفكت لها مريبتها .
قالت العمّة ألكسندرا :

— هذه هي القشة الأخيرة يا أتيكوس .
— هذا يعتمد على الطريقة التي تنظرين إلى الأمر بها . وما هو

زنجي واحد بالنسبة إليهم ضمن مثنين منهم ؟ لم يكن هو « توم » بالنسبة
للحراس ، بل مجرد سجين هارب .

استند أتيكوس إلى البراد ، دفع بنظاريه إلى الأعلى ، وفرك
عينيه . قال :

— كانت لدينا فرصة طيبة . قلت له ما كنت أفكر فيه ، ولكني
لم أستطع أن أقول له أكثر من أن لدينا فرصة طيبة . أعتقد أن توم
كان قد تعب من « فرص » الرجال البيض وفضل أن ينتهز « فرصته »
الخاصة به . هل أنت جاهزة يا كال ؟

— نعم ياسيدي ياسيد فينتش .

— إذن هيا بنا .

جلست العمدة ألكسندرا في كرسي كالبورنيا وغطت وجهها
بيديها . جلست هناك بهدوء كامل : كانت هادئة إلى درجة أني تساءلت
ان كان سيغمي عليها . وسمعت الأنسة مودي تتنفس وكأنها قد صعدت
الدرج للتو ، وفي حجرة الطعام كانت السيدات تثرثن بسعادة .

ظننت أن العمدة ألكسندرا كانت تبكي ، ولكنها حين أبعدت يديها
عن وجهها ، لم تكن كذلك . بدت متعبة . ثم نطقت أخيراً ، وكان
صوتها خفيضاً :

— لا أستطيع أن أقول أنني أصادق على كل مايفعله ، يامودي ،
ولكنه أخى ، وكل ماأريد أن أعرفه هو : متى سينتهي كل هذا ؟

ثم ارتفع صوتها :

— ان ذاك ممزقه إرباً إرباً . انه لا يفصح عن ذلك كثيراً ، ولكنه
ممزقه إرباً إرباً . لقد رأيته حين . . . مالمالذي يريدونه منه غير ذلك
يامودي ، مالمالذي يريدونه غير ذلك ؟

سألت الآنسة مودي . :

— من هم الذين يريدون يالكسندرا ؟

— أعني هذه البلدة . ان أهلها يريدون منه أن يفعل ماينخشون هم
فعله بأنفسهم . . . فذلك لن يضرهم كثيراً . انهم راغبون تماماً في جعله
يخرب صحته وهو يؤدي ماينخشون هم أن يفعلوه ، انهم . . .

قالت الآنسة مودي :

— اهلهي سيسمعنك ، هل سبق لك وفكرت بالأمر بالطريقة
التالية يالكسندرا ؟ أكانت مايكوم تعرف ذلك أم لا ، إلا أننا ندفع له
أعلى مكافأة نستطيع أن ندفعها لأي انسان . اننا نأتمنه على فعل ما هو حق :
ان الأمر بهذه البساطة .

— من ؟

لم تعرف العمة ألكسندرا أنها كانت تردد كلام ابن أخيها ابن
الثانية عشرة .

— تلك الحفنة من الناس في هذه البلدة الذين يقولون ان عمل الحفنة
ليس مقتصراً على فئة دون غيرها . تلك الحفنة من الناس الذين يقولون
ان المحاكمة العادلة يجب أن تكون من نصيب الجميع ، وليس نحن
فحسب . أنها تلك الحفنة من الناس المستمعين بما يكفي من التواضع حتى
يقولوا في أنفسهم حين ينظرون إلى زنجي : « لطف الله هو الذي جعلنا
ننجو من حياة بائسة » .

كانت حرارة الآتسة مودي القديمة قد عادت إليها الآن :
— أنها الحفنة من الناس من سكان هذه البلدة الذين لديهم خلفية
اجتماعية ، هؤلاء هم من تسألين عنهم .

لو كنت أكثر انتباهاً ، لكنت لدي نبذة أخرى أضيفها إلى تعريف
جم للخلفية الاجتماعية ، ولكنني وجدت نفسي أرثجف ولا أستطيع
التماسك . لقد شاهدت « سجن انفيلد » كما كان أتيكوس قد دلّني
على فناء التريّض . كان في حجم ملعب كرة القدم .

أمرت الآتسة مودي : « أوقفني ذلك الارثجاف » . فتوقفت .
« انهضي يا ألكسندرا ، فقد تركناهن فترة طويلة بما فيه الكفاية » .
نهضت العمة ألكسندرا ومسّدت مشدها ، ثم أخرجت منديلها
من زيارها ومسحت أنفها . ربت على شعرها وقالت :

— هل يبدو عليّ ؟

قالت الآنسة مودي :

— اطلاقاً . هل تماكنت نفسك يا جان لويز ؟

— نعم ياسيدتي .

— إذن هيا بنا ننضمّ للسيدات .

حين فتحت الآنسة مودي الباب المؤدي إلى حجرة الطعام ارتفعت أصواتهن . كانت العمّة ألكسندرا تتقدمني ، ورأيت رأسها يرتفع وهي تعبر من الباب .

قالت :

— أوه ياسيدة بيركيتز . أنت تحتاجين إلى مزيد من القهوة .
اسمحي لي أن أقدمها لك .

قالت الآنسة مودي :

— كالبورنيا ذهبت في مهمة لعدة دقائق ياغريس . اسمحي لي أن أمرر لك المزيد من هذه الكعكات المصنوعة من توت الندى . هل سمعت ما فعله ابن عمي ذاك قبل أيام ؟ أعني ذاك الذي يحب صيد السمك ؟ . . : وهكذا انطلقنا ضمن صف من النساء الضاحكات وحول حجرة الطعام ، وهما تعيدان ملء فناجين القهوة ، وتوزعان الحلويات وكأن أسفهما الوحيد كان المصيبة المنزلية المؤقتة المتمثلة في فقد كالبورنيا .

بدأت المهمة اللطيفة مرة أخرى : « أجل ياسيدي هكذا قلت
ياسيدة بيركنز ، أن ج . غمرايمز قديس شهيد ، لقد احتاج إلى زوجة
فكانوا يركضون نحو . . . صالون الجمال عصر كل يوم سبت ، بعد
أن تغرب الشمس بقليل . انه ينام مع ال . . . الفراريج ، صندوق ممتلئ
بالدجاجات المريضة . يقول « فريد » ان ذلك هو الذي أثار المسألة
كلها . يقول « فريد » . . . »

نظرت العمدة ألكسندرا عبر الغرفة باتجاهي ثم ابتسمت . نظرت
إلى صينية من الحلويات موجودة على الطاولة ، وأومأت برأسها إليها .
راقبت نفسي أحمل الصينية وأتجه نحو السيدة مريوذر . وبأفضل مألدي
من كياسة ، سألتها ان كانت تريد البعض منها . وعلى أية حال ، فإن
كانت عمي تستطيع أن تكون سيدة حقيقية في وقت كهذا ، فأنا
أستطيع أيضاً .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

— لا تفعل ذلك ياسكاوت . ضعيه على الدرجات الخلفية .

— جم ، هل أنت محنون ؟ . . .

— قلت ضعيه على الدرجات الخلفية .

رفعت المخلوق الصغير وأنا أتنهد ، ووضعت على آخر درجة ثم عدت إلى سريري . كان أيلول (سبتمبر) قد حلّ ، ولكن لا أثر للطقس البارد ، ولذا كنا لا نزال ننام في الرواق الخلفي المغطى بالشريط المنخلي . كانت اليراعات المضيئة لا زالت في أنحاء المكان ، كما كانت زواحف الليل والحشرات الطائرة التي تضرب الشريط المنخلي طوال الصيف لم تبعد بعد إلى حيث ترحل عادة حين يأتي الخريف .

وجدت حشرة طريقها إلى داخل المنزل : وقد استنتجت أن الحشرة الصغيرة قد زحفت صاعدة الدرج ثم انسلت من تحت الباب . كنت أضع كتابي على الأرض إلى القرب من سريري حين رأيتها . وهذه المخلوقات لا يزيد طولها عن بوصة واحدة ، وحين تلمسها فإنها تتكور على نفسها متحولة إلى كرة رمادية محكمة .

تمدّدت على بطني ، ومددت يدي إليها ووخزتها . تكورت .
ثم شعرت بالأمان ، على ما أفترض ، فعادت إلى شكلها الأصلي . سافرت
مسافة بوصات على سيقانها المثة ، فلمستها مرة أخرى . تكورت من
جديد . وحيث كنت أشعر بالنعاس ، فقد قررت إنهاء الأمر . كنت
سأسحقها بيدي حين تكلم جم .

كان جم مقطب الجبين . ربما كان ذلك جزءاً من المرحلة التي
كان يمرّ فيها ، وقد تمثّيت لو أنه يتجاوزها بسرعة . لم يكن قاسياً على
الحيوانات أبداً ، ولكني لم أعرف أن حبه للخير كان يمتد ليعانق
عالم الحشرات .

سألت :

— لم طلبت مني ألا أسحقها ؟

— لأنها لا تزعجك .

أجابني جم من الظلام . كان قد أشعل نور القراءة .

— أعتقد أنك تمر الآن بمرحلة لا تقتل فيها الذباب والبعوض ،

على ما أعتقد . أعلمني حين تغيّر رأيك . هل أقول لك شيئاً ؟ لن تجعلني
أجلس دون أن أسحق بقعة تقرصني .

أجابني بلهجة وسنانة :

— اصمتي .

كان جم هو الذي يصبح أكثر شهياً بالبنات كل يوم ، وليس أنا .
 وحيث كنت أشعر بالراحة فقد تمددت على ظهري وانتظرت النوم ،
 وبينما كنت أنتظر فكرت في ديل . كان قد غادرنا منذ أول الشهر مع
 تأكيدات شديدة بأنه سيعود حالما تغلق المدرسة أبوابها . . . كان يظن أنه
 لدى أسرته فكرة عامة الآن مفادها أنه يحب قضاء الصيف في مايكوم .
 اصطحبتنا الآنسة راشيل بالتاكسي إلى محطة اتصال مايكوم ، وقد لوح
 لنا ديل من نافذة القطار حتى غاب عن الأنظار . لم يفارق غيبي أبداً :
 وقد افتقدته . في آخر يومين قضاهما معنا ، علّمه جم السباحة . . .
 علّمه السباحة . فجأة أفقت تماماً اذ تذكرت ماحكاه لي ديل .

كانت « دوامة باركر » في نهاية طريق ترابي بعيد عن الطريق
 العام المؤدي إلى بلدة ميريديان وعلى مبعده ميل من بلدتنا . من السهل
 أن يجد المرء عربة قطن أو سيارة عابرة ثقّله على الطريق العام ، وكان
 المشوار القصير على الأقدام نحو النهر سهلاً ، ولكن احتمال أن يمشي
 المرء طريق الاياب نحو البيت بأكمله عند الغسق ، حين تكون حركة
 السير خفيفة ، كان احتمالاً وارداً ومتعباً ، ويحرص السابحون عادة
 على ألا يتأخروا كثيراً .

ووفقاً لرواية ديل ، فقد كان هو وجم قد وصلا للتو إلى الطريق
 العام حين شاهدا أتيكوس يقود سيارته باتجاههما . بدا عليه أنه لم يرهما ،
 لذا لوحّاه كلاهما . وأخيراً أوقف أتيكوس سيارته وحين لحقا به قال :

٥٤٥ لا تقتل مصفورا ساخرآ - م ٣٥

— الأفضل لكما أن نجدا سيارة تعيدكما إلى البيت ، فأنا لن أذهب إلى البيت إلا بعد فترة من الزمن .

وقال ديل ان كالبورنيا كانت في المقعد الخلفي للسيارة .

احتجّ جم ، ثم توسل فقال أتيكوس :

— حسناً ، يمكننا أن تأتيا معنا شريطة البقاء في السيارة .

وفي الطريق إلى بيت توم روبنسون حكى لهما أتيكوس ما حدث .

انعطفت السيارة خارج الطريق العام ثم سارت ببطء مارة بمقلب القمامة ومترل آل يوويل ، ثم هبطت في الزقاق الضيق نحو أكواخ الزوج . قال ديل ان جمهرة من الأطفال السود كانوا يلعبون في فناء منزل توم الأمامي . أوقف أتيكوس سيارته وترجل . لحقت به كالبورنيا عبر البوابة الأمامية .

سمعه ديل يسأل أحد الأطفال :

— أين أمك ياسام ؟ .

أجابه سام :

— انها هناك في منزل الأخت ستيفن ، ياسيد فينتش . هل تريد

مني أن أهرع إليها وأناديها ؟

قال ديل ان أتيكوس بدا متردداً ، ثم قال ، نعم ، وانطلق سام .

قال أتيكوس للأطفال :

.. استمروا في اللعب أيها الأطفال .

خرجت فتاة صغيرة من باب الكوخ ووقفت تنظر إلى أتيكوس .
قال ديل ان شعرها كان كومة من الضفائر القاسية الصغيرة ، وكل
واحدة منها تنتهي بشريطة لامعة . ابتسمت من الأذن حتى الأذن ثم
سارت نحو والدنا ، ولكنها كانت أصغر من أن تنزل الدرجات وحدها :
قال ديل ان أتيكوس مضى نحوها ، رفع قبعته وعرض عليها اصبعه .
وأمسكت هي بها وأنزلها هو الدرجات بهبط . ثم أعطاها إلى كالبورنيا .

كان سام يهرول خلف أمه حين وصلا . قال ديل ان هيلين قالت :
« مساء الخير ياسيد فينتش ، هل لك في كرسي ؟ » ولكنها لم تقل شيئاً
آنحر . ولا أتيكوس أيضاً .

قال ديل :

— ياسكاوت ، لقد سقطت على التراب . سقطت هكذا على التراب
كأنّما داستها قدم مارد ضخم ، هكذا فجأة . هكذا . . . يم ؟ وكأنك
تدوسين نملة . وهنا ضرب ديل الأرض بقدمه .

قال ديل ان كالبورنيا وأتيكوس أوقفنا هيلين على قدميها وجرواها
إلى داخل الكوخ . وقد بقوا في الداخل فترة طويلة ، ثم خرج أتيكوس
وحده . وحين عادوا بالسيارة ماريّين بمقلب القمامة ، صرخ بهم بعض
أفراد عائلة يوويل ولكن ديل لم يسمع ماقالوه جيداً .

اهتمت مايكوم بخبر موت نوم لمدة يومين ربما ، كانت فترة يومين كافية حتى تنتشر المعلومات في أنحاء المقاطعة . « هل سمعت بما حدث . . . ؟ لا ؟ حسناً ، يقولون انه كان يهرب بسرعة البرق . . . » بالنسبة لمايكوم كان موت نوم شيئاً « نمطياً » . فالشيء النمطي هو أن يحاول زنجي أن يكسر قيوده ويهرب ، والشيء النمطي هو أن يكون عقل الزنجي دون خطة ، دون تفكير في المستقبل ، بل مجرد الهروب في أول فرصة تلوح له . شيء مضحك . كان يمكن لأتيكوس فينتش أن يطلق سراحه . ولكن أن ينتظر . . . ؟ لا وحق الجحيم . أنت تعرف كم هم خفاف العقول . هذا يكشف لك الأمر : فتقوم روبنسون شخص متزوج شرعياً ، ويقولون انه كان نظيف السمعة ويذهب إلى الكنيسة وغير ذلك ، ولكن ماأن تسنح لهم الفرصة فإن القشرة رقيقة جداً ، فالزنجي يبقى زنجياً .

تفاصيل أخرى قليلة تمكن المستمع من تكرار نسخته هو عن الحكاية ، ثم لا شيء كموضوع للحديث حتى ظهرت صحيفة « مايكوم تريبيون » في الخميس التالي . كان فيها نعي مع ترجمة موجزة عن حياة المتوفي في « أنخبار الملونين » ، ولكن كان هناك أيضاً مقال افتتاحي أيضاً .

في ذلك المقال ، كان السيد ب . ب . أندروود كأكثر مايكون مرارة ، وقد بدا أنه لم يأخذ بعين الاعتبار من سيقوم بالغاء اعلانه أو اشتراكه في الصحيفة . (ولكن مايكوم لم تكن من هذا النوع :

فقد كان بإمكان السيد أندروود أن يزعم حتى يغرق أو يكتب ما يشاء له أن يكتب ، ومع ذلك فالناس سيستمرون في الاعلان لديه ودفع الاشتراكات لصحيفته . إذا كان يريد أن يتحاطق في صحيفته ، فذلك شأنه . لم يكن السيد أندروود يتحدث عن اخفاقات العدل ، بل كان يتحدث بطريقة يستطيع معها الأطفال أن يفهموا . كان السيد أندروود يتصور بكل بساطة أن قتل الأشخاص ذوي العاهة خطيئة ، أكانوا واقفين ، جالسين ، أو فارين . وقد شبه موت توم بالدبح الذي لأمعنى له للظهور الشادية من قبل الصيادين والأطفال ، وقد ظنت مايكوم أنه كان يحاول كتابة افتتاحية شاعرية إلى حد يعاد معه طبعها في صحيفة « مونثغومري أدفر تايزر » .

تساءلت في نفسي وأنا أقرأ افتتاحية السيد أندروود كيف يمكن لكلامه أن يكون صحيحاً . قتل بلا معنى . . . ؟ لقد عومل توم معاملة قانونية حتى يوم مماته ، كما حوكم علناً وأدانته اثنا عشر رجلاً طيباً وصادقاً ، كما دافع عنه والدي طوال الوقت . ثم توضح لي ماعناه السيد أندروود : لقد بذل أتيكوس ما بوسعه كرجل حرّ لانتقاذ توم روبنسون ، ولكن ضمن محاكم القلوب السرية كان أتيكوس خاسراً . فنوم روبنسون أصبح رجلاً ميتاً في اللحظة التي فتحت بها ماييلا يويويل فمها وزعقت .

لقد بعث اسم « يويويل » في نفسي شعوراً بالغثيان . لم تكن مايكوم

قد أضاعت وقتها في إيصال أفكار السيد يوويل حول مقتل توم ونقلها عبر ذلك « القنال الانكليزي » للاشاعة ، ألا وهو الآنسة ستيفاني كروفورد . قالت الآنسة ستيفاني للعمة ألكسندرا في حضور جم : « حسناً ، لقد كبر إلى حد يسعه معه أن يستمع إلى ما أقوله » . ان السيد يوويل قال ان موت توم جعل رقم الذين يجب أن يموتوا ينخفض من ثلاثة إلى اثنين . وقد قال لي جم ان عليّ ألا أخاف ، فالسيد يوويل مجرد ثرثار لا أكثر . كما قال لي جم اني إذا تلفظت بكلمة واحدة لأتيكوس حول ذلك ، أو إذا جعلت أتيكوس يعرف بطريقة أو بأخرى أنني عرفت ، فإن جم شخصياً ، لن يخاطبني أبداً ، مرة أخرى .

* * *

• • •

الفصل السادس والعشرون

بدأت المدرسة ، وبدأت كذلك من جديد رحلاتنا اليومية مروراً بمنزل آل رادلي . كان جم الآن في الصف السابع وأصبح يذهب إلى المدرسة الثانوية ، الواقعة خلف مبنى المدرسة الابتدائية ، وكنت أنا الآن في الصف الثالث وأصبح مسار حياتنا اليومي مختلفاً إلى حد أني كنت أمشي صباحاً مع جم حتى المدرسة وأراه في مواعيد الوجبات . كان يخرج ليلعب كرة القدم ، ولكنه كان أنحف وأصغر من أن يفعل أي شيء للفريق عدا أن يحمل له دلاء الماء . وكان يفعل ذلك بحماسة ، حتى أنه أصبح يقضي معظم أوقات العصر خارج المنزل فلا يعود قبل حلول الظلام إلا نادراً .

لم يعد منزل آل رادلي يخيفني ، ولكنه لا يزال على كآبته السابقة ، وعلى برودته السابقة تحت أشجار السنديان الضخمة تلك ، كما لا يزال منفصلاً . كان السيد ناثن رادلي لا يزال يُرى في أيام الصبح ، وهو يسير من البيت إلى البلدة وبالعكس ، وكنا نعرف أن « بو » لا يزال هناك وذلك للسبب القديم نفسه : فلم يره أحد يخرج محملاً بعد . كنت

شعر أحياناً بوخزة ندم لدى مروري بذلك المنزل العتيق ، وذلك لأني شاركت فيما كان عذاباً محضاً لآرثر رادي . فأني ناسك عاقل يرغب في أن يتلصص عليه الأطفال من خلال مصاريع النافذة ، أو يوصلوا له التحيات على نهاية قصبة صيد ، أو أن يتجولوا في بستان خضاره في الليل ؟

ومع ذلك تذكرت . تذكرت بنسين من النوع المرسوم عليه رأس هندي ، العالكة ، الدميتين المصنوعتين من الصابون ، الميدالية الصديقة والساعة المكسورة ذات السلسلة . لا بد وأن جم قد رماها في مكان ما . توقفت ونظرت إلى الشجرة في عصر أحد الأيام : كان جذعها منتفخاً حول بقعة الاسمنت . وكانت لون البقعة نفسها يتحول إلى الأصفر .

على كل حال ، فقد كدنا نراه مرتين ، وكان ذلك رقماً قياسياً كافياً لأي شخص .

ولكني كنت أبحث عنه كلما مررت من هناك . ربما سراه في يوم من الأيام . لقد تخيلت كيف سيكون ذلك : حين سيحدث سيكون هو جالساً في الأرجوحة حين أمرّ أنا أقول : « كيف حالك ياسيد آرثر ؟ » وكأني كنت أقول ذلك له في عصر كل يوم من أيام حياتي . وسيقول هو : « مساء الخير ياجان لويز » وكأتما كان يقول لي ذلك في عصر كل يوم من أيام حياتي . « ان الطقس جميل ، أليس كذلك ؟ » وسأقول : « نعم ياسيدي . جميل تماماً » ، ثم استأنف طريقي .

كان ذلك مجرد خيال . لن يتاح لنا أن نراه أبداً . ربما كان يخرج فعلاً حين لا يكون القمر بازغاً ويتلصص على الأنسة ستيهاني كروفورد . لو كنت في مكانه لاخترت شخصاً آخر أنظر إليه ، ولكن ذلك كان شأنه الخاص . انه لن يأتي ليتلصص علينا أبداً .

قال أتيكوس في احدى الليالي حين عبرت عن رغبة تائهة في أن أنظر ولو مرة واحدة إلى بورادلي قبل أن أموت :

— لن تبدئي ذلك مرة أخرى ، أليس كذلك ؟ وإذا كنت ستفعلين ذلك ، فأقول لك من الآن : أوقفي ذلك . أنا أكبر سناً من أن أطاردكم بعيداً عن حدود ملكية آل رادلي . وزيادة عليه فالمكان خطير . كان يمكن أن تقتلوا في احدى المرات . أنت تعرفين أن السيد ناثن يطلق النار على كل ظل يراه ، حتى الظلال التي تترك آثار أقدام حافية قياس رقم (٤) . لقد كنتم محظوظين إذ لم تقتلوا .

سكت فوراً ، وتعجبت في الوقت نفسه من أتيكوس . فقد كانت هذه هي أول مرة يجعلنا ندرك فيها أنه كان يعرف أكثر بكثير مما كنا نظن أنه يعرف حول أمر ما . وقد حدث ذلك منذ سنوات . لا ، في الصيف الماضي فحسب . . . لا ، بل الصيف الذي سبق ، حين . . . الوقت يمارس حيله عليّ . يجب أن أتذكر أن أسأل جم .

لقد حدثت أشياء كثيرة لنا ، كان بورادلي الآن أقل مخاوفنا شيئاً . قال أتيكوس انه لا يرى كيف يمكن أن يحدث أي شيء آخر لنا .

وان الأمور لها طريقتها في الاستقرار ، وبعد مرور مايكفي من الوقت ، سينسى الناس وجود توم روبنسون كله .

ربما كان أتيكوس على حق ، ولكن حوادث الصيف كانت معلقة فوق رؤوسنا ، كما الدخان في غرفة مغلقة . لم يناقش راشدو مايكوم القضية معي أو مع جم أبداً ، فقد بدا أنهم كانوا يناقشونها مع أطفالهم ، ويبدو أن موقفهم من الموضوع هو أن أحداً منا لم يكن يستطيع شيئاً حيال كون أتيكوس والداً ، ولذا فإن على أطفالهم أن يكونوا لطفاء معنا رغماً عنه . ماكان ممكناً أن يكون الأطفال قد وصلوا إلى ذلك بأنفسهم : فلو ترك زملاء الصف ليتصرفوا من تلقاء أنفسهم ، لكننا اضطررنا جم وأنا إلى خوض عدة معارك ملاكمة سريعة وعرضية ووضعنا حداً للمسألة . ولكن بما أن الأمر كان على ماهو عليه ، فلننا أرغمنا على رفع رؤوسنا عالياً وأن نكون « جنتلمان » و « سيدة » . وبطريقة ما كان هذا يشبه فترة السيدة هنري لافاييت دوبوز دون صياحها ذلك كله . ولكن كان هناك أمر غريب واحد ، على أية حال ، لم أفهمه أبداً : فرغم عيوب أتيكوس كأب ، كان الناس راضين عن انتخابه مرة أخرى لبرلمان الولاية في ذلك العام ، كالعادة ، دون معارضة . وقد استنتجت بأن الناس غريبو الأطوار فحسب . لقد ابتعدت عنهم ، ولم أفكر بهم ثانية حتى اضطرت إلى ذلك .

لقد أرغمت على ذلك في أحد الأيام في المدرسة . فقد كانت لدينا حصّة اسبوعية تسمى « الحوادث الجارية » . وكان من المفروض أن يقوم

كل طفل باختيار مقال من صحيفة ، فيستوعب مضمونه ثم يرويها
لبقية الصف . وقد كان من شأن هذه الممارسة أن تتغلب — على حد
زعمهم — على مجموعة متنوعة من الشرور : فقد كان من شأن الوقوف
أمام زملاء الصف أن يشجع على تعلم الوقفة الجيدة أمام الآخرين
وتدريب الطفل على حفظ التوازن : فاللقاء خطاب قصير كان يجعله
واعياً بالكلمات ، كما أن حفظه للحادثة التي يرويها يقوّي ذاكرته ،
فكونه قد اختير يجعله أكثر حرصاً على العودة إلى « المجموعة » .

كانت الفكرة عميقة ، ولكنها لم تفلح تماماً في مايكوم وكالعادة .
فأولاً ، كان قلة من الأطفال الريفيين يحصلون على صحف ، وهكذا
فإن ثقل « الحوادث الحارية » كان يتحمله أطفال البلدة ، وهذا كان
من شأنه أن يقنع « أطفال الباص » على نحو أعمق بأن أطفال البلدة
كانوا يحصلون على كل الاهتمام على أية حال . أما الأطفال الريفيون
الذين كانوا يستطيعون ، فكانوا يحضرون غنارات مما أسموه « صحيفة
غريت » . وهي نشرة كاذبة في نظر « الأنسة غيتس » معلمتنا . لماذا
كانت تقطب جبينها كلما قرأ طفل ما مقتطفاً من « صحيفة غريت » ؟
كان ذلك أمراً لا أعرفه ، ولكن بطريقة ما ، كان ذلك مرتبطاً بحب
العزف على الكمان وتناول البسكويت المحليّ بالعصير المركز على الغداء ،
وأن يكون المرء متديناً على نحو شديد ، وأن يغتني « الحمار يغني بعذوبة »
وأن يلفظ كلمة Donkey أو جمار على شكل Dunkey ، وقد
كانت الدولة تدفع الرواتب للمعلمين حتى يشنوا أولئك الأطفال عن مثل
تلك الممارسات .

ومع ذلك ، فلم يكن الكثير من الأطفال يعرفون ماذا تعني عبارة « الأحداث الجارية » . فهاهو « ليتل تشاك ليتل » ، وهو الخبير العتيق بالأبقار وعاداتها ، توقفه الآتسة غيتس بعد أن كان قد قرأ نصف حكاية كتبها في الصحيفة « العم ناثشل » وتقول له : « ياتشارلز ، هذه ليست حادثة جارية . أنها اعلان » .

وبما أنني ماأحببت الحساب أبدأ ، فقد قضيت كل ساعة الدرس وأنا أنظر من النافذة إلى الخارج . والمرة الوحيدة التي رأيت فيها أتيكوس يقطب كانت حين راح « إلمر ديبيس » ينيثه بأخر الأخبار حول هتلر . كان أتيكوس يخرس الراديو ويقول : « أف » . وقد سأله مرة عن السبب في أنه لا يحتمل هتلر فقال لي : « لأنه مجنون » .

لم يكن ذلك كافياً ، كما كنت أفكر ، بينما استمر الصف في أعمال الجمع . مجنون واحدوملايين الألمان . بدا لي أنه كان من الأفضل لهم لو حبسوا هتلر في حظيرة بدلا من تركه يحبسهم كلهم . كان هناك أمر آخر غير صحيح . . . سأسأل أبي عنه .

وقد فعلت ، وقال انه لا يستطيع على الأرجح الاجابة عن سؤالي لأنه لا يعرف الجواب .

— ولكن هل من المقبول أن تكره هتلر ؟

— لا ، ليس مقبولا كره أي شخص .

قالت :

— يا أتيكوس ، هناك أمر ما لا أفهمه . قالت الآنسة غيتس ان
ذاك كان كريهاً ، أي أن يفعل هتلر مايفعله ، وقد احمرّ وجهها
فعلاً حين أثير الأمر . . .

— أعتقد أن وجهها قد احمرّ فعلاً .

— ولكن . . .

— نعم ؟

— لا شيء ياسيدي .

وابتعدت ، وأنا لست متأكدة من أني أستطيع أن أشرح لأتيكوس
ماكان في ذهني ، ولا ان كنت أستطيع أن أوضح ماكان مجرد احساس .
ربما يستطيع جم تقديم الجواب . كان جم يفهم أمور المدرسة أكثر
من أتيكوس .

كان جم منهكاً من حمل دلاء الماء . وكان إلى جانب سريره
على الأرض اثنتا عشرة قشرة موز على الأقل تحيط بزجاجة حليب
فارغة . سأله :

— لماذا كل هذا الأكل ؟

— يقول المدرب اني إذا استطعت أن أكسب وزناً يعادل اثني

عشر كيلو غراماً في العام الذي يلي العام القادم فإني سأستطيع اللعب مع الفريق . وهذه أسرع طريقة لذلك .

— هذا إذا لم تتقيّاه يا جم . أريد أن أسألك سؤالاً .

— هيا .

أنزل كتابه ومدّد ساقيه .

— الآنسة غيتس سيدة لطيفة ، أليس كذلك ؟

— بالتأكيد . لقد أحببتها حين كنت في صفها .

— انها تكره هتلر كثيراً .

— وما الخطأ في ذلك ؟

— حسناً ، لقد حكّت اليوم عن مدى السوء في معاملته لليهود تلك

المعاملة . يا جم ، ليس عدلاً أن نضطهد أحداً ، أليس كذلك ؟ أعني أن تكون لدينا أفكار خسيّة حول أي شخص حتّى ، أليس كذلك ؟

— لا ياسكاوت . ولكن مالذي يقلّقلك ؟

— حسناً ، لدى خروجنا من دار المحكمة في تلك الليلة ، كانت

الآنسة غيتس تنزل الدرج أمامنا ، لا بد أنك لم ترها : كانت تتحدّث إلى الآنسة ستيفاني كروفورد . لقد سمعتها تقول ان الوقت قد حان وأصبح

ضرورياً أن يلقنهم أحد درساً ، فهم أصبحوا يحاولون تخطي حدودهم ،
وان الخطوة التالية التي سيفكرون فيها ستكون الزواج منا . يا جم ، كيف
يمكنك أن تكره هتلر إلى ذلك الحد ثم تلتفت لتعارس بشاعتك على
أشخاص موجودين في موطنك بالذات . . . ؟

فجأة ثارت نائرة جم . قفز من سريره وأمسك بي من قبتي
وهزني وهو يقول :

— لا أريد أن أسمع شيئاً حول دار المحكمة تلك ، أبداً ، أبداً ،
هل تسمعينني ؟ هل تسمعينني ؟ لا تقولي كلمة واحدة لي حولها مرة
أخرى ، هل تسمعينني ؟ والآن هيا من هنا .

كنت مندهشة إلى حد أنني لم أملك . زحفت خارجة من غرفة جم
وأغلقت الباب مهدوء ، لثلا ينفجر مرة أخرى بسبب صوت ما غير
ملائم . ولكوفي شعرت فجأة بالتعب فقد كنت في حاجة إلى أتيكوس .
وجدته في غرفة الجلوس ، وقد مضيت نحوه وحاولت الصعود إلى حجره .
ابتسم أتيكوس وقال :

— لقد أصبحت كبيرة على ذلك الآن ، سأكون مضطراً إلى ضم
جزء منك فحسب .

ثم ضمني إليه واستأنف الكلام بلطف :

— ياسكاوت ، لا تجعلى جم بئبط عزيمتك . انه يمر بوقت عصيب
الآن . لقد سمعتكما قبل قليل .

قال أتيكوس ان جم كان يحاول بشدة أن ينسى شيئاً معيناً ، ولكن
كل ما كان يفعله عملياً هو حفظه لفترة من الزمن ، حتى يمر وقت كاف
عليه . ثم سيكون قادراً على التفكير فيه وفرض الأمور فيما بعد . وحين
يستطيع جم أن يفكر بالأمر ، سيعود إلى نفسه مرة أخرى .

* * *

الفضل السَّابع والعشرون

لقد هدأت الأمور واستقرت فعلاً ، ولكن وفق أسلوبها الخاص ، كما قال أتيكوس . فحتى منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر) ، حدث أمران صغيران فقط لشخصين عاديين من سكان مايكوم . لا ، كانت هناك ثلاث حوادث ، ولم تكن تلك تتعلق كلها بنا نحن آل فينتش . . . وإنما كان لها علاقة ما بنا على أية حال .

وكانت أول حادثة هي أن السيد بوب يوويل نال وظيفة ثم فقدها خلال أيام وربما أراد أن يكون فريد نوعه في سجلات الثلاثينات من القرن العشرين : فقد كان الشخص الوحيد الذي سمعت أنه طرد من « الوكالة العمومية للعمال (١) » لكسله . وعتقد أن بروز شهرته القصير الأجل قد جلب عليه وظيفة أقصر أجلاً ، ولكن وظيفته تلك دامت بقدر شهرته السيئة : فقد وجد السيد يوويل نفسه منسياً مثله مثل توم روبنسون . وبعد ذلك ، عاد للظهور أسبوعياً وبانتظام عند مكتب الانعاش الاجتماعي للحصول على شيك المعونة ، وكان يستلمه متدبراً ومهمماً

(١) WPA برنامج للضمان الاجتماعي أسسه الرئيس روزفلت للقضاء على البطالة

في الولايات المتحدة . (المترجم)

بكلمات غامضة صد أولاد الزنا أولئك الذين يظنون أنهم يدبرون هذه البلدة ولا يسمحون لرجل شريف بأن يكسب قوته بعرق جبينه . هذا وقالت « روث جونز » ، وهي موظفة الانعاش الاجتماعي ان السيد يوويل قد اتهم أتيكوس صراحة بأنه حرمه من وظيفته . وقد انزعجت إلى حد أنها سارت نحو مكتب أتيكوس لتقول له ماسمعه . قال أتيكوس للآنسة روث ان عليها ألا تقلق ، وان بوب يوويل إذا أراد أن يناقش « حرمان » أتيكوس له من وظيفته ، فهو يعرف الطريق إلى مكتبه .

أما الحادثة الثانية فحدثت للقاضي تايلور . لم يكن القاضي تايلور ممن يرتادون الكنيسة في ليالي الأحد ، أما السيدة تايلور فكانت من هؤلاء . كان القاضي تايلور يستمتع بساعة صلاة ليلة الأحد وحده في منزله الكبير ، وكان يقضي تلك الساعة عادة في مكتبه يقرأ كتابات « بوب تايلور » (لم يكن من أقربائه ، ولكن القاضي كان سيفخر بمثل هذا الادعاء) . وفي إحدى ليالي الأحد ، وبينما كان القاضي تايلور غارقاً في الاستعارات العاطفية والألفاظ المنمقة ، لفت انتباهه فجأة وهو غارق في إحدى الصفحات صوت خرشة مزعجة . قال موجهاً كلامه إلى « آن تايلور » ، وهي كلبته الغربية البلدية صعبة الوصف : « صه » . ثم أدرك أنه كان يتحدث في غرفة فارغة ، كان صوت الخرشة آت من مؤخرة المنزل . مشى القاضي تايلور يتناقل نحو الرواق الخلفي ليفتح الباب لكلبته حتى تخرج ولكنه وجد الباب المنخلي يتأرجح مفتوحاً . وقد لمح ظلاً عند زاوية المنزل ، وكان ذلك هو كل مارآه من زائره .

وصلت السيدة تاييلور عائدة من الكنيسة لتجد زوجها في كرسية ، غارقاً في كتابات « بوب تاييلور » ، وقد وضع بندقية على حجره . أما الحادثة الثالثة فقد جرت لهيلين روبنسون ، أرملة توم . فإذا كان السيد يوييل قد نُسي كما نُسي توم روبنسون ، فلن توم روبنسون كان قد نُسي كما نُسي يورادي . ولكن توم لم يكن قد نُسي من قبل مستخدمه السيد لينك ديس . وقد قدم السيد لينك ديس وظيفة لهيلين . لم يكن هو في حاجة إلى خدماتها فعلاً ، ولكنه قال انه يشعر بالأسف تماماً للطريقة التي جرت بها الأمور . لم أعرف أبداً من الذي كان يهتم بأطفالها حين تكون في العمل . قالت كالبورنيا ان هيلين كانت تجد مشقة كبيرة ، اذ كان عليها أن تمشي مسافة ميل كامل بعيداً عن طريقها لتتجنب المرور بمنزل عائلة يوييل الذين - وفقاً لما قالته هيلين - شتموها حين حاولت استعمال الطريق العام في أول مرة . وقد لاحظ السيد لينك ديس أن هيلين كانت تصل في الصباح من الاتجاه غير الصحيح ، وقد استجربها إلى التصريح عن السبب . رجته هيلين قائلة : « أرجوك ياسيدي أن تترك الأمور كما هي » . قال السيد لينك ديس : « لن أفعل بحق الجحيم » ، ثم طلب منها أن تأتي إلى متجره في عصر ذلك اليوم نفسه قبل أن تغادر العمل . وقد فعلت ذلك ، وقام السيد لينك باغلاق متجره ، ثم لبس قبعته وثبتها على رأسه ، ومشى مع هيلين حتى منزلها ، وقد اصطحبها من الطريق المختصر ، مروراً بمنزل عائلة يوييل . وفي طريق عودته توقف السيد لينك عند البوابة المجنونة .

صاح :

— ياويويل . أنادي ياويويل .

كانت التوافذ المزدحمة عادة بالأطفال خاوية .

— أعرف أن كل واحد فيكم متمدن هناك على الأرض . والآن اسمعني يابوب يويويل : إذا سمعت مرة أخرى من عاملتي هيلين أنها لا تستطيع السير على هذه الطريق ، فسوف أسجنكم جميعاً قبل غروب الشمس .

ثم بصق السيد لينك على التراب وسار نحو منزله .

ذهبت هيلين إلى العمل في صباح اليوم التالي واستعملت الطريق العام . لم يقم أحد بشتمها ، ولكنها بعد أن ابتعدت مسافة أمتار عن منزل عائلة يويويل ، نظرت حولها فرأت السيد يويويل خلفها . التفتت واستمرت في السير ، وأبقى السيد يويويل على المسافة نفسها إلى الخلف منها حتى وصلت إلى منزل السيد لينك ديس . وتقول هيلين أنها خلال المسافة كلها نحو منزل السيد لينك كانت تسمع صوتاً خافتاً خلفها ، يدندن بكلمات قلرة . هذا وقد أصيبت بالهلع الشديد ، فهتفت إلى السيد لينك ديس في متجره الذي لم يكن بعيداً جداً عن منزله . وحين خرج السيد لينك من مخزنه رأى السيد يويويل مستنداً إلى السياج . قال له السيد يويويل :

- لا تنظر إليّ يا لينك كأنني قذارة . فأنا لم أقفز على . . .
- أول شيء يمكنك أن تفعله يا يويويل هو أن تخرج جثثك العفنة من أرضي . أنت تستند على حاجزي ولست أستطيع طلاءه بطلاء جديد . والثيء الثاني الذي يمكنك أن تفعله هو أن تبعد عن طبائحي وإلا حبستك بتهمة التهجم . . .
- لم ألسها بالينك ديس ولست من النوع الذي يحبّد صحبة الزوج .
- ليس عليك أن تلمسها ، كل ما عليك أن تفعله هو أن تخيفها ، وإذا لم تكن تهمة التهجم كافية لحبسك لفترة ، فسوف أحبسك وفق « قانون السيدات » ، لذا ابتعد عن مرمى ناظري . وإذا كنت تظن أنني لا أعني ما أقول ، فهياً وتحرش بتلك المرأة مرة أخرى .
- من الواضح أن السيد يويويل ظن أنه يعني ما يقول ، فهيلين ماعدت لتتقدم بأية شكوى بعد ذلك .
- لا أحب ذلك يا أتيكوس ، لا أحبه إطلاقاً .
- كان ذلك هو تقييم عمّي لهذه الحوادث .
- ذلك الرجل يبدو وكأن لديه حقداً دائماً متواصلاً ضد كل من له علاقة بتلك الدعوى . وأنا أعرف أن هذا النوع من الناس يصرون على الانتقام ، ولكني لا أفهم لماذا يحمل حقداً على الإطلاق : فقد نجح في المحكمة في أن يصل إلى ما يريد ، أليس كذلك ؟

قال أتيكوس :

— أعتقد أنني أفهم . قد يكون ذلك لأنه يعرف في دخيلته أن هناك قلة في مايكوم تصدق فعلاً مانسجه هو وماييلا . كان يظن أنه سيصبح بطلاً ، ولكن كان كل ماناله لقاء جهده . . هو . . « حسناً ، سندن ذلك الزنجي ولكن عد أنت إلى مقلب القمامة » . لقد حاول مع كل شخص تقريباً ، ولذا يجب أن يكون راضياً الآن . على كل حال سيهدأ حين يتغير الطقس .

— ولكن لماذا حاول ياتري السطو ليلاً على منزل القاضي تايلور ؟ من الواضح أنه لم يكن يعلم أن جون كان في المنزل وإلا لما حاول . الأنوار الوحيدة التي تكون ظاهرة في ليالي الأحد في منزل جون هي تلك التي على الرواق الأمامي وفي الخلف في غرفة الشطرنج .

— أنت لا تعرفين ان كان بوب يوويل هو الذي مزّق ذلك الباب المنخلي ، ولا تعرفين من فعلها حقاً . ولكني أستطيع أن أخمن . لقد أثبت أنه كاذب ولكن جون جعله يبدو كالأحمق . فطوال فترة وجوده على منصة الشهود لم أكن أجرو على النظر إلى جون دون أن أبتسم . كان جون ينظر إليه وكأنه دجاجة ذات ثلاث سيقان أو كبيضة مربعة الشكل . لا تقولي لي أن القضاة لا يحاولون جعل المحلفين يتحاملون .

وهنا ضحكك أتيكوس .

ومع نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر) ، عادت حياتنا إلى روتينها

المألوف من مدرسة ولعب ودراسة . بدأ على جم أنه نجح في أن يبعد عن ذهنه ماكان يحاول أن ينساه ، كما أن رفاق الصيف قد جعلونا ننسى - على نحو رحيم - غرابة أطوار والدنا . سألتني سيسيل جاكوبس في إحدى المرات ان كان أنيكوس « راديكالياً » . وحين سألت أنيكوس هذا السؤال سرّ منه إلى درجة أغاظتني ، ولكنه قال انه لم يكن يضحك مني . قال :

— قولي لسيسيل اني راديكالي بقدر ماهو « كوتون توم هفليين » كذلك .

كانت العمة ألكسندرا في نجاح مضطرب . لا بد وأن الآتسة مودي قد أخرست كل أعضاء الجمعية التبشيرية بضربة واحدة ، فهاهي عمي تأخذ بمقاليده الأمور مرة أخرى . لقد أصبحت مأكولاتها الخفيفة ألدّ حتى من السابق . وقد تعلمت أمراً آخر حول الحياة الاجتماعية لا « مرونا » البائسين من الاصغاء إلى السيدة مريوذر : لقد كان لديهم حس قليل جداً بالأسرة إلى حد أن القبيلة كلها كانت أسرة كبيرة واحدة . لقد كان للطفل الواحد من تلك القبيلة آباء بعدد ما في القبيلة من رجال ، وأمهات بعدد ما فيها من نساء . وقد كان ج. غرايمز إيفريت يبدل قصارى جهده لتغيير هذه الحالة ، وهو يحتاج إلى صلواتنا حاجة ماسة .

عادت مايكوم إلى نفسها من جديد . عادت بالضبط كما كانت في العام الماضي والذي سبقه ، مع تغييرين صغيرين فقط . الأول :

أن الناس قد أزالوا من واجهات مخازنهم وسياراتهم الملصقات التي كانت تقول : « قانون العودة إلى الازدهار الوطني : نحن نقوم بدورنا » . وقد سألت أتيكوس عن السبب فقال ان ذلك يعود إلى أن ذلك القانون قد مات . وحين سألته من قتله ، قال : تسعة رجال مسنون . أما التغيير الثاني الذي طرأ على مايكوم منذ العام الماضي فلم تكن له أهمية قومية . فحتى ذلك الحين ، كان احتفال « الهالوين (١) » غير معترف به في مايكوم اطلاقاً . كان كل طفل يفعل مايحلو له ، وقد يساعده أطفال آخرون ان كانت هناك حاجة لنقل شيء ما ، كوضع عربة خفيفة فوق أعلى الأسطبل . ولكن الآباء فكروا في أن ماحدث في العام الماضي تجاوز الحدود ، وذلك حين تم تعكير الصفو على « الآتسة توتي » والآتسة « فروتي » .

كانت الآتستان توتي وفروتي باربر أختين عانستين تعيشان معاً في المنزل الوحيد في مايكوم الذي يفخر بأن له قبواً . وقد كان يشاع أن الآتستين من الحزب « الجمهوري » ، حيث أنهما هاجرتا من كلانتون ، ألاباما في عام (١٩١١) . كانت عادتهما غريبة علينا ، أما لماذا كانتا تريدان قبواً ، فلم يعرف أحد ذلك ، ولكنهما طلبتا مثل ذلك ، وقد نالتا قبواً ، وقد انفقتا بقية حياتهما وهما تطردان أجيالاً من الأطفال إلى خارجه .

(١) Halloween عشية عيد كل القديسين في ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) .

(المترجم)

كانت الآنستان توتي وفروتي (كان اسمها الأصليان هما ساره وفرانيسيس) ، زيادة على أسالييهما اليانكية (١) ، مصابيتين بالصم كليتهما . كانت الآنسة توتي تنكر ذلك وبالتالي فقد عاشت في عالم من الصمت ، أما الآنسة فروتي ، التي لا ترضى أن يفوتها شيء ، فكانت تستخدم بوقاً للسمع ضحكاً إلى حد أن جم قال انه مكبر للصوت من أحد تلك الغرامافونات القديمة من الطراز المرسوم عليه كلب .

وبهذه الحقائق في أذهانهم وبما أن احتفال الهالوين قد أضحى وشيكاً قام بعض الأطفال الشريرين بالانتظار حتى نامت الآنستان باربر ، ثم تسللوا إلى غرفة جلوسهما ، (في مايكوم لا أحد يوصد أبوابه في الليل سوى آل رادلي) ، وقاموا بنقل كل قطعة أثاث — خلسة — وخبئوها في القبو . وأنا أنكر مساهمتي في مثل هذا العمل .

— لقد سمعتهم .

كانت تلك هي الصرخة التي أيقظت جيران الآنستين باربر في فجر اليوم التالي :

— لقد سمعتهم يقودون شاحنة حتى الباب . وقد كانوا يضربون الأرض بأقدامهم كالجناد . لا بد وأنهم أصبحوا الآن في نيو أورليانز .

(١) Yankee اسم يطلق على أبناء الولايات الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية .

(المترجم)

كانت الآنسة توتي واثقة من أن بائعي الفرو الذين عبروا المدينة منذ يومين هم الذين سرقوا أثاثهما .

قالت :

— كانوا ذوي شعور داكنة . سوريّون على ما يبدو .

استدعي السيد هك تيت . مسح المكان وقال انه يظن أن مرتكبي الحادث من سكان البلدة أنفسهم . قالت الآنسة فروتي انها كانت ستميز صوتاً لشخص من مايكوم في أي مكان سمعته ، ولم يكن هناك أية أصوات من مايكوم في الردهة في الليلة الماضية : فقد كان اللصوص يدحرجون حرف الرء وهذا مالا يفعله أهل مايكوم . لا يمكن ايجادهم واسترجاع المفروشات إلا باستعمال كلاب الأثر ، هذا ماأصرت عليه الآنسة توتي ، لذا اضطر السيد تيت إلى أن يسير مسافة عشرة أميال على الطريق العام ليجمع الكلاب الريفية ويجعلها تتعقب الأثر .

وقد جلبها أولاً إلى الدرج الأمامي لمنزل الآنستين باربر ، ولكن كل مافعلته الكلاب هي أنها كانت تهرع إلى مؤخرة المنزل وتعوي عند باب القبو . وحين أراد السيد تيت أن يطلقها وحاول ثلاث مرات دون أن ينجح ، فقد خمن حقيقة ماحدث . وفي ظهيرة ذلك اليوم ، لم يكن ممكناً مشاهدة أي طفل حافي القدمين في مايكوم ، ولم يخلع طفل نعليه حتى تمت اعادة الكلاب إلى أصحابها .

وهكذا قالت نساء مايكوم ان الأمور ستكون مختلفة هذا العام .

فسوف يتم فتح مدرج المدرسة الثانوية ، وسيكون هناك مهرجان احتفالي مع مشاهد مسرحية للراشدين ، ولعبة عض التفاح ولعبة شد الحلوى القاسية الدبقة ، ولعبة تثبيت الدليل على الحمار بالنسبة للأطفال . كما ستكون هناك جائزة مقدارها خمسة وعشرين سنتاً لأفضل زي خاص باحتفال الهالوين ، إذا كان مصممه هو الذي يرتديه .

تأوهنا جم وأنا . ليس ذلك لأننا قد فعلنا أي شيء ، بل كان ذلك لمبدأ الأمور . كان جم يظن أنه أكبر سنّاً من أن يشارك في الهالوين على أية حال . قال انه لن يرضى أن يراه أحد قرب المدرسة الثانوية وهو متورط في أمر كهذا . قلت في نفسي : « حسناً سيأخذني أتيكوس إلى مكان الاحتفال » .

وسرعان ما علمت ، على أية حال ، أن خدماتي ستكون مطلوبة على المسرح في ذلك المساء . كانت السيدة غريس مريودر قد ألقت مشهداً مسرحياً عنوانه : « مديرية مايكوم : من الطين إلى النجوم » . وكان المفروض بي أن أمثل دور « فخذ الخنزير المقدد » . فهي كانت تعتقد أنه سيكون شيئاً رائعاً أن يرتدي الأطفال أزياء تمثل المنتجات الزراعية للمديرية : سيرتدي سيسيل جاكويس زياً يبدو معه كبقرة ، أما أغنس بون فستكون حبة فاصولياء لطيفة ، كما سيكون طفل آخر حبة فول سوداني ، وهكذا دواليك حتى يغند رصيد مخيلة السيدة مريودر والرصيد من الأطفال .

كانت واجباتنا الوحيدة ، وهذا ما استطعت أن أفهمه من التمرينين اللذين قمنا بهما ، أننا سندخل من يسار خشبة المسرح بينما تقوم السيدة مريودر (وهي ليست المؤلفة فحسب بل الراوية أيضاً) بتسميتنا . فحين كانت ستصرخ « لحم خنزير » كان ذلك هو إشارة الانطلاق بالنسبة لي . ثم تقوم المجموعة بعد أن تصبح مجتمعة فوق الخشبة بانشاد نشيد المقاطعة الرسمي : « مقاطعة مايكوم . مقاطعة مايكوم ، سنكون مخلصين لك إلى الأبد » ، وذلك هو مسك الختام . كما ستقوم السيدة مريودر بالصعود إلى الخشبة حاملة علم الولاية .

لم يكن الزي الذي سأرتديه مشكلة . فالسيدة كرنشو ، وهي الخياطة المحلية ، كان لديها من الخيال بقدر ما كان للسيدة مريودر . أخذت السيدة كرنشو بعض الأسلاك السميكة وحننتها بحيث جعلتها تبدو بشكل فخذ الخنزير المقدد . ثم غطت ذلك بقماش بني اللون وطلته بدهان جعلته يبدو بلون اللحم المقدد . كان عليّ أن أنحي وكان على شخص ما أن يجذب ذلك الاختراع حتى يغطي رأسي ويصل إلى ركبتي تقريباً . وقد تركت لي السيدة كرنشو - عن تفكير - نظير . وقد كان عملها ممتازاً : فقد قال جم أني كنت أبدو كفخذ خنزير مقدّد بالضبط إنما مع ساقين . ولكن كانت للزي ازعاجات كثيرة على أية حال ، فقد كان يجعلني أشعر بحرّ شديد ، وكان ضيقاً : فلو حكّتي لما استطعت أن أصل إليه ، وما أن أكون داخله حتى لأستطيع الخروج منه دون مساعدة .

وحين حلّ الهالوين ، كنت أفترض أن العائلة كلها ستكون حاضرة ل ترى أدائي على الخشبة ، ولكنني أصبت بخيبة الأمل . قال أتيكوس بكل مايستطيعه من اللباقة انه لا يظن أنه يستطيع حضور مهرجان تلك الليلة بالذات ، فهو متعب جداً . فقد كان في مونثغومري لمدة أسبوع وقد وصل إلى البيت عصر اليوم بالذات . قال أنه يظن أن جم قد يرافقني لو طلبت منه ذلك .

قالت العمّة ألكسندرا أن عليها أن تذهب إلى الفراش مبكرة ، فهي قد ساهمت في تزيين خشبة المسرح كل فترة بعد الظهر ، وتشعر بالإنهاك : وهنا قطعت كلامها فجأة في منتصف جملة كانت تقولها . أغلقت فيها ثم فتحته مرة أخرى لتقول شيئاً ، ولكن لم تخرج أية كلمات .

سألتها :

— ماذا حدث يا عمّتي ؟

— لا شيء ، لا شيء . لقد سار أحدهم فوق قبري للتو .

ثم دفعت بعيداً بما كان قد سبّب لها وخزة الخوف تلك ، واقترحت علي أن أعرض دوري على العائلة في غرفة الجلوس . وهكذا حشرني جم في زيّ ، ووقف عند باب غرفة الجلوس ، وصاح : « لحم الخنزير » كما قد تقولها بالضبط السيدة مريوذر ، وتقدمت داخل الغرفة . وقد سر أتيكوس والعمّة ألكسندرا بالعرض .

كررت دوري أمام كالبورنيا في المطبخ وقالت أني رائعة . أردت
أن أعبر الشارع إلى منزل الآنسة مودي لأعرض أمامها أيضاً ، ولكن جم
قال أنها قد تحضر المهرجان على أية حال .

بعد ذلك ، لم يعد مهماً من سيذهب أم لا . قال جم انه سيرافقني .
وهكذا بدأت أطول رحلة لنا معاً .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

كان الطقس حاراً على نحو لم نعهده في آخر يوم من أيام تشرين الاول (أكتوبر) ام نشعر بالحاجة الى ارتداء جاكيتاتنا ، كانت الريح آخذة في الاشداد فقال جم أن المطر قد يهطل قبل أن نعود إلى البيت . لم يكن القمر بازغاً .

كان نور الشارع عند الزاوية يلقي بظلال حادة على منزل آل رادي . سمعت جم يضحك بصوت خافت . قال : « أراهن على أنه لأحد هناك ليزعجهم الليلة » . كان جم يحمل زي فخذه لحم الخنزير المقدد ، وكان مرتبكاً بالأحرى ، حيث كان من الصعب حمله . لقد كان في تصرفه ذاك شهامة .

قلت :

— ولكنه مكان مخيف مع ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ إن « بو » لا يؤذي أحداً ، ولكني سعيدة تماماً أنك معي .
— أنت تعرفين أن أتيكوس ما كان ليتركك تذهبين إلى المدرسة وحده .

— ولم لا ، المدرسة عند الزاوية وعبر الفناء .

قال جم ليغظني :

— ذلك الفناء يعتبر مكاناً بعيداً بالنسبة للفتيات الصغيرات ليلاً .
ألست خائفة من الأشباح ؟

— ضحكنا . الأشباح (والأبحر) الحارة والتعاويد والأشارات السرية
كل ذلك اختفى مع مرور الأعوام كما يختفي السديم مع شروق الشمس .
قال جم :

— ما كان ذلك الشيء العتيق الذي كنا نقوله : « يا أيها الملاك النوراني ،
يا حياة في الموت ، ابتعد ، عن طريقتي ولا تمتص أنفاسي » .
قلت .

— كفى .

وكان الآن أمام منزل آل رادلي .

— لا بد أن « بو » في البيت . اصغي .

إلى الأعلى منا في الظلام كان عصفور ساخر وحيد يطلق ما يعرفه من
الألحان في جهل سعيد بمن يملك الشجرة التي كان جائماً عليها وقد راح
ينطلق من الزعيق الحاد لطائر عباد الشمس إلى الوقوفة الغاضبة لأبي
زريق إلى النواح الحزين لطائر « البورويل » .

دنا حول الزاوية وتعثرت بحجر نام في الطريق . حاول جم مساعدتي
ولكن كان كل ما فعله هو أنه أوقع زيتي في التراب . لم أقع أرضاً ،
على أية حال ، وسرعان ما كنا نستأنف طريقنا ثانية .

ابتعدنا عن الطريق ودخلنا فناء المدرسة . كان الظلام شديداً .
سألته حين كنا قد سرنا بضع خطوات :

— كيف تعرف أين نحن يا جم ؟

— أستطيع أن أقول أننا تحت السديانة الكبيرة لأننا نمرّ عبر بقعة باردة . انتبهني الآن ولا تتعثري مرة أخرى .
كنا قد أبطأنا السير إلى حد أننا نسير بجهد شديد ، ونتمسك طريقنا نحو الأمام حتى لانصطدم بالشجرة . كانت الشجرة وحيدة وعتيقة .
ما كان بإمكان طفلين معاً أن يلمس أحدهما ذراع الآخر إذا ما قاما بلفها حول الشجرة . كانت بعيدة عن أنظار المعلمين وجواسيسهم وعميون الجيران الفضوليين : أنها قريبة من حدود منزل آل رادلي ، ولكن آل وادلي لم يكونوا فضوليين . كانت بقعة صغيرة من الأرض تحت أغصانها قد رصت بشدة من عراكات وألعاب مختلطة كثيرة .

كانت الأنوار في مدرج المدرسة الثانوية تشع من مسافة ، ولكنها أعمتنا ، هذا ان كانت قد فعلت أي شيء آخر . قال جم :

— لانتظري إلى الأمام ياسكاوت . انظري إلى الأرض ولن تقعني .

— كان عليك أن تحضر المصباح اليدوي يا جم .

— لم أكن أعرف أن الظلام شديد إلى هذا الحد . لم يكن يبدو أن الظلام سيكون بهذه الشدة في بداية المساء . ان الغيوم كثيفة ، هذا هو السبب . ستبقى هذه الغيوم قليلاً على أية حال .

فقر أحدهم علينا .

صاح جهم :

— يا للرب القوي .

انفجرت دائرة نور في وجهينا ، وقفز سيسيل جاكوبس مرحاً

وراءنا . زعق :

— لقد ظفرت بكما . عرفت أنكما ستأتيان من هذه الطريق .

— ماالذي تفعله هنا ياولد لوحذك ؟ أأست خائفاً من بورادلي ؟

كان سيسيل قد وصل بأمان إلى المدرج مع والديه بالسيارة ، ولم يرنا هناك ، فهبط وانتظرنا في ذلك المكان لأنه كان واثقاً من أننا كنا سنمر من هناك ان عاجلاً أو آجلاً . وكان يظن على أية حال أن السيد فينتش سيكون معنا .

قال جهم :

— لاداعيي لذلك ، فالمنزل قريب جداً من المدرسة . ومن يخاف

أن يقطع مثل هذه المسافة القصيرة ؟

كان علينا أن نقر بأن سيسيل قد نجح في ماابتغاه . لقد أخافنا فعلاً ، وكان يمكنه أن ينشر ذلك عبر بناء المدرسة كله ، فذلك كانت مزيتته .

— قل لي ، أأست تمثل البقرة الليلة ؟ أين زيتك ؟

قال :

— انه وراء الخشبة . تقول السيدة مريوذ ان المشهد المسرحي لن

يؤدي قبل مرور بعض الوقت . يمكنك أن تضعي زيتك وراء الخشبة

بالقرب من زيتي ياسكاوت ، ثم يمكننا إلى أن نتخضم البقية .
كانت تلك فكرة ممتازة ، كما قال جم . كما كان يظن أنها فكرة
عظيمة أن نكون سيسيل وأنا معاً . فبهذه الطريقة سيتاح لجم أن يبقى مع
أناس من سنه .

حين وصلنا المدرج ، كانت البلدة كلها هناك عدا أتيكوس
والسيدات اللواتي أمهكن من أعمال التزيين ، وعدا المنبوذين والتسك
المألوفين . كان معظم سكان المديرية هناك ، كما يبدو فالقاعة كانت
تعج بالرفيئين المرتدين أفضل ملابسهم . كان للمدرسة الثانوية ردهة
واسعة في الطابق الأسفل ، وكان الناس يدورون حول الأكشاك التي
نصبت على امتداد كل جانب منها .

تنهدت حين رأيتهما وقلت :

— أوه يا جم ، لقد نسيت احضار نقودي .
— أتيكوس لم ينس . اليك ثلاثين سنتاً يمكنك شراء ستة أشياء .
سأراك لاحقاً .
— حسناً .

هكذا قلت له وقد اقتنعت بالثلاثين سنتاً وسيسيل . وذهبت مع
سيسيل إلى مقدمة المدرج ، عبر باب إلى أحد جانبيه ، ثم إلى ماوراء
الحشبة . تخلصت من زيتي وانطلقنا مسرعين ، فالسيدة مريودر كانت
تقف عند المنبر أمام الصف الأول من المقاعد وهي تقوم بتغييرات
مجنونة في النص في آخر دقيقة .

سألت سيسيل كم معه من المال فقال ان معه ثلاثين سنتاً أيضاً مما جعلنا متساوين . وقد أنفقنا أول خمسة سنتات في « منزل الأهوال » ، الذي لم يربعنا أبداً ، حيث دخلنا غرفة مظلمة من الدرجة السابعة وكان دليلنا فيها الغول المقيم ، وقد جعلنا نلمس عدة أشياء زعم أنها أجزاء تشكّل كائناً بشرياً . « هاهما عيناه » هكذا قيل لنا حين لمسنا حبيتي عنب مقشّرتين موضوعتين على صحن . « هذا قلبه » وكان ذلك شيئاً كالكبِدِ النّيء . « هاهي أحشاؤه » وأفحمت أيدينا في طبق من السباغيتي البارد . كما زرنا سيسيل وأنا عدة أكشاك . وقد اشترى كل منا كيساً فيه قطع من الكعك الذي صنّعه زوجة القاضي تايلور . أردت أن أمارس لعبة قضم التفاح ولكن سيسيل قال أنها ضارة بالصحة . إذ قالت له أمه إنه قد يلتقط عدوى أحد الأمراض حيث أن الجميع يدفعون برؤوسهم في الخوض نفسه . قلت محتجّة : « ولكن لا يوجد في البلدة مرض معد » ، فقال سيسيل إن أمه قالت إنه ضار بالصحة أن نأكل من أشياء سبق لأناس آخرين أن أكلوا منها . وقد سألت العمّة ألكسندرا فيما بعد عن هذا ، فقالت ان الناس الذين يحملون مثل هذه الآراء هم في العادة أشخاص يحاولون احراز تقدم بوسائل لا علاقة لها بالكفاءة . كنا سنشترى قطعة من الحلوى القاسية الدبقة حين ظهر رسل السيدة مريوذر وطلبوا منا أن نذهب إلى ماخلف خشبة المسرح ، حيث حان الوقت لنحضر أنفسنا للعرض . كان المدرج يمتلئ بالناس ، كما كانت الفرقة الموسيقية للمدرسة مايكوم الثانوية قد اجتمعت في المقدمة تحت

الخشبة . أثيرت أضواء المسرح وراحت الستارة المخملية الحمراء تنلطم وتتماوج من الحركة السريعة التي تحدث خلفها .

خلف الخشبة ، وصلنا سيسيل وأنا إلى الردهة الضيقة التي تعج بالناس : كبار في قبعات ثلاثية الزوايا مصنوعة في البيت ، قبعات الجنوبيين في الحرب الأهلية ، قبعات الحرب الإسبانية الأمريكية ، ونحو الحرب العالمية . أما الأطفال الذين كانوا يرتدون أزياء تمثل المنتجات الزراعية فكانوا يحتشدون حول النافذة الصغيرة الوحيدة .

صرخت منتحبة في رعب :

— لقد حطم أحدهم زيتي .

هرعت السيدة مريودز نحوي وأعادت الأسلاك إلى ماكانت عليه ثم حشرتني داخلها .

سألني سيسيل :

— هل أنت على مايرام في الداخل هناك ياسكاوت ؟ صوتك يبدو وكأنه يأتي من البعيد ، وكأنك على الجانب الآخر من الجبل .

قلت :

— لا يبدو صوتك أقرب من ذلك إليّ .

عزفت الفرقة النشيد الوطني ، وسمعنا الجمهور ينهض . ثم سمعنا صوت الطبول الضخمة . قالت السيدة مريودز المتمركزة خلف المنبر قرب الفرقة الموسيقية : « مقاطعة مايكوم من الطين إلى النجوم » .

وقرعت الطبول الضخمة مرة أخرى ، ثم ترجمت السيدة مريوذر عنوان المشهد من اللاتينية إلى الانكليزية وذلك من أجل الحضور من الريفين وأضاف دون ضرورة كما بدا لي : « مشهد مسرحي احتفالي » .

همس سيسيل :

— أعتقد أنهم ماكانوا سيفهمون المعنى لو أنها قالت له لم .

ولكنه أخرس فوراً .

همست :

— البلدة كلها تعرفه .

قال سيسيل :

— ولكن أهل الريف وصلوا أيضاً .

— اصمتوا هناك .

هذا ماأمر به صوت رجالي وسكتنا .

كان الطبل الضخم يندوي مع كل جملة تقولها السيدة مريوذر . ثم حكّت بحزن عن مقاطعة مايكوم وكونها أقدم من الولاية التي تنتمي إليها ، وأنها كانت جزءاً من مقاطعة ألاباما والميسيسيبي ، وأن أول رجل أبيض وصل الغابات العذراء كان الجلد الأكبر الخامس لقاضي الاشهاد ، والذي ماعاد يسمع به أحد . ثم جاء الكولونيل مايكوم الراهب الذي سميت المقاطعة باسمه .

كان أندرو جاكسون قد فوضه بسلطة كبيرة ، وقد كان من شأن الثقة بالنفس التي كانت في غير محلها ، والحس الضئيل بالتوجه أن

جلبا الكارثة على كل من كان معه في حروب الكريك الهندية . وقد
واظب الكولونيل مايكوم على ممارسة جهوده المكرّسة لجعل المنطقة
آمنة لممارسة الديمقراطية ، ولكن أولى حملاته كانت آخرها . كانت
الأوامر التي وصلته عن طريق رسول هنديّ صديق هي التحرك جنوباً .
وبعد أن استشار شجرة ليعرف من أشتها اتجاه الجنوب ، وبعد رفضه
الاستماع إلى رؤوسه الذين تجرّؤوا على تصحيح غلطته ، انطلق الكولونيل
مايكوم في رحلة هدفها اجتثاث الأعداء وورط قواته في السير باتجاه
الشمال الغربي ضمن الغابة البدائية حتى أقفلوا أخيراً من قبل مستوطنين
كانوا متجهين نحو الداخل .

قدمت السيدة مريوذر وصفاً طوله نصف ساعة لماثر الكولونيل
مايكوم . وقد اكتشفت في تلك الأثناء أيّ إذا ثبتت ركبتي فاني أستطيع
أن أحنيتها تحت زيتي وأستطيع الجلوس تقريباً . جلست واستمعت إلى
خطاب السيدة مريوذر الرتيب ودوي الطبل الضخم وسرعان ما نمت .

قالوا لي لاحقاً ان السيدة مريوذر كانت تعتمد كثيراً على مسك
الختام حتى أنها صاحت قائلة « لحم الخنزير » وبثقة ولديها لديها
« شجرات الصنوبر » و « الفاصولياء » التي دخلت عند سماعها الإشارة
المتفق عليها . انتظرت ثواني قليلة ثم صاحت : « لحم الخنزير » ؟
وحين لم يظهر شيء على الخشبة ، صاحت بقوة : « لحم الخنزير ! » .

لا بد أنّي سمعتها في نومي ، أو أن الفرقة التي كانت تعزف لحن
« ديكسي » قد أيقظتني ، ولكنني على كل حال اخترت الدخول إلى

الخشبـة حين كانت السيدة مريوذـر ترفع علم الولاية . كلمة « اخترت » ليست صحيحة : فقد كنت أظن أنه من الأفضل لي أن ألحق بالآخرين .
لقد قيل لي لاحقاً ان القاضي تايلور خرج إلى ماوراء المدرج ووقف هناك يضرب ركبتيه بقوة إلى حد أن السيدة تايلور جلبت له كأساً من الماء وحبّة دواء .

بدا على السيدة مريوذـر وكأنها قد أصابت نجاحاً ، فقد كان الجميع يهلمون بذلك ، ولكنها أمسكت بي خلف الخشبـة وقالت لي إنني دمرت عرضها المسرحي . لقد جعلتني أشعر ببؤس شديد ، ولكن حين جاء جم ليوصلني إلى البيت كان لطيفاً . قال انه لم يستطع أن يرى زيتي جيداً من حيث كان يجلس . كيف استطاع أن يعرف أنني كنت أشعر بالضيق تحت زيتي ؟ هذا مالا أعرفه ، ولكنه قال اني كنت جيدة الأداء ، وان كنت وصلت متأخرة قليلاً ، وهذا كل ما في الأمر . كان جم قد أصبح يتقن مثل أتيكوس تقريباً كيف يبعث فيك الأمل حين تسوء الأمور . ولكن ولا حتى جم كان يستطيع اخراجي عبر كل ذلك الخشود من الناس ، وقد وافق على الانتظار خلف الخشبـة حتى يغادر الجمهور المدرج .

سألني :

- هل تريدن خلعه ياسكاوت ؟
- لا ، سأبقيه علي .
- كنت أستطيع اخفاء عاري خلفه .

سألنا أحدهم :

— هل تريدان أن أوصلكما بالسيارة إلى البيت ؟
— لا ، شكرًا ياسيدي . انه مجرد مشوار صغير على الأقدام .

قال الصوت :

— احلروا الأشباح . والأفضل أن تقولوا للأشباح أن تحلروا
من سكاوت .

قال لي جم :

— لم يبق أناس كثيرون . هيا لنذهب .

انطلقنا عبر المدرج إلى الردهة ، ثم نزلنا المدرج . كان الظلام شديداً
لا يزال . بعض السيارات التي لم ترحل بعد كافت متوقفة عند الجاناب
الآخر من البناء ، وكانت أنوارها الأمامية لا تقدم لنا أي عون على
الرؤية . قال جم : « لو أن احداها كانت تسير في اتجاهنا لكننا استطعنا
أن نرى على نحو أفضل . هيا ياسكاوت ، دعيني أمسك بسجنتك حتى
لا تفقدي توازنك » .

— أستطيع أن أرى جيداً .

— حسناً ، ولكنك قد تفقدين توازنك .

أحسست بضغط خفيف على رأسي وافترضت أن جم كان يمسك
بنهاية فخذ لحم الخنزير .

— هل أمسكت بي ؟

— نعم ، نعم .

بدأنا بعبور فناء المدرسة المعتم ، ونبذل قصارى جهدنا لنرى
أقدامنا . قلت :

ياجم ، لقد نسيت حداثي . تركته هناك خلف الخشبة .
— حسناً ، هيا نحضره .

ولكن ماأن التفتنا حتى كانت أنوار المدرج قد أطفئت .
قال :

— يمكنك احضاره غداً .

— ولكن غداً هو الأحد .

قلت ذلك بلهجة احتجاجية ، ولكن جم دفعني باتجاه البيت .

— تستطيعين أن تقولي للبواب أن يدخلك . . . ياسكاوت ؟

— نعم ؟

— لا شيء .

لم يكن جم قد عاد إلى مثل هذا منذ زمن طويل . وتساءلت في
نفسي عما كان يفكر فيه . ربما سيقول لي متى أراد ، وعلى الأرجح
حين نصل إلى البيت . أحسست بأصابعه على رأسي الذي وهي تشد عليه
بقوة . هززت رأسي وقلت :

— ياجم ، لست مضطراً إلى ...

قال وهو يقرصني :

— اصمتي قليلاً ياسكاوت .

كان يمشي بصمت . قلت :

— انتهت الدقيقة . مالذي تفكر فيه ؟

التفتُ لأنظر إليه ، ولكن خياله كان مرثياً بالكاد .

قال :

— أظن أنني سمعت شيئاً . توقفي للحظة .

توقفنا .

— هل سمعت شيئاً ؟

قال :

— لا .

ولم نكن قد سرنا خمس خطوات أخرى إلا وكان قد جعاني
أتوقف مرة أخرى .

— يا جم ، هل تحاول اخافني ؟ أنت تعرف أنني أكبر سنًا . . .

— اصمتي .

وفهمت من لهجته أنه لم يكن يمزح .

كان الليل هادئاً . كنت أستطيع سماع نفسه بالقرب مني . بين
الحين والآخر كانت هناك نسمة فجائية تضرب ساقَي العاريتين ، ولكن
كان ذلك كل ماتبقى من ليلة عاصفة موعودة . كان ذلك هدوء ما قبل
العاصفة الرعدية . وأصغينا .

قلت :

— سمعت كلباً عجوزاً يعوي .
— لا ، ليس ذاك . أسمع الصوت حين نتمشي ، وحين نتوقف
لا أسمع .

— أنت تسمع صوت زيتي وهو يخشخش . . . أوه ، لا شك أن
جو الهالوين قد أثار فيك . . .
قلت ذلك لأقنع به نفسي وليس جم بالأحرى ، فقد كنت أسمع
بكل تأكيد . وما أن استأنفنا السير ، سمعت ما كان جم يتحدث عنه .
ولم يكن ذلك الصوت صادراً عن زيتي .
قال جم :

— لا بد وأنه سيسيل العجوز . لن يفاجئنا مرة أخرى . دعينا
لا نجعله يظن أننا نسير بسرعة .
أبطأنا السير إلى حد الزحف . سألت جم كيف يستطيع سيسيل
أن يلحق بنا في هذا الظلام ، يبدو أنه سيفاجئنا من الخلف .
قال جم :

— أستطيع أن أراك ياسكاوت .
— كيف ؟ أنا لا أستطيع أن أراك ؟
— ان الخطوط العريضة على زيك تضيء في الظلام . لقد قامت
السيدة كرنشو بطلائها ببعض الطلاء اللامع حتى تلتصع تحت أنوار
الخشبة . أستطيع أن أراك جيداً ، ويبدو أن سيسيل يستطيع أن يراك
جيداً بحيث يلاحقنا من مسافة .

كنت أود أن أظهر لسييل أننا كنا نعرف أنه يلاحقنا وأنها كنا
مستعدين له . صحت فجأة وأنا أستدير إلى الخلف :
— سييل جاكوبس دجاجة كبيرة مبلولة .
توقفنا . لم يكن هناك من جواب سوى الصدى المرتد من سور
المدرسة البعيد .

قال جم :

— سأمسك به . هاي .

أجاب سور المدرسة :

— هاي هاي هاي .

لم يكن من عادة سييل أن يسكت مثل هذه الفترة الطويلة ، فهو
مأن يقوم بمزحة حتى يكررها مرات ومرات . كان يجب أن يكون
قد قفز علينا الآن . أشار إلي جم بالتوقف مرة أخرى .
قال هامساً :

— سكاوت هل يمكنك أن تخلعي ذلك الشيء ؟

— أظن ذلك ، ولكني لا أرتمي الشيء الكثير تحته .

— ثوبك معي هنا .

— لا أستطيع ارتداؤه في الظلام .

— حسناً . لا بأس .

— هل أنت خائف يا جم ؟

— لا ، أظن أننا اقتربنا من الشجرة الآن . بعدها بأمطار قليلة
وسكون قد وصلنا الشارع . عندها نستطيع أن نرى بواسطة نور الشارع .
كان جم يتحدث بصوت جاف حيادي وغير عجول . وتساءلت
في نفسي إلى متى سيحاول ياترى الابقاء على أسطورة سيسيل ؟ .

— هل تعتقد أن علينا أن نغني يا جم ؟

— لا ، اصمتي جيداً ياسكاوت .

لم نكن قد زدنا سرعة خطونا . كان جم يعرف بقدر ما أعرف
أنه كان من الصعب السير بسرعة دون أن يدوس هو على أحد أصابع
قدمي ، أو أن أتعرّ بالحجارة ، وغير ذلك من المشاق ، حيث كنت
حافية القدمين . ربما كان ذلك الصوت هو حفيف الأوراق . ولكن
لم تكن هناك رياح ولا شجر عدا السندبانة الكبيرة .

كان رفيقنا يسير وهو يحجّر قدميه ويدلف متناقلاً وكأنه يرتدي
حذاء ثقيلًا . وكائنًا من كان ، فقد كان يرتدي بنطالاً سميكاً من القطن .
وما كنت أظنه حفيف الأوراق كان صوت احتكاك القماش القطني
بالقماش القطني ، مع كل خطوة يخطوها .

أحسست بالرمل وقد أصبح بارداً تحت قدمي فعرفت أننا أصبحنا
قرب السندبانة الكبيرة . ضغط جم على رأسي . توقفنا وأصغينا .

لم تتوقف الخطوات معنا في هذه المرة . كان بنطاله يسهس بسرعة
وثبات . ثم توقف . كان يعدو ، يعدونحنونا بخطوات ليست خطوات طفل .

صرخ جم :

— اركضي ياسكاوت . اركضي . اركضي .

خطوت خطوة واحدة هائلة فوجدت نفسي أصاب بدوار : فأنا لم أكن أستطيع الحفاظ على توازني في الظلام بينما ذراعي محشورتان ضمن الزبي وعاطلتان عن العمل .

— يا جم ، يا جم ، ساعدني يا جم .

حطم شيء ما الأسلاك المحيطة بي . اختلط المعدن بالمعدن وسقطت على الأرض وتدرجت إلى أبعاد ما أستطيع متخبطة وأنا أحاول النجاة من سحبي المصنوع من الأسلاك . ومن مكان ما بالقرب مني وصلتني أصوات عراك ورفس ، وأصوات الأحذية واللحم واحتكاكها بالتراب والجذور . تدرج أحدهم من فوقني وأحسست أنه جم . نهض كالبرق وراح يجذبني معه ، ولكن رغم أنني كنت قد حررت رأسي وكنتي ، إلا أنني كنت في حالة من التثبك ضمن الزبي لم نستطع معها أن نهرب بعيداً إلى حد كاف .

كنا قد وصلنا إلى الشارع تقريباً ، حين شعرت بيد جم تغادرني ، وشعرت به يقلد إلى الخلف ويلقي به إلى الأرض . المزيد من أصوات العراك ، ثم سمعت صوت شيء يسحق وصرخ جم .

ركضت في اتجاه صرخة جم وغرقت في بطن مترهلة لرجل . قال صاحبها : « أف » وحاول أن يمسك بذراعي . ولكنهما كانتا

مكبطين بشدة . كانت بطنه مثرهلة ولكن ذراعيه كانتا كالفولاذ .
وقد راح يخفني ببطء . لم أستطع الحراك . وفجأة قذفت به إلى الخلف
ورمي به إلى الأرض ، حاملاً إياي معه . ظننت أن جم قد نهض .

أحياناً يعمل عقل المرء على نحو بطيء جداً . وقفت هناك مصعوقة
بكفاءة . كانت أصوات العراك تخبو ، تنفس شخص ما بصعوبة مصدراً
صوتاً كالصفير وهذا الليل مرة أخرى .

هذا الليل ولكن كان هناك صوت رجل يتنفس بصعوبة ، يتنفس
بصعوبة وترنح . أظن أنه أتجه نحو الشجرة واستند إليها . سعل بشدة ،
سعالاً نشيجياً من النوع الذي يجعل العظام ترتجف .

— جم ؟

لم يكن هناك جواب سوى التنفس الثقيل للرجل .

— جم ؟

لم يجب جم .

بدأ الرجل يتحرك في أنحاء المكان ، وكأنه يبحث عن شيء ما .
سمعته يئن ويجر شيئاً ثقيلًا على الأرض . وأدركت ببطء أن هناك
أربعة أشخاص الآن تحت الشجرة .

— أتيكوس . . . ؟

كان الرجل يمشي بتناقل وترنح نحو الشارع .

سرت إلى حيث افترضت أنه كان واقفاً وتلمست الأرض بجنون
بأصابع قديمي . وفوراً لمست شخصاً ما .

— جم ؟

لمست أصابع قديمي بنظلاً وإبريم حزام وأزراراً وشيئاً ما لم أستطع
تمييزه ، وياقة ووجهاً . كان لحية عمرها أيام ومن النوع الواخر على
الوجه وقد أعلمتني أن ذلك لم يكن جم . وشممت رائحة الويسكي الرديء .
شفتت طريقي نحو ما ظننت أنه الشارع . لم أكن واثقة ، حيث
أني تقلبت مرات كثيرة . ولكني وجدته ونظرت نحو عمود النور .
كان رجل مابم من تحته . كان الرجل يمشي بخطوات متقطعة كشخص
يحمل حملاً ثقيلاً جداً عليه . كان يلتف حول الزاوية ، وكان يحمل
جم . كانت ذراع جم متدلّية بجنون أمامه .

ولدى وصولي إلى الزاوية كان الرجل يعبر فناءنا الأمامي . أطر
النور الخارج من بابنا الأمامي خيال أتيكوس لبرهة ، هرع نازلاً
الدرج وأدخل هو والرجل جم إلى الداخل .

كنت عند الباب الأمامي حين كانا يعبران البهو . كانت العمة
ألكسندرا تركض لتقابلني . وصل صوت أتيكوس بجدة من غرفة
جم : « اهتفي للدكتور رينولدز . أين سكاوت ؟ » .

صاحت العمة ألكسندرا وهي تجرني معها باتجاه الهاتف :
« هاهي هنا » . حاولت أن تنفحصني بقلق . فقلت لها : « أنا بخير
ياعمتي . الأفضل أن تهتفي » .

رفعت السماعه وقالت : « يولا ماي ، اتصلي بالدكتور رينولدز ،
وبسرعة » .

« آغنيس ، هل والدك في البيت ؟ ياإلهي أين هو ؟ أرجوك أن
تعلميه أن يأتي إلى هنا . أرجوك ، ان الأمر ملّح » .

لم يكن هناك من داع أن تعرف العمه ألكسندرا على نفسها ، فالتاس
في مايكوم كانوا يعرفون أصوات بعضهم البعض .

خرج أتيكوس من غرفة جم . وفي اللحظة التي قطعت فيها العمه
ألكسندرا الاتصال ، أخذ أتيكوس السماعه منها . ضرب على خطاف
الهاتف ثم قال : « يايولا ماي ، أريد المأمور من فضلك » .

« من ؟ هك ؟ هنا أتيكوس فيتش . لقد طارد أحدهم ولديّ .
جم مصاب . بين هنا ومبنى المدرسة . لا أستطيع أن أترك ولدي .
أسرع إلى هنا من فضلك ، وأنظر ان كان لا يزال في أرجاء المكان .
أشك في أنك ستجده الآن ، ولكني أود أن أراه لو وجدته . يجب أن
أتركك الآن . شكراً ياهك » .

— أتيكوس ، هل مات جم ؟

— لا ياسكاوت . اعتني بها ياأختي .

هذا ماقاله بصوت مرتفع وهو يعبر البهو .

ارتجفت أصابع العمه ألكسندرا وهي تفك عن القماش والأسلاك .
وكانت تسألني المرة ثلو الأخرى بينما تحرّني من قيودي : « هل أنت
بخير ياحببتي ؟ » .

لكم شعرت بالراحة إذ تحرّرت أخيراً . كانت ذراعي قد بدأتنا
تخزّاني ، وكانتا حمراوين مع بقع سداسية صغيرة عليهما . فركتهما ،
وشعرت أنّ الوخز قد خفّ .

— عمّي ، هل مات جم ؟

— لا ، لا يا حبيبي ، انه فاقد الوعي . لا نعرف مدى سوء اصابته
حتى يصل الدكتور رينولدز . يا جان لويز ماذا حدث ؟

— لا أعرف .

وتركت هي الأمر عند هذا الحد . جلبت لي شيئاً أرّتيه ، ولو
أني فكرت بالأمر في حينه ، لكنّك لن أدعها تنساه أبداً : فني ذهوها
جلبت لي عمّي أوفرولاً لأرّتيه . قالت وهي تسلّمني الملابس التي
تكرهها أشد الكره : « البسي هذا يا حبيبي » .

ثم اندفعت عائدة نحو غرفة جم ، وبعدها عادت إليّ في الردهة .
ربت عليّ بذهول ثم عادت إلى غرفة جم .

توقفت سيارة أمام المنزل . كنت أعرف خطوات الدكتور
رينولدز كما أعرف خطوات أبي تقريباً . لقد أشرف على ولادة جم
وولادتي ، كما كان معنا في كل مرض يصيب الأطفال ومعروف
من قبل الانسان بما فيه تلك المرة التي سقط فيها جم من كوخ الشجرة ،
ولم يخسر صداقتنا أبداً . قال الدكتور رينولدز اننا لو كنا كبشر ميالين
إلى أن تنمو لنا أجزاء اضافية لكانت الأمور مختلفة ، ولكننا كنا
نشك في ذلك .

دخل من الباب وقال : « ياللاه الطيب ! » . مشى نحوي وقال :
« أنت لا تزالين واقفة » ، ثم غير مجرى سيره . كان يعرف كل غرفة
في المنزل . كما كان سيلاحظ أنني مريضة لو كنت كذلك ، وكذلك
بالنسبة لحم .

بعد عشرة دهور عاد الدكتور رينولدز . سألته :

— هل مات جم ؟

قال وهو يقرفص بالقرب مني :

— انه بعيد كل البعد عن ذلك . لقد أصيب بتواء في الرأس كما
حدث لك أيضاً ، كما كسرت ذراعه . ياسكاوت انظري هناك ،
لا ، أديري رأسك ، وحركي عينيك . والآن انظري إلى هناك . لقد
كسرت ذراعه كسراً قوياً ، وأستطيع أن أقول انه في المرفق . كأن
شخصاً ما حاول أن يلوي ذراعه حتى ينتزعها من مكانها . . . والآن
انظري إلي .

— إذن هو ليس ميتاً ؟

— لا .

انتصب الدكتور رينولدز واقفاً :

— لا نستطيع أن نفعل الكثير الليلة ، إلا أن نحاول أن نجعله في
وضع مريح بقدر ما نستطيع . علينا أن نصور ذراعه بأشعة اكس . . .
ويبدو انه سيظل يحمل ذراعه إلى جانبه فترة من الزمن . لا تقلقي على

أية حال ، فهو سيعود صحيحاً كما كان . الأولاد في سنه يستعيدون عافيتهم بسرعة .

وبينما كان يتحدث ، كان الدكتور رينولدز ينظر بحدة إلى ، ويلمس بأصابعه التواء الذي برز في جبهتي :

— أنت لا تشعرين أنك مصابة بكسر في أي مكان ، أليس كذلك ؟ جعلتني نكتة الدكتور رينولدز الصغيرة أبتسم .

— إذن أنت لا تعتقد أنه مات ؟

ارتدى قبعته وقال :

— قد أكون مخطئاً طبعاً ، ولكني أعتقد أنه حي جداً . ان عليه عوارض الحياة كلها . اذهبي وانظري إليه ، وحين أعود سنجتمع معاً ونصل إلى قرار .

كانت خطوات الدكتور رينولدز شابة وحيوية . لم تكن خطوات السيد هك تيت كذلك . فجزمته الثقيلة كانت تعاقب الرواق وقد فتح الباب بارتباك ، ولكنه قال الشيء نفسه الذي قاله لي الدكتور رينولدز حين دخل ، ولكنه أضاف عليه :

— هل أنت بخير ياسكاوت ؟

— نعم ياسيدي ، سأدخل لأرى جم . أتيكوس والجميع هناك .

— إذن سأذهب معك .

كانت العمة ألكسندرا قد وضعت منشفة فوق ضوء المطالعة

الخاص بجم ، وكانت غرفته معتمة قليلاً . كان جم ممدداً على ظهره ،
وعلامه بشعة على امتداد أحد جانبي وجهه . كانت ذراعه اليسرى
تمتد مبتعدة عن جسده . كان مرفقه ملوياً قليلاً ، ولكن في الاتجاه
المعاكس . كان جم مقطب الجبين .

— جم . . . ؟

تكلم أتيكوس فقال :

— لا يستطيع أن يسمعك ياسكاوت ، لقد فقد وعيه مرة أخرى .

تراجعت قائلة :

— نعم ياسيدي .

غرفة جم كانت كبيرة ومربعة الشكل . كانت العمة ألكسندرا
جالسة في كرسي هزاز قرب الموقد . وكان الرجل الذي جلب جم إلى
المنزل يقف في إحدى الزوايا ، ويستند إلى الجدار . كان شخصاً
ريفيماً لا أعرفه . ربما حضر الحفل وكان لا يزال في الجوار حين حدث
ماحدث . لا بد وأنه سمع صرخاتنا فجاء يعدو .

كان أتيكوس واقفاً بالقرب من سرير جم .

وقف السيد هك تيت عند الباب . كانت قبعته في يده ، ومصباح
يدوي يبرز من جيب بنطاله . كان يرتدي ملابس العمل .

قال أتيكوس :

— ادخل ياهك . هل وجدت شيئاً ؟ لا أستطيع أن أتصور من هو

ذاك الذي وصلت به النذالة إلى حد يمكنه معه أن يفعل مثل هذا الفعل
الديني ، ولكنني آمل أن تكون قد وجدته .

نشق السيد تيت . نظر بحدة إلى الرجل الواقف في الزاوية ، ثم
أشار برأسه إليه ، ونظر بعد ذلك في أرجاء الغرفة ، إلى جم والعمة
ألكسندرا ثم إلى أتيكوس .

قال بلطف :

— اجلس ياسيد فينتش .

قال أتيكوس :

— فلنجلس جميعاً . خذ هذا الكرسي ياهك ، وسأحضر كرسيًا
آخر من غرفة الجلوس .

جلس السيد تيت في كرسي المطالعة الخاص بجم . انتظر حتى
عاد أتيكوس ثم استرخى . تساءلت لماذا لم يجلب أتيكوس كرسيًا
للرجل الذي في الزاوية ، ولكن أتيكوس كان يعرف أساليب الريفيين
أفضل مني بكثير . كان بعض زبائنه الريفيين يوقفون مطاياهم طويلة
الآذان تحت أشجار الأزارخت في الفناء الخلفي ، وكان أتيكوس
غالباً ما يضرب المواعيد معهم على الدرج الخلفي . ربما كان هذا الشخص
أكثر راحة حيث هو .

قال السيد تيت :

— ياسيد فينتش ، سأقول لك ما وجدت . لقد وجدت ثوب فتاة
صغيرة ، وهو هناك في سيارتي . هل هو ثوبك ياسكاوت ؟

— نعم ياسيدي ، إن كان قرنفل اللون مطرزا .

كان السيد تيت يتصرف وكأنه جالس في منصة الشهود . كان يهوى أن يروي الأمور بطريقته الخاصة ، متحرراً من قيود ممثل الادعاء أو الدفاع ، وأحياناً كان ذلك يستغرقه بعض الوقت .

— لقد وجدت بعض القطع المضحكة من قماش بلون الطين . . .

— ذلك كان زيّ ياسيد تيت .

مرّر السيد تيت يديه فوق فخذيه . حك ذراعه اليسرى ثم تفحص مدفأة الجدار في غرفة جم ، وبدأ وكأنه مهتم بها . ثم بحث أصابعه عن أنفه الطويل .

قال أتيكوس :

— ما الحكاية ياهك ؟

وجد السيد تيت عنقه وحكه : ثم قال :

— بوب يوويل متمدّد هناك على الأرض تحت الشجرة ، وسكين مطبخ مغروزة بين أضلاعه . انه ميت ياسيد فينتش .

* * *

الفصل التاسع والعشرون

نهضت العمة ألكسندرا ومدت يدها إلى المدفأة . نهض السيد تبت ليساعدها ولكنها رفضت المساعدة . ولمرة واحدة في حياته خانت أتيكوس كياسته الغريزية : فقد ظل جالساً حيث كان .

بطريقة ما ، لم أستطع أن أفكر سوى بشيء واحد هو السيد يوويل وهو يقول انه سينال أتيكوس ولو استغرقه ذلك حياته بأكملها . لقد كاد السيد يوويل ينال منه ، وكان ذلك آخر شيء فعله في حياته .

قال أتيكوس بكآبة :

— هل أنت واثق ؟

— انه ميت فعلاً ، انه ميت جداً ، ولن يؤدي هذين الطفلين بعد الآن .

— لم أعن ذلك .

بدا على أتيكوس كأنه يتحدث في نومه . بدأ يظهر بعمره الحقيقي فجأة ، وهذه إشارة إلى هيجان داخلي : هاهو خط فكه القوي قد ارتخى قليلاً ، وبدأت بعض التجاعيد المحذرة تتشكل تحت أذنيه ، ولا يعود المرء يلاحظ الآن شعره الفاحم بل البقع الرمادية النامية عند فؤديه .

قالت العمة ألكسندرا أخيراً :

— أليس من الأفضل أن نذهب إلى غرفة الجلوس ؟

قال السيد تيت :

— إذا كنتم لا تعرضون على ذلك ، فأنا أرغب بالبقاء هنا إذا

كان لا يضرّ بجم . أريد أن أرى اصابته بينما تحكي لنا سكاوت . . .

عما حدث .

سألت العمة :

— هل يمكن أن أغادر كم ؟ ان وجودي غير ضروري في هذه

الغرفة . سأكون في غرفتي إذا أردتني يا أتيكوس .

ذهبت العمة ألكسندرا نحو الباب ، ولكنها توقفت وانفتحت :

— أتيكوس ، كان لدي شعور مسبق بما حدث . . . لقد . . .

هذه غلطتي أنا . . . كان يجب أن . . .

رفع السيد تيت يده وقال :

— هيا ياسيدة ألكسندرا . أعرف أن هذا قد سبّب صدمة قوية

لك ، ولا تندمي على أي شيء . . . لو أننا كنا سنتبع مشاعرنا طوال

الوقت لكننا كالمقطّ التي تطارد ذبّوها . يا آنسة سكاوت ، هل تستطيعين

أن تقصّي علينا ما حدث بينما لا يزال طازجاً بعد في ذهنك ؟ هل تظنين

أنه بمقدورك ذلك ؟ هل شاهدتماه يلاحقكما ؟

ذهبت نحو أتيكوس وأحسست بلراعيه تلتف حولي . دفنت وجهي

في حجره ثم قلت :

— انطلقنا نحو البيت . قلت يا جم لقد نسيت حذائي . وما أن
أردنا العودة لاحتضاره حتى انطفأت الأنوار . قال جم اني أستطيع
احتضاره غداً . . .

قال أنيكوس :

— ارفعي صوتك ياسكاوت حتى يستطيع السيد تيت سماعك .

ولكني تسلفت إلى حجره .

— ثم قال جم اسكتي للحظة . وظننت أنه كان يفكر . . . انه
يريد منك دائماً أن تصمت حين يفكر . . . ثم قال انه سمع شيئاً ما .
وقد كنا نظن في البدء أنه كان سيسيل .

— سيسيل ؟

— سيسيل جاكوبس . لقد أخافنا هذه الليلة مرة ، وكنا نظن
أنه يعاود الكرة . كان يرتدي ملءة . كانوا سيعطون ربع دولار
لأفضل زي . ولا أعرف من كسب الجائزة . . .

— أين كنتما حين ظننتما أن سيسيل كان يلاحقكما ؟

— على مسافة قليلة من مبنى المدرسة . وقد صحت بشيء ما
مخاطبة إياه . . .

— ماذا قلت ؟

— سيسيل جاكوبس دجاجة كبيرة سمينة ، هنا مأظن أني

قائه . لم نسمع أي جواب . ثم صاح جم محيياً أو قال شيئاً ما بصوت عال جداً . . .

قال السيد تيت :

— لحظة ياسكاوت . هل سمعتهما ياسيد فينتش ؟

قال أتيكوس انه لم يسمع شيئاً . كان قد أدار جهاز الراديو . كما كانت العمة ألكسندرا قد أدارت جهازها أيضاً في غرفة نومها . انه يتذكر ذلك لأنها طلبت منه أن يخفض الصوت قليلاً حتى تستطيع الاستماع إلى جهازها . ابتسم أتيكوس ثم أردف :

— أنا أرفع صوت الراديو دائماً .

قال السيد تيت :

— أساءل ان كان الجيران قد سمعوا شيئاً . . .

— أشك في ذلك ياهلك . فمعظمهم يصغون إلى الراديو أو يذهبون إلى الفراش في موعد نوم الدجاج . قد تكون مودي أتكينسون لا تزال مستيقظة وان كنت أشك في ذلك .

قال السيد تيت :

— تابعي ياسكاوت .

— حسناً ، بعد أن صاح جم تابعنا السير . ياسيد تيت ، كنت محبوسة في زيتي ولكني كنت أستطيع سماعها بنفسي . أعني الخطوات . كانت الخطوات تسير حين نسير وتتوقف حين نتوقف . قال جم انه

يستطيع رؤيتي لأن السيدة كرنشو وضعت نوعاً من الطلاء البراق على زيتي. كنت أقوم بدور فخذ لحم الخنزير .

سأل السيد تيت وقد صعق :

— وكيف ذلك ؟

وصف له أتيكوس دوري ، وكذلك تركيب الزي الذي أرتديه .

ثم قال :

— كان يجب أن تراها حين دخلت . كان الزي محطماً كأنه

عمجينة .

حك السيد تيت ذقنه . قال :

— تساءلت لماذا كانت تلك العلامات على الرجل . كان كمّاه

مثقّبين بثقوب صغيرة . كما كان على ذراعيه ثقب أو اثنان بحيث

يتناسبان مع فتحتي العينين في الزي . هل يمكن أن أرى الزي ياسيدي ؟

جلب أتيكوس بقايا الزي . قلبه السيد تيت ثم لفّه ليأخذ فكرة

عن شكله الأصلي . قال : « هذا الشيء قد يكون أنقذ حياتها . أنظر » .

أشار بسبابته الطويلة . كان هناك خط نظيف لامع على السلك

الباهت كأنما من أثر السكين . همهم السيد تيت :

— كان بوب يوويل جاداً في تهديداته .

قال أتيكوس :

— لا بد أنه قد جنّ .

— لا أحب أن أناقضك ياسيد فينتش . . . ولكنه لم يكن مجنوناً ، بل وضيعاً إلى آخر حد . انه شخص بغض دنيء سكير إلى درجة يصبح معها شجاعاً بما فيه الكفاية ليقتل أطفالاً . ماكان ليجرؤ على مواجهتك وجهاً لوجه .

هز أتيكوس رأسه وقال :

— لا أستطيع أن أتصور وجود انسان يمكنه أن . . .

— ياسيد فينتش ، هناك نوع من البشر عليك أن تقتلهم قبل أن تقول لهم مرحباً . وحتى آنذاك لا يستأهلون حتى تلك الرصاصة التي يجب قتلهم بها . وكان يوويل واحداً من أولئك .

قال أتيكوس :

— ظننت أنه قد أفرغ حقه في ذلك اليوم الذي هدّني به . وحتى لو لم يكن قد أفرغه كله ، كنت أظن أنه سيحاول أن ينال مني أنا .

— كان لديه من الشجاعة ما يكفي لازعاج امرأة ملونة فقيرة ، وكانت لديه الشجاعة لازعاج القاضي ثابور حين ظن أن المنزل كان فارغاً ، لذا هل كنت تظن أنه سيواجهك وجهاً لوجه في وضوح النهار ؟

تنهد السيد تيت ثم أردف :

— هيا نتابع حديثنا . ياسكاوت ، لقد سمعتهما يسير خلفكما . . .

— نعم ياسيدي . وحين وصلنا إلى تحت الشجرة . . .

— وكيف تعرفين أنكما كنتما تحت الشجرة ؟ ما كنت تستطيعين
أن تري شيئاً هناك .

— كنت حافية القدمين ، وجم يقول ان الأرض تحت الشجر
تكون عادة أبرد .

— علينا أن نجعل منه نائباً للمأمور . هيا تابعي .
ثم حدث فجأة أن أمسك بي شيء ما وهشم زبني . . . أعتقد أنني وقعت
على الأرض . . . سمعت صوت عراك تحت الشجرة . . . كأننا يصطدمان
بالخدع على ما يبدو . ثم وجدني جم وبدأ يجذبني نحو الشارع . ولكن
شخصاً ما . . . السيد يوويل رماه أرضاً على ما أعتقد . وقد تعاركا
فترة أخرى ثم سمعت ذلك الصوت الغريب . . . وصرخ جم . . .
توقفت . اذن كانت تلك ذراع جم .

— على أية حال ، صرخ جم ولم أعد أسمع صوته بعد ذلك والشيء
التالي كان . . . كان السيد يوويل يحاول أن يعصرني حتى الموت ،
على ما أعتقد . . . ثم رمى شخص ما بالسيد يوويل أرضاً . لا بد أن جم
كان قد نهض من جديد على ما أعتقد . هذا كل ما أعرفه . . .
— و . . . ؟

كان السيد تيت ينظر إلي بحدة .
— كان شخص ما يترنح ويلهث في أرجاء المكان و . . . يسعل
حتى الموت . ظننت أنه جم أولاً ، ولكن الصوت لم يكن صوته ،

ولذا بدأت أبحث عن جم على الأرض . ظننت أن أتيكوس جاء لانقاذنا
وقد أنهك من الركض . . .

— من كان ذاك ؟

— هذا هو الشخص ياسيدتي ، انه يستطيع أن يقول لك اسمه بنفسه .
وحين قلت ذلك ، أشرت نصف اشارة إلى الرجل الواقف في
الزاوية ، ولكني أعدت ذراعي إلى مكانها بسرعة لئلا يوبخني أتيكوس
على ذلك . كانت الاشارة إلى الناس بالذراع تصرفاً غير مهذب .

كان لا يزال مستنداً إلى الجدار . كان مستنداً إلى الجدار حين
دخلت إلى الغرفة ، وذراعه مثنيتان على صدره . وحين أشرت إليه
أنزل ذراعيه وضغط بكفيه على الجدار . كانت يدها بيضاوين ، ولكنهما
بيضاوان شاحبتان كأنهما لم تريا الشمس أبداً ، بيضاوان إلى حد أنهما
كانتا متوهجتين بالمقارنة مع الجدار الذي كان لونه بلون الكريم ،
تحت النور الباهت لغرفة جم .

نظرت من يديه إلى بنطاله الخاكعي المبقع بالتراب ، ثم سافرت
عيناي على امتداد جسمه الناحل حتى قميصه القطني الممزق . كان
وجهه أبيض كيديه ، باستثناء ظل على ذقنه الناتئة . كانت وجنتاه
ناحلتين إلى حد أنهما بدتا مجوفتين ، وكان فمه واسعاً . وعلى صدغيه
ثلثات ضحلة ودقيقة ، كما كانت عيناه الرماديتان دون لون إلى حد
بدا معه أنه كان أعمى . أما شعره فكان ميتاً وخفيفاً ، كالريش تقريباً
على قمة رأسه .

حين أشرت إليه انزلت كفاه بخفة تاركة آثاراً دهنية من العرق
على الجدار ، ثم علق إهاميه في حزامه . فجأة أصابته نوبة غريبة صغيرة
من التشنج ، وكأنه سمع أظافر تحك لوحاً حجرياً ، ولكن وبينما
كنت أهدق فيه مندهشة بدأ التوتر يزول ببطء من وجهه . انفرجت
شفته بابتسامة خجولة ، وفجأة هطل دموعي فرأيت صورة جارنا
ضبابية من خلف دموعي الفجائية .

قلت :

— مرحباً يا « بو » .

* * *

الفصل الثلاثون

قال أتيكوس وهو يصحّح لي بلطف :

— السيد آرثر يا حبيبي . يا جان نوبز ، هذا هو السيد آرثر رادلي .
أعتقد أنه يعرفك مسبقاً .

إذا كان أتيكوس يستطيع تقديمي بهذه العادية إلى بورادلي في مثل
هذا الوقت . . . حسناً . . . فإن هذا هو أتيكوس .
رآني بو أهرع غريزياً نحو السرير حيث كان جم نائماً . فالابتسامة
الخجولة زحفت هي نفسها عبر وجهه . وبسبب اضطرابي حاولت أن
أغطي هذا الاضطراب عن طريق تغطية جم .
قال أتيكوس :

— ها ها . لا تلمسيه .

جلس السيد هك تيت ينظر بتركيز إلى بو من خلال نظائريه ذات
الاطار المصنوع من قرون الحيوانات . كان يهم بالحديث حين وصل
الدكتور رينولدز قادماً من الردهة .
قال حين وصل إلى الباب :
— فليخرج الجميع . مساء الخير يا آرثر ، لم ألاحظك في المرة
الأولى التي كنت فيها هنا .

كان صوت الدكتور رينولدز حيويًا كخطواته ، وقد حيّاه
كأنما كان يحيه في كل يوم من أيام حياته ، وهذا شيء أدهشني أكثر
مما أدهشني كوني في الغرفة نفسها مع بورادلي . طبعاً . . . حتى بورادلي
يصاب بالمرض أحياناً . ولكني ماكنت متأكدة على أية حال من ذلك .

كان الدكتور رينولدز يحمل رزمة كبيرة ملفوفة بورق الصحف .
وضمها على مكتب جم وخلع جاكيتته . ثم قال موجهًا كلامه إلي :
— هل أنت مقتنعة تماماً الآن أنه حيّ ؟ هل أقول لك كيف عرفت
أنه حيّ ؟ حين حاولت أن أفحصه فرفسني . وقد اضطرت إلى جعله
يفقد وعيه حتى استطعت أن ألمسه . اذن هيا اذهبي .
قال أتيكوس وهو ينظر إلى بو :

— هيا نخرج إلى الرواق الأمامي . يوجد الكثير من الكراسي
في الخارج هناك ، ولا زال الجو دافئاً بما فيه الكفاية .

تساءلت لماذا كان أتيكوس يدعونا إلى الرواق الأمامي بدلاً عن
غرفة الجلوس ، ثم فهمت لماذا . فأنوار غرفة الجلوس كانت قوية جداً .
خرجنا الواحد اثر الآخر . أولاً السيديت . . . كان أتيكوس
ينتظر عند الباب حتى يخرج بو ، ثم غير رأيه ولحق بالسيديت .

من عادة الناس أن يمارسوا الأمور اليومية حتى في أغرب الظروف .
ولم أكن أنا مستثناة من ذلك . سمعت نفسي أقول :
— هيا ياسيد آرثر . أنت لا تعرف المنزل جيداً . سأرافقك حتى
الرواق ياسيدي .

نظر إلي وأوماً برأسه .

قدته عبر الردهة وغرفة الجلوس .

— هل لك أن تجلس ياسيد آرثر ؟ هذا الكرسي الهزاز لطيف

ومريح .

هاهي الفاننازيا الصغيرة التي رسمتها له تعود حية مرة أخرى :
كنت أتحيله جالساً على الرواق . . . انه طقس جميل تماماً ، أليس
كذلك ياسيد آرثر ؟

أجل انه طقس جميل تماماً . وبينما كنت أشعر بأن ما يحدث غير
حقيقي ، قدته نحو الكرسي الأبعد ما يكون عن أتيكوس والسيد تيت .
كان الكرسي مريضاً في الظل . سيشر بو براحة أكبر في الظلام .
كان أتيكوس جالساً في الأرجوحة ، والسيد تيت في الكرسي
القريب منه . كان النور القادم من نوافذ غرفة الجلوس ينعكس بقوة
عليهما . جلست أنا بالقرب من بو .
كان أتيكوس يقول :

— حسناً ياهلك . أعتقد أن ماعليتنا أن نفعله . . . يا الهي اني أفقد

ذاكرتي . . .

دفع أتيكوس بنظاريته إلى الأعلى وضغط بأصابعه على عينيه :
— ان جم لم يبلغ الثالثة عشرة بعد . . . لا ، بل هو في الثالثة
عشرة تماماً . . . لا أستطيع أن أتذكر . على أية حال ، سترفع القضية
أمام محكمة المقاطعة . . .

— اية قضية ياسيد فينتش ؟

أنزل السيد تيت ساقاً عن الأخرى وانحنى إلى الأمام .

— بالطبع كان الأمر دفاعاً عن النفس واضحاً كعين الشمس ،

ولكن علي أن أذهب إلى المكتب وأبحث عن . . .

— ياسيد فينتش ، هل تعتقد أن جم قتل بوب يوويل ؟ هل

تعتقد ذلك ؟

— سمعت مافالته سكاوت ، لا شك في ذلك . لقد قالت انه

نهض ورماه عنها . . ربما استطاع أن يمسك بطريقة ما بسكين يوويل
في الظلام . . . سنعرف غداً .

— ياسيد فينتش ، انتظر قليلاً . جم لم يطعن بوب يوويل .

صمت أتيكوس للحظة . نظر السيد تيت وكأنه كان يقيم مقاله .

ولكن أتيكوس هز رأسه .

— هك ، هذا كرم كبير منك وأعرف أنك تفعل ذلك من قلبك

الطيب ، ولكن لا تحاول طرح المشكلة بهذه الطريقة .

نهض السيد تيت وذهب إلى حافة الرواق . بصق في الشجيرات ،

ثم دفع يديه في جيبي بنطاله الخلفيين ، ثم واجه أتيكوس وقال :

— أية طريقة ؟

— يؤسفني أنني تحدثت بجدّة ياهك ، ولكن ان يقوم أحد بطمس

هذه القضية . أنا لا أعيش بهذه الطريقة .

— ان يطمس أحد أي شيء ياسيد فينتش .

كان صوت السيد تيت هادئاً ، ولكن جزمته كانت مزروعة فوق الألواح الخشبية للرواق بحيث بدا وكأنها نبتت هناك . كان نوع من الخلاف الغريب — خلاف ذو طبيعة لم أفهمها — ينشأ بين أبي والمأمور . كان دور أتيكوس الآن في النهوض والسبر نحو حافة الرواق . تمنحنح ثم بصق بصاقاً جافاً في الفناء . وضع يديه في جيبه وواجه السيد تيت :

— ياهك ، لم تقلها ، ولكني أعرف ماتفكر به . وأشكرك على ذلك . ياجان لويز .

وهنا استدار نحو ي ثم قال :

— قلت ان جم رمى بالسيد يوييل عنك ؟

— نعم ياسيدي ، هذا ماظننت . . .

— هل ترى ياهك ؟ أشكرك من أعماق قلبي ، ولكني لا أريد لابني أن يستهل حياته بشيء كهذا فوق رأسه . وأفضل طريقة لتنقية الجو هو أن يجري كل شيء في العراء . فليأت سكان المديرية ومعهم سندويشاتهم . لا أريده أن يشب ويتعرعر وهناك همسات حوله . لا أريد أن يقول أي شخص : « جم فينتش . . . لقد دفع أبوه مبلغاً كبيراً لتخليصه من تلك المشكلة » . كلما أسرعنا بحل المشكلة كلما كان أفضل .

قال السيد تيت بتصميم :

— ياسيد فينتش ، بوب يوويل سقط على سكينه . لقد قتل نفسه .
 سار أتيكوس نحو زاوية الرواق . نظر إلى نبات الحماوة . كان كل
 من الرجلين ، بأسلوبه الخاص به ، عنيداً بقدر ما هو الرجل الآخر .
 وتساءلت من سترجع أولاً . كان عناد أتيكوس هادئاً ولا يظهر
 إلا نادراً ، ولكنه كان يتشبث برأيه في بعض الأمور كتشبث آل
 كاتينغهام . أما عناد السيد تيت فكان فطرياً وكليلاً ، ولكنه كان
 مساوياً لعناد أبي .

أدار أبي ظهره ثم قال :

— ياهك ، إذا طمس هذا الأمر فسيكون تناقضاً صريحاً بالنسبة
 لجم مع ماريته عليه . أحياناً أعتقد أنني فاشل تماماً كأب ، ولكنني
 كلّ ما يملكه ولدائي . وقبل أن ينظر جم إلى أي شخص آخر فإنه ينظر
 إليّ . وقد حاولت أن أعيش بحيث أستطيع أن أرد نظراته دون مواربة
 وأن أنظر في عينيه . . . وإذا ما حاولت شيئاً كالذي تطلبه ، فلإني
 بصراحة لن أكون قادراً على النظر في عينيه ، وفي ذلك اليوم الذي
 لا أستطيع فيه أن أفعل ذلك ، سأعرف أنني خسرت . لا أريد أن أخسره
 هو أو سكاوت ، لأنهما كلّ ما أملك .

قال السيد تيت وهو مازال مزروعاً على الألواح الخشبية لأرضية
 الرواق :

— ياسيد فينتش ، لقد سقط بوب يوبيل على سكينه . وأنا
أستطيع اثبات ذلك .

التفت أتيكوس بحركة دائرية . كانت يدها مدسوستين في جيبه .
قال :

— ياهك ، ألا نستطيع حتى أن نحاول أن نرى الأمور من وجهة
نظري ؟ لديك أنت أطفال أيضاً ، ولكني أكبر منك سنّاً . وحين
يكبر طفلاي سأكون رجلاً عجوزاً هذا إذا كنت لا أزال حياً ،
ولكني الآن حيّ . . . وإذا كانا لا نستطيعان الوثوق بي فلن يثقاً بأحد
آخر . جم وسكاوت يعرفان ماحدث . وإذا سمعاني أقول في البلدة
ان شيئاً آخر قد حدث . . . ياهك ، فلن يكونا طفليّ بعدها أبداً .
لا أستطيع أن أعيش في البلدة بأسلوب وفي البيت بأسلوب آخر .

هزّ السيد تيت نفسه على كعبيه ثم قال بصبر :

— لقد رمى بجم أرضاً ، ثم تعثر بجذع تحت الشجرة و . . . انظر ،
أستطيع أن أريك كيف حدث ذلك .

أدخل السيد تيت يده في جيبه البخاني وأخرج موسى كبيرة ذات
قابض . وبينما كان يفعل ذلك وصل الدكتور رينولدز إلى الباب فقال له :

— ابن الق . . . الميت هناك تحت الشجرة يادكتور ، داخل فناء
المدرسة . هل لديك مصباح يدوي ؟ خذ هذا .

قال الدكتور :

— أستطيع أن أتقدم بسيارتي ثم أستعمل أنوارها .
ولكنه أخذ مصباح السيد تيت مع ذلك ، ثم أردف :
— جم بخير . لن يستيقظ الليلة ، على مآمل ، لذا لا تقلقوا .
أكانت تلك هي السكين التي قتلته ؟
— لا ياسيدي ، لا تزال مغروسة فيه . بدت من مظهر قبضتها
لي كسكين مطبخ . لابد أن « كن » قد وصل الآن مع النقالة يادكتور .
طابت ليلتك .

فتح السيد تيت الموسيقى . قال : « كانت هكذا » . أمسك بالموسى
وتظاهر بالتعثر ، وبينما كان ينحني نحو الأمام سبقته ذراعه اليسرى .
« أترى ؟ لقد طعن نفسه خلال تلك المادة الطرية التي بين الأصلاع .
لقد جعلها ثقل جسمه كله تحترق صدره » .

أغلق السيد تيت الموسيقى ودفعها في جيبه . قال :

— سكاوت في الثامنة من العمر . لقد كانت مصابة بالفزع إلى حد
لم تستطع معه أن تعرف ماحدث بالضبط .

قال أتيكوس بكآبة :

— ستهش .

— لا أقول أنها اختلقت الحكاية ، بل أقول أنها كانت مصابة

بالفرع إلى حد أنها لم تستطع أن تعرف ما حدث بالضبط . كان الظلام شائداً هنا ، ظلاماً حالكاً كالخبر . وحتى يكون المرء شاهداً موثقاً في مثل هذه الحالة ، فلا بد أن يكون من النوع المعتاد جداً على العتمة . قال أتيكوس بلطف :

— لن أقبل بهذه الرواية .

— اللعنة ، أنا لا أفكر بجم .

ضربت جزمة السيد تيت الألواح الخشبية بقوة إلى حد أن الأنوار في غرفة نوم الآنسة مودي أضيئت . كما أضيئت أنوار الآنسة ستيفاني كروفورد . نظر أتيكوس والسيد تيت عبر الشارع ، ثم نظر كل منهما إلى الآخر وانتظرا .

وحين تكلم السيد تيت مرة أخرى كان صوته لا يسمع إلا بالكاد :

— ياسيد فينتش ، أكره أن أنازلك حين تكون على هذه الحال . لقد تعرضت الليلة لحالة انفعال ليس من المفروض على أي رجل أن يعيشها . لم لا أراك في الفراش بسببها لا أدري ، ولكنني أعرف أنك لا تستطيع الآن أن تعرف مجموع اثنين واثنين . إننا مضطرون إلى حل هذه المشكلة الليلة لأننا لو انتظرنا إلى الغد نكون قد تأخرنا كثيراً . بوب يوويل لديه سكين مطبخ في أحشائه .

أضاف السيد تيت أن أتيكوس لن يقف هناك ويصر على أن أي غلام في حجم جم ويلدراع مكسورة قد كانت لا تزال فيه من القوة مايكفي لمجابهة رجل وقتله في الظلام الدامس .

قال أتيكوس بحدة :

— ياهك ، كانت موسى ذات نابض تلك التي كنت تلوح بها .
من أين حصلت عليها ؟

أجاب السيد تيت ببرود :

— أخذتها من رجل مخمور .

حاولت أن أتذكر . كان السيد يوويل فوقي . . . ثم رمي أرضاً ...
لا بد أن جم قد نهض . . . على الأقل ظننت . . .

— ياهك ؟

— قلت اني أخذتها من رجل مخمور في البلدة اللبابة . ربما وجد
يوويل سكبن المطبخ تلك في مقلب القمامة ، فشحدها ثم جثم ينتظر
بصبر وهدوء . . . لقد انتظر بصبر وهدوء .

سار أتيكوس حتى الأرجوحة ثم جلس . كانت يداها مدلاتين
بترهل بين ركبتيه . كان ينظر إلى الأرضية . في تلك الليلة عند السجن
رأيت يتحرك بالبطء نفسه الذي لاحظته الآن ، وذلك حين ظننت أن
طيئه للصحيفة ورميها على كرسيه سيستغرق الدهر كله .

مشى السيد تيت بهدوء وثناقل حول الرواق . ثم قال :

— ليس القرار قرارك ياسيد فينتش ، بل قرارى أنا مثله بالمتة .
انه قرارى ومسؤوليتى . وإذا كنت لا تراه كما أراه أنا ، فليس هناك
الكثير مما تستطيع فعله . إذا أردت أن تحاول ، فسأدعوك بالكاذب
في وجهك . لم يطعن ابنك بوب يوويل إطلاقاً . . . وما كان يمكنه

أن يفعل ذلك وأنت تعرف كل شيء . كل ماكان يريد هو أن يصل هو وأخته إلى البيت سالمين .

توقف السيد تيت عن السير . توقف أمام أتيكوس وكان ظهره لنا، قال :

— لست رجلاً طيباً جداً ياسيدي ، ولكني مأمور مقاطعة مايكوم .

لقد عشت في هذه البلدة طوال حياتي وأصبحت الآن في الثالثة والأربعين . أعرف كل ماحدث في هذه البلدة وحتى ماحدث فيها من قبل أن أولد . هنالك شاب أسود مات دون مبرر ، والرجل المسؤول عن موته ميت بدوره الآن . فليدفن الموتى أنفسهم هذه المرة يا سيد فينتش . فليدفن الموتى أنفسهم . سار السيد تيت نحو الأرجوحة والتقط قبعته . كانت مرمية قرب أتيكوس . دفع السيد تيت شعره إلى الخلف ثم ارتدى قبعته .

— لم يسبق لي أن سمعت أنه مناف للقانون أن يقوم المواطن ببذل قصارى جهده ليمنع جريمة من أن ترتكب ، وهذا ما فعله بالضبط ، ولكنك قد تقول ربما انه من واجبي أن أقول للبلدة كل شيء ولا أطمس شيئاً . هل تعرف ما سيحدث عندئذ ؟ ستقوم كل السيدات في مايكوم بما فيهن زوجتي بالطرق على بابها وتجلب له الكعك المحلى . بالنسبة لي وبالطريقة التي أفكر بها ياسيد فينتش ، فإن لفت النظر إلى الرجل الذي قدم لك ولهذه البلدة خدمة عظيمة وجره إلى أضواء الشهرة وهو الخجول بطبعه . . بالنسبة لي يبدو هذا الفعل كخطيئة . انها خطيئة ولن أَدعها تقع على كاهلي . لو تعلق الأمر بأي رجل آخر لاختلف الوضع . ولكن ليس هذا الرجل ياسيد فينتش .

كان السيد تيت يحاول أن يخفر حفرة في الأرضية بابهام جزمته .
شد أنفه ثم مسد ذراعه اليسرى وقال :

— قد لا أكون رجلاً ذاشاً كبير ياسيدفيتش ، ولكني لا أزال مأمور
مقاطعة مايكوم وفدسقط بوب يوويل على سكينته . ليلتك طيبة ياسيدي .
سار السيد تيت بقوة قاطعاً الرواق ثم عبر الفناء الأمامي . وسمعنا
صوت باب سيارته وهو ينصفق بقوة ثم انطلق بها بعيداً .

جلس أتيكوس ينظر إلى الأرض لفترة طويلة . وأخيراً رفع رأسه . قال :
— ياسكاوت ، لقد سقط السيد يوويل على سكينته هل يمكنك
يمكنك أن تفهمي ذلك ؟

بدأ أتيكوس وكأنه بحاجة إلى تشجيع . ركضت إليه وضممته
وقبلته بكل مافي من قوة . قلت له بلهجة مطمئنة :

— نعم ياسيدي ، أفهم . كان السيد تيت على حق .
حرر أتيكوس نفسه ونظر إلي وقال :
— مالذي تعنيه ؟

— سيكون ذلك أشبه بقتل عصفور ساخر ، أليس كذلك ؟
وضع أتيكوس وجهه في شعري ومرغه به . وحين نهض وسار
عبر الرواق إلى الظلال ، كانت خطوته الشابة قد عادت إليه . وقبل
أن يدخل إلى البيت ، توقف أمام بورادي وقال له :
— شكراً لأجل طفلتي يا آرثر .

الفصل الحادي والثلاثون

حين نهض بورادلي على قدميه ، التمع النور القادم من نوافذ غرفة الجلوس على جبهته . كل حركة كان يقوم بها بدت مضطربة ، وكأنه لم يكن متأكداً من أن يديه وقدميه كانت قادرة على الاتصال الصحيح مع الأشياء التي كان يلمسها . سعل سعلته الرهيبة المخروخة ، وقد هزته إلى حد أنه اضطر إلى الجلوس مرة أخرى . بحث يده عن جيب بنطاله الخلفي ، وأخرجت منديلًا . سعل في المنديل ثم مسح به وجهه .

وبما أنني اعتدت إلى حد كبير على غيابه ، فقد وجدت أنني لا أستطيع أن أصدق أنه كان جالساً إلى القرب مني طوال هذا الوقت ، وأنه كان حاضراً . فهو لم يصدر صوتاً واحداً .

نهض مرة أخرى . استدار نحوي وأشار نحو الباب الأمامي برأسه . — أنت تريد أن تتمنى بلحم ليلة طيبة ، أليس كذلك ياسيد آرثر ؟

ادخل .

قدته عبر البهو . كانت العمة ألكسندرا جالسة قرب سرير جم .

قالت :

— ادخل يا آرثر ، انه لا يزال نائماً . لقد أعطاه الدكتور رينولدز
منوماً فورياً . يا جان لويز هل أبوك في غرفة الجلوس ؟

— نعم ياسيدي ، أظن ذلك .

— سأذهب لأحدث إليه قليلاً . لقد ترك الدكتور رينولدز
بعض . . .

ثم خفت صوتها حتى تلاشى .

كان بو قد انحرف نحو إحدى زوايا الغرفة ، حيث وقف هناك
وذقته مرفوعة عالياً ، وراح يحرق من مسافة إلى جم . أخذته من يده ،
وهي يد دافئة إلى حد مدهش بالمقارنة مع بياضها . شدته قليلاً فسمح
لي أن أقوده إلى سرير جم .

كان الدكتور رينولدز قد صنع نوعاً من الخيمة فوق ذراع جم ،
حتى يبقى الغطاء بعيداً عنها ، وقد انحنى بو إلى الأمام ونظر من فوقها .
كان على وجهه نوع من الفضول الخجول ، وكأنه لم يرَ صبيّاً من
قبل . كان فمه مفتوحاً قليلاً ، ونظر إلى جم من رأسه حتى قدميه .
ارتفعت يد بو قليلاً ، ولكنه تركها تسقط إلى جانبه .

— تستطيع أن تربت عليه ياسيد آرثر ، انه نائم . ما كنت تستطيع
ذلك لو كان مستيقظاً . على أية حال ما كان سيدعك تفعل ذلك . . . هيا .
ارتفعت يد بو وحوّمت فوق رأس جم .

— هيا ياسيدي ، انه نائم .

نزلت يده بخفة على شعر جم .

كنت قد بدأت أتعلم اللغة الانكليزية الخاصة بجسده . اشتدت قبضة يده على يدي مشيراً إلى أنه يودّ الرحيل .

قدته إلى الرواق الأمامي ، حيث توقفت خطواته القلقة . كان لا يزال يمسك بيدي ولم يقم بأية إشارة على أنه يريد اطلاق سراحي .

— هل لك أن تقوديني إلى البيت ؟

همس تلك الجملة همساً قريباً ، وبصوت طفل خائف من الظلام . وضعت قدمي على الدرجة العليا ثم توقفت . سأقوده عبر منزلنا ولكنني لن أقوده أبداً إلى البيت .

— ياسيد آرثر ، أن ذراعك هنا ، هكذا . هذا صحيح ياسيدي .

دفعت بلراعي تحت ذراعه .

كان عليه أن ينحني قليلاً حتى يمشيني ، ولكن لو كانت الآتسة ستيفاني كروفورد تراقبنا من نافذة الطابق العلوي لمنزلها ، لكانت ستري آرثر رايلي يرافقتني عبر الممشى ، كأني جنتلمان .

وصلنا إلى عمود النور على الزاوية ، وتساءلت في نفسي كم مرة يا ترى وقف د«يل» هنا وهويعائق هذا العمود الثخين ، يراقب وينتظر ويأمل . وتساءلت كم مرة ياترى قمنا جم وأنا بهذه الرحلة ، ولكني

دخلت عبر بوابة منزل آل رادلي للمرة الثانية في حياتي . صعدنا بو وأنا الدرج الأمامي نحو الرواق . وجدت أصابعه مقبض الباب الأمامي . حرر يدي بلطف ، فتح الباب ودخل ، ثم أغلق الباب خلفه . ولم أره بعد ذلك أبداً .

الجيران يجلبون الطعام عند الموت والزهور عند المرض وأشياء صغيرة في حالات المابين بين . كان بو جاراً لنا . لقد منحنا دميئين من الصابون ، ساعة مكسورة مع سلسلة ، زوجاً من البنسات التي تجلب الحظ السعيد ، وحياتينا . ولكن الجيران يهدون أيضاً بالمقابل ، إلا أننا لم نكن نعيد إلى الشجرة ما كنا نأخذه منها : لم نعطه شيئاً ، وهذا مأحزني .

استدرت لأعود إلى المنزل . كانت أنوار الشارع تغمر عبر الشارع وحتى البلدة . لم أكن قد رأيت حيناً من هذه الزاوية . هناك كان منزل الآتسة مودي ، ومنزل الآتسة ستيفاني . . وذلك هو منزلنا . كنت أستطيع أن أرى أرجوحة الرواق . . . كان منزل الآتسة راشيل وراء منزلنا ، ولكنه مرئي بوضوح . وكنت أستطيع أن أرى حتى منزل السيدة دوبوز .

نظرت إلى خلفي . إلى يسار الباب البني اللون كانت نافذة طويلة ذات مصراع مغلق . مشيت نحوها ، ووقفت أمامها ، ثم استدرت . في ضوء النهار ، كما فكرت ، يمكن للمرء أن يرى كل شيء حتى زاوية مكتب البريد .

ضوء النهار . . . في ذهني ثلاثى الليل . كان الوقت الآن نهراً
والحيّ مليء بالحركة . الآنسة ستيفاني كروفورد تعبر الشارع لتحكي
آخر الأخبار للآنسة راشيل ، والآنسة مودي منحنية فوق شجرات
الأزاليا . الفصل صيف ، وهناك طفلان يعدوان على طول الرصيف
باتجاه رجل يقترب من بعيد . الرجل يلوح بيده . والطفلان يتسابقان نحوه .
لا زال الفصل صيفاً ، والطفلان يقتربان . هناك صبي يمشي بجهد
على الرصيف يجرّ وراءه قصبة صيد . وقف رجل ينتظر ويداه على
وركبيه . الفصل صيف ، وطفلاه يلعبان في القناء الأمامي مع صديقيهما ،
وهم يمثلون مسرحية صغيرة غريبة من اختراعهم .

الفصل خريف ، وطفلاه يتعاركان على الرصيف أمام منزل
السيدة دوبوز . الصبي يساعد أخته على النهوض ، ثم يذهبان إلى البيت .
الفصل خريف وطفلاه يهرولان جيئةً وذهاباً حول الزاوية ، وعمن اليوم
وانتصاراته على وجيهيهما . يتوقفان أمام شجرة سنديان ، مسرورين ،
محتارين وخائفين .

الفصل شتاء وطفلاه يرتجفان عند البوابة الأمامية وهو يراهما
كظليلين على خلفية منزل يحترق . الفصل شتاء ، ويسير رجل في الشارع ، يسقط
نظاريته ثم يطلق النار على كلب فيقتله .
الفصل صيف ، وهو يراقب طفليه وقد تحطم قلباهما . الخريف
مرة أخرى ، وطفلا هو في حاجة إليه .

كان أتيكوس على حق . قال لي مرة لن تعرفي أبداً انساناً ما على

حقيقته حتى تفني في حذائه وتنجلي به . كان الوقوف على رواق منزل آل رادلي كافياً .

كانت أنوار الشارع غائمة من المطر الخفيف الذي راح يهطل . وبينما كنت أسير إلى البيت ، شعرت أنني كبيرة جداً في السن ، ولكنني حين نظرت إلى أرنبة أنفي ، استطعت أن أرى خرزات دقيقة ضبابية ، ولكن النظر بعينين محولتين جعلني أصاب بدوخة فتخلت عما كنت أفعله . وبينما كنت في طريقي إلى البيت ، فكرت في كل مالدي لأحكيه لجم غداً . سيجنّ لأن كل ذلك قد فات ، ولن يتحدث إلي أباماً بحالها . وبينما كنت في طريقي إلى البيت ، فكرت في أننا جم وأنا سنكبر ولكن لم يبق أماننا الكثير لتعلمه ، إلا علم الخبر ربما .

عدوت صاعدة الدرج ثم إلى داخل البيت . كانت العمة ألكسندرا قد أوت إلى فراشها ، وكانت غرفة أتيكوس معتمة . سأرى ان كان جم يستعيد وعيه . كان أتيكوس في غرفة جم ، جالساً إلى القرب من سريره . وكان يقرأ في كتاب .

— هل استيقظ جم ؟

— انه ينام بهدوء . لن يستيقظ حتى الصباح .

— أوه . هل أنت سهران عنده ؟

— لمدة ساعة أو أكثر قليلاً . اذهبي إلى فراشك ياسكاوت . لقد كان يومك طويلاً .

— حسنًا ، أظن أنني سأبقى معك قليلاً .

— كما تشائين .

كان الوقت بعد منتصف الليل ، وعجبت من موافقته الودية .
كان أحكم مني على أية حال : فما أن جلست حتى بدأت أشعر بالنعاس .
سألته :

— ماذا تقرأ ؟ .

قلب أتيكوس الكتاب ليريني غلافه :

— انه من كتب جم وعنوانه : « الشيخ الرمادي » .
استيقظت فجأة :

— لماذا اخترت هذا الكتاب بالذات ؟

قال بحدة :

— حبيبي ، لا أعرف . لقد مددت يدي وانتقيته . انه واحد
من الأشياء القليلة التي لم أقرأها .

— اقرأه بصوت عال من فضلك يا أتيكوس . انه خفيف فعلاً .

— لا . لقد نلت كفايتك من الخوف ولفترة طويلة . هذا الكتاب ...

— أتيكوس ، أنا لم أشعر بالخوف .

رفع حاجبيه ، فقلت محتجّة :

— على الأقل لم أخف حتى بدأت أحكي للسيدة عما حدث .
جم لم يكن خائفاً . لقد سألته وقال انه ليس خائفاً . وزيادة عليه ،
فلا شيء هناك مخيف حقاً إلا ما نقرأه في الكتب .

فتح أتيكوس فمه ليقول شيئاً ، ولكنه أغلقه مرة أخرى . رفع
إبهامه من منتصف الكتاب وعاد إلى الصفحة الأولى . تحركت وأسندت
رأسي إلى ركبتيه .

قال :

— احم . . . « الشيخ الرمادي » بقلم « سيكاتاري هوكينز » .
الفصل الأول .

حاولت أن أبقى مستيقظة ، ولكن المطر كان رقيقاً جداً والغرفة
دافئة جداً وصوته عميقاً جداً وركبته مريحة جداً بحيث أنني نمت .

بعد ثوان ، كما بدا لي ، كان حذاؤه يكرز بلطف أضلاعي .
رفعني إلى قدمي وسار بي إلى غرفتي . همهمت : « لقد سمعت كل
كلمة قلتها . . . لم أكن نائمة إطلاقاً ، والقصة تدور حول سفينة وحول
« فرد ذي الأصابع الثلاثة » والصبي ستونر . . . »

فك أزار الأوفروول ، أسندني إليه ثم جردني منهما . أمسكني بيد
وتناول بيجامتي باليد الأخرى .

— حسناً ، وكان الجميع يظنون أن الصبي متوفر هو الذي يوسخ
مركز فاديهم ويرمي بالحبر في كل مكان و . . .

قادني إلى السرير وأجلسني فيه . رفع ساقتي ووضعني تحت الغطاء .
— وقد طاردوه ولم يستطيعوا الإمساك به لأنهم ماكانوا يعرفون
شكله ، و . . . يأتيكوس ، وحين رأوه أخيراً ، لم يكن قد ارتكب
أياً من تلك الأشياء . . . يأتيكوس ، لقد كان لطيفاً حقاً . . .

كانت يده تحت ذفني ، ترفع الغطاء إلى فوق وثبته من حولي .
— معظم الناس هكذا يأسكاوت حين ترينهم أخيراً .
أطفأ النور وذهب إلى غرفة جم . سيبقى هناك طوال الليل ، وسيكون
هناك حين يستيقظ جم في الصباح .

* * *

1988/9 / 168011

هذه السلسلة

للرواية مكانة متميزة في الأدب العالمي المعاصر وقد رأت وزارة الثقافة ضرورة أن يكون القارئ العربي مطلعاً على أهم الاتجاهات والروايات العالمية فعمدت إلى إصدار هذه السلسلة الدورية وقد ظهر منها حتى الآن الروايات التالية :

- | | |
|------------------------|------------------|
| الكسندر كوبرين | ١ - الميازة |
| ترجمة يوسف حلاق | |
| الكسندر كوبرين | ٢ - مولك |
| ترجمة يوسف حلاق | |
| دوخاس سيوليدا | ٣ - ابن لعي |
| ترجمة رفعت عطفة | |
| ابتون سينكلير | ٤ - الغاب |
| ترجمة عبد الكريم ناصيف | |
| جيمس انوجي | ٥ - جيه قمح |
| ترجمة عبد الكريم محفوظ | |
| خوان رولفو | ٦ - بيدرو بارامو |
| ترجمة صالح علماني | |
| اسردال اوز | ٧ - انت جريج |
| ترجمة فاضل جكر | |

وسيصدر الروايات التالية :

- | | |
|-------------------|----------------|
| فالتين ريسونين | ١ - نفود ماريا |
| ترجمة يوسف حلاق | |
| فستوس اياي | ٢ - عيف |
| ترجمة هاني الراهب | |

وتأمل الوزارة أن تكون هذه السلسلة اسهاماً في خدمة الثقافة العربية عموماً والفن الروائي خصوصاً .

مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دمشق - ١٩٨١

سنة النسخة

٢٥ ل.س.ل